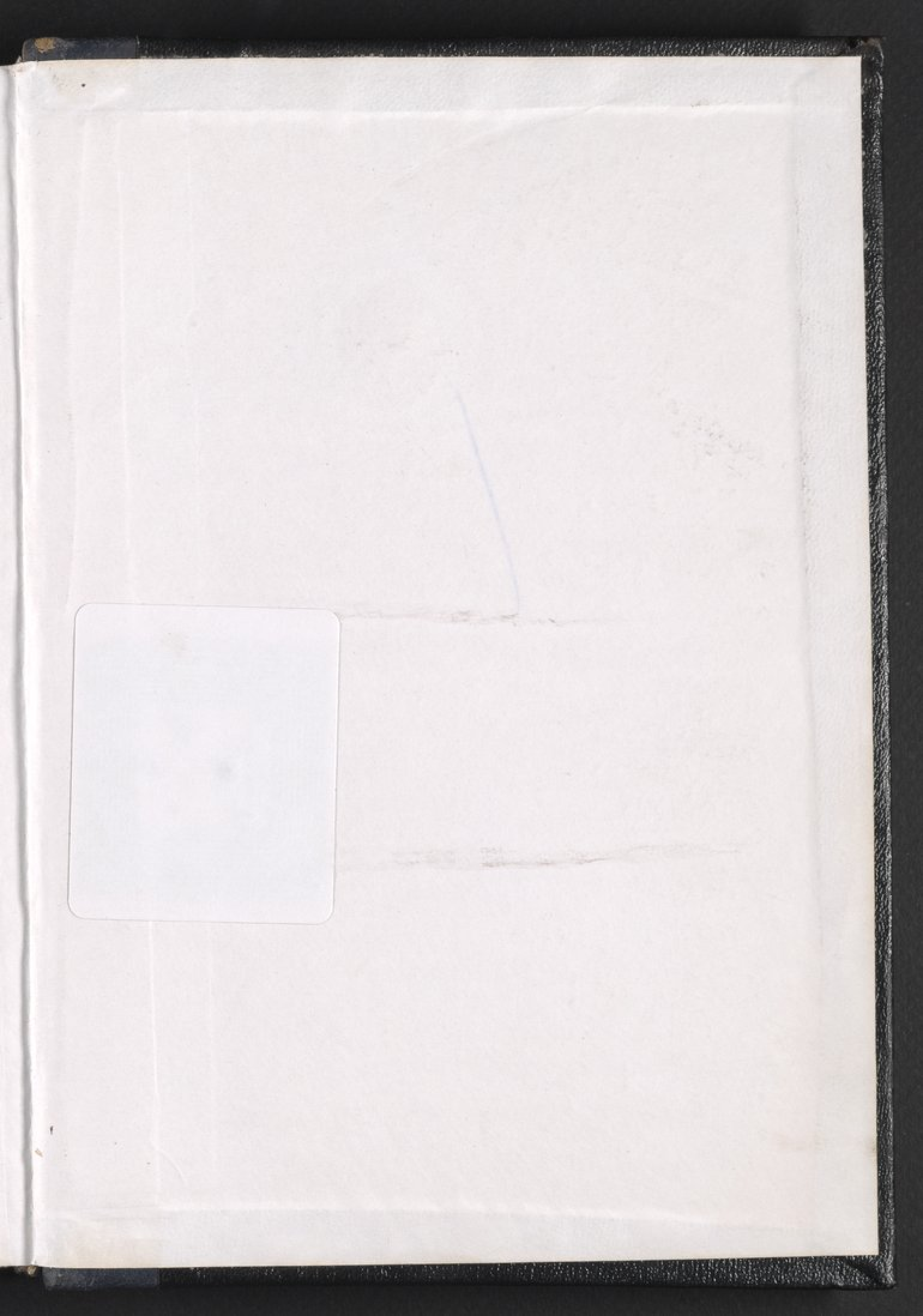

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01076 7691



# رفاعة الطهطاوى بك

" أحد أركان النهضة العلمية العربية . بل إمامها فى مصر "
" عمر طوسون "

تأليف

**أحمد أحمد بدوى**

مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

" نال هذا الكتاب الجائزة الأولى لمجمع فؤاد الأول للغة العربية فى المسابقة الأدبية سنة ١٩٥٠ "

الناشر
لجنة البيان العربى

١٩٥٠

مطبعة لجنة البيان العربى
٤ شارع مصطفى باشا كامل — لاظوغلى

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين ، وآله وصحبه ومن اقتدى بهم إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن رفاعة الطهطاوي رجل جدير أن توضع حياته موضع المثل والاقتداء ، فهي حياة ذات رسالة ، بذلها صاحبها عن رضا وطيب نفس ، في في خدمة أبناء وطنه ، لم يدع بابا أهلته له ثقافته لخير مصر إلا بذل جهده فيه ، فقضى عمره المبارك بين تربية جيل حمل على أكتافه عبء نشر الثقافة ، ونقل إلى العربية ذخائر الغرب المكنونة ؛ أو تأليف كتب أنارت الطريق للنهضة ، وتناولت مشكلات العصر سياسية واجتماعية ، بعقل حصيف وقلم رزين ، أو ترجمة لعلوم فرنسا وأدبها ، أو إرشاد تلاميذه إلى أفضل طرق التعريب وأقومها ، أو توجيه صحفي يربي الأمة تربية اجتماعية صالحة ، فهو أحد أركان النهضة المصرية ، ونحن اليوم ننعم بتلك الثمار التي غرس بذورها ذلك العالم المخلص ، والوطني الصادق المثابر .

أحمد أحمد بدوي

# عصر رفاعة

كانت مصر قبل الحملة الفرنسية ، تغط فى نوم عميق ، قد لفّها ظلام الجهل ، وشملتها حياة مضطربة ، هوت بها إلى الحضيض . فقد كانت تابعة للدّولة العثمانية تبعية اسمية ، أمّا السلطة الفعليّة فكانت فى أيدى أمراء المماليك الذين لم يتركوا لولاة الدّولة نفوذاً ، وكان كل همهم استدرار الأموال ، لايبالون بما يقاسيه الشعب من الضنك والمحن والأرزاء ، وأخذ هؤلاء الأمراء يتنازعون أمرهم بينهم ، كلٌّ يريد الانفراد بالسلطان فانحطّت البلاد فى جميع نواحى الحياة ، إدارة ، وزراعة ، وصناعة ، وتجارة ، وكاد مصباح العلم ينطفئ ، لولا شعاع ضئيل كان ينبعث من الأزهر ، وقد قلّ سكان مصر ، حتى صاروا أقل من ثلاثة ملايين (١) .

فلمّا جاءنا نابليون إلى مصر سنة ١٧٩٨ م ( ١٢١٣ هـ ) جاء معه ببعثة علمية مكوّنة من طائفة ممتازة من العلماء ، عكفوا على دراسة مصر ، وأخذوا فى نشر أسباب المدنيّة بها ، وأقام الفرنسيون فى القاهرة مدرستين ، لتعليم أبنائهم المولودين بمصر ، وجريدتين فرنسيتين ، ومسرحاً للتمثيل ، وبنوا أماكن للأرصاد الفلكيّة والرّياضيات ، والنّقش ، والرّسم ، فى حارة الناصريّة ، ورمّموا بعض بيوت الأمراء ، واستخدموها لهذا الغرض ، وجعلوا بيت أحدهم مكتبة للمطالعة ، يحضر إليها من يريد المطالعة منهم ، فإذا جاء أحد المصريين رحبوا به ، وأطلعوه على ما أراد من الكتب ، وجلبوا إلى مكتبتهم هذه كتباً عربية كثيرة ، وأفردوا داراً للكيمياء ، وكانوا يجرون أمام الأهالى بعض التجارب التى تدهشهم ، ويظنونها سحراً (٢) .

غير أن قدم الحملة لم تستقرّ فى مصر ، فعادت من حيث أتت سنة ١٨٠١ م ( ١٢١٦ هـ ) ، وهى السنة التى ولد فيها رفاعة .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج٤ ص ٥ ، ٦ .

(٢) المرجع السابق ص١٠ و ١١ .

كان من الممكن أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل مقدم هـذه الحملة ، لولا أن قيـّض الله لمصر رجلا ، رأى آثار هذه الحملة ، وأدرك الفرق بين ما عليه مصر من تأخر وضعف ، وبين ماعليه أمّة كفرنسا من تقدّم وقوّة ، وآمن بأن سرّ قوة الأمم الأوربيّة إنما هو العلم ، وبأن فى المصريين استعداداً للرقىّ والنهوض ، إذا وجدوا قيادة حازمة مخلصة ، يشهد لهم بذلك ما كان عليه أجدادهم من حضارة ومدنية ، فصمم هذا العاهل العظيم على أن يأخذ بيد تلك البلاد ، حتى يصل بها إلى مكانة تناسب ماضيها ، وتجارى بها تلك الأمم القويّة المتفوقة .

عنى محمد علىّ بتنظيم جيش قوىّ يذود به عن ملـكه ، ثم رأى أن يـكوّن جيلا يساعده على النهوض بمختلف مرافق البلاد ، فأقام المدارس المختلفة لتربيـة هذا الجيل ؛ فأنشأ مدرسة الطب البشرىّ ، والطب البيطرىّ ، والصيدلة ، ومدارس المحاسبة ، والإدارة الملـكية والألسن ، ومدارس للزّراعة ، ومدرسة المهندسخانة ، ومدارس صناعية ، ومدرسة الـكيمياء والمعادن ، ومدارس حربيّة وبحريّة متنوّعة ، وكان يقوم فى بعض هذه المدارس أساتذة من الأجانب الذين لايحسنون لغة البلاد ، فـكان يقوم بينهم وبين تلامذتهم مترجمون ، يترجمون إلى العربية مايلقيه الأساتذة بلغاتهم ، ثم رأى أن يرسل بعثات إلى أوربا يتخصص أفرادها فى الدّراسات المختلفة ، حتى ينهضوا إذا رجعوا بعبء تعليم هـذه المواد وترجمة كتبها إلى اللغة العربية ، والإشراف على نواحى النشاط الذى يرتبط بمـا تخصصوا فيه ، وسهر محمد علىّ على أعضاء بعثاته ، فـكان يقرأ ما يصل إليه من تقاريرهم ، ويشجـّعهم إذا أحسنوا ، ويؤنّبهم إذا أهملوا ، فلما عادوا وجّه جهدهم إلى ترجمة الـكتب التى تخصصوا فى فنونها ، فوجدت نهضة مباركة فى ترجمة علوم الغرب إلى اللغة العربية ، واتجهت العناية إلى ترجمة العلوم المختلفة ، ولم تتّجه إلى ترجمة الأدب ، سدّا لحاجات المدارس المختلفة المنشأة فى ذلك العصر ، وأنشأ محمد على مطبعة ، تطبع هذه الـكتب التى يقوم بترجمتها رجال هذه البعثات وتلامذتهم ، كما أنشأ الوقائع المصريّة ، أولى الصحف الرّسمية فى الشرق العربىّ ، يذيع فيها أخبار

---

(١) راجع كتاب تاريخ التعليم فى مصر .

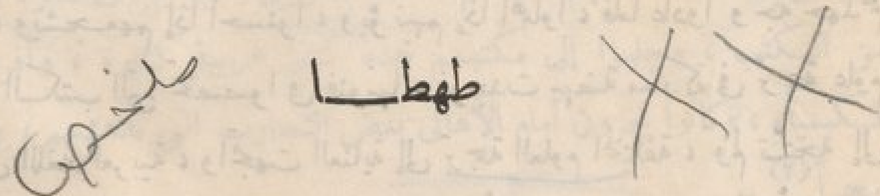
مصر والعالم الخارجي . وفكر محمد على فى نشر التربية الشعبية ولكنه لم يعش حتى يحقق فكرته .

غير أنّ هذه النهضة العلمية المباركة قد أهمل أمرها فى عهد عباس وسعيد ، فألغى معظم هذه المدارس ، كما أغلق سعيد ديوان المدارس ، وأصاب التعليم فى عصر هذين الواليين نكسة إلى الوراء ، فلما جاء إسماعيل ترسّم خطا جدّه ، وعزم على أن يحقق أمله فى النهضة السريعة الشاملة ، فأعاد فتح المدارس المغلقة ، وأنشأ غيرها ، وكثرت فى أيامه المطابع والصحف .

ولم تقف الحركة العلمية فى هذا العهد عند حد ترجمة الكتب الغربية ، بل عمدت أيضاً إلى نشر التراث العربىّ القديم ، فطبعت مطبعة بولاق كثيراً من الكتب القديمة فى التاريخ ، والأدب ، وعلوم اللغة ، والدّين ، وبذلك وصل محمد على ، بين ماضى الأمة وحاضرها من ناحية ، وألقى عليها أضواء المعارف الحديثة من ناحية أخرى .

أمّا من الناحية السياسية فلم تنقطع صلة مصر بالخلافة العثمانية انقطاعاً تامّا ، طوال هذا العصر الذى عاش فيه رفاعة ، وإن كانت هذه الصلة لم تحل بين الولاة وبين المشروعات الإصلاحية والعمرانية التى أرادوها لمصر .

ومن الناحية الاجتماعية والصحية ، كانت البلاد تعيش كما يعيش أهل القرون الوسطى ، فى تأخّر اجتماعىّ وصحىّ ، حاول محمد على وإسماعيل جهدهما أن يخرجا الوطن منه إلى نور العصر الحديث .



## طهطـــا

عقدنا لها هذا الفصل ، لأنها مسقط رأسه من ناحية ، ولأنه كان دائم الحنين إليها من ناحية أخرى ، شديد الفرح بما ينالها من تقدّم ، وما تظفر به من مظاهر الحضارة ، يزورها بين آن وآن ، وفى أول عهده بطلب العلم كان يدرس بجامعها عندما يعود إليها فى العطلة ، كما كان يقوم بالتدريس فى الجامع أيضاً فى شهر

رمضان على عادة أهل هذه البلدة ، وظلّ على تلك العادة عمره فكان إذا توجّه إلى بلده للزيارة وصلة الأرحام اجتمع عليه بمسجد جده أبى القاسم الجمّ الغفير من العلماء والأفاضل ، وألقى عليهم دروساً فى التفسير ، مع السهولة فى التعبير[١] ؛ وقد أفاد رفاعة كثيراً من أهل طهطا ، ومهّد لهم سبيل العلم والدراسة ، فكانوا مدينين له بما نعموا فيه من خير .

قال على مبارك باشا[٢] : « طهطا بطاءين مهملتين بينهما هاء ، وفى الآخر ألف لـيّنة ، هكذا يستعمله العلماء فى كتبهم قديماً وحديثاً ، وتستعمله العامة والعلماء أيضاً فى كلامهم بالحاء المهملة بدل الهاء . وهو اسم لمدينة شهيرة بمديرية جرجا فى غربىّ البحر الأعظم بنحو نصف ساعة ، وهى رأس القسم الذى يلى مديرية سيوط ، وبها قاضى ولاية ، وضبطية ، وحكيم ، ومهندس ، وكان بجهتها البحرية ( ورشة أقمشة ) متسعة ، بيع أكثرها للأهالى زمن المرحوم سعيد باشا ، وبنى فى محلها قصور ، وفى بعضها ديوان القسم ، و ( التلغراف ) بجميع لوازمه ، وكان فى شمالها الغربىّ قصر متسع للحكومة كانت تنزل فيه ( السناجق ) بعساكرها ، بيع أكثره ، وجعل خانات وعصّارات للزيت ، ومنازل ، وكان حواليها تلال شامخة أزيلت زمن العزيز محمد على ، وبنى الآن محلّها قصور مشيّدة ومنازل ، وخانات ، وقيساريّات ، وأبنيتها من أعظم أبنية مدن الصعيد إلا أن حاراتها ضيّقة ، ذات اعوجاج ... وفيها أغلب أنواع البضائع المصريّة وغيرها ، وأكثر أهلها تجار لاسيّما فى الغلال ... وفيها كثير من الجوامع المشيّدة العامرة ذات المنارات ، وأشهرها وأعظمها مسجد سيدى أبى القاسم الحسينى ( جد رفاعة ) وأكثرها يقرأ فيه دروس العلم ... » فهى مدينة علمية ، دينية ، تجارية ، وفى الخطط الجديدة ذكر كثير من علماء هذه المدينة .

كان رفاعة يحب هذه المدينة ، ويحنّ إليها كما ذكرنا ، وقد عبّر عن ذلك فى مقدّمته الوطنيّة المصريّة ، إذ قال فيها : « ... حبّ الوطن من الإيمان ، ومن

(١) حلية الزمن ص ٢٧ .

(٢) الخطط الجديدة ج١٣ ص ٥١ و ٥٣ .

طبع الأحرار إحراز الحنين إلى الأوطان ، ومولد الإنسان على الدوام محبوب ، ومنشؤه مألوف له مرغوب ، ولأرضك حرمة وطنها ، كما لوالدتك حقّ لبنها ، والكريم لا يجفو أرضاً بها قوابله ، ولا ينسى داراً فيها قبائله ، فإنى ، وإن ألبستنى المحروسة نعما ، ورفعت لى بين أمثالى علما ، وكانت أمّ الوطن العام ، ووليّة الآلاء والإنعام ، وأحببتها حبّا جمّا ، لأنها ولية النعمى :

وقضّيت فيها الأربعين مجاورا كرام السّجايا والبحور الطّواميا

فلا زلت أتشوق إلى وطنى الخصوصىّ وأتشوّف ، وأتطلّع إلى أخباره السّارة وأتعرّف ، ولا أساوى بطهطا الخصيبة سواها ، فى القيام بالحقوق وإكرام مثواها :

منازل لست أهوى غيرها ، سقيت حيّاً يعمّ ، وخصّت بالتّحيّات

وأمنحها زمنا بعد زمن الزّيارة ، وأجدد فيها من هبات الحكومة العمارة ، وأبذل فى محبّتها النّفيس ، لتحصيل الأراضى للزّرع والغرس ، وافتخر بها كما افتخر عصام بالنّفس ، وأنشد قول الحافظ كمال الدّين الأدفوىّ .

أحنّ إلى أرض الصّعيد وأهله ويزداد وجدى حين تبدو قبابها
وتذكرها فى مهجة اللّيل مهجتى فتجرى دموعا إذ يزيد التهابها
وما صعبت يوما علىّ ملمّة وشاهدتها إلاّ وهانت صعابها
بلاد بها كان الشباب مساعدى على نيل آمال عزيز طلابها
مواطن أهلى ثم صحبى وجيرتى وأوّل أرض مسّ جلدى ترابها

فتوفق لى من نعم الله الجزيلة ، ومن هبات ولىّ النعم الوافرة الجليلة ، منحى برزقة جديدة ، وضمّ الطريفة إلى التليدة ، بهذا البندر المعمور ، ليكمل الحظ الموفور فكانت هذه النحلة ، سببا لتجديد الرحلة ، وتسبب عن هذه الصلة والإنعام ، صلة الأقارب والأرحام [1] » . وحينا كان يمضى إلى المدينة فى رمضان ، ومعه كتبه يؤلف ويترجم ، كما قال : « فأخذت فى أثناء رمضان المعظم كتابى باليمين ، لأربض فى ديارى ربض اللّيث فى العرين ، وأجمع الحواسّ مشتغلا بما فى يدىّ

---

(١) مقدمة وطنية مصرية ص ٣ .

من الترجمة والتأليف ، مع آداب الدعاء لولى النعم فى هذا الشهر الشريف (١) » .
وها هو ذا يحدثنا عما نال طهطا من التقدم فى عصر إسماعيل فرحاً مبتهجاً إذ يقول : « قد شاهدت طهطا كأمثالها من البلدان ، زادت من العمران بقدر الثلثين ، ونالت فى ظلّ العدل من المتاع والعين ما تقرّ به العين ، يروق الناظر ما تجدّد فى نواحيها من القصور الشامخة ، وما تشيد فى نواحيها من القصبات الباذخة ، والخانات السامية ، والمنازل العالية ، وجلها بشبابيك الحديد والبلور والقزاز ، التى كانت لا تدرك بالحقيقة إلاّ على نوع من المجاز ، والمساجد العالية المنائر ، والجوامع الباهية المنابر ، لا سيّما جامع القطب الرّبّانىّ ، والفرد الصّمدانىّ ، الذى ثغور أسراره فى مطالع تلك الآفاق بواسم ، ذى المقام الحسينى سيدى أبى القاسم ، وكذلك الهياكل المرتفعة ... والحدائق المثمرة والبساتين ، وسواقى الحديد المكثرة للماء المعين ، وحمّام لطيف يباهى حمّام مطوش باشا بالإسكندرية ، غير الحمّامات المنزلية ، و ( السراية ) المسمية ، التى بين طهطا وساحلها وحديقتها البهية ، ومما يلاحظ فى هذا البندر ، مما يستحقّ أن يسطر ، أنّ بها قنصلية تجارية ، عليها راية فرنساوية » .
فانظر إلى كمال الائتلاف بعد النفور ، وزوال الاختلاف باعتدال الأمور ، فهى فى درجة العمار والابتهاج ، أعمر وأبهى من سوهاج ، بل أحسن من جرجا ، لو كانت فسيحة الأرجاء ، وكذلك أيضاً ازدحام أجناس التجار على موردها المستعذب واقتسامهم مع أهلها طيب العيش والمكسب ، والعادة أنّ ما ينمو من الأراضى ويخصب ، ينتجع إليه قحطان ويعرب ، فتراهم إليها من كلّ حدب ينسلون ، وفيما حولها من البلدان والقرى يتسللون ، لا سيما أن ما حولها من النواحى التى ليست ببنادر ، فإنّ التمتع بهناء العيش فيها ليس بنادر ، بل تكاد القرى أن تنافس الأمصار ، فقد رأت فى هذا العصر ما لم تر مثله فى سائر الأعصار ، حيث تعالت فيها الأبنية الجديدة ، وتغالت فى تحصيل الأمتعة النفيسة المجيدة ، وتزينت دورها بالتحائف الابتهاجية ، واللطائف الافرنجية ، فلا تجد بهذه القرى شيخاً أو عمدة ، إلا وعنده لحسن القرى الأدوات والعدّة (٢) » .

---

(١) المرجع نفسه . (٢) مقدمة وطنية مصرية ص ٥ .

وأنت ترى من هذا الوصف ، كيف إن بعض مظاهر المدنية الغربية قد تغلغلت فى عصر إسماعيل ، حتى غزت القرى ، ولم تقف عند عاصمة البلاد .

أما أبناء طهطا الذين تعلموا فى عصر رفاعة « فجميعهم سبب نعمتهم السيد رفاعة بك ، فإنه أدخلهم المكاتب أول إنشائها ، ثم أدخلهم المدارس ، فترّبوا بها ، فكان منهم جملة من مستخدمى الميرى أرباب الرّتب فى مصر وغيرها مثل أحمد بك عبيد أحد قضاة مجلس ( الحقانية ) سابقاً ، وعبد الجليل بك أحد رجال المعيّة الخديوية سابقاً[١] » ، وكان بعض أبناء طهطا يقوم بالتدريس معه فى مدرسة الألسن ، كالشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، مما يدل على حب رفاعة العميق لمدينته وآل مدينته .

ولعلّ أكثر أملاكه كانت بالقرب من تلك المدينة كما استكثر فيها من شراء العقارات .

## نسبه

هو السيد رفاعة بن بدوى بن على ... بن رافع ، ويرفع مؤرخوه نسبه من ناحية أبيه إلى الحسين بن فاطمة الزّهراء ، بنت سيدنا رسول الله[٢] ، ومن ناحية أمه فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلىّ إلى الأنصار الخزرجية[٣] ؛ ويظهر أن أسرته قد استوطنت طهطا منذ أمد بعيد ، وأكبر من عرف من أجداده فى تلك المدينة أبو القاسم الحسينىّ ، أبعد أولياء طهطا صيتاً ، وقبره فى جامع عرف به يعد أشهر جوامعها[٤] ، ومن أبى القاسم انحدر كثير من الأشراف الذين أصبحوا أكابر المدينة ، وتوارثوا الصدارة فيها عدّة أجيال ، وكان لهم فيها منازل مشيدة ،

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .
(٢) حلية الزمن ص ١ .
(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٣ .
(٤) المصدر نفسه .

ومضايف ، ولهم مرتبات من بيت المال واسعة[١] . وقد أشار رفاعة إلى هذا النسب فى قوله :

حسينىّ السلالة قاسمىّ بطهطا معشرى وبها مهادى[٢]

وقد تولى بعض أفراد أسرته منصب القضاء ، قال فى كتاب مناهج الألباب المصرية[٣] : « ومما ينبغى ذكره هنا بالمناسبة أن من منن الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب نقابة الأشراف التى هى لم تزل فى بيتنا إلى الآن منصب قضاء الولاية فى كثير من نسلنا . وكنت أسمع من أسلافنا أن من ذرّية جدّنا أبى القاسم الطهطائىّ من تقلّد بمحروسة مصر ولايات شريفة ، وحظى عند ملوكها بالمراتب المنيفة ، حتى وقفت الآن على كتاب يسمى ذيل رفع الإصر فى قضاة مصر للسخاوى صاحب الضوء اللامع ، ترجم فيه لاثنين من أقاربنا تولّيا قضاء مصر بالتعاقب » . ونقل رفاعة ترجمة هذين القاضيين ، كما ذكر من شهر من أسرته بالعلم أو التقوى ، والأسر التى تفرعت من أسرته ، ونزلت أبيار وأسيوط ومنفلوط وبعض بلاد مديرية جرجا .

أما البيت الأنصارى فى المدينة فقد توارث العلم أجيالا عدة ، وكان آله ممن اشتغلوا بالتأليف والتدريس[٤] ، ولعل ذلك كان بمساجد طهطا فقد كان أكثرها يدرس فيه العلم يومئذ[٥] — كما ذكرنا — وعدّ صاحب حلية الزمن[٦] بعض أخوال رفاعة من العلماء ، مثل الشيخ أبى الحسن الأنصارى الذى نظم متن المنهج والقطر ، وله تخميسات لقصائد البرعىّ ، والشيخ فرّاج الأنصارى الذى تلقّى العلم فى الأزهر ، وكتب تقريرات على شرح الرملى فى فقه الشافعية ، والشيخ محمد الأنصارى ، وكان أمين الفتوى لمشيخة الأزهر فى عهد الشيخ حسن العطار .

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥١ .
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٦ .
(٣) ص ٧٦٣ وما يليها .
(٤) و (٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥١ .
(٦) ص ٣ وما بعدها .

ذلك ما يذكره المؤرخون من نسبه ، وهو — إن صحّ — جدير بمثل هذا الرجل الذى قدّم لبلاده أجلّ الخدمات وإن لم يصح فقد خلّد لنفسه فى تاريخ بلاده اسماً من أشرف الأسماء ، يتلألأ حوله النور والضّياء .

## نشأته الأولى

ولد رفاعة فى طهطا سنة ١٢١٦ هـ [١] ( ١٨٠١ م ) فى يوم وشهر لم أستطع تحديدها ، وقد أرّخ أحد أخواله ، وهو عبد العزيز الأنصارىّ عام ولادته فى شطر بيت إذ قال :

على باب له السّعد استتم [٢] سنة ١٢١٦ .

١١٠ ٥ ٣٥ ١٦٥ ٩٠١

مما يشعر بابتهاج الأسرة بهذا الوليد ، وربما كان ذلك ناشئا من أنه كان وحيد والديه ، فإنّ مؤرّخيه لا يذكرون له إخوة ، ولا أخوات .

وكان والده يوم رزق به ، يتمتع بشىء من الثروة والرّخاء ، حتى إذا أخذ ما كان بأيدى العلماء والأشراف من الالتزامات عضّ الفقر بأنيابه ربّ الأسرة [٣] ، فاضطرّ إلى الرّحيل عن مدينته ، والالتجاء إلى أقارب له ، يقال لهم بيت أبى قطنة ، كانوا يقيمون « بمنشأة النيدة » القريبة من جرجا ، وكانوا من ذوى اليسار والمجد ، ولهم شهرة بصعيد مصر [٤] ؛ وهناك حفظ أكثر القرآن الشريف [٥] ؛ ولكن يظهر أنّ المقام نبا بالأسرة فمضت إلى مدينة قنا ، ومكثت فيها مليّا ، ثمّ إلى مدينة فرشوط [٦] ، ولا أدرى ماذا كان يعمل والده فى تلك المدن ، وربّما كان يشتغل

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥١ .
(٢) حلية الزمن ص ٢٨ .
(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٣ .
(٤) حلية الزمن ص ٣ .
(٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٣ .
(٦) حلية الزمن ص ٣ .

بالتجارة كمعظم أهل بلده ، غير أن هذا التنقل يوحى إلينا بأن العيش لم يكن ممهّدا أمام هذه الأسرة . ولما توفىّ والده عاد إلى مسقط رأسه [١] ، حيث تولىّ تربيته أخواله ، فتمم حفظ القرآن الكريم [٢] ، وعلى يديهم حفظ ( كما كان متّبعا فى ذلك العصر ) كثيرا من المتون المتداولة تمهيدا لدراستها ، وأخذ يتلقّى مبادىء العلوم ، فقرأ عليهم بعض الكتب فى الفقه والنحو [٣] ، وأهّله ذلك للقدوم إلى القاهرة لتلقّى العلم فى الأزهر .

## فى الأزهر

جاء رفاعة إلى القاهرة ، ولم يبق بها طويلا حتى مضى يطلب العلم فى الأزهر ، وسنّه تناهز السادسة عشرة سنة ١٢٣٢هـ [٤] ( ١٨١٧ م ) ، ولمّا كان مقدمه فى منتصف السنة الأزهرية [٥] ، لم يسر فى دروسه على منهج منتظم ، بل حضر دروسا متنوعة فى كتب متنوعة [٦] . ولم يكن يستطيع فى مبدأ أمره أن يفهم جميع ما يقوله المدرس ، أو يقرأ الكتب التى كان يلقى منها ، ولهذا لم يحصّل فى أوّل مقدمه إلاّ القليل من العلم [٧] ، ومع ذلك رأى أن يفيد الناس بما حصل ، فما إن عاد فى العطلة الأولى إلى بلده حتى ألقى بها بعض الدّروس [٨] ، فلما عاد إلى الأزهر فى السنة الثانية تلقى الدّروس فى نظام ، وكان ذا عزيمة قوية ، وصبر على المطالعة والدّرس ، وحبّ للعلم والتحصيل ، وثابر على دراسة الكتب المعدّة أصولا للعلوم الأزهرية يومئذ ، أخذها عن أعلام شيوخ عصره ، كالشيخ الفضالىّ المتوفىّ سنة

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٣ .
(٢) حلية الزمن ص ٣ .
(٣) الخطط الجديده ج ١٣ ص ٥٣ .
(٤) عصر محمد على ص ٤٧٢ .
(٥) حلية الزمن ص ٤ .
(٦) المصدر نفسه .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) المصدر نفسه .

١٢٣٦ فقد لازمه مدّة ، وقرأ عليه صحيح البخارى ، وكالشيخ حسن القويسنى المتوفّى سنة ١٢٥٦ ، وقد تولّى مشيخة الجامع الأزهر برغم كفاف بصره ، قرأ عليه كتاب جمع الجوامع فى أصول الفقه ، وكتاب مشارق الأنوار فى الحديث ، وكالشيخ الدّمهوجى شيخ الأزهر أيضاً درس عليه شرح الأشمونى على ألفيّة ابن مالك ، ودرس كتاب الحكم لابن عطاء الله السّكندرى على الشيخ البخارى المتوفى سنة ١٢٥٦ هـ ، وتفسير الجلالين على عبد الغنى الدّمياطى المتوفى بمكة المشرفة كما لازم الشيخ ابراهيم الباجورى الذى تولى فيما بعد مشيخة الجامع الأزهر وتوفى سنة ١٢٧٧ ، مدة ، وأخذ عنه شرح الأشمونى وتفسير الجلالين أيضاً ، ودرس مغنى اللبيب وجمع الجوامع فى الأصول مرة أخرى على شيخ المالكية الشيخ محمد حبيش المتوفى سنة ١٢٦٩ هـ ، وحضر شرح ابن عقيل على الشيخ الدمنهورى المتوفى سنة ١٢٨٦ (١) .

وكان أعظم أساتذته أثراً فيه وفى توجيه حياته الشيخ حسن العطّار (٢) المتوفى

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) ولد بالقاهرة لأب فقير عطار له بعض إلمام بالعلم ، قرأ القرآن فى مدة يسيرة وجد فى التحصيل على كبار المشايخ كالأمير والصبان ، وتعلم مبادىء الهيئة والعمل بالأسطرلاب ، ولما جاء الفرنسيون إلى مصر فر إلى الصعيد كجماعة من العلماء ؛ ثم عاد واتصل ببعضهم فأخذ عنهم بعض العلوم العصرية ، وعلمهم اللغة العربية ، وكان يقول إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم مع كثرة الكتب وتحريرها وتقريبها للمستفسرين ، ثم رحل إلى الشام ، وأقام بدمشق زمناً ، وحج ، وجال فى فلسطين وارتحل إلى بلاد الروم ، فأكسبه كل ذلك خبرة واتساع أفق وبعد نظر ، وظل فى جميع مراحل حياته يفيد ويستفيد ، وامتاز بالتفوق فى الأدب وفنونه ، والتقدم فى العلوم العصرية ، يقول رفاعة عن شيخه فى كتاب مناهج الألباب المصرية ( ص ٣٧٥ ) : « كان له مشاركة فى كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء سلطان حماة ... وله هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية ... » ويروون له شعراً يشبه شعر أهل عصره . ولما عاد إلى مصر بهر العلماء بما لديه من المعارف ، وتولى التدريس فى الأزهر ، وكان محمد على يجله ويعظمه ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ وله تآليف عدة فى الأدب ككتاب إنشاء العطار الذى طبع بمصر مراراً ، وجمع ديوان ابن سهل الإسرائيلى وبوبه وطبع سنة ١٢٧٩ وله فى النحو منظومة وحاشية على شرح الأزهرية =

فى ذى القعدة سنة ١٢٥٠ وقد اتصل به رفاعة منذ دخل الجامع الأزهر ، وأحبه الشيخ لما آنسه فيه من الذكاء وحب العلم ، فقربه منه ، وأحاطه برعايته ، وكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب العربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر [١] ، وكثيراً ما كان رفاعة يتردد على بيت الشيخ ، ليتلقى عنه التاريخ والجغرافية والأدب ، وطالما كان التلميذ يُسمع أستاذه بعض شعره ونثره ، فيزداد الشيخ حباً لتلميذه ، ومضى التلميذ فى اقتفاء آثار أستاذه ، فأحب منذ نشأته العلوم العصرية ، ومال إلى الأدب واغترف من مناهله ، وكتابه تخليص الإبريز ، وهو أوّل كتاب ألفه بعد تخرّجه فى الأزهر يدل على سعة اطلاعه فى الأدب وأخذه منه بنصيب واف ، وسوف نتبين فضل الشيخ حسن العطّار على تلميذه رفاعه .

قضى رفاعة فى الأزهر زهاء ثمانى سنوات [٢] ، كان فيها مرجع إخوانه ، يحل لهم ما غمض عليهم ، وكان أساتذته يثقون بفهمه وجودة قريحته وسلامة ذوقه [٣] ، فسطع نجمه فى الأزهر ، وعلا قدره ، ولم يمنعه من الاستمرار فى دراسته ما كان يحيط به يومئذ من الفقر والفاقة ، بل كانت والدته تنفق عليه ببيع بعض ما تبقى لها من الحلى والعقار [٤] ، وكان هو يستعين على الحياة بإعطاء درس كل يوم لحسين بك نجل المرحوم طبوزغلى ، وإلقاء بعض الدروس بالمدرسة التى أنشأها بمنزله محمد لاظ أوغلى [٥] ، ويظهر أنه قضى العامين الأخيرين من الأعوام الثمانية مدرساً بالجامع الأزهر [٦] ، قام فيهما بتدريس كتب شتى فى الحديث والمنطق

---

= وله فى البلاغة حاشية على السمرقندية ، وله تآليف أخرى فى الأصول والمنطق والهندسة والطب والتشريح . راجع ترجمته فى كتاب الخطط الجديدة ج ٤ ص ٤٨ وتاريخ آداب اللغة اللغة العربية ج ٤ ص ٢٢٢ وكنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ص ١٣٨ وعصر محمد على ص ٤٧٢ وفى الأدب الحديث ص ٣٦ .

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ .

(٢) مشاهير الشرق ص ١٨ .

(٣) حلية الزمن ص ٩ .

(٤) مشاهير الشرق ص ١٨ .

(٥) حلية الزمن ص ٩ .

(٦) الخطط الجديد ج ١٣ ص ٥٣ .

والبيان والبديع والعروض وغير ذلك (١) ، وهنـا بدت ميزة من ميزاته القوية ، وهى مقدرته على التعليم ، وشعور طلبته بجاذبية تدفعهم إلى الأخذ عنه ، والاستفادة منه ، فغصت دروسه بالجمّ الغفير منهم ، لمـا امتاز به من روعة الإلقاء ، وجمال الأسلوب ، وسهولة العبارة ، والدقة فى القول ، والقدرة « على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة ، بحيث يفهم دروسه الـكبير والصغير ، بلا مشقة ولا تعب ، ولا كدّ ولا نصب ؛ ولـكنه كان إذا أراد أن يغوص فى المعانى الدقيقة ، ويعترض ويجيب ، ويخطّىء ويصوّب ، ويجمع الفروع لأصولها ، والأشياء لمداركها ، لم يكد لعلوّ نفسه أن يفهم ما يلقيه إلا الألمعىّ الذكىّ الذهن » (٢) .

وكان — كما ذكرنا — يتردد على مدينته فى الحين بعد الحين ، ويلقى بعض الدروس بجامع جده أبى القاسم ، ويقال : إنه درّس ببلده شرح الملّوىّ بحاشية الأمير على السمرقندية فى البلاغة ، وقرأ فى شهر رمضان فى بعض السنين على عادة علماء هذه البلدة — درساً حافلا ، فشرح فيه سورة القدر بشرح الأمير عليهـا ، واجتمع فى هذا الدرس علماء المدينة من أخواله وغيرهم ، وأعجبوا به لحسن إلقائه (٣) ؛ ولست أدرى أين قرأ كتاب المعجم الوجيز فى أحاديث الرسـول العزيز ، أفى الأزهر أم فى طهطا ؟ وقد كان خاله الشيخ فراج الإنصارىّ يجلس عنده فى أوقات تدريسه ، ويشكره ويثنى عليه ، ويقول له : لله درّك يابن الأخت ، لقد بلغت فى العلم درجة الأعلام ، ونلت بمساعدة اللغة مرتبة تقف دون وصفهـا الأقلام (٤) .

---

(١) حلية الزمن ص ٥ ،

(٢)و(٣) المرجع نفسه .

(٤) المرجع السابق ص ٧ .

# إمام فى الجيش

ويظهر أن ضيق العيش دفعه إلى التحوّل عن التعليم فى الأزهر[١] ، فعيّن سنة ١٢٤٠ هـ ( ١٨٢٤ م ) واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش المصرى النظامى ، الذى أسسه محمد على ، ولحسن حظه كان قائدا الفرقتين اللتين اتّصل بهما من أعظم قوّاد الجيش المصرى فى عصر محمد على ، وهما حسن بك المناسترلى ، وأحمد بك المنكلى[٢] ، وكان لاتّصاله بالجيش أثر كبير فى نفسه ، يقول الأستاذ الرّافعى بك متحدّثاً عن هذا الأثر : « انتقل ( رفاعة ) من بيئة الأزهر ، إلى بيئة جديدة وهى الجيش النظامى ، ونعتقد أن هذا الانتقال قد أحدث تطوّراً فى حياته ، وفى سيرته ، وذهنيّته ، لأنه بدأ يتصل بالحياة العسكرية ، ويألف نظاماً لا عهد له به من قبل ، وعيشة فتحت ذهنه إلى نواح جديدة من الحياة والتفكير ، ولا بد أن تكون الحياة العسكرية التى اتّصل بها عن كثب ، قد أفادته بما فيها من احترام للنظام ، وتقدير لمزاياه ، وإيلاف لأوضاعه ، وإحساس بالدفاع عن الذّمار والكفاح فى سبيل الوطن ، ومواجهة للأخطار ، مما يغرس فى النفس روح الوطنية والشجاعة والإقدام » .

« ويلوح لنا أن هذه المعانى قد انطبعت إلى حدّ كبير فى نفس المترجم ؛ فقد عاش طوال عمره ذا أنفة وإباء يكره الذل ، ولا يقيم على الضيم ، محبّا لبلاده ، يبذل فى سبيلها راحته ، ووقته وعلمه وذكاءه ، وعاش كذلك محباً للنظام فى كل عمل تولاه ، فى تلقّى العلوم ، وفى التأليف والتعريب ، وفى حسن تنظيم المعاهد التى تولّى إدارتها[٣] » .

وظلّ الشيخ رفاعة فى منصب الإمامة من سنة ١٢٤٠ هـ إلى شعبان من السنة التالية[٤] ، حين فتح له طريق المجد ، وهيّئت له أسباب النبوغ ، ومهدت

---

(١) حلية الزمن ص ٧ .

(٢) عصر محمد على ص ٤٧٤ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المرجع نفسه .

أمامه السبل لخدمة بلاده أجلّ الخدمات ، ذلك أن المغفور له محمد على باشا ، أراد أن يرسل بعثة كبرى[١] إلى فرنسا ، تدرس هناك ما البلاد فى حاجة إليه من حقوق ، وسياسة ، وطب ، وجراحة ، وتاريخ طبيعىّ ، وكيمياء ، وفنون حربية ، وبحرية ، وزراعة ، وحيل ( ميكانيكا ) وغير ذلك ، وأراد أن يختار لهم من علماء الأزهر من يذكّرهم بالدين ، ويعظهم ويرشدهم ، ويؤمّهم فى الصلاة ، فطلب محمد على من الشيخ حسن[٢] العطّار « أن ينتخب من علماء الأزهر إماماً للبعثة يرى فيه الأهليَّة واللياقة فاختار الشيخ رفاعة لتلك الوظيفة[٣] » ويقول الأستاذ الرّافعي[٤] : إن ثلاثة أئمة آخرين كانوا مع رفاعة ، وإنهم لم يتجاوزوا حدود وظيفتهم ، ولم يدرسوا العلم فى فرنسا كما درسه رفاعة ، ولكننا رجعنا إلى أسماء أعضاء البعثة[٥] فلم نجد فيهم غير رفاعة إماماً ، أما الثلاثة الآخرون فشيوخ من أعضاء البعثة ذهبوا للتخصص والدراسة ، ولعله قد وكل إليهم أيضاً أمر

---

(١) كان عدد أعضاء هذه البعثة أربعين طالباً غير الشيخ رفاعة إمامها ، وأحمد أفندى ابن أخى مصطفى أفندى مختار ، وكيل خرج البعثة ، ثم ألحق بهم غيرهم ، كما عاد بعضهم لضعف صحته ، أو لضعف استعدادة ( راجع كتاب البعثات العلمية للأمير عمر طوسون ص ١٢ و ص ٤٧ ) وقد وكل أمر الاشراف على هذه البعثة للأستاذ جومار Jomard وهو من نوابغ الفرنسيين ومن كبار مهندسيهم ، وكان من علماء الحملة الفرنسية التى قدمت إلى مصر مع نابليون واشترك فى تأليف كتابها النفيس ( وصف مصر ) ، وله فى هذا الكتاب مباحث واسعة وأثرت فيه إقامته فى مصر فلم ينسها ، وكان يرغب فى أن يذيع ثقافة بلاده فى وادى النيل ، ولما عرف فيه محمد على ذلك وكل إليه أمر الإشراف على بعثته ، وقد أخلص جومار فى ذلك إخلاصاً استحق عليه أن يرسل إليه محمد على رسالة شكر يقول له فيها : « شكراً لك يا صديق مصر العامل بجد وإخلاص لنفعها ، حتى كأنك نبراس رغباتى فى تمدين البلاد التى جعلنى الله على رأسها ، إذ لم تنقطع عن إظهار ولائك بأدلة قاطعة ، وهى تلك الجهود العظيمة التى تعانيها فى مراقبتك التلاميذ الذين أرسلتهم إلى وطنك ... » .

راجع كتاب البعثات العلمية ص ٧ و ١١ والرسالة المبعوثة إلى جومار بتمامها ص ٨ .

(٢) لم يكن قدولى مشيخة الأزهر يومئذ ، لا كما يفهم من كلام الأستاذ الرافعى بك ، ولكنه كان وثيق الصلة بمحمد على كما أسلفنا . راجع لمحة فى تاريخ الأزهر ص ٩٠ وكنز الجوهر ص ١٣٨ .

(٣) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٤ .

(٤) عصر محمد على ص٤٧٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٥٧ .

وعظ الطلبة وإرشادهم إلى جانب دراستهم ما أرسلوا من أجله . ولعلّ الأستاذ الرافعى استنبط ذلك من قول السيد صالح مجدى بك[١] : كان صاحب الترجمة رئيس من تعيَّن من أفاضل العلماء لوعظ هؤلاء الأنجاب ، وهدايتهم إلى طريق الرَّشاد والصواب » . وربّما كان هناك وعاظ سواه ، ولم تحفظ أسماؤهم ، لأنهم لم يقيدوا كرفاعة بين أعضاء البعثة .

لم يكن رفاعة إذاً مرسلا إلى فرنسا بصفته طالباً ، وإنما كان إماماً للبعثة ، ولم يكن مطلوباً منه أن يدرس علوم الفرنسيين ونظمهم ، بل كان يكفيه أن يقوم بالإمامة لأعضاء البعثة ويعظهم ويرشدهم ، ولكنه ، وقد رأى أمامه باب العلم مفتوحاً على مصراعيه ، لم يلبث أن أخذ فى الدراسة التى أخذ فيها أعضاء البعثة ، ولم يترك الفرصة تفلت من يده ، ولم يلبث أن جدّ كما جدّوا ، فكتبه اجتهاده عضواً فى البعثة ، وآنس فيه المشرف عليها ذكاء ومثابرة فتعهده بالإرشاد ، وسدّد خطاه حتى نهل من الثقافة الأجنبية بأوفى نصيب .

## فى باريس

### — ١ —

غادر رفاعة وصحبه القاهرة عصر يوم الجمعة ، الثامن من شعبان سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف هجرية[٢] ، وانحدروا فى النيل إلى الإسكندرية ؛ وظلوا بها حيناً ، ومنها امتطوا فى الخامس من رمضان سفينة حرب فرنسية قطعت بهم البحر الأبيض إلى مرسيليا فى ثلاثة وثلاثين يوماً[٣] ، فنزلوا الثغر الفرنسى فى شوال من ذلك العام ( يولية سنة ١٨٢٦ م ) .

وأدرك رفاعة أن محمد على إنما أرسل البعثة للدراسة ، ونقل علوم الغرب إلى

---

(١) حلية الزمن ص ٩ .

(٢) تخليص الابريز ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢ .

مصر ، فأراد أن يحقق هذا الغرض ، وألا يضيع وقتاً ، فبدأ تعلّم اللغة الفرنسية في مرسيليا ، عرف التهجي في نحو ثلاثين يوماً[١] ؛ ولمّا ذهب هو وأعضاء البعثة إلى باريس ، اتّبعوا منهجاً وصفه رفاعة بقوله[٢] : « ثم لمّا ذهبنا إلى باريس ، مكثنا جميعاً في بيت واحد ، وابتدأنا في القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو أنّا كنّا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين ، ثم بعد الغداء نتعلّم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية ، ثم بعد الظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوي ، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة وفي مبدأ الأمر كنا نأخذ في الخط درسين ، يعني في معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كلّ يوم درساً ، ثم انتهى الأمر إلى أننا تعلّمنا الخطّ ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأمّا الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل نشتغل بها ، حتى سهّل الله علينا بالرجوع ومكثنا جميعاً في بيت واحد دون سنة ، نقرأ معاً في اللغة الفرنساوية ، وفي هذه الفنون المتقدمة ، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزيّة إلا مجرّد تعلّم النحو الفرنساوي ، ثم بعد ذلك تفرّقنا في مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا في مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم » ويظهر أنه سكن بعد أن خرج من منزل الجماعة في بيت الأستاذ شواليه الذي تولّى أمر تعليمه[٣] .

والغالب أنه منذ أبدى غيرة في دراسة اللغة الفرنسية ، ورغبة في التضلّع فيها ، قيّد عضواً في البعثة لدراسة الترجمة ، فإنه منذ العام الأول لمقدمه إلى باريس ، وكان يدرس[٤] له فيه يوسف أجوب[٥] — شرع رفاعة في الترجمة ، ولم يكد

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) راجع تلخيص الابريز ص ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٦ .

---

(٤) راجع مقدمة نظم العقود .
(٥) ولد بمصر القديمة من أب مصري وأم سورية ، وترك مصر مع الجيش الفرنسي في ارتداده ، ودرس في مرسيليا ، وعين مدرساً للغة العربية في مدرسة لويس الأكبر الثانوية وعمل ناموسا للأستاذ جومار ، رئيس البعثة المصرية الأولى . (راجع حركة الترجمة بمصر ص ٤٩) .

ينقضى العام حتى ترجم قصيدة لأستاذه عنوانها : la lyre Brisée وسماها نظم العقود فى كسر العود ، وكأن هذه الترجمة تحية علمية من تلميذ معترف بالجميل ، لأستاذ عالم مخلص[١] ، كما شرع فى عمل أكثر من ذلك صعوبة وهو أن يترجم إلى العربية كتاب مبادئ الهندسة Elements de Géometrie لمؤلفه ليجندر legendre وكان قد أتم منه يومئذ فصلين[٢] ، يقول ناشر نظم العقود : « ولد مسيو پ دوندى دوبريه P. Dondey - Dupré Fils » عضو الجمعية الأسيوية : « وإن مثل هذا النجاح الباهر الذى ظفر به السيد رفاعة فى أقل من عام يبرهن على ذكاء التلميذ وإخلاص المعلم معاً[٣] » .

ولما امتحن رفاعة بعد عام من مقدمه إلى باريس ، وكان أغلب الامتحان ومداره على اللغة الفرنساوية ظفر بتقدير ممتحنيه ، وبعث إليه الأستاذ چومار مكافأة هى كتاب رحلة ( أنخرسيس ) فى بلاد اليونان ، وهى تملأ سبعة مجلدات جيدة التجليد ، مموّهة بالذهب يصحبها هذا المكتوب الذى ترجمته : « أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد .

قد صرت مستحقاً لهدية اللغة الفرنساوية ، بالتقدم الذى حصّلته فيها ، و ( بالثمرة ) التى نلتها ، فى الامتحان العام الأخير ، ولقد حق لى أن أهنّئ نفسى بإرسالى لك هذه الهدية ، من طرف الأفندية النظار ، دليلا على التفاتك فى التعليم ، ولا شك أن ولىّ النعمة يسرّ ، متى أخبر أن اجتهادك وثمرة تعلمك ، يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفها عليك ، فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام ، مصحوباً بالمودّة[٤] » .

وفى ٢٨ فبراير ، وأول مارس سنة ١٨٢٨ جمع أعضاء البعثة فى مكان واحد لاختبارهم اختباراً عاماً فى وقت واحد ، وحضر هذا الامتحان جمهور كبير من أعيان البلد كالقضاة ، وأساتذة جامعة باريس ، وأعضاء المجمع العلمى ، ورجال الجيش ،

---

(١) راجع كلمة ناشر نظم العقود .
(٢) و (٣) المصدر نفسه .
(٤) تخليص الابريز ص ١٦٣ .

وكثير من أفاضل الأجانب ، وكان الامتحان تحت رئاسة محافظ ولاية السين[١] .

وامتحن الطلبة جميعاً فى موضوع واحد يؤدونه فى وقت معيَّن ، وكان موضوع الامتحان فى اللغة الفرنسية هو الإنشاء والتحليل المنطقى ، والإعراب النحوى ؛ أما امتحان الرياضة فكان في مسائل مختلفة من علم الحساب والجبر والهندسة ، وفى النهاية امتحنوا فى الرسم ، وقد أعطيت لهم ساعة فقط لامتحان اللغة ، وساعة وربع لامتحان الرياضة[٢] . وأسئلة الرياضة سهلة على تلاميذ متقدمين ، ولكنها انتخبت لهم مراعاة لقوتهم ، ولأنهم إنما دخلوا فرقهم منذ شهر واحد تقريباً ، ولقصر الزمن الذى أعطي لهم فى الامتحان . وعند نهاية الامتحان قدّم كل تلميذ جملة أوراق يتضح منها حسن الخط وصحَّة الإملاء فى وقت واحد . وبعد ذلك أدوا الامتحان الشفوى الذى دام يومين ، وعندما سئل الشيخ رفاعة : ماهو الامتحان ؟ أجاب : بالامتحان يكرم المرء أو يهان . وفى النهاية وضعت الدرجات ، وأعطيت المكافآت لأوائل الناجحين[٣] ؛ وكان رفاعة ممن ظفروا بمكافأة فى هذا الامتحان أيضاً ، فبعث إليه الأستاذ جومار مكافأة : كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد ، وجامع الشذور من منظوم ومنثور ، للمستشرق المعروف سلفستر دى ساسى Silvestre De Sacy ، وأرسل إليه كتاباً يشبه الكتاب السابق ، يثنى عليه فيه لتقدمه ونجاحه[٤] .

وكان رفاعة حريصاً ، بعد أن طُلِبَ منه ومن رفقائه كتابة تقرير عن دراستهم — على أن يكتب كلّ شهر بياناً بجميع ماقرأه وما تعلّمه فى ذلك الشهر ، ويوقّع عليه المعلمون ، ليبعث به إلى ولىّ النّعم ، وها هو ذا الأستاذ جومار يرسل إليه رسالة يحثه فيها على أن يواظب على ذلك ، ويختم تلك الرسالة بقوله : « ولا يخفى علىّ اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلّفت بها ، واعلم وتيقّن محبتى لك[٥] » .

---

(١) البعثات العلمية ص ١٢ و ١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥ و ١٦ .
(٤) تخليص الإبريز ص ١٦٤ .
(٥) المرجع السابق ص ١٥٢ .

ولم يكن الأستاذ جومار يكف عن إعجابه برفاعة والتنبؤ له بمستقبل باهر يخدم فيه بلاده ، وينفع أمته ، كتب مرة عنه : « وممن امتازوا من بين هؤلاء الشبان الشيخ رفاعة الذى أرسل ليحرز فن الترجمة ، وأعدّ لهذه الوظيفة فى بلاده ، حتى إذا رجع إليها أطلع بترجماته الجمهور المصرىّ على تآليفنا العلمية ، وأدنى منه ثمرات آدابنا وعلومنا ، وقد ابتدأ هذا الشيخ يقوم بتحقيق مقاصد حكومته ، فترجم من الفرنسية كتاب مبادىء العلوم المعدنية ، وأرسله إلى مصر ليطبع فيها ، وترجم أيضاً تقويماً سنة ١٢٤٤ هجرية ، وضمناه لمصر وسوريّة ، وفيه فوائد كبرى لهما ، ولا سيما إذا نشر سنويا ، والشيخ رفاعة هذا رجل متعلّم ، فهو لا بد أن ينجح فى ترجمة الكتب التاريخية ، وسائر التآليف الأخرى[١] » . ولما تحدث عن الفروع التى تخصص فيها الطلبة ، وجاء دور الحديث عن الترجمة قال : « وقد ذكرنا ما للشيخ رفاعة فيه من التفوق ، وهو المختص به ، وإنا نقول بلاخشية من هذا القول : إنه سيكون من الذين ينفعون مصر فيما بعد أعظم منفعة[٢] » .

ولا غرابة أن يظفر رفاعة بهذا التقدير ، فقد أظهر من الغيرة على دراسته والجدّ فيها ، ما دفع أستاذه الدائم السيد شواليه أن يشهد له بقوله : « ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به إلى أن أدته إلى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار ، حتى احتاج إلى الحكيم الذي نهاه عن مطالعة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه ، ولما رأى أن الأحسن فى إسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له غير ما سمح به ( الميرى ) ، وأن يأخذ معلماً آخر غير معلم ( الميرى ) أنفق جزءاً عظيما من ( ماهيته ) المعدّة له فى شراء كتب ، وفى معلم[٣] مكث معه أكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس فى الحقبة التى لا يقرأ معى فيها[٤] » .

وقد ترك لنا رفاعه بياناً مفصلا بما قرأه من الكتب فى باريس[٥] ، فرأيناه

(١) البعثات العلمية ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) لعله الأستاذ لومنرى . راجع تخليص الابريز ص ١٥٨ .
(٤) المرجع السابق ص ١٦٦ .
(٥) المرجع السابق ص ١٥٨ .

قد درس قواعد اللغة الفرنسية ، فى كتب كثيرة منها كتاب لومند ، « واشتغل بالإعراب النحوى ، والإعراب المنطقى ، يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق ، وبالإملاء والإنشاء والقراءة ، ولا زال على ذلك ثلاث سنين (١) » .

ودرس كثيراً من كتب التاريخ : فقرأ كتاب سير فلاسفة اليونان ، وكتابا مختصراً فى التاريخ العام ، يشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم الرومانيين والهنـود ، وفى آخره نبذة مختصرة فى علم ( الميثولوجيـا ) يعنى علم جاهلية اليونان وخرافاتهم ، وقرأ كتاباً يسمى لطائف التاريخ يتضمن قصصاً وحكايات ونوادر ، وكتاباً يسمى سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، وكتاباً فى نهضة الدولة الرومانية وانقراضها ، وكتاب رحلة أنخرسيس الأصغر إلى بلاد اليونان ، وكتاب سيغور فى التاريخ العام ، وسيرة نابليون ، وكتاباً فى علم التواريخ والأنساب ، وكتاب مرآة الدنيا ، ورحلة صنّفها بعض المسافرين فى الدولة العثمانية ، ورحلة فى بلاد الجزائر (٢) .

وفى الحساب قرأ بزوت Bezout ، وفى الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره Legendre (٣) . وفى الجغرافية قرأ وحده ومع أساتذته كتباً فى الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ومعجماً للبلدان ، وجزءاً كبيراً من جغرافية ملطبرون Malt-Brun (٤) . وقرأ عدة كتب فى علم المنطق ، وكتاباً صغيراً فى المعادن وترجمه ، وقرأ كثيراً من كتب الأدب منها مجموع نوئل Noël (٥) وعدة مواضع من ديوان ڤولتير Voltaire وديوان راسين Rasine وديوان روسّو Rousseau خصوصاً مراسلاته الفارســية Les Lettres Persanes التى يعرف بها الفرق بين آداب الإفرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان

(١) المرجع نفسه .
(٢) تخليص الابريز ص ١٥٩ .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) لعله Jean François Michel اللغوى الفرنسى ( ١٧٥٥ — ١٨٤١ ) . راجع قاموس لاروس الصغير ص ١٥٦٦ .

بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأ وحده مراسلات إنجليزية صنفها شسترفيلد Conte Chesterfield لتربية ولده وتعليمه ، وكثيراً من المقامات الفرنسية ، وقرأ كثيراً في المجلات العلمية اليومية والشهرية ، وصحف الأخبار والسياسة اليومية ، قال رفاعة : « وكنت متولعاً بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية [١] ، وقرأت في الحقوق الطبيعية مع معلمها برلماكي Burlamaqui وترجمته ، وفهمته فهماً جيداً ، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين يجعله الإفرنج أساساً لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضاً مع مسيو شواليه جزأين من كتاب يسمي : روح الشرائع ( L'Eprit des Lois ) مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له مونتسكيو Montesqieu ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضاً منتسكيو الشرق أي منتسكيو الإسلام ، وقرأت أيضاً في هذا المعنى كتابا يسمى عقد التأنس والاجتماع الإنساني ( Le Contrat Social ) مؤلفه يقال له روسو وهو عظيم في معناه . وقرأت في الفلسفة تاريخ الفلاسفة المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة في معجم الفلسفة Dic-tionnaire Philosophique للخواجة ولتير وعدة محال في كتب فلسفة قنديلياق Candillac الذى غير فيه منطق أرسطو [٢] » .

X وقرأت في فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو شواليه ، من غير تعرض للعمليات ، وقرأت في فن العسكرية من كتاب يسمى علميات ضابطان عظام ، مع مسيو شواليه مائة صفحة وترجمتها [٣] » .

ونحن نرى من ذلك سعة الثقافة التي ظفر بها ، في مدى زهاء خمس سنين وتنوعها . هذا إلى جانب ما بذله من جهد موفق وغيرة محمودة في الترجمة « التي هي صنعته المختارة له [٤] » .

---

(١) تخليص الابريز ص ١٦٠ .

(٢) و (٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) من شهادة أستاذه شواليه بكتاب تخليص الابريز ص ١٦٦ .

وقد ترجم فى أثناء إقامته اثنى عشر مترجماً ، بعضها مما قرأه مع أساتذته ، منها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم ، وهى :

١ — كتاب أصول المعادن .

٢ — كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم .

٣ — مقدمة جغرافية طبيعية .

٤ — أصول الحقوق الطبيعية التى يعتبرها الفرنج أصلاً لأحكامهم .

٥ — نبذة من تاريخ إسكندر الأكبر مأخوذة من تاريخ القدماء .

٦ — تقويم سنة ١٢٤٤ من الهجرة ألفه الأستاذ جومار لمصر والشام ، متضمناً شذرات علمية وتدبيرية .

٧ — قطعة من كتاب ملطبرون فى الجغرافية .

٨ — نبذة فى علم هيئة الدنيا .

٩ — نبذة فى الميثولوجيا يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم .

١٠ — نبذة فى علم سياسة الصحة .

١١ — قطعة من علميات ضابطان عظام .

١٢ — ثلاث مقالات من كتاب لجندر فى علم الهندسة [١] .

وذلك عدا شذرات نجدها فى كتاب تخليص الإبريز ، كترجمة دستور فرنسا [٢] ، ومقال سياسى عن حرب الدولة العثمانية للروسيا سنة ١٨٢٨ [٣] ، ومقال عن التاريخ [٤] ، وعدة رسائل وتقريرات [٥] ، وعدا نظم العقود فى كسر العود أيضاً ، وما كان يترجمه من الصحف من « مسائل علمية وسياسية » [٦] .

ولما كان تخصص رفاعة فى الترجمة كان امتحانه الأخير فيها ، فجمع له الأستاذ

---

(١) تخليص الابريز ص ١٦٤ .

(٢) ص ٧٤ .

(٣) ص ١٦١ .

(٤) ص ٥٠٢ .

(٥) راجع تخليص الابريز ص ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٦ و ١٥٢ و ١٦٤ و ١٥٧ وربما كانت ترجمة ذلك عقب عودته من باريس .

(٦) المصدر السابق ص ١٦١ .

جومار مجلساً حضره عدّة من المشهورين من بينهم وزير التعليمات المسقوبى[١] رئيس الامتحان ، وكان القصد بعقد هذا المجلس معرفة قوته فى صناعة الترجمة التى اشتغل بها مدة مكثه فى فرنسا ، ولما التأم المجلس قرىء فيه دفتران . الدفتر الأول يشتمل على اثنتى عشرة ترجمة من اللغة الفرنسية إلى العربية ترجمها رفاعة منذ سنة ، وقد ذكرناها ، والدفتر الثانى يشتمل على رحلته وذكر سفره ، ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة فى بولاق ، فترجم منها — كما قال رفاعة فى وصفه لهذا الامتحان الأخير — مواضع بسرعة إلى اللغة الفرنساوية ، « ثم قرأ بالفرنساوى مواضع ، منها ما هو صغير ، ومنها ما هو كبير فى كازيطة Gazette ( صحيفة ) مصر المطبوعة فى بولاق ( يريد الوقائع المصرية ) ، ثم بحث معه فى ترجمة العمليات العسكرية المترجمة له ، فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنساوى ، والشيخ بيده الترجمة ، ثم إنه يترجم العربية بالسرعة إلى الفرنساوية قراءة لا كتابة ، ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الإصل ، وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان ، فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، من غير خلل فى المعنى المراد ، مثلا فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبّع يستخرج منه كذا ، غير العبارة بقوله : العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدّرر ، وقد اعترض عليه فى الامتحان ، بأنه فى بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامّة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرّر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع فى الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلى ، وقد عرف الشيخ الآن أنّه إذا أراد أن يترجم كتب علوم ، فلا بدّ له أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييراً مناسباً للمقصود ، وقد امتحن فى كتاب آخر ، وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو إلى العربية ، ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب ، لم يصل إلى درجته الآن فى اللغة الفرنساوية ، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله ، وكان عيبه أنه لم يحافظ

---

(١) لعله يريد الوزير المفوض الروسى .

على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها ، وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئاً ، بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة ، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها فى نشر العلوم والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة »[١] .

وهنا يحسن أن أوجه النظر إلى ما قاله السيد صالح مجدى بك[٢] ، من أنه لم يحتفل وهو يدرس اللغة الفرنسية بحسن التلفظ بها ، إما لشروعه فى تحصيلها وهو كبير ، وإما لاشتغاله عن تهذيب نطقه بها ، بالانهماك على الترجمة منها إلى العربية . ولكنى لم أر رفاعة قد تحدث عن هذا العيب ، وهو يصف لنا امتحانه ، مع صراحته فى عدّ مآخذ ممتحنيه عليه ، فلعل ذلك كان فى مبدأ تعلمه ، أما بعد مكثه بباريس تلك المدة الطويلة ، ودراسته على أيدى أساتذه بارعين فقد انمحى ذلك العيب ، ولم آخذ عليه فى نطقه للغة الفرنسية إلا نادراً لا يكاد يذكر ، مثل إظهاره للتاء الأخيرة فى كلمة Institut فيقول أنسطيطوت[٣] مع أنها لا ينطق بها .

وتعمق رفاعة فى دراسة اللغة الفرنسية وآدابها ، ومكنه ذلك من عقد الموازنات بينها وبين اللغة العربية حيناً ، وبين أدبيهما وبلاغتيهما وقواعدهما حيناً آخر ، ودرس فقه اللغة الفرنسة ، فعرف أن « اللسان الفرنساوى من الإفرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغاوية يعنى قدماء الفرنسيس ، ثم كل من اللغة اللاطينية ، وأضيف إليه شىء من اللغة اليونانية النمساوية ، ويسير من لغة الصقالبة وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها[٤] » .

وألف رفاعة وهو فى باريس كتابه تخليص الإبريز ، وأتمه بعد عودته إلى مصر ، ولست أدرى إن كانت منظومته فى الهندسة مما وضعه فى باريس أو قبل ذهابه إليها .

(١) تخليص الابريز ص ١٦٥ .
(٢) حلية الزمن ص ١٠ .
(٣) تخليص الابريز ص ١٥٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٩ .

وظفر رفاعة — فضلا عن إعجاب أساتذته ومرشديه — بإعجاب من اتصل بهم من علماء فرنسا ، ومنهم المستشرق المعروف سلفستردى ساسى (١) ، الذى رأى أن مسيو رفاعة « أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً فى بلاده ... وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة (٢) » . ومنهم المستشرق كوسين دى برسوال (٣) Cossin de Perceval الذى أثنى على كتاب رحلته ثناء جما . وفى بعض الرسائل التى أرسلها إليه أصدقاؤه الفرنسيون ما يدل على حبهم له وإعجابهم به (٤) .

ويظهر أن لأخلاق السيد رفاعة أثراً فى هذا الإعجاب ، فضلا عن مواهبه وعلومه ، وقد شهد له بكرم الخلق أستاذه السيد شواليه ، الذى عاشره ثلاث سنوات ونصفاً ، فقال عنه : « لم أر منه إلا أسباب الرضا ، سواء فى تعلمه ، أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته (٥) » كما يروى أنه كان متمسكا بدينه هناك ، قال السيد صالح مجدى بك : « وقال لى من أثق به ممن كانوا معه بباريس : إنه كان يؤدى الفرائض والسنن ، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وواظب على تلاوة القرآن (٦) » .

---

(١) مستشرق فرنسى ولد فى باريس سنة ١٧٥٨ ، وتوفى سنة ١٨٣٨ وكان يحسن من اللغات الأوربية الألمانية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية فضلا عن تضلعه فى الأدبين اللاتينى واليونانى ، وقد أحب العربية فدرسها حتى أتقنها ، وتضلع كذلك فى العبرية ، وكان أستاذ اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، ولخص ونشر وترجم كثيرا من كتب الأدب العربى . (راجع ترجمته وآثاره ونماذج له فى كتاب : «المستشرقون» ص ٣٧ وتخليص الابريز من ص ٦٢ إلى ص ٦٥ ) .

(٢) من رسالة أرسلها إليه فى فبراير سنة ١٨٣١ . ص ١٥٤ تخليص الابريز .

(٣) مستشرق ولد سنة ١٧٥٩ وتوفى سنة ١٨٣٥ ، درس العربية وانتدب أمينا للمخطوطات بدار الكتب الملكية ، نشر وترجم كثيراً من الكتب العربية . ( راجع أعماله بكتاب : المستشرقون ص ٣٦ ) .

(٤) تخليص الابريز ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٥) من رسالة للأستاذ . ص ١٦٦ تخليص الابريز .

(٦) حلية الزمن ص ١٠ .

## — ٢ —

أعجب السيد رفاعة أول ما أعجب بنظافة الفرنج[١]، وحسن عاداتهم فى تناول الطعام على الموائد، والنوم على الأسرة[٢] ورش الطرق والميادين بالماء فى الحر ونظافتها[٣]، ورأى الباريسيين يتصفون « بذكاء العقل، ودقة الفهم، وغوص ذهنهم فى الغويصات، وليسوا ... يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسراء التقليد أصلا، بل يحبون دائماً معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة، كل إنسان على قدر حاله، فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب، حتى الصنائع الدنيئة، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئاً لم يسبق به، أو يكمل ما ابتدعه غيره، ومما يعينهم على ذلك، زيادة عن الكسب، حب الرياء والسمعة ودوام الذكر[٤]»، وأعجبه فيهم ثباتهم على مبادئهم، فآراؤهم فى السياسات لا تتغير، كل واحد يدوم على مذهبه ويؤيده مدة عمره، ومع أنهم يحبون أوطانهم يميلون إلى الأسفار، فقد يمكثون حيناً من الزمن طويلا، طوافين بين المشرق والمغرب، وقد يلقون بأنفسهم فى المهالك لمصلحة تعود إلى أوطانهم[٥]، « ومن أوصافهم توفيتهم غالباً بالحقوق الواجبة عليهم، وعدم إهمالهم أشغالهم أبداً، فإنهم لا يكاون من الأشغال سواء الغنى والفقير[٦]»، « ومن المركوز فى أذهانهم محبة المكسب والشغف به، وصرف الهمة إليه بالكلية،

---

(١) تخليص الابريز ص ٢٧.
(٢) المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤.
(٣) المرجع السابق ص ٥٠.
(٤) المرجع السابق ص ٥٢.
(٥) المرجع السابق ص ٥٣.
(٦) المرجع السابق ص ٥٤.

ومدح الهمة والحركة ، وذم الكسل والتوانى ... وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير[١] » ، وهم « يحرصون على الأموال ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد فى الأرزاق[٢] » ، « ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير ، وتدبير المصاريف ، حتى إنهم دونوه ، وجعلوه علماً متفرعاً من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى[٣] » وهم لا يميلون إلى الإحسان الفردى ، ولكنهم ينشئون له الملاجىء وجمعيات الإحسان[٤] ، ولذلك « ربما تراهم ينهرون السائل ويردونه خائباً ، زاعمين أنه لا ينبغى السؤال أبداً ، لأنه إذا كان السائل قادراً على الشغل فلا حاجة إلى السؤال ، وإن كان عاجزاً فعليه بالمارستانات ونحوها[٥] » .

ومن أهم ما مجده فى فرنسا نظمها السياسة ، القائمة على مبادىء الدستور ، ولشغفه بهذه المبادىء ترجم فى كتاب رحلته ، دستور فرنسا ، وعلق عليه ، وسوف نعقد فصلا خاصاً لآرائه السياسية .

وأعجبه كذلك توخيهم للعدل فى حكومتهم ، وتمسكهم بالقوانين ، ونفرتهم من الظلم والتشفى[٦] .

وأحسن ما ينبغى أن يمدح به أهل فرنسا هو عنايتهم الكبرى بالعلم ، ولوعهم بالمعارف ، حتى نمت العلوم وتنوعت فروعها تنوعاً يتحسر السيد رفاعة على أن لا وجود له فى مصر ، وقد أطال الحديث فى كتابه عن أنواع العلوم ووسائل تيسيرها للراغبين ، وعن المكاتب المنتشرة ، والمطابع التى لا تهدأ ، وكثرة اهتمام الفرنسيين بقراءة الكتب ، وشغفهم وأنسهم بها ، ومن وسائل تيسير العلم فى باريس « أوض القراءة » ، أو خلوات القراءة ، فيذهب الإنسان فيها

---

(١) تخليص الابريز ص ١٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٧ .
(٤) المرجع السابق ص ١٢٠ وما يليها .
(٥) المرجع السابق ١٢٢ .
(٦) المرجع السابق ص ١٨٢ .

ويدفع قدراً معلوماً ، ويقرأ سائر ( الجرنالات ) وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ، ويأخذه عنده ، ويرجعه ، ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية ، وخاناتهم ، وتجارات الكتب ، فإنها من التجارات الرائجة ، وكثرة المطابع وكثرة التآليف التى تطبع كل سنة ، فإنها يعسر حصرها . . . ولا تمر سنة بمدينة باريس إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير [١] » .

وقد تغلغل السيد رفاعة فى دراسة الحياة العلمية الفرنسية ، عن كثب ؛ فعرف المدارس الفرنسية ، ومجامع العلماء فيها ، ووصف أعمال هذه المجامع وأثرها فى الحياة الفكرية [٢] . وأطال أيضاً فى الحديث عن خزائن الكتب وما تحويه [٣] .

وأعجب كذلك بمظاهر الحضارة المادية ، من مبان ، وشوارع ، وحوانيت للتجارة [٤] .

أما رأيه فى المرأة الفرنسية فى عصره ، فلم ير فى السفور ما يجلب الفساد بطبيعته ، وإنما ينشأ الصلاح والفساد من التربية الصالحة أو الطالحة ، وقد جرب فى بلاد فرنسا ، أن العفة تستولى على قلوب النساء ، المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيراً ، ويتهمون فى الغالب [٥] ، ويجمل رأيه فى ذلك فيقول : « فى فرنسا الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من هى بضد ذلك ، وهو الأغلب ، لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكوراً وإناثاً ، وعشقهم معلل ، لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك ، إلا أنه قد يقع بين الشاب والشابة ، فيعقبه الزواج [٦] .

والسيد رفاعة يرى وجود المرأة الفرنسية فى المجتمع ، تكسبه جمالا ، وتملؤه أنساً وبهجة ، قال بعد أن تحدث عما فى منازلهم من ألوان التجميل والزخرف : « ثم

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٥ وراجع أيضاً ص ١٠ و ١٠٢ و ٨٦ و ٨٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٨ وما يليها .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٥ و ٣٤ و ٣٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٦) المرجع السابق ص ٨٩ .

إن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت ، أى أن زوجة صاحبه التى تحيى الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية [(١)] » .

ولكن إعجابه بفرنسا لم يحل بينه وبين أن يبدى ألمه لما رآه فى باريس « من الفواحش والبدع والاختلالات [(٢)] » وقال أيضاً : « ومن عقائدهم القبيحة قولهم : إن عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء ، وأذكى منها ، ولهم كثير من العقائد الشنيعة ، كإنكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم : العاقل من يصدِّق بالقضاء ، ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء ، وإن كان لا ينبغى للانسان أن يحيل الأشياء على المقادير ، أو يحتج بها قبل الوقوع ، فإن من الأمثال التى سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير [(٣)] » . والواقع أنه لا فرق فى النتيجة بين ما يعرضه رفاعة ، من أنه لا ينبغى أن تحيل على المقادير أو تحتج بها ، وبين عقيدة الفرنسيين ، وربما كان هذا هو الذى أشار إليه ( كارا دى قو ) ، بقوله : « برغم تقوى هذا الكاتب الألمعىّ وعقيدته ، قد فهم الفلسفة الفرنسية للقرن الثامن عشر ، وانطبع بآثارها المؤمنة بالعقل ، انطباعا ربما كان أكثر مما ينبغى [(٤)] » .

أما رأى رفاعة فى موقف الباريسيين من الدين فقد أجمله فى قوله : « أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا ينتحل دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسّنة والمقبّحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، فإذا ذكرت له دين الإسلام فى مقابلة غيره من الأديان ، أثنى على سائرها ، من حيث إنها كلّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وإذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال : « إنه لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب ، لخروجه عن الأمور الطبيعية [(٥)] » ،

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٤) Les Penseurs de L'Islam. V. P. 243

(٥) تخليص الابريز ص ١٩ .

« وهم لايصدقون بما لايوافق العادة [١] » ، وقال فى موضع آخر : « إن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ... فلا يعتنون بما حرّمه دينهم أو واجبه أو نحو ذلك ، ففى أيام الصيام فى باريس ، لاينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت إلاّ ما ندر ، كبعض القسوس ، وبيت ملك الفرنسيس القديم ، وأما باقى أهل المدينة فإنهم يستهزئون بذلك ، ولا يفعلونه أبداً ، ويقولون : إن سائر تعبّدات الأديان التى لانعرف حكمتها ، من البدع والأوهام ، ولا تعظّم القسوس فى هذه البلاد إلا فى الكنائس ، عند من يذهب إليهم ، ولا يسأل عنهم أبداً [٢] » . وقد ناقشه المستشرق ( دى ساسى ) فى بعض هذه الآراء التى عرضها فى رحلته ، وسوف نتحدث عن ذلك فى الفصل الذى سنعقده لكتاب تخليص الإبريز .

ومما ذكرناه ، يبدو أن رفاعة لم يذهب إلى باريس ، ليعيش فى صومعة يدرس فيها العلم ، ولكنه انتهز هذه الفرصة ، وأمعن النظر فى كلّ ما مرّ أمام عينيه ، وتغلغل فى الحياة الفرنسية من جميع نواحيها : سياسية ، وعلمية ، واجتماعية .

## عودتـــــه

وغادر رفاعة باريس فى رمضان سنة ١٢٤٦ هـ [٣] ( أواخر سنة ١٨٣١ م [٤] ) وعند وصوله إلى الإسكندرية حظى بمقابلة المغفور له : إبراهيم باشا ، وسأله عن بيت آبائه بطهطا ، وكان لإبراهيم باشا معرفة بهم ، فأسبغ الأمير عطفه على القادم الجديد ؛ ولمّا وصل رفاعة إلى القاهرة ، سعد بمقابلة مجدّد مصر محمد على باشا ، ورأى من تشجيعه له وعطفه عليه ، ماقوّى فيه الأمل فى مستقبل مزدهر ، وعيش سعيد [٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٩ .
(٤) البعثات العلمية ص ٤٦ .
(٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ .

وتحدث رفاعة فى رسالة له إلى جومار ، عن حسن استقبال العلماء له بعد عودته ، وعن قراءة شيخ الإسلام لرسالته فى وصف رحلته ، وعن عزم الشيخ على رجاء الوالى أن يطبع الرسالة ، ويحبب إلى المسلمين التّغرّب فى طلب العلم ، من أجل منفعة بنى وطنهم[1] .

وصمّم أن يخدم بلاده ، بترجمة كتب الجغرافيا والتاريخ[2] ، ولعله كان يرى أن النهضة العلمية فى مصر ، يجب أن يكون من أسسها ترجمة العلوم ، ونقل المعارف من لغات الأمم الناهضة ، كما سبق العباسيون بذلك ، عندما بنوا نهضتهم العلمية ، فى عصر الرشيد والمأمون ، وكانت مصر يومئذ فى أشد الحاجة حقاً إلى الترجمة ، لنقل العلوم الأوربية إلى لغة البلاد .

## فى مدرسة الطب[*]

عاد رفاعة إلى وطنه ، يحمل فى يد ما ترجمه وهو فى باريس ، وفى الأخرى ماظفر به من شهادات تنطق بما وصل إليه من العلوم والمعرفة ، ومنها شهادة من أستاذه شواليه ، كلها إجلال وإكبار[3] ؛ فأراد محمد على الانتفاع به فى مدرسة الطب ، التى افتتحت فى آخر شهر من سنة ١٢٤٢ هـ بقرية أبى زعبل ، برئاسة كلوت بك الشهير[4] .

ذلك أنه كان من المتعذّر يومئذ العثور على تلاميذ يعرفون اللغة الأجنبية ، فلم يكن ثمّت بد من أن تدرس لهم علوم الطب باللغة العربية التى لا يعرفون غيرها ، ولما كان الأساتذة لايعرفون اللغة العربية ، كان لابدّ من وسيلة لنقل دروس هؤلاء الأساتذة إلى اللغة العربية[5] فعيّن لذلك مترجمون ينقلون معارف الأساتذة

(١) محمد شفيق غربال ص ف .
(٢) تخليص الإبريز ص ٢٠٨ .
(*) حياتها ونظمها بكتاب التعليم فى عصر محمد على ص ٢٥١ .
(٣) تجد ترجمة هذه الشهادة بكتاب تخليص الإبريز ص ١٦٦ .
(٤) حلية الزمن ص ١٠ .
(٥) التعليم فى عصر محمد على ص ٢٥٥ .

إلى الطلبـة ، وكان رئيس المترجمين بالمدرسة سورياً ، يدعى يوحنا عنحورى[١] ، فلما عين رفاعة بالمدرسة اختبره ، فوجده كفئاً[٢] .

وإلى جانب عمل رفاعة فى الترجمة ، عهد إليه بتدريس الترجمة لعشرين تلميذاً فى المدرسة الفرنسية الملحقة بمدرسة الطب ، ليتلقى فيها تلاميذ الطب اللغة الفرنسية ، إلى جانب ما يدرسون من علوم ، حتى يتمكنوا بعـــد تخرجهم ، من متابعة دراستهم ، بقراءة المؤلفات التى تصدر فى أوربا[٣] .

ووكل إليه أيضاً إدارة المدرسة التجهيزية للطب ، والقيام على شئونها ، وكانت تعرف باسم مدرسة المارستان ، ومدة الدراسة بها ثلاث سنين ، يتعلّم التلاميذ فيها مبادئ الحساب ، والهندسة ، ووصف الـكون ، والتاريخ الطبيعى ، والتاريخ القديم والحديث ، والمنطق ، وللناجحين فى هذه المدرسة الالتحاق بمدرسة الطب[٤] .

ويظهر أن عمله بمدرسة الطب لم يكن الترجمة فحسب ، بل كان يقوم بتدريس بعض المواد ، كما يفهم ذلك من حديث محمد على البقلى باشا[٥] .

ويقال : إنه ترجم رسالة طبية ، وهو يعمل بمدرسة الطب ، ومما لا ريب فيه أن عمله بهذه المدرسة مترجماً ، هو الذى هيأ له القدرة على ترجمة مثل هذه الرسالة ، وعلى الإشراف على تلاميذه ، وهم يترجمون بعض كتب الطب كما سنرى ، كما أن إلفه السابق بترجمة نبذة فى الصحة وهو بباريس ، سهّل له عمله فى مدرسة الطب .

## فى مدرسة المدفعية[*]

وفى سنة ١٢٤٩ هـ ( ١٨٣٣ م ) انتقل من العمل بمدرسة الطب ، إلى مدرسة

---

(١) آثاره وشىء عنه بـكتاب حركة الترجمة بمصر ص ٥٨ .
(٢) حلية الزمن ص ١٢ .
(٣) التعليم فى عصر محمد على ص ٢٥٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٨٨ .
(٥) حلية الزمن ص ١١ .
(*) راجع فى حياتها ونظامها كتاب التعليم فى عصر محمد على ص ٤٠٧ .

المدفعية ( الطوبجيّة ) بطره ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية[١] ، بدلا من المستشرق الشاب ( كنج ) Kœnig [٢] ، وربما كان من مرجّحات تعيينه فى هذا المنصب ، ماقام به من ترجمة بعض فصول من كتاب لجندر ، وكتاب عمليات ضباط[٣] وكان بتلك المدرسة مطبعة تقوم بطبع مايعرّبه رفاعة ، وقد ترجم وهو بتلك المدرسة رسالة فى الهندسة ، كانت مما يدرس فى المدرسة الحربية بسان سير بفرنسا .

مكث رفاعة بتلك المدرسة مدة عامين ، من سنة ١٢٤٩ إلى سنة ١٢٥١ هـ[٤] ( ١٨٣٣ — ١٨٣٥ م[٥] ) ، وفى أثناء ذلك وقع وباء بالقاهرة سنة ١٢٥٠ ، فسافر رفاعة إلى طهطا ، وبها ترجم فى ستين يوماً مجلداً من جغرافية ملطبرون ، وعاد به إلى القاهرة ، وقدمه إلى محمد على باشا ، فسرّ به ، وأعجب بمقدرته ، وكافأه مكافأة مالية ومعنوية[٦] .

ويظهر أن رفاعة لم يكن راضياً عن مقامه بتلك المدرسة ، التى كان يرأسها أستاذ إسبانى يدعى ساكورا De Seguera ، والظاهر أن ما اتّصف به هذا المدير من حدّة الطبع وخشونة الخلق[٧] ، كان له أثره فى نفور رفاعة منه ، وربما كان كره المدير للفرنسيين[٨] ، قد دفعه كذلك إلى كراهة الثقافة الفرنسية ، والمثقفين بها .

وقد أعفى رفاعة من العمل بتلك المدرسة[٩] ، ونيط به نظارة مكتبة المدرسة التجهيزية بالقصر العينى ، وكانت مكتبة فخمة ، تحتوى على خمسة عشر ألف

---

(١) عصر محمد على ص ٤٨٥ .
(٢) التعليم فى عصر محمد على ص ٤٠٩ وترجمته وأعماله بكتاب حركة الترجمة ص ٤٧ .
(٣) راجع ص ٢٦ .
(٤) حلبة الزمن ص ١٥ .
(٥) محمد الصادق حسين .
(٦) حلية الزمن ص ١٣ .
(٧) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٤١٥ .
(٨) المرجع نفسه .
(٩) المرجع نفسه .

مجلد ، معظمها بالفرنسية والإيطالية[١] ، ورياسة فرقة تلامذة الجغرافية بهذه المدرسة[٢] ، ولم يكن القصر العينى قدخصّص بعد لمدرسة الطب[٣] . ولكن مدته هناك لم تطل ، بل نقل إلى عمل خلد اسمه ، وهو عمله فى مدرسة الألسن .

## فى مدرسة الألسن

كان عصر محمد على عصر ترجمة أكثر منه عصر تأليف ، فقد كان محتاجاً إلى أن يعرف علوم الغرب وآدابه ونظمه وطرائقه فى معالجة شئون الحرب والزراعة والصناعة ووسائل العمران[٤] ، ولذا كان محمد على يرى أن أوّل واجب على أعضاء البعثة ترجمة كتب العلوم التى درسوها فى أوربا ، فكان أول عمل يسند إليهم ، إمدادهم بالكتب ، والتنبيه عليهم بسرعة ترجمتها[٥] ، وكانت الحكومة تعلق على أعمال الترجمة أهمية كبرى ، لكى تظفر بأكبر عدد من الكتب المترجمة فى أقلّ زمن ، حتى أصبحت الترجمة تشغل الموظفين عن أعمالهم . ثم ظهر أن بعض المترجين لم يكن لهم من حذق اللغات الأجنبية والعربية ، والقدرة على التحرير والكتابة ، ما يمكنهم من ترجمة ما عهد به إليهم ترجمة صحيحة[٦] . فدعا ذلك إلى التفكير فى حلّ يخفّف عن أعضاء البعثات هذا العبء ، ويضمن وجود طبقة من العلماء والأكفاء فى الآداب العربية وفى آداب اللغات الأجنبية ، ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الفرنجية ، وليكونوا صلة بين الثقافة العربية والغربية ، وينهضوا بالأداة الحكومية فيما يعهد به إليهم من المناصب[٧] ، فعرض رفاعة على

(١) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٢) حلية الزمن ص ١٥ .

(٣) محمد الصادق حسين .

(٤) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣٢٩ .

(٥) حركة الترجمة ص ٢٦ .

(٦) حركة الترجمة ص ٢٧ .

(٧) المرجع السابق ص ٢٨ وعصر محمد على ص ٤٨٦ .

محمد على أن يؤسس مدرسة ألسن ، يمكن أن تؤدى للوطن هـذه الخدمات ، ويستغنى بها عن الدّخيل (١) ، فأصغى الأمير إليه ، وعهد إليه باختيار تلاميذها « مناصفة من القسمين البحرى والقبلى ممن يقرأ ويكتب ، بشرط أن يكون التلميذ صحيح البنية ، وسنه مابين أربع عشرة سنة إلى ثمانى عشرة ... وقد تقرر إرسال رفاعة ومعه حكيم ، لانتقاء التلامذة المطلوبين (٢) » . واختار لها رفاعة التلاميذ من مدارس الأرياف والأقاليم ومن طلبة الأزهر ، فبلغ عددهم فى بداءة عهدها خمسين تلميذاً (٣) ، وجعل مقرّها ( بالسراى ) المعروفة ببيت ( الدفتردار ) بحىّ الأزبكية حيث فندق ( شبرد ) الآن ، وكانت بجوار قصر محمد بك الألفى الذى سكنه من بعده بونابرت ثم محمد على (٤) .

ولم تحتفظ المدرسة بعدد تلاميذها الأول ، بل زادوا إلى مائة وخمسين ، وفى سنة ١٨٤١ قرّرت لجنة تنظيم المدارس أن يكون عدد تلاميذها ستين تلميذاً ، وظلت محتفظة بنحو هذا العدد حتى نهاية عصر محمد على (٥) .

كانت المدرسة عندما أنشئت فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥١ (٦) (١٨٣٥ م) تسمى مدرسة المترجمين ، ثم غير اسمها فصار مدرسـة الألسن (٧) ؛ ولما وضعت قوانين التعليم سـنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ م أصبح الغرض منها تخريج مترجمين ، وإمداد المدارس الخصـوصية الأخرى بتلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية ، حتى إذا تخرجوا فى هذه المدارس ، كانوا على معرفة بالعلم الذى يترجمون فيه ، واللغة التى يترجمون منها ، فهى مدرسة تتراوح بين أن تكون مدرسة تجهيزية ومدرسة خصوصية ، ولـكنها لم تعن إلا بتخريج المترجمين والمدرسين (٨) ، فلما كانت سنة

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ .
(٢) حركة الترجمة ص ٢٩ .
(٣) عصر محمد على ص ٤٨٦ .
(٤) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٣١ .
(٦) نظم اللآلىء فى السلوك ص ٢٧٢ .
(٧) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٠ . وحركة الترجمة ص ٢٩ .
(٨) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣١ .

١٨٤١ رأت اللجنة المكلفة ببحث نظم التعليم أن لوائح سنة ١٨٣٦ تجعل منها مدرسة تجهيزية تعدّ تلاميذ يعرفون اللغة الفرنسية ، وتهيئهم للمدارس الخصوصية الأخرى ، على أن تكون هى نفسها أيضاً مدرسة خصوصية ، ولاحظت أيضاً أنّ مدرسة الألسن لم تعن بإعداد تلامذة للمدارس الخصوصية ، ومضت فى تخريج المترجمين ، إلا أن هؤلاء المترجمين مهما تكن قدرتهم على ترجمة كتب التاريخ والقانون والجغرافية والعلوم الأخرى التى لاتحوى مصطلحات فنية كثيرة ، كانوا بلا شك عاجزين عن ترجمة الكتب المتعلقة بالعلوم والرياضيات ؛ لهذا رأت اللجنة إعادة المدرسة التجهيزية وإلحاقها بمدرسة الألسن ، على أن يدرس تلامذتها اللغة الفرنسية منذ التحاقهم بها ، حتى إذا التحقوا بإحدى المدارس الخصوصية كانوا متمكنين من ترجمة الفنون التى تخصصوا فيها (١) ؛ واختير للتدريس بهذه المدرسة من تخرجوا فى مدرسة الألسن (٢) .

ومدة الدراسة بمدرسة الألسن خمس سنين ، قد تزاد إلى ست ، وكان يدرس بها اللغات الفرنسية والعربية والتركية والفارسية والإيطالية ، والهندسة ، والجبر ، والحساب ، والتاريخ ، والجغرافية ، ودرست اللغة الإنجليزية بها حيناً ، وقرأ التلاميذ قصصاً وكتباً فى قواعد اللغة الإنجليزية . ولكنّ العناية كانت مصروفة إلى حسن القيام على تدريس اللغة الفرنسية والعربية ، وكان التلاميذ يقرءون فيها كتباً فى النحو والبيان والبديع والعروض والأدب ، والراجح أن دراسة اللغة التركية لم يعن بها عناية كافية فى مدرسة الألسن (٣) .

وقد ألحق بهذه المدرسة سنة ١٨٤١ المدرسة التجهيزية كما ذكرنا ، وأنشىء ( قلم للترجمة ) ألحق بالمدرسة ، وسوف نفرد له بابا خاصاً . وفى نحو سنة ١٢٦٠ هـ ( ١٨٤٤ م ) أنشيء بمدرسة الألسن قسم لدراسة الإدارة الملكية العمومية ؛ ليعمل خريجوه فى المديريات والمصالح ، وبعد ذلك بعامين أنشىء بها قسم آخر لدراسة

(١) حركة الترجمة ص ٣١ .

(٢) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ .

(٣) حركة الترجمة ص ٣١ — ٣٢ والتعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٢ وعصر محمد على ص ٤٧٦ .

الإدارة الزراعية الخصوصية . وفى أواخر سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٧م) أنشىء بها قسم لدراسة العلوم الفقهية ، ويتلقى تلامذته دروساً فى الفقه على مذهب أبى حنيفة ، حتى إذا تخرّجوا عيـّنوا قضاة بالأقاليم [١] ، وضمت إليها مدرسة محاسبة أيضاً [٢] .

وهكذا كانت مدرسة الألسن وملحقاتها أشبه ما تكون بكلّيات الآداب والحقوق والتجارة معاً . كما كان بها مخزن عام يمدّ المدارس بما تحتاج إليه من أدوات وملابس ، ودار صغيرة للآثار ، وأخرى للكتب الأجنبية [٣] .

ومنذ أنشئت مدرسة الألسن « أدخل السرور على الشيخ رفاعة الذى ذهب فيما تقدم إلى باريس ، وحصّل الفنون ، وتعلمها على وفق المطلوب — برياسة هذه المدرسة الجديدة [٤] » ، كما أسندت إليه إدارة هذه الأقسام المختلفة ، وكان رفاعة فضلاً عن إدارته للمدرسة فنياً ، من ناحية توزيع التلاميذ على الفرق المدرسية ، وتوزيع المواد الدراسية والمدرسين — ناظراً للمدرسة ، يشرف على شئونها الإدارية ، من ناحية الضبط ورياسة عمال المدرسة [٥] ؛ وكان يشرف على مراجعة الكتب التى يترجمها تلامذته وإصلاحها ، ويتولى التدريس فيها بنفسه ، ويعاونه طائفة من خيرة المصريين والأجانب ، ذكر بعضهم على باشا مبارك [٦] .

وبذل رفاعة كل ما يملك من جهد فى إعداد هذا الجيل وتربيته وتثقيفه ، وأظهر جلداً على العمل ودأبا ، قال عنه على مبارك : « وكان دأبه فى مدرسة الألسن ، وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم ، وفى تأليفاته وتراجمه خصوصاً ، أنه لا يقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين

---

(١) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٦ .
(٢) محمد الصادق حسين .
(٣) تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ٥٧ .
(٤) الوقائع المصرية العدد ٥٩٠ الصادر فى يوم الأحد ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٥١ .
(٥) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٤ .
(٦) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ .

الأجنبية ، وله فى الأول مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية ، بحيث أمسى جميعهم فى الإنشاءات نظماً ونثرا ، أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف[١] » .

وفضلا عن ذلك كله أحيل عليه تفتيش مكاتب الأقاليم عموما ، وتفتيش مدارس الخانقاه وأبى زعبل[٢] ، وكان يرأس كل عام لجنة امتحان تلاميذ مكاتب (المبتديان) بالأقاليم ، فيسافر فى النيل إليها ، ويمتحن تلاميذها ، ويأتى بالمتفوقين منهم إلى المدرسة التجهيزية[٣] ، وزيادة على ذلك أسند إليه تحرير الوقائع المصرية سنة ١٢٥٧ هـ[٤] ، فكان مرهقاً بالعمل أيما إرهاق ، ولذلك عيّن له ديوان المدارس مدرساً فرنسياً يعاونه على إدارة المدرسة والتفتيش على الدروس وأمانة المكتبة[٥] .

أما تلاميذ رفاعة بمدرسة الألسن فكانوا يمرّنون على ترجمة الكتب وهم لا يزالون بالمدرسة ، زيادة على المواد الدراسية التى يتلقونها[٦] ، ويقوم بإصلاح ما يترجمون أساتذتهم ومدير مدرستهم رفاعة ، ثم تطبع ، ويقرؤها المدرسون والتلاميذ[٧] .

وخرجت أول فرقة من المدرسة سنة ١٢٥٦ هـ ( ١٨٤٩ م[٧] ) ، وفى هذا العام وقف رفاعة كعادته خطيباً ، يقدم أوّل ثمار مدرسته ، وكانوا نحو عشرين طالبا ، فقال من خطبة طويلة : « بدت مدرسة الألسن كالغرّة فى وجه الأزبكية ، وامتازت بالأعمال السنية ، تتبّعت تلامذتها فى العلوم البحث عن الأصل والفرع ،

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٤ .
(٤) تاريخ الوقائع المصرية ص ٤٥ .
(٥) التعليم فى مصر ص ٣٣٤ .
(٦) حركة الترجمة ص ٣٢ .
(٧) التعليم فى مصر ص ٣٣٣ .
(٨) فى المرجع السابق أن أول فريق تخرج فى المدرسة كان سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) ولكن لما رجعنا إلى خطب رفاعة رأينا خطبته فى امتحان أول فرقة تخرجت كانت سنة ١٢٥٦ ( راجع كتاب نظم الدر فى السلوك ص ٢٧٥ وص ٢٧٩ ) .

وتبعث فى الفهوم العقل والشّرع ، وإن تميزوا بقواعد اللغات المرعية ، فقد تحيّزوا إلى فئة العقائد الشرعية ، وأظهروا من البراعة التامة ، ما هو متردّد فى ألسنة الخاصة والعامة ، وخرج منهم إلى الخدم فى المصالح الأميرية نحو عشرين ، ظفروا لمهارتهم بالرتب البهية ، وظهرت ثمراتهم فى تعريب بعض كتب عظام ، تمت طبعا أو شارفت التمام [١] » ومن تلك الخطبة « ... تظهر النتيجة كافية شافية ، مستكملة وافية ، حتى يظهر للحاضرين أن هذه السنة التى هى ميعاد أوّل فرقة أنجزنا فيها ماوعدنا به ، بعد بذل مافى الطّاقة من المشقة ، ولا يخفى أن أصل تصدّينا لإنشاء هذه المدرسة ، حبّ إيصال النفع إلى الوطن ، الذى حبّه من الإيمان ، وتقليل التغرب فى بلاد أوربا حيث لا يتيسر لكلّ إنسان ، والنصح فى الخدمة ، لحضرة ولىّ النعمة ... فإن خدمة مصر ، فريدة العصر ، دار هجرة الفهم ، المبرزة لكل شهم ، من خير ما أفتى به اللبيب وافتتن ، واعتنى به واقتناه ذخيرة للزّمن ، بل هو فرض على من كان من بنيها ، أو مستوطناً فيها ، جعلنا الله بارّين ، ومن أهل العقوق بريئين ... [٢] »

وكان بعض المتخرجين فى هذه المدرسة يعين بها مدرساً للفرنسية أو العربية ، فيحلون محل أساتذتهم ، ولما أنشىء قلم الترجمة فى أوائل سنة ١٢٥٨ هـ ( ١٨٤١م ) ألحق به هؤلاء المتخرجون ، وما كانوا يمنحون الرّتبة ، إلا بعد أن يترجم كل منهم كتاباً ، يحوز الرّضاء السامى ، وحيناً يظلون بالمدرسة بعد تخرجهم « تحت الطب » ، فإذا احتاجت مدرسة أو مصلحة إلى أحدهم استدعته ، ومنحته الرتبة ومرتبها [٣] .

كانت مدرسة الألسن ملتقى ثقافة الشرق بالغرب ، تجمع بين دراسة ما عرفته مصر من الفقه واللغة والأدب ، فى كتب أزهرية يدرسها رجال الأزهر ، وبين دراسة اللغة الأجنبية والأدب والنحو والقصص والتاريخ الغربىّ ، حتى إذا ظفر التلاميذ بنصيب موفور من هاتين الثقافتين ، مضوا ينقلون إلى بنى وطنهم الثقافة الغربية ، ممثلة فى تلك الكتب التى ترجموها ، فى كل فن وعلم بمهارة وصدق ، يهتدون

---

(١) نظم الدر فى السلوك ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨١ .

(٣) التعليم فى مصر ص ٣٣٦ .

بنور مثلهم الأعلى وأستاذهم رفاعة؛ قال عنهم قدرى باشا : « وبأنفسهم ، وبالكتب العلمية التى ترجموها ساعدوا على نشر أفكار الرّقىّ ، والمدنية بين أهل البلاد ، وانتفعت بهم الحكومة ، فى المناصب الإدارية العالية ، وفى وظائف الترجمة ، ومنهم من انقطعوا للتعليم ، وبفضل مجهودهم ، تعلم آلاف من أهل البلاد الفرنسية أو الإنجليزية ، أو الإيطالية[١] .

وأغلب الظن أنه شرح لاميّة العرب ، واختصر معاهد التنصيص ، فى ذلك العهد ، الذى كان فيه مديراً لمدرسة الألسن ، كما ألف يومئذ كتاباً فى المذاهب الأربعة انتفع به تلامذة قسم الفقه بهذه المدرسة[٢] .

وظل رفاعة ناهضاً بأعبائه الثقال فى مدرسة الألسن وما تبعها ، حتى أوائل عصر عباس الأوّل ، حيث نقلت من الأزبكية إلى الناصرية ، ثم ألغيت المدرسة فى المحرّم سنة ١٢٦٦[٣] هـ ( نوفمبر سنة ١٨٤٩[٤] م ) حيث عين رفاعة بك ناظراً لمدرسة ابتدائية فى الخرطوم ، وبهذا انتهت حياة ذلك المعهد الجليل ، الذى كان أكبر معهد لنشر الثقافة فى مصر[٥] .

## قلم الترجمة

اتجهت النّية منذ إنشاء مدرسة الألسن ، إلى أن تجمع المتخرجين فيها فى قلم واحد ، على أن تكل الإشراف الفنى على ما ترجموا من كتب إلى أساتذة مختصين ، لكى تكون التراجم مضبوطة مستوفية حقها من الصحة ، سليمة من الخطأ ، ذلك أنّ ترجمة كتب العلوم والفنون ليست مقصورة على معرفة اللغة فحسب ، بل تتوقف

---

(١) محمد الصادق حسين .

(٢) حلية الزمن ص ٢٦ .

(٣) فى تقويم النيل ( المجلد الأول من الجزء الثالث ص ٢٨ ) أن إلغاءها كان فى رجب سنة ١٢٦٧ وأكثر الكتب على ماذكرنا .

(٤) تاريخ التعليم فى مصر عصر عباس وسعيد ص ٥٨ .

(٥) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٧ وعصر محمد ص ٤٨٦ .

أيضاً على الإلمام بالعلم أو الفن المترجم كتابه ، فشكل هـذا القلم سنة ١٢٥٨ هـ ( ١٨٤١ م ) ، وألحق بمدرسة الألسن تحت إدارة مديرها رفاعة بك [١] ، وجعل أربعة أقلام : القلم الأول قلم ترجمة الـكتب المتعلقة بالعلوم الرّياضـية ، ونصب ( البـكباشى ) محمد بيومى افندى رئيساً لهذا القلم ، والقلم الثانى قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعة ورئيسه ( اليوزباشى ) مصطفى واطى افندى ، وهو من مدرّسى مدرسة الطب البشرى ، والقلم الثالث قلم ترجمة كتب الأدبيات كالتاريخ والقصص والقوانين والجغرافيا ، وجعل رئيسه الملازم الأوّل خليفة محمود افندى وهو من مدرسى مدرسة الألسن ، أما القلم الرّابع فهو قلم الترجمة التركية ، وقد نصب ميناس افندى المترجم بديوان المدارس رئيساً له [٢] .

ولما كان قلم الترجمة ملحقاً بمدرسة الألسن ، كان ديوان المدارس يتجه فى كل ما يختص بالقلم وموظفيه إلى رفاعة بك مدير المدرسة ، وفى نهاية كل عام ، تراجع أعمال القلم لجنة امتحان تلاميذ المدرسة لترى : أتمّ ترجمة الـكتب فى مواعيدها فى لغة جيدة ، لتثيب المجيد ، وتنقص من مرتب المهمل ، وأغلب ما كان يترجم فى هذا القلم من الفرنسية إلى العربية ، وبعضها من الفرنسية إلى التركية ، وكان ديوان المدارس يرسل إلى نظار المدارس الخصوصية ، يطلب منهم فى كل عام بياناً بما جد من المؤلفات ، فى المواد التى تدرس بمدرستهم ، فإذا رأى رفاعة بك ترجمتها هى أو غيرها ، وزعها على المترجمين إن كانت تلك الـكتب بالمـكتبة الفرنسية الملحقة بمدرسة الألسن ، وإلا بعث فى طلبها من أوربا [٣] .

وقد أعيد تنظيم قلم الترجمة فى ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ ( أكتوبر سنة ١٨٤٨ م ) وأصبح يتألّف من قلمين ، أحدهما للترجمة العربية تحت إشرف رفاعة ، والآخر للتركية تحت إشراف كيانى بك الذى عين ناظراً لقلمى الترجمة ، ونشر فى الوقائع خبر التنظيم ، فى العـدد رقم ١٣٧ الصادر فى يوم الاثنين المبارك ٢٦ ذى القعدة

(١) المرجعان السابقان الأول ص ٣٤٠ والثانى ص ٤٨٧ .
(٢) التعليم فى عصر محمد على ٣٤١ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٤٢ و ٣٤٣ .

سنة ١٢٦٤ جاء : لما كانت ترجمة الكتب المرغوبة ، التى تشتمل على القوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنساوية إلى التركية والعربية ، وطبعها ونشرها وسيلة عظمى لتكثير المعلومات المقتضية (؟) وقضية مسلمة عند أولى النهى ، وكان حصول ذلك لا يتأتى إلا بوجود المترجمين البارعين فى ألسنة الإفرنجى والتركى والعربى واجتماعهم فى محل واحد ، وقسمهم إلى قلمى ترجمة ، وضمهم إلى نظارة حضرة أمير اللواء كانى بك ، وكيل ديوان التفتيش ، الفريد فى فن الترجمة ، المشهور بالسلاسة والبلاغة ، حصل فتح القلمين كما ذكر ، وقد تعين حضرة رفاعة بك ، أمير ألاى ، الذى كان ناظر مدرسة الألسن ، التابعة إلى ديوان المدارس ، ناظراً على قلم الترجمة العربى ، فى معية حضرة الأمير المومى إليه .

ولكن هذا التنظيم الجديد لم يستمر طويلا ، فقد ألغى قلم الترجمة فى السنوات الأولى من حكم عباس[١] ، بعد أن ظل يمد المدارس بما تحتاج إليه من الكتب المعربة ، فقد كان ذلك من المهام الملقاة على عاتقه .

## فى السودان

بعد إلغاء مدرسة الألسن ، استقر الرأى على إنشاء مدرسة فى السودان ، « إنقاذاً لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، فيمتازوا باكتساب العلوم والمعارف ، على أن يقبل ويقيد فيها مائتان وخمسون غلاماً[٢] » ، على أن يكون مقرها الخرطوم ، واختار عباس رفاعة ناظراً لها ، بحجة أنه « ملم بأصول المدارس ، لينسقها كما ينبغى ، وينظها نظاماً حسناً » وعهد إليه باختيار المدرسين من بين الرجال الأكفاء[٣] .

لا غبار على رغبة عباس فى أن ينشىء مدرسة أو مدارس فى السودان ،

(١) المرجع السابق ص ٣٤٤ .
(٢) تاريخ التعليم فى مصر : عهد عباس وسعيد ج ١ ص ١١٤ .
(٣) المرجع نفسه .

فذلك واجب ولى الأمر ، أما أن يختار لنظارة هذه المدرسة الابتدائية ، رجلاً من أكبر رجال العلم فى مصر ، بل كبيرهم ، فذلك موضع الدهشة والغرابة ، وقد استقبل رفاعة هذا الاختيار بالسخط والامتعاض ، علما منه بأن هذا السبب الظاهرى لاختياره ، لم يكن إلا تعلّة يقصد بها إبعاده عن مصر ، وبأن الدافع الحقيق إنما هم أولئك الوشاة ، الذين أصغى إليهم عباس ، كما أشار إلى ذلك رفاعة فى قصيدة شكواه وهو بالسودان ، إذ يقول :

وما خلـت العزيز يريد ذلّى ... ولا يصغى لأخصـام لداد
لديه سـعواً بألسنة حداد ... فكيف صغى لألسنة حداد ؟ !
مهازيل الفضـائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى
وزخـرف قولهم إذ موّهوه ... على تزييفه نادى المنادى
فهـل من صيرفى المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقـاد(١)

ولست أدرى من هؤلاء الوشاة ؟ ولا ما تلك الوشاية التى نقلوها إلى أذن عباس، وقد حار مؤرّخوه فى تعليل ذلك ؛ فمن قائل(٢) : « يلوح لى أن لكتابه : تخليص الإبريز سبباً يتصل بنفيه ، إذ لا يخفى أنه طُبع للمرة الثانية سنة ١٢٦٥ هـ ، أى فى أوائل عهد عباس باشا ، والكتاب يحوى آراء ومبادىء لا يرغب فيها الحاكم المستبدّ ، وعباس باشا الأول كان فى طبعه مستبدّا غشوما ، فلا بدّ أن الوشاة قد لفتوا نظره إلى ما فى كتاب رفاعه بك ، مما لا يروق لعباس ، فرأى أن يبعده إلى الخرطوم ، ليكون السودان منفى له ، ولا غرابة فى ذلك ، فلو أنّ الكتاب ظهر فى تركيا على عهد السلطان عبد الحميد ، لكان من المحقق أن يكون سبباً فى هلاك صاحبه ، فمن الجائز أن يكون عباس باشا ، قد رأى نفى رفاعة وأمثال رفاعة إلى السودان ، ليبعدهم ويبعد أفكارهم وثقافتهم عن مصر ، واتخذ لنفيهم صورة ظاهرة وهى إنشاء مدرسة بالخرطوم » . « ويرى بعض الباحثين فى ذلك إصبع على مبارك الذى عاد من أوربا مليئاً بالأطماع ، والذى كان ينفس على رفاعة ما أصاب

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٨ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى بك — عصر محمد على ص ٤٨٩ .

من مكانة ، وقد قرب عباس إليه على مبارك ، وأبعد رفاعة إلى السودان ، فلما خلفه سعيد قرّب إليه رفاعة ، وأبعد على مبارك إلى القرم ، كما يحتمل أن رفاعة قد لقى معارضة ، من بعض المشايخ المتعصبين ، الذين ربما عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراسة الشريعة والفقه ، ومن هذا كله تجمّع الحقد على رفاعة ، والكيد له ولمدرسته [١] » .

ويرى بعضهم [٢] « أنّ البيت الحاكم منشقّ على نفسه إذا تقرّب أحد إلى بعضه ، غضب عليه بعضه الآخر ، يرضى محمّد على باشا وإبراهيم باشا عن رفاعة الطّهطاوى ، فإذا جاء عباس غضب عليه ، وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن ، وعيّنه ناظراً لمدرسة ابتدائية تنشأ فى الخرطوم ، ويرضى عباس الأول عن على مبارك ويقرّبه إليه ، ويعهد إليه فى تنفيذ أمور كثيرة ، فإذا جاء سعيد باشا غضب على على مبارك ، وأعاد رفاعة وقرّبه إليه » . ويقول بعضهم [٣] : « لم يتّسع صدر الحكومة للعلماء أمثال رفاعة ، ولقد طالما ضاقت بالعلماء صدور الحكومات الفاسدة ، والرجال الجهلة » ؛ ولم يفصح رفاعة فى كتبه عن سبب هذا النفى ، ولكنه أشار إشارة خفيّة إلى سرّ ذلك فى قوله : « وفى سنة ١٢٦٧ كنت سافرت إلى السودان ، بسعى بعض الأمراء ، بضمير مستتر ، بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم ، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل ، وتوفى نصف من بمعيتى من ( الخوجات ) المصريين [٤] » ، وأشار فى قصيدته إلى زعمهم أن عمله فى مدارسه عقيم ، فحاجّهم بأنه إذا كان عقيما فى مصر ، فماذا جنوه وقد أبعد إلى السودان .

قياس مدارسى قالوا : عقيم بمصر ، فما النّتيجة فى بعادى

كان رفاعة إذاً يشعر ، وهو فى السودان ، بأنه منفىّ لا مبعوث لنشر العلم والعرفان ، وكان مما يزيد ألمه هناك أن جوّ السّودان أودى بالكثير ممن كانوا فى صحبته ، وأنه لم يصحب معه أهله وبنيه ، فكان دائم التفكير فيهم ، شديد الحنين إليهم ، يتخيل ابتهاجهم وقد صار ببعده ألماً وغماً ، فيقول :

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر ج ١ ص ٥٨ .
(٢) الدكتور أحمد أمين بك — زعماء الإصلاح ص ١٩١ .
(٣) محمد الصادق حسين .
(٤) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ .

وشرح الحال منه يضيق صدرى ولا يحصيه طرسى أو مدادى
وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحداد
وقد فارقت أطفالاً صغاراً بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سراً وجهراً ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم ، والدهر يأبى مواصلتى ، ويطمع فى عنادى
وطالت مدة التغريب عنهم ولا غنم لدىّ سوى الكساد

ومع ذلك قابل رفاعة هذا « المقدور » بالجلد والصبر ، وأخذ يحاسب نفسه على ما قدّم لبلاده ، ليرى : أهناك هفوة اقترفها ، أو خطيئة اجترحها ، فيجد أنّه قد قوبلت حسناته بالإساءة ، وجميله بالنكران ، وأنت تحس بحسابه لنفسه فى مقدمة كتابه : مواقع الأفلاك إذ يقول : « قد تقلدت بعناية الحكومة المصرية الفائقة على سائر الأمصار ، فى عصر المدّة المحمّدية العلوية السامى على سائر الأعصار ، بوظيفة تربية التلاميذ مدة مديدة ، وسنين عديدة ، نظارة وتعليما وتعديلا وتقويما ، وترتيباً وتنظيما ، وتخرج من نظارات تعليمى من المتفننين ، رجال لهم فى مضمار السبق وميدان المعارف وسيع مجال ، وفى صناعة النثر والنظم ، أبهر بديهة وأبهى رويّة وأزهى ارتجال ، وحماة صفوف لا يبارون فى نضال ولا سجال ، وعرّبت لتعليمهم من الفرنساوية المؤلفات الجمّة ، وصححت لهم مترجمات الكتب المهمة ، من كل كتاب عظيم المنافع ، وتوفّق حسن تمثيلها فى مطبعة الحكومة وطبعها ، ومالت طباع الجميع إلى مطبوع ذوقها وطبعها ، وسارت بها الركبان فى سائر البلدان ، وحدا بها الحادى فى كل وادي ، وقصدها القصّاد كأنها قصائد حسّان ، وكان زمنى إلى ذلك مصروفا ، وديدنى بذلك معروفا ، مجاراة لأمير الزمن على تحسين حال الوطن ، الذى حبّه من شعب الإيمان ، وفى مدة نحو الثلاثين سنة ، لم يحصل لهمّتى فتور ولا قصور :

فإذا ملكت فجد ، فإن لم تستطع فاجهد بوسعك كله أن تنفعا

وإنما فقط ، لما توجهت بالقضاء والقدر ، إلى بلاد السودان ، وليس مما قضاه

الله مفرّ ، أقمت برهة خامد الهمّة ، جامد القريحة في هذه الملمّة ، حتى كاد أن يتلفني سعير الإقليم الفائر بحره وسمومه ، ويبلعني فيل السودان الكاسر بخرطومه ، ومع ذلك فكنت فى الوقت الحاضر مصداق قول الشاعر :

فما أنا للأيام غير محارب أصاحبها مستبشراً متهللا
فإن كان حظى رامحاً كنت رامحا وإن كان حظي أعزلاً كنت أعزلا

فما تسلّيت هناك إلا بتعريب تلماك ، وتقريب الرّجا بدور الأفلاك ، وقلت لقلبى : إن تعريب تلماك ، بكل من فى حماك »[١] .

وقد ضاق صدر رفاعة بهذه الغربة الطويلة ، فأنشأ قصيدة ، برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر[٢] « رجاء نشلى من أوحال تلك الأحوال » ، وفى تلك القصيدة يتلهف على العودة إلى مصر فيقول :

وغاية مطلبى عودى لأهلى ولو من دون راحلة وزاد
وصبرى ضاع منذ اشتدّ خطبى وهون الخطب عند الإشتداد[٣]

ولكن لم يتيسر إرسال هذه القصيدة ، فمضى يخمّس قصيدة نبوية يتوسل فيها بالرسول أن يردّه إلى وطنه[٤] .

كان قلق رفاعة سبباً فى أنه لم ير من السودان سوى الناحية المظلمة ، فصور لنا فى هذه القصيدة بيئته الطبيعية والاجتماعية قبيحة مرذولة .

ولاريب : أنّ ماقاساه رفاعة فى إنشاء مدرسة الخرطوم ، فى بيئة لم تعرف الدراسة النظامية من قبل ، وما عاناه من المتاعب فى تأسيسها ، له أثره فى هذا الحكم .

والدّليل على أنّ رفاعة كان فى نظرته تلك متأثراً بغضبه وعاطفته أنه عند ما أبدى رأيه فى السودان وهو هادىء غير ثائر ، يخالف ذلك الرأى ؛ فهو فى كتابه مناهج الألباب المصرية الذى كتبه فى عهد إسماعيل يشيد « بقبول أهلها للتمدن الحقيق ، لدقة أذهانهم ، فإن أكثرهم قبائل عربية ، لاسيا الجعليين والشاقية وغيرهم فإن اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ، ولهم مآثر عظيمة فى

(١) مواقع الأفلاك ص ٣ .
(٢) منصب يشبه منصب وزير الداخلية .
(٣) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ .
(٤) سنحلل قصيده الشكوى وتخميس القصيدة النبوية فى فصل شعره .

حسن التعلم والتعليم ، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير ، يرحل إليه من البلاد الأجنبية للمجاورة ، من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير ، فيعينه أهل بلدته على ذلك ، بتوزيع المجاورين على البيوت بقدر الاستطاعة ، فكل إنسان من الأهالى يخصه الواحد أو الاثنان ، فيقومون بشئونهم مدة التعلم والتعليم »(١). ويقول : « ويغلب على الظن أنه يمكن إيصال التقدمات العصرية ، بعناية الحكومة المصرية ، فى أطراف وأكناف تلك البلاد ، التى هى إلى الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة ، مع مساعدة الوارد والمتردد إليها فى هذه الأيام ، لقصد الزيارة أو التجارة ، فإنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريقة بكثير ، وجميع أهلها ما عدا بعض الجبال ، لسانهم عربى فصيح ، حيث إن جلهم من نسل العرب المنتجعة القبائل قديماً ، يحفظون أحسابهم وأنسابهم ، وفيهم كمال الاستعداد ، وذكاء الفطنة ، وإنما يحتاجون فى حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب ، من حكام أرباب صداقة وعفاف ، وعدل وإنصاف ، لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات إلى الأمور الدنيّة ، بل توجد القابلية أيضاً فى الأهالى المتأصلين »(٢).

وهو بذلك يرسم الطريق للنهوض بالسودان وأهليه ، ويقول فى موضع آخر : « فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ، ودخلت أهاليها بحسن الإدارة فى دائرة الاستقامة ، صارت هى وديار مصر فى العمار كالتوأمين ، وفى إيناع الإثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالهما :

نحن غصنان ضمّنا عاطف الوجـد جميعاً فى الحبّ ضمّ النطاق
فى جبين الزّمان منك ومنى غرّة كوكبيّة الإنفلاق »(٣)

أولا ترى فى هذا القول حديثاً عن الوحدة التى يهفو إليها وادى النيل .

ورأى أنّ « فتح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الإسماعيلية الباهرة ، وكذلك إرساليّة إسماعيل بك الفلكى ناظر المهندسخانة والرصدخانة إلى سواكن ...

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢ .
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

مع بعض المهندسين والرَّسامين ، لتعيين الطرق الحديدية المزمع على إنشائها بالأقاليم السودانية ، وإرسالية بعض أرباب المعارف الإنكليزية فى سنة ١٢٨٦هـ، لاستكشاف منابع النيل ، وإعطاء ملحوظات خيرية ، لـكلّ هذا وأمثاله دلائل قاطعة على أنّ السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعة[١] » .

تلك آراء رفاعة الحقيقية فى السودان ، واستعداد أهله للرُّقىّ واكتساب ألوان الحضارة ، حتى تصبح مصر والسودان وحدة تتألق مدنيتهما فى هذا الوادى العزيز .

ولو أنّ الحـكومة المصرية فـكرت جدّياً فى نشر التعلم بالسودان ، منذ تلك العصور الغابرة ، فأنشأت المدارس ، واختارت لها مدرّسين غير هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنهم منفيون ، لكان العلم قد اشتدّ عوده فى تلك الدّيار ، وسار السودان مع شقيقته مصر فى سبيل التقدُّم والرفاهية ، وربما كان قد تغـيَّر مجرى التاريخ .

وبعد ، فماذا كان مصير مدرسة الخرطوم ؟ اختار رفاعة مدرّسى مدرسته ، ومضى بهم إلى السودان ، وكان عليه « ألا يفترّ عن مراقبة المعلمين ، وتذكيرهم ، وأن يجعل الطلبة موضع اهتمامه ، فيحملهم على السعى والاجتهاد ليكتسبوا المعارف ويتقدَّموا[٢] » ؛ ولـكنّ رفاعة يقضى فى السودان عامين ، من غير أن يرسل أخباراً عن مدرسة الخرطوم ؛ فأرسل إليه ديوان المدارس يسأله « عما صار فى بحر هذه المدّة من التعليمات ، وبيان ما اكتسبوه التلامذة من العلوم ، وما مقدار عددهم ، وبيان درجات كلّ منهم أيضاً[٣] » ؛ وأجاب رفاعة بأنّ أغلب التلامذة الذين جمعوا للمدرسة هربوا « بمعرفة أهاليهم بالجبال المستبعدة ، وفضلا عن ذلك أنهم « ناس غلايظ العقول » ، أما المعلمون فقد توفى الله ثلاثة منهم إلى رحمتـه ، وأما مهمات المدرسة كالطرابيش وغيرها ، فقد استولى عليها حكمدار السودان ، ووزّعها على فرق الجيش ، والخلاصة أنّ المدرسة ، كما وصفها رفاعة ، فى رسالة منه فى غرة شعبان سنة ١٢٦٨ هـ صارت « اسماً بدون جسم » . وربما أراد بذلك أن يقنع أولى الأمر بمصر ، أن يعدلوا عن الاستمرار فى تجربة فتح المدرسة ،

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٨٠ .
(٢) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١١٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

فيعود إلى مصر ، ولكنَّ عباساً أصرَّ على الاستمرار ، وكتب فى ٢١ رمضان سنة ١٢٦٨ هـ رسالة إلى إسماعيل حقى باشا ( حكمدار ) الأقاليم السودانية يقول له فيها : وصل إلى سمعنا وعلمنا فى هذين اليومين ، أنَّ المدرسة المقرَّر تأسيسها وإنشاؤها فى بلدة الخرطوم ، لتعليم وتعلُّم أولاد الناس وصبيانهم أهمل فتحها إلى الآن ، وحيث إنَّ رفاعة بك ، الذى تعيَّن ناظراً للمدرسة المذكورة ، وأستاذاً أوَّل لها توجَّه إلى بلدة الخرطوم ، ووصل إليها من مدَّة مديدة ، فالمأمول أن تبادروا بفتح المدرسة على حسب ما تقتضيه إرادتنا ، وتباشروا تعليم وتعلُّم الصبيان أولاد الأهالى بلا تأخير وإهمال ، كما هو منظور فى درايتكم ، وقد حرَّرنا لكم لإجراء إيجابه[1] »

وكتب ديوان المدارس إلى رفاعة يدعوه إلى بذل الهمَّة والاجتهاد ، وأن يفيد الدِّيوان بكل ما يتصل بالمدرسة[2] .

ولمَّا رأى رفاعة أن لا أمل فى العودة ، بدأ يعمل بجدّ ، قال رفاعة : « وفى آخر الأمر ، تنظمت المدرسة نحو تسعة شهور ، وتعلَّم فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفاً من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط[3] » .

وكان تلاميذ المدرسة واحداً وثلاثين ، وبعد شهر ونصف زادوا سبعة ، بفضل جهود حكمدار السودان ، وتوسَّم رفاعة فى عشرة منهم التفوُّق على أقرانهم ، « نخصهم بقراءة القرآن وحفظه ، وإعراب الأجرومية ، وحفظ مفردات ، وجمل تركية ، وخط الثلث والحساب ، ليكونوا قريباً مقدّمين على أقرانهم ، وقلفوات للمدرسة[4] » .

وعقد امتحان التلاميذ فى سنة ١٢٧٠ هـ فى اجتماع حافل ، حضره حكمدار السودان ، ورئيس مجلس الدَّعاوى ، وبعض الأعيان والعلماء والعمد والقاضى ، وأرسل جدول الامتحان إلى القاهرة ، وطلبت كتب وأدوات جديدة ، غير أن عباساً مات فجأة ، وتولى سعيد فى شوَّال سنة ١٢٧٠هـ ( يولية سنة ١٨٥٤م )



(١) تقويم النيل ص ٥٠ .
(٢) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١١٥
(٣) مناهج الألباب المصرية ص ٢٨٠ .
(٤) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٢٢ .

ولم يمض على تولّيه سبعة أيام حتى أصدر أمره بإلغاء المدرسة ، وقفل رفاعة مسرعاً إلى مصر ، واستقبل تلامذته عودته بالغبطة والبهجة ، وهنّأه أحدهم وهو السيّد صالح مجدى بك ، بقصيدة طويلة بدأها بقوله :

إذا جاء نصر الله وانشرح الصدر
وأشرق من أفق العلوم لنا البدر

وفيها يقول :

فبشرى لنا بالهاشميّ رفاعة
أبى العزم ، من يحيا به النظم والنثر

ويا فوزنا من حيث حلّ ركابه
بساحتنا ، من بعد ما مسّنا الضرّ

ويا سعد أبناء العلوم بسيّد
جليل ، به فى الكون يفتخر الفخر

وما هو إلا من سلالة معشر
هم السادة الأخيار ، والأنجم الزّهر

هو ابن رسول الله ، أكرم مرسل
وأعظم مخلوق له الفتح والنصر

هو اللوذعىّ الألمعى ، دوحة العلا
هو السيد الموصوف ، والحبر والبحر

هو الكنز للعرفان ، والكهف للندى
هو الحل ، والمعروف، والخير، والبرّ

هو الجوهر الفرد ، الأمير الذى له
أياد على الأيام ليس لها حصر

هو الفاضل النحرير ، والكامل الذى
له بالذكا والفضل قد شهدت مصر

فلا زال للعرفان فينا يسوسه
ويطوى بساط الجهل ماطلع الفجر (١)

هذا ، وبرغم الاضطراب وعدم الاستقرار الذى كان فيه رفاعة ، تعلّم طائفة من الشّبان ، تولوا مهمة التدريس فى المدارس التى أنشأتها بالسودان الحكومة الإسماعيلية ، كما تعلّم فقهاء الخرطوم ، ممن كانوا معه من المشايخ القرّاء ، تجويد القرآن الشريف ، وعلم القراءات ، حتى صاروا ماهرين فى ذلك (٢) .

أما الأثر العظيم الباقى لهذه الرّحلة ، فهو أنه — رغبة منه فى التسلية — عرّب كتاب Les Aventures de Télémaque ، وهو كتاب ضخم يقع فى نحو ثمانمائة صفحة ، وربما يكون قد ترجم هناك كتباً أخرى غير هذا الكتاب (٣)

---

(١) ديوان صالح مجدى بك ص ١٧٤ .
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٨٠
(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .

## فى عهد سعيد

عاد رفاعة إلى القاهرة ، والتقى بصديقه أدهم باشا ، الذى عيّنه سعيد مفتشاً عاماً للمهمات والمدارس[١] ، وكان هذان الرجلان يتّقدان همّة ، ويمتلئان أملاً فى أن يجدّدا عهد ازدهار الحركة التعليمية ، كما كانت فى عهد محمد على ، وأزمعا على أن ينهضا بنشر التعليم الشعبىّ فى البلاد ، فقد رأيا أنّ نهضة الأمة الحقيقية تتطلب نشر هذا النوع من التعليم ، الذى لم تساعد الظروف محمد علىّ على نشره ، وقد قال رفاعة نفسه فى هذا الصدد : « وأما تربيـة الأهلية ، وإدخال المعارف فى أفراد مراتب الرعية ، على اختلاف درجاتهم ، والتّسوية بين الأعيان والرعاع فى مادة التعليم الأهلى ، فلم تساعده المقادير على كمال الالتفات إليه ، وقضى ، قبل تـكميله ، نحبه ، رحمة الله عليه » ، فقام أدهم ورفاعة بوضع مشروع « مكاتب الملّة » لتعليم أبناء الشعب وتربيتهم[٢] ، واقترح تعيين رفاعة بك ناظراً عاماً على هذه المكاتب ، وأن يلحق به مترجمون لإتمام ترجمة كتاب الجغرافية لملطبرون ، الذى تمت ترجمة أجزاء منه ، فى عهد محمد على ، وغيره من الكتب الصالحة[٣] . وقضى رفاعة عاماً بعد عودته من الخرطوم يدعو لمشروعه الجديد ، وهو إنشاء المكاتب الأهلية ، ويتغنّى بمدح سعيد فى قصائد طويلة ، يذكر فيها أعمال محمد على ، عسى أن يقتدى بها سعيد ، ويعنى بتجليدها بالأطلس النفيس ، والجلد الثمين ، ويرفعها إلى المحافظ — وكان أدهم باشا قد عيّن فى هذا المنصب بعد إلغاء ديوان المدارس ، فيرفعها هذا بدوره إلى الوالى[٤] . ولـكن سعيداً لم ينفذ المشروع ، فقد كانت تشغله حينئذ أمور يراها أهمّ من مشروع رفاعة وأدهم ؛ كقناة السويس ، والجيش ، والقلعة السعيدية ،

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٧ .
(٣) المرجع السابق . ص ١٨٠
(٤) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٩٣ .

وغيرها[١] ، ولما طال مقام رفاعة بلا عمل يوكل إليه ، حتى « ضاق به العيش » التمس أن يقيد بديوان المحافظة أو أيّة جهة أخرى ، ليقوم بترجمة الكتب النافعة ، فألحقه أدهم تحت رياسته عضواً ومترجماً فى مجلس المحافظة[٢] ، ثم جعل بعد شهر[٣] ناظراً ثانياً ( أى وكيلا ) للمدرسة الحربية التى كانت بالحوض المرصود تحت نظارة سليمان باشا الفرنساوى[٤] ، ثم اتجه الرأى إلى أن يجعل من هـذه المدرسة نواة لمدرسة جديدة ، تحتفظ من المدرسة الأولى بصفتها العسكرية ، ويتجه التعليم فيها وجهة مدنيّة بالإكثار من دراسة اللغات والأدبيات والرياضة ، إلى جانب التعليم العسكرى العام[٥] ، وتكون كافلة للعلوم الأدبية ، وافية بالفنون المدنيـة[٦] ، وكان من الطبيعى أن يتجه الرأى العام إلى اختيار رجل له خبرة بمثل هذا النوع من التعليم ، ليرأس هذه المدرسة ، فاختير رفاعة بك لرئاستها ، واختيرت القلعة مكاناً لها ، وأنشئت فى ذى القعدة سنة ١٢٧٧هـ ( يوليه سنة ١٨٥٦ م[٧] ) ، وأقبل رفاعة على عمله الجديد بهمـــة قويّة ، يريد أن يجدد به مدرسته القديمة : مدرسة الألسن ، فبذل همته فى ذلك ، واجتهد فى أن يرتّب لها من الأنظمة مايجذب الأهلين إليها ، واختار لها من المدرسين كل من له به ثقة من أهل العـلم والمعرفة التامة ، المتدرّبين على تعليم العلوم وإفادتها ، ومن الموظفين ذوى الاجتهاد مافيه الكفاية ، وأدارها إدارة حازمة ، حتى ظهرت نجابة تلامذتها واستفادتهم استفادة جيدة فى أقرب وقت[٨] ، وظهر فى هذه المدرسة أثر مدارس محمد على ، فدرس فيهـا ما كان يدرس فى تلك المدارس[٩] ، وأفلحت المدرسة فى جذب

---

(١) المرجع السابق ص ١٨١ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) حلية الزمن ص ١٥ .
(٤) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .
(٥) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٩٣ — ١٩٤ .
(٦) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .
(٧) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٩٥ .
(٨) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .
(٩) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ٢٠٣ .

خواطر الأهلين إليها ، فكثرت طلبات إلحاق أبنائهم بها ، حتى اضطر رفاعة بك إلى أن يتجاوز العدد المقرر لها من ثلاثين إلى ثلاثمائة ، وارتاح سعيد إلى تقدم المدرسة ، وقدّر جهود ناظرها ، وأنعم عليه برتبة التمايز ، بعد إنشاء المدرسة بثلاثة أعوام (١) .

وأراد رفاعة أن يجعل من تلك المدرسة ما كان لمدرسة الألسن من قبل ، مركز الثقافة المدنية فى مصر ، فجعل فيها فرقة للمحاسبة (٢) ، و فى صفر سنة ١٢٧٤ هـ صدر أمر إلى رفاعة بك بتخصيص ٤٣ تلميذاً ، ليتعلموا الكتابة والإنشاء وغيرهما وألحق بها قلماً للترجمة ، وضع على رأسه أحد تلامذته القدماء السيد صالح مجدى . بل قيل إن رفاعة كان يجمع إلى هذا ، نظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة ، وتفتيش مصلحة الأبنية (٣) . وهذا يفسر قول دور السويسرى الذى أحضرته الحكومة فى عهد اسماعيل ليدرس حالة التعليم فى مصر ، ويقترح بشأن تحسينها ماريد — فى كتابه التعليم العام فى مصر ( ص ٢١٥ ) . إن سعيداً باشا جمع مابقى من مدارس الحكومة القليلة فى القلعة ، تحت إدارة رفاعة بك (٤) .

وفى أثناء نظارة رفاعة للمدرسة الحربية بالقلعة ، كان دائم الاتصال بالمدرسة الحربية بالإسكندرية ، فكان يزورها من حين لآخر ، ليدرس أحوالها ، ويمتحن تلامذتها ، وكان لهذا أثره فى التقريب بين مستوى الدراسة فى المدرستين (٥) .

ولكن نشاط رفاعة الجمّ ، قد اضطر إلى البطالة مرة أخرى ، فقد ألغيت المدرسة الحربية فى أوائل سنة ١٢٧٨ هـ ( أغسطس سنة ١٨٦١م ) بعد أن عمّرت خمس سنين وشهرين (٦) ، وكادت تؤتى أبرك الثمرات .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن عناية رفاعة قد اتجهت فى عصر سعيد إلى نشر

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(٢) التعليم فى مصر ص ١٦ .

(٣) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٥) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ٢١٩ .

(٦) التعليم فى مصر — القسم الخامس — ملحقات ص ٥١ .

الـكتب العربية القديمة ، قال على مبارك باشا[١] : « ولرغبته فى نشر العلوم وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ، استدعى مع بعض أمراء الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا ، وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله ، صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة عم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الـكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت فطبعت » وكان مما طبع أيضاً مقدمة ابن خلدون[٢] ، فساهم رفاعة بذلك فى نشر التراث القديم ، وإحياء مجد العربية الغابر .

## فى أيام إسماعيل

ظل رفاعة بعد إلغاء المدرسة الحربية بغير منصب إلى عهد إسماعيل باشا[٣] ، الذى بدأت عنايته بالتعليم وتجديد المدارس منذ الأيام الأولى من حكمه ، وظل يوالى تلك الحركة بالرعاية والتأييد طول أيامه[٤] ، ولم يكن يستطيع أن يستغنى عن الأدمغة المفكرة التى نهضت بالتعليم فى عصر جده ، أو تخرجت فى مدارسه ، وقد وجد فى رفاعة ، وأدهم ، وعلى مبارك ، وغيرهم أصدق الأعوان فى إقامة دعائم مايريده للتعليم من تقدم وازدهار[٥] .

ولما كان رفاعة ممن يرى ضرورة نشر التعليم الشعبي بإنشاء المكاتب للتعليم الابتدائى كما أسلفنا ، وأحيا إسماعيل باشا ديوان المدارس بعد أن ألغاه سعيد ، وأقام أدهم باشا مديراً للمدارس — عين رفاعة عضواً فى ( قومسيون الديوان ) الذى يجتمع كل يوم ، للنظر فيما يجب عمله لافتتاح المدارس الجديدة ، فلما فتحت استغنى

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٥ .
(٢) تاريخ التعليم فى مصر : عصر عباس وسعيد ص ١٩٨ بالهامش .
(٣) عصر محمد على ص ٤٩٣ .
(٤) تاريخ التعليم فى مصر : عصر إسماعيل ص ٩ .
(٥) المرجع السابق ص ١٣ .

عن هذا القومسيون[١] ، كما كان عضواً فى ( القومسيون ) المؤلف من بعض كبار الموظفين والأعيان والعلماء ، للنظر فى تنظيم المكاتب الأهلية ، وقد دعى هذا القومسيون للاجتماع فى ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ هـ ، للنظر فى لائحة على مبارك التى وضعها لهذا التعليم الشعبى ، ورفع نتيجة بحثه إلى المجلس الخصوصي تمهيداً لاستصدار أمر الخديو ، وقد انتهت مهمة هذا القومسيون بانتهاء الغرض الذى شكل من أجله[٢] ، ولكن على باشا مبارك رأى أن تنظيم المكاتب الأهلية يقتضى تشكيل ( قومسيون ) دائم بديوان المدارس ، لينظر فى جميع المسائل الخاصة بهذه المكاتب ، وأهمها تقارير المفتشين واقتراحاتهم ، وكان يعهد إلى رفاعة برياسة مجلس المكاتب الأهلية ، « المقتضى انعقاده للنظر فى حال المدارس والمكاتب الأهلية ، وإدخالهم تحت رابطة حسنة كما مرغوب الخديو » ؛ ولهذا طلب إليه مدير الديوان أن يحضر فى كل يوم إلى مقر عمله بالديوان[٣]. كما أنه كان يعيّن فى بعض اللجان لوضع جداول ما ينشأ من المدارس[٤] . وهكذا كان رفاعة بعضويته فى هذه اللجان موجهاً للتعليم فى مصر فى عصر إسماعيل .

ولما أنشىء فى هذا العهد قلم الترجمة بديوان المدارس حوالى سنة ١٨٦٣م[٥]، على مثال القلم الذى كان فى أيام محمد على ، اختير رفاعة له ناظرا ، فكان يشرف على مايقوم القلم بترجمته ومراجعته[٦] ، وأحيل إلى رفاعة بك ترجمة الكتب العسكرية التى كانت المدارس الحربية فى حاجة إليها يومئذ[٧] ، كما أشرف رفاعة على ترجمة بعض أعداد المجلة العسكرية المصرية ، La Revue Militaire Egyptienne التى بدأ ظهورها فى غرّة جمادى الأولى سنة ١٢٧٢ هـ ( ١٨٦٥م ) .

وإلى جانب عمل رفاعة فى قلم الترجمة و ( قومسيون ) ديوان المعارف ، قام بدور

---

(١) المرجع السابق ص ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٥١ و ١٥٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٤ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٤٨ .
(٥) عصر محمد على ص ٤٩٣ .
(٦) تاريخ التعليم فى مصر — عصر إسماعيل ص ١٤٣ .
(٧) المرجع السابق ص ٦٢٤

كبير فى تنظيم تدريس اللغة العربية بالمدارس ، فكان يمتحن الفقهاء والشيوخ ، ليختار منهم الأكفاء لوظائف التدريس ، ويزور المدارس ليتفقد أعمالهم ، ويختبر كفايتهم ، ويضع بياناً بكتب اللغة العربية الصالحة للتدريس لكل مدرسة ، وطرق تدريسها ، والقواعد التى ينبغى على المعلمين اتباعها بالنسبة لسن التلامذة ومدة الدروس [١] ، وكان رفاعة بك يرى أن مدرسى اللغة العربية من الأزهر يجب أن ينهجوا فى التعليم مناهج جديدة ، وأن يتلقوا علوماً جديدة ، ويدرسوا أساليب فى التربية جديدة ، تؤهلهم لعبء القيام بعملهم فى المدارس الحكومية ، وكان على باشا مبارك يشاركه هذا الرأى ، وذلك هو ماحفزه إلى إنشاء مدرسة دار العلوم ، لتنهض بهذا الواجب [٢] .

وفضلا عن ذلك ، كان رفاعة يشرف على كثير من الامتحانات والحفلات التى تعقد فى المدارس الأجنبية والمصرية ، فشاهد امتحان المدرسة العبيدية ، وخطب فى حفله [٣] ، وكتب بياناً فى روضة المدارس [٤] عما عليه مدرسة الإخوان Les Fréres بالخرنفش ، فيما يتعلق بالتعليمات والتنظيمات ، وتوضيح ماحصل فى موسمها السنوى لتوزيع المكافئات ، ولعل آخر امتحان رأسه ، هو ذلك الذى أقيم فى مدرسة أسيوط فى رجب سنة ١٢٨٨هـ ، وكانت خطبته فيه آخر خطبه [٥] .

ولما أنشئت صحيفة روضة المدارس سنة ١٢٨٧ هـ ( ١٨٧٠ م ) وضعت تحت نظارة رفاعة بك ، الذى ظل عاملا فى كل هذه المناصب إلى أن توفى سنة ١٢٩٠هـ ( ١٨٧٣ م ) .

كان رفاعة قد جاوز الستين ، عندما عاد إلى العمل فى حكومة إسماعيل ، ولكن هذه السنين العشرة الأخيرة من عمره ، كانت سنى عمل مثمر ، فيما تقلده من مناصب وفيما أخرجه من كتب ألفها أو ترجمها ، ومن مقالات وقصائد دبجها ، قال الأستاذ

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨٤ .
(٣) راجع مجلة روضة المدارس — السنة الأولى العدد السادس .
(٤) السنة الأولى ، العدد العاشر .
(٥) روضة المدارس — السنة الثانية العدد ١٦ .

محمد الصادق حسين [١] : وآثاره فى هذه الشيخوخة تدل على علم ناضج ، ونشاط ذهنى غير مألوف فى الجو المصرى .

## عمله الصحفى

رأى رفاعة الصحف فى باريس ، وسماها التذاكر اليومية ، ولم تكن تلك التذاكر معروفة لديه فى مصر ، فإن الوقائع المصرية ولدت وهو غائب عن وطنه ، ولذا أراد أن يشرحها ، ليقربها إلى أذهان قارئيه فقال [٢] : « ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ما وصل إليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة ، وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر باريس يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى » ، ويصف رفاعة ما تتمتع به الصحف فى فرنسا ، من الحرية التامة فى إبداء الرأى « فهذه الجرنالات مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول ما يخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ما تراه حسناً أو قبيحاً ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة مالم تضر بذلك ، فإنه يحكم عليها ، وتطلب بين يدى القاضى [٣] » والصحف التى فى فرنسا يومئذ حزبية ، « فكل جماعة لها فى رأيها مذهب كل يوم تقويه ، وتحاميه وتؤيده [٤] » ، وهى « مختلفة الأنواع والأصناف : فمنها ماهو معدّ لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها ، ومنها ماهو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات ، وماهو للطب ، ولكل علم على حدته ، و ( الجرنال ) الواحد ينطبع منه غالباً للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل ( جرنال ) تكثر نسخه على حسب رغبة الناس ، وأرباب ( الجرنو ) يعرفون الأخبار الغريبة قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد ، وهم فى الواقع كخطباء الأمة ، يتعرضون للمدح والذّم ، والاستحسان والاستقباح ، والتحسين والتقبيح ، والإغراء والتحذير ، إلى غير ذلك [٥] » .

---

(١) السياسه الأسبوعية السنة الثانية العدد ٦٤ .

(٢) تخليص الإبريز ص ١٤٤ .

(٣) و (٤) و (٥) تخليص الإبريز ص ١٤٤ .

وهذه التذاكر اليومية يقرّ رفاعة بما لها من الأثر والفائدة ، فهى « من الأشياء التى يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة [١] » ، والإنسان يعرف منها سائر الأخبار المتجددة سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ... وقد تتضمن أخباراً تتشوّف نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنه ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيدة ، أو نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير ما لا يخطر ببال العظيم ... ومن فوائدها أن الإنسان إذا فعل فعلا عظيما أو رديئاً ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل ( الجرنال ) ليكون معلوماً للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الإنسان مظلوماً من إنسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطّلع عليها الخاصّ والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظّالم ، من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل ، وتصل إلى محل الحكم ، ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر [٢] » .

ولم يأخذ رفاعة على الصحافة الفرنسية سوى كذبها ، حتى إنه قال : « ولا يوجد فى الدنيا أكذب من ( الجرنالات ) أبداً خصوصاً عند الفرنسيس [٣] » .

تلك حال الصحافة الفرنسية عند ما ذهب رفاعة إلى باريس ، ولا ريب أنّ وصفه لها فى كتاب رحلته يدلّ على توقه أن يجد لها نظيراً فى مصر .

وفى أثناء اغترابه عن وطنه ( ١٢٤١ — ١٢٤٦ ﻫ ) فكر محمد على باشا فى إنشاء الوقائع المصرية ، واعتبارها جريدة الحكومة الرسمية ، فأصدر أمره بتهيئة الوسائل لنشر هذه الجريدة « كما أنه كتب إلى المديرين ، ورؤساء الدّواوين يطلب خلاصة خصوصية عن الوقائع التى تحصل بالجهات ، وإرسالها إلى قلم الوقائع الذى صار إنشاؤه بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٤٤ ﻫ لطبعها وتوزيعها على الذّوات الملكية والجهادية ، وتحصيل ما تقرّر على ذلك من الرّسوم [٤] » ، وقد عنى محمد على

(١) تخليص الإبريز ص ١٤٤ .
(٢) تخليص الإبريز ص ٨٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .
(٤) تاريخ الوقائع المصرية ص ١٤ .

بصحيفته أيما عناية ، واجتهد فى توزيعها بحيث تصبح مقروءة فى أكثر البيئات المصرية ، ورعى أموالها ، واستحثّ عماله على مراقبتها وجبايتها ، وراقب بنفسه صلاحية النشر فيها ، وأخذ يشير برأيه فى أدقّ مسائلها وأهونها[١] ، وكانت عنايته بها تدفعها أغراض كثيرة ، فقد كان حريصاً على نشر أوامره فيها ، وأن تكون مكاناً خصباً لمدحه والثناء عليه ، وكان يوعز بالمقالات التى من شأنها أن تشيد بجهد من جهوده الكثيرة[٢] ؛ وكان النظام الإداري الذى وضعه الوالى سنة ١٨٢٦ من أهمّ الأسباب التى حدت بمحمد على أن يطبع للمصريين صحيفة تعرّفهم على « الحال والزّمان » ، كما تلفت نظارهم « إلى الأمور الدّقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة ، وباقى أنواع الصنائع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير[٣] » .

وصدر العدد الأوّل من الوقائع المصرية فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ ( ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ م[٤] ) ، وصدرت الوقائع باللّغتين : التركية والعربية ، وعيّن لتحرير اللغة التركية وإدارتها سامى افندى[٤] ؛ واختلف الكتّاب فيمن أشرف على تحرير القسم العربي فيها ، وممن نسب إليه ذلك رفاعة الطهطاوى ، وذلك غير صحيح ، لأنه لم يكن يوم إصدارها بمصر ، بل كان فى البعثة بباريس .

وحدث بعد عودة رفاعة أن كان محمد على شديد الرغبة فى وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل ، كما هى الحال فى صحافة الأمم الأخرى ، فأصدر أمره بوجوب تحقيق هذه الغاية ، فاجتمع المسئولون ، وأرسل ديوان المدارس — وكان هو المشرف على الوقائع المصرية يومئذ — فى ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ ( ١١ يناير سنة ١٨٤٢ م ) إلى ديوان المعاونة صورة القرار بشأن طبع الوقائع ونشرها ، وهذا هو القرار : « إن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس ، حتى يستفيد منها كلّ إنسان ، ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب ، وقد أصبح من اللازم إضافة بند للحوادث الخارجية

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٩ .

فى الجريدة حتى يتقبلها الناس برغبة وشوق ، ويشتاقون لقراءتها ، فالأخبار تسقط قيمتها إذا تقادم عهدها ، ولذلك وجب الحصول على الأخبار أوّلا فأولا ، ونشرها على الجمهور ، ولما كان فى بعض الأخبار الأجنبية أشياء لا يليق نشرها فقد تقرّر تمييزها ، وعدم نشر المواد الغير مناسبة ونشر الحوادث الداخلية والخارجية الملأى بالعبر والمنتظر فائدة منها » .

« وحيث إنّ نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على قراءة الجرائد التى تنشر فى الخارج ، ويستوجب أن يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة وتنظيمها ملماً باللغتين ، وعلى ذلك فقد تقرر إحالة أعمال ترجمة المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، وعلاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكية وترتيب الجريدة المصرية ، بصفة عامة على حضرة الشيخ (رفاعى) افندى ناظر مدرسة الألسن ، لوجود مترجمين جاهزين ، فى هذه المدرسة ، وإناطة تفريق المواد التى تستحق النشر ، وبحث المواضيع التى ستدرج بالجريدة بحضرة أدهم بك مدير المدارس ، وحيث إنّ حضرة الشيخ (رفاعى) سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية ، فتحال أعمال إفراغ الترجمة فى قالب حسن بدون الإخلال بالأصل العربىّ ، وتنظيم الموادّ على حسب النظام التركى على حضرة حسين افندى ، ناظر المطبعة العامرة ، على أن يعد هذا التكليف من اختصاص وظيفته بصفة أصلية » .

« أما الحوادث الخارجية ، وإن كانت ستنشر فى الجريدة ، إلا أنّ الأخبار المصرية ستكون المادّة الأساسية ، وسيمكن نشر الأخبار المصرية فى كلّ أسبوع ، إذا ما وردت التقارير فى الوقت المناسب من ديوان المعاونة ، وديوان الجهادية ، والديوان الخديوى ، والإسكندرية ، والأقاليم ، إلى ديوان المدارس ، وفى حاله عدم ورودها فى الوقت المناسب ، يكلف على لبيب افندى معاون ديوان المدارس والمترجم العربى للذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار ، وأن تنقل بعض أخبار مناسبة من جريدة استانبول . وحيث إن الحوادث الأجنبيـة معتاد تقديمها إلى الباب العالى بعد ترجمتها إلى اللغة التركية فيكلف البك المترجم بانتخاب المناسب

منها ، وإرسال صورها إلى ديوان المدارس فبهذه الطريقة يمكن نشر الجريدة أسبوعياً(١) » .

ومن ذلك نرى نهج الوقائع المصرية فى عهدها الجديد ، ونرى عمل رفاعة فى هذا العهد ، وأنه ترجمة المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، واختيار بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية ، وانتخاب أخبار الملكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة . وكان الطهطاوى أجدر المصريين بهذا المنصب ، فالرجل واسع الثقافة كبير الاطلاع ، أستاذ الترجمة فى الديار المصرية يومئذ ، وقد استطاع رفاعة أن يؤثر فى الصحيفة بشخصيته القوية ، فأخذت اللغة العربية مكان الصدارة فى الصحيفة بدل اللغة التركية(٢) ، وأراد رفاعة أن يغير اسمها باسم « مظهر أخبار مصرية » ، وأقر الشورى هذا الإسم ، غير أن محمد على لم يجزه ، وبقيت الوقائع باسمها الأول المعروفة به إلى الآن(٣) . ومضى رفاعة يحرر الأصل العربى ، ويرتب الجريدة بصفة عامة ، يعاونه فى ذلك المترجمون من رجال مدرسة الألسن(٤) ، وبذل جهده فى رعاية الصحيفة ، واستعان بفئة من المحررين ، أهمهم أحمد فارس الشدياق ، والسيد شهاب الدين تلميذ العطار ومساعده(٥) .

وفى هذا العهد نرى الجريدة قد نظمت تنظيما جديداً ، بحيث أصبحت تصدر كل أسبوع ، وعين مكان لبيعها وثمن لها ، وللاشتراك السنوى فيها ، وأعلنت قراءها بسياستها الجديدة فى التحرير والتبويب ؛ فتشتمل على الأخبار الملكية داخلية وخارجية ، صناعية ، وتجارية ، علمية ، وأدبية ، واحترمت لغة البلاد ، كما ذكرنا ، وبوبت تبويباً يسبق الأهم فيه المهم ، وانتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث ، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى ، بمبرر وغير مبرر ، إلى

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٤٢ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٤) المرجع نفسه .

(٥) المرجع السابق ص ٤٩ .

موضوعات رئيسية لها خطرها ، فقد حملت المقالة الرئيسية فى العدد رقم ( ٦٢٣ ) جديداً لم يعرفه قارئ الوقائع من قبل ، تحت عنوان تمهيد ، وكتب رفاعة تحت هذا العنوان حديثاً عن السياسة والسياسيين ، ونظم الحكم من ديمقراطية واستبدادية ، والرد على مازعم الأجانب من استبداد حكام الشرق[١] ، ويعد هذا المقال أول موضوع من نوعه فى تاريخ الوقائع المصرية[٢] ، وبرّت الوقائع بعهدها ، فخددت فى صفحاتها سطوراً لنشر ماله علاقة بالأدب ، ولكنها لم تنشر جديداً غير ماقاله القدماء ، بل أعادت إذاعة ماقالوه فى الماضى ، فنقلت شيئاً مما قاله ابن خلدون فى صناعة الأدب ، كما نشرت بعض شعر المعاصرين[٣] ، ولكن بعد سنة ١٢٥٨هـ عادت اللغة العربية إلى اليسار ، والتركية إلى اليمين ، وكان هذا إيذاناً بانحلال الجريدة ؛ فقد أهملت بعض نواحى النشاط ، فلم نعد نرى أدباً أو شعراً وإنما ملأتها موضوعات أخرى ، كنشر الأخبار الرسمية أو الداخلية بأمر الوالى ، حيث أمر بألا يكتب فى الوقائع شىء يختص بالسياسة ، بل يجب انحصارها فى أخبار ما يحفر من الترع ، وما ينشأ من الجسور والقناطر ، وفى أنباء العزل والنصب ، وكذلك أنباء السفن التى من الخارج[٤] ، ورأينا فيها كثيراً من الترجمة عن الصحف الأوربية عامة ، والفرنسية خاصة ، ولولا نقلها عن هذه الصحف الفرنجية لهانت قيمتها ، إذ أن هذه الصحف غذّتها بالطرائف التى كانت تنشر فى ( جرنال باريس ، المسمى بالدبا ( Journal des Debats ) .

وظل رفاعة مشرفاً على تحرير الوقائع المصرية إلى سنة ١٢٦٧هـ( ١٨٥٠م[٥] ) ، ووقف نشاطه فيها فى عهد عباس .

وهنا يجدر بنا أن نتساءل : لماذا لم يحقق رفاعة أطماعه وآماله فى الصحافة ، فينهض بها حتى تصل إلى مستوى الصحافة الأوربية ، ولم انصرف عن الخطة التى

---

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٤ .
(٥) حلية الزمن ص ١٥ .

كان قد انتهجها فى أول عهده بالوقائع ، فيتناول الموضوعات السياسية والاجتماعية ، ولعل الجواب عن ذلك نجده فى عمل رفاعة بمدرسة الألسن ، هذا العمل الذى استغرق جهده ووقته ؛ فقد كان مرهقاً بالعمل كما ذكرنا ، وربما لم ير رفاعة الوقت قد حان لإنشاء مثل الصحف الفرنسية ؛ لأن الجمهور لم تكن درجته العلمية تسمح بأن تنشر له صحف يومية ، ولعل فى الحالة السياسية لمصر بعد سنة ١٨٤٠ م ما يفسر لنا انصراف رفاعة عن تناول الموضوعات السياسية .

ولم يعد رفاعة إلى العمل الصحفى فى عهد عباس وسعيد ، حتى إذا جاء إسماعيل ، وكان مدير المدارس على مبارك باشا ، أنشأ فيما أنشأ مجلة روضة المدارس وأسند نظارتها إلى رفاعة ، وكان على مبارك يرى رفاعة أجدر الناس بأن تسند إليه هذه النظارة فقد قال : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان ، ناسب أن يحمل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر علمها ، فيتلقاه محب المعارف باليمين (١) » ، كما أسندت مباشرة تحريرها ، وترتيب مقالاتها إلى ولده على فهمى رفاعة ، مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، واتخذت المجلة شعارها هذين البيتين :

تعلّم العلم واقرأ  تحز فخار النبوّة
فالله قال ليحيى  « خذ الكتاب بقوة »

وكتب افتتاحية المجلة رفاعة فى أول عدد صدر منها ، فى يوم السبت ١٥ محرم سنة ١٢٨٧ هـ ، ( ١٨٧٠ م ) ، وفى هذه الافتتاحية التى بدأها بحمد الله ، والصلاة على رسوله فى عبارة مصنوعة مسجوعة ، كـكلّ أجزائها ، أخذ يثنى على إسماعيل باشا وجهوده فى إحياء العلوم وبناء المدارس ، وقال مبيّناً رسالة الروضة : « وإن جلّ مرغوب ديوان المدارس المصرية ، اعتماداً على مساعدة العناية الخديوية ، تعميم العلوم وتتميم المعارف ، وانتشار الفنون وإكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتسويتهم فى الورود على مستعذب هذا المشرع الحسن ، وإبراز

(٢) مجلة روضة المدارس — السنة الأولى — العدد الثانى ص ٢ .

الوسائل المعينة على جلب قطافها بدون كبير مشقة ، وإحراز الوسـائط المسهّلة لجذب أطرافها ولو بكثير نفقة ... فقد أبرز فى هذه الأيام السعيدة ، لحرصه دائماً على إبداء كل طريفة من المحاسن وتليدة ، بمقتضى الإرادة الخـديوية المجابة بالهمة العليّة المباركية ، صحيفة تعنون باسم روضة المدارس على هيئة مجموعـة ، يتقيد فى جريدتها أي مادة علمية من المواد النفائس ، بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصّلة والمتفرعة ، أقرب تناولا للمطّلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ، ولا متجشّمة لصعب التراكيب ،و معان رجيحة تنخرط فى سلك مستحسن الأساليب ، وافية بكمال التهذيب . . . ولا يتكلف فيه التعبير بما يستلزم الاستعصاء والإباء ، مما كان جاريا على ألسنة العرب العرباء ، حيث لايحتاج العموم إليه ، ولا يتوقّف تدوين العلوم عليه ، فإن المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدّرات العلوم ، وترفع حجبها المستورة ، ... وعلى الخصوص بين أبناء المدارس المستظلين بظلالها الوارفة ، المتمتعين فى ساحتها بأجزل نعمة ، وأجزل عارفة ، فإنها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم نفعاً ، وأعظم وقعاً ، بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة ، وذكر جوامع الكلم الحكيمة الرائقة ، ورقائق الفضـلاء العصريين ، ودقائق العلماء الماضين ، حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم ، وتمتلىء من زواهر الفنون ، وجواهر العلوم حقيبة عقولهم ، مع مازيد فى رغباتهم ، ويبعثهم على ازدياد اهتماماتهم إذا ، علم كل منهم أن مايظهر من أعماله المستحسنة ، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفئدة والألسنة ، سيقيد بهذه الصحيفة ، تلمسه أيدى أفاضـل شريفة ، ويذكر فيها اسمه وحليته ورسمه ، فتزداد حينئذ رغبته ، وتقوى على عظائم الأمور همته . . . وقد تنزّهت صحيفتنا هذه مما سـوى ما يخصّ نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية ، ممـا يقع عليه الاختيار ، ولا ضرر فيه ولا ضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والإدارية . . . ومما يشهر فضل هذه الصحيفة ويعلى قدرها . . . أن سـعادة مدير المدارس جعلها ملحوظة بنظر نظارته ... وقد تكفّل لها عدة من العلماء الأساتذة ،

والفضلاء الجهابذة ، بإمدادها برسائل مؤلفة جديدة ، ونبذ مصنفة مفيدة ، من فنون وعلوم مختلفة ، ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة ، وبعض تراجم من لغات أجنبية ، وإخراجها فى قالب سهل من أساليب العربية ، وصار كل منهم برسم عضو تأسيسى .

ومن هؤلاء الأعضاء عبد الله فكرى بك ، الذى أحيل عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكى بك وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدرى أفندى وخص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد أفندى ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنكات . وأحيل على مباشر تحريرها الكلام على محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاطها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على ( خوجات ) المدارس الملكية ، وما يرد منهم فى القابل ، يذكر باسم صاحبه ، حتى لايضيع عمل عامل [١] .

وممن ضم إلى أعضاء تحريرها بعد إنشائها ، السيد صالح مجدى بك وكيل ديوان المدارس [٢] ، والشيخ حسونه النواوى الحنفى مدرس علمى الفقه والكلام بمدرسة الإدارة والألسن [٣] ، ومن ذلك ترى المنهج الضخم الذى وضعت الروضة لتحقيقه .

ومضت المجلة تنشر مقالات جغرافية وتاريخية واجتماعية وصحية ومسائل رياضية ، ومقامات أدبية ، وأخباراً علمية ، ومدرسية ، وقصصاً وفقها ، وعلم كلام ، وتربية ، وزراعة وحسابا وهندسة ، وألغازاً ومنطقا وبلاغة ونحواً وكيمياء ، وشعراً فى تهنئة الخديو وأنجاله ، وبعض الروايات التمثيلية ، والخطب التى كانت تلقى فى امتحانات المدارس ، وأمدها بعض الأجانب بمقالات ترجمت بأقلام رجال قلم الترجمة ، ومدرسى اللغة الفرنسية بالمدارس ، كما كانت تنشر المقالات المترجمة من الإنجليزية والفرنسية ، وملخص كثير من الدروس التى كانت تلقى بدار العلوم .

والروضة تقدم للمقال بمقدمة مسجوعة ، تبين مضمونه أحياناً ، وتثنى على كاتبه

---

(١) راجع افتتاحية العدد الأول للمجلة .

(٢) مجلة روضة المدارس — السنة الأولى — العدد الثانى .

(٣) المصدر السابق — العدد العاشر .

حيناً آخر ، وكانت المقالات الأدبية بها تنهج نهج المقامات ، وتسمى باسمها ، فتصدر بعنوان : مقامة جليلة .

ولم تقتصر الروضة على نشر المقالات ، بل ألحق بها منذ العدد الأول كتب أُلفت لها ، وقسمت بحيث ألحق كل قسم بعدد ، ككتاب حقائق الأخبار فى أوصاف البحار ، لعلى مبارك باشا ، وكتاب آثار الأفكار ومنثور الأزهار ، لعبد الله فكرى ، وهو كاسمه مختارات من كتب الأدب ، وكتاب الصحة التامة والمنحة العامة ، لمحمد بدر مدرس الأمراض الباطنية بالمدرسة الطبية ، وكتاب المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات ، وكتاب بهجة المطالب فى علم الكواكب ، وكتاب النكات وباب ( التياترات ) ، إلى غير ذلك من كتب زراعة وصحة وحساب .

وكل ما نشر فى روضة المدارس كان بالعربية الفصحى إلا رواية تمثيلية هى الفخ المنصوب للحكيم المغصوب ، من تأليف محمد افندى عثمان المترجم بديوان الجهادية ، فإنها كانت بالعامية[١] . واتفقت المجلة مع رسالة رفاعة ، التى ترمى إلى إذاعة العلم وتقريب سبله للمصريين ، كما عوّدت الطلبة المطالعة والبحث ، وبفتح صحائفها للنابهين منهم لنشر أبحاثهم شجعتهم ، واستحثت هممهم على البحث وبذل الجهود المستقلة عن دروسهم .

وكان ديوان المدارس يمنح كل واحد من الطلاب الثلاثة الأُول فى كل فرقة بالمدارس ، الأعداد التى تصدر من الروضة ، ولقيت الصحيفة من الطلاب من الإقبال الشديد على قراءتها والكتابة فيها ، ما حمل الديوان على أن يأمر بأن « التلامذة لا يشتغلون بمواد ( الجرنال ) فى وقت الدروس ، ولا فى كتابته مالم يكن فى أوقات الفسحة أو خارجا عن المدرسة[٢] » وكانت تصدر مرتين فى الشهر ، ويطبع من كل عدد منها ٣٥٠ نسخة ، ثم زيدت إلى ٧٠٠ نسخة[٣] ، وجعل الاشتراك فيها ٧٧ قرشا وست بارات بالقاهرة ، و ٨٢ قرشا فى داخل القطر ، و ٩٠ قرشاً فى خارجه[٤] .

---

(١) مجلة روضة المدارس — السنة الثانية — العدد الثالث .
(٢) تاريخ التعليم فى مصر : عصر إسماعيل ص ١٥٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر العدد الأول من الروضة .

وكان الديوان حريصاً على توزيع أعداد الروضة ، فكان يرسل بعض أعدادها إلى مدارسه ، ليشتريها المدرسون ، منبهاً إلى « الحذر من عدم ارتداد أى نسخة من الروضة » ، ثم رأى أن يقرر شراءها على جميع الموظفين بديوانى المدارس والمكاتب الأهلية ، ممن لا يقل مرتبهم عن ٢٥٠ قرشاً فى الشهر ؛ وكذلك كان ديوان المدارس يرسل أعداداً من روضة المدارس إلى أعيان البلاد ، ليقوموا بتوزيعها .

ولم يقف رفاعة فى عمله بالرّوضة عند حدّ التوجيه والتنظيم ، بل ساهم فى تحريرها : فبقلمه كتب افتتاحيتها ، وأنشأ ببعض أعدادها بعض مقالاته ، ففى العدد الثانى للسنة الأولى مقال له عنوانه : فى اسمه تعالى ( المصوِّر ) ، واتصافه به حقيقة ، واتّصاف غيره به مجازاً . وفى العدد الثالث مقال عنوانه : بقاء حسن الذّكر باستخدام الفكر ، وفى هذا المقال يرى أنّ استخدام الفكر يؤدى إلى استنباط الصالح من الأمور ، فيبقى ذكر صاحبه فى الناس . وفى العدد الرّابع مقال له ترجم فيه كسرى أنوشروان ، وقد اقتبس هذه الترجمة من مواضع متفرقة . والمقال مطوّل استغرق نشره عدّة أعداد . وفى العدد السابع عشر مقال له اسمه : إحسان السيرة بإخلاص السريرة ، وفيه يرسم لراغب المثالية الخلقية طريقاً يصل به إلى السموّ . وفى العدد التاسع عشر مقال له ، عنوانه : النفحة المسكيّة فى بركة الأزبكية ، بدأه بما قيل فى البرك من الشعر ، ثم تحدّث عن تاريخ بركة الأزبكية، وكيف نشأت سنة ٨٨٠ هـ على يد المعزّ الأتابكى أزبك بن الظاهرى الذى نسبت إليه،وكيف انتهى أمرها بأن صارت بستاناً عظيما .

كلُّ هذا قد نشره رفاعة فى السنة الأولى ، وتمضى السنة الثانية من غير أن ينشر رفاعة شيئاً من المقالات ، ولعله شغل فى ذلك الوقت بتأليف بعض كتبه ، ولعل آخر مقال كتبه رفاعة ، هو ذلك الذى نشره بالروضة فى آخر ذى القعدة سنة ١٢٨٩ بالعدد الثانى والعشرين من السنة الثالثة ، كتبه على لسان المدارس الملكية والمكاتب الأهلية ، بمناسبة تشريف الخديو بالحضور لديوان المعارف ، وتوزيع المكافئات تحت ظل رعايته .

وسجّل رفاعة فى روضة المدارس تقريراً له ، فيه بيان لما عليه مدرسة الإخوان Les fréres بالخرنفش فيما يتعلق بالتعليمات والتنظيمات ، وتوضيح ماحصل فى موسمها السنوى لتوزيع المكافئات . كما سجلت روضة المدارس بعض خطبه كتلك التى ألقاها فى امتحان المدرسة العبيدية ، المنشورة بالعدد الثالث من السنة الأولى ، وكتلك التى ألقاها فى امتحان مدرسة أسيوط سنة ١٢٨٨ هـ ، وهى منشورة بالعدد السادس عشر من السنة الثانية .

ونشر رفاعة بالروضة كذلك قصائد ، مدح بواحدة[١] توفيقاً ، وهنأ بواحدة[٢] إسماعيل بختان نجله إبراهيم ، وهنأ بثالثة[٣] الخديو بإقبال العام الهجرى ، وأرّخ بمقطوعة[٤] قصيرة تولية حسين باشا ولد إسماعيل ، نظارة ديوان المدارس الملكية ، والأوقاف المصرية ، والأشغال العمومية .

وأذاع فيها رسالة مطوّلة هى رسالة[٥] البدع المتقرّرة فى الشّيع المتبربرة ، وألحقَ بها بعض مؤلّفاته ، كمؤلفه الوجيز الذى دعاه القول السديد فى الاجتهاد والتقليد[٦] . وفى السنة الثالثة بدأ ينشر كتابه : نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، ومات رفاعة ، ولم يتمّ نشره ، فاستمرّ النشر بعد وفاته .

وكان آخر عدد ظهر عليه اسم رفاعة ، هو العدد السادس من السنة الرّابعة ، الصادر فى يوم الاثنين غاية ربيع الأول سنة ١٢٩٠هـ ، وعلى العدد السابع اسم ولده على فهمى ، وكأنما عزّ على الرّوضة أن تنسى ناظرها الأوّل ، فكتب على غلاف العدد الحادى والعشرين للسنة الرابعة هذه العبارة : تحت إدارة ناظر قلم الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة بك ، فكأنها توحى بدوام صلتها بخادمها الأول .

---

(١) العدد ١٠ من السنة الأولى .
(٢) العدد الأول من السنة الثانية .
(٣) العدد الأول من السنة الثالثة .
(٤) العدد الثانى عشر من السنة الثالثة .
(٥) نشرها ابتداء من العدد الثالث عشر من السنة الأولى .
(٦) نشره ملحقاً بالعدد السادس من السنة الأولى .

# وفاته ورثاؤه

في يوم الثلاثاء غرة ربيع الثاني سنة ١٢٩٠ هـ (٢٧ مايو سنة ١٨٧٣ م[١]) توفي رفاعة، بعد خمسة وسبعين عاماً قضاها في جهد طويل مثمر، ساعده على النجاح فيه أنه — كما قال تلميذه السيد صالح مجدي بك[٢] — عاش صحيح البنية، قوى الأعصاب، معتدل المزاج، إلى أن اعترته النزلة المثانية التي تصيب الكهول، وتؤدى بهم إلى الهلاك بعد النحول، فتخلص منها أول مرة، ثم عاودته ثاني كرة، فنجا منها لفسحة في أجله، ثم أدركته في الدفعة الثانية، فلازم الفراش، ولم تنفك عنه حتى مات.

وقد ودعته مصر وداعاً حافلا، جديراً برجل عاش طول حياته لخدمتها والعمل على النهوض بها، ونعته الوقائع المصرية مسجلة هذا الوداع الحافل فقالت: «قدم على رب كريم، بالمؤمنين رءوف رحيم، الجناب الذي ماقضى نحبه، وودع توديع الفراق صحبه، إلا من بعد أن زكى من نصاب ذكائه زكاة الإنفاق، إلى أن ارتقت سيرته الطباق، وملأت شهرته الآفاق ... المرحوم رفاعة بك أفندي، الغنى عن الإطناب، بماله من جليل النعوت وجميل الألقاب ... ثم شيع جنازته من منزله الذي بطريق شبرا من لم يدعوا للمار في الطريق فتراً ولا شبراً، من حضرات العلماء الأفاضل، ورجال المدارس الأماثل، والأمراء الفخام، والأعيان الكرام، وحسبه سعى حضرة مولانا شيخ الجامع الأزهر، مفتي الديار المصرية المشكور هو ومن تبعه من أكابر العلماء، جزاهم الله خيراً وأجزل لهم الأجور ... ولحضرة الجناب المبجل (سعادتلو) مستشار المدارس والأوقاف والأشغال من السعى في ذلك، مايستدل به على علىّ همته المعلومة في الأقطار والممالك، فإنه أصدر أمره الأكيد، إلى الجميع الذين في دائرة مستشاريته بالمبادرة إلى التشييع، فشيعه أولئك العظماء، إلى مدفنه الذي ببستان العلماء، فدفن رحمه الله، وأحسن مثواه، وأجزل قراه،

---

(١) حلية الزمن ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق ص ٢٨.

وشكر سعى الساعين ، وعوض الناس أجمعين خيراً فيه[1] » .

ورثاه محمد عثمان أحد تلامذته بمدرسة الألسن -- بقصيدة نشرتها الوقائع المصرية فى عدد نعيه ، ومطلعها :

يغادرنا من نرّجى انتفاعه ويمنع من لا نحبُّ امتناعه

ومنها :

وما الدّهر إلا العدوّ المبين إذا شام خرقاً أحبّ اتساعه
وأقسم لا نال إلا الكرام وأهل العفاف ، وأهل القناعه
تخرّمهم واحداً واحدا وما كان يقبل فيهم شفاعه
فيا ليتهُ مالَ للعلم يَوْماً وأبقى إلى طالبيهِ رفاعه
همام ، تمكن من كلّ فنّ ومكن فى كلّ علم يراعه
ومبتدع زانَ منه ابتداع ومخترع قد أجاد اختراعه
لهُ منطقٌ للعلا سلّم ومعقوله يستحقّ اتباعه
وحافظة كلّما قيّدتْ من العلم شيئاً أمنّا ضياعه
قليل النظير إذا قِسته بعيد المنال كثير البضاعه
حوى العلم والحلم والملك ، والعدالة والظرف ثمّ الشّجاعه
وأوسع فى الجهد حتى انتهى وأتقنَ فى كلّ فنّ صناعه
ودعناه فى الترب رغماً ولم تكن تبلغ النفس يوماً وداعه
وقضى من العمر فينا سنيناً فلم تك من لطفها غير ساعه
لقد كان باقعة لا يبارى فحيّاه غيث ، وحيّا بقاعه
وبرّد مضجعه وابل بجنات خُلد يديمُ اضطجاعه

ورثاه تلميذه أيضاً السيد صالح مجدى بك بقصيدة طويلة يقول فيها :

كيف السبيل إلى دفع الملمّات عن أنفس الناس من ماض ومن آت
رفاعة عالم الدنيا ، وواحدها وخير من كان يُرجى للملمّات
وبحرها الزّاخر الجارى بأودية فيها دوام انتفاع للبريّات

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٥١٠ الصادر يوم الثلاثاء ٨ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ ( ٣ يونية سنة ١٨٧٣م ) .

وطودها فى علــوم ليس يلحقه منًّا بمضمارها سَبَّاق غَايات
لا أوحشَ اللهُ بعدَ الأنس أندية كانت مصابيحها منــه منيرات
فإنه كان حبراً ، عن مدائحه بالعجز معترفٌ ربّ البلاغات
وكان مجلســه فى كلّ آونة مع السكينة يزهو بالمسرّات
وكان يعفو عن الجانى ولو كثرت فى حقــه منه أنواع الإساءات
وكان يفرح بالجانى ، ويغمره من غير سؤل ، بغيث من مبرّات
لمَّا قضى نحبهُ ناحتْ لفرقته تراجم زانه حسن العبارات
والأرض قد عمَّها فى يوم مصرعة حزن تصاعد منها للسموات
وروحه قابلتها الحور مذ فصلت عن جسمه بالتحيات الزكيات
وكانَ لما توَارَى بِالضريح رأى كأنه فى رياض سندسيَّات
وحوله من بنى الزهراء جدّته بدور تمٍّ تناهت فى الكمالات
وفى ربيع غدا مجدى يؤرّخه رفاعة حاله خال بجنــات
٧٥١ ٤٤ ٣٩ ٤٥٦ سنة ١٢٩٠ (١)

كما رثاه أيضاً بقصيدة أخرى لم نقف منها إلا على المطلع وهو :

كيف النجاة وأحكام المنيات من دونها ماضيات المشرفيات
وعلى شطر التاريخ وهو رفاعة زاده أهنى بجنــات
٧٥١ ١٧ ٦٦ ٤٥٦ سنة ١٢٩٠ (٢)

أما مجلة روضة المدارس فقد نقل ولده فيها نعى الوقائع لوالده ، وصدّره بهذه الكلمة : « إنى ليحزننى أن أنقل من عدد الوقائع المصرية الأخير ، ما كتبه حضرة محرّرها الأستاذ الشهير ، إيذاناً بوفاة والدى رفاعة بك رافع ، طاب ثراه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ، وحيث كانت دموع الأسف على فقده شاغلة لى عن القيام بحقوقه الواجبة علىَّ من بعده ، كان ليس فى وسعى الآن ، إلا الدّعاء له بالرّحمة والرضوان[٣] » .

وهزّت وفاته أرجاء العالم العربى ، وبكاه تلاميذه الرّوحيون الذين قرءوا

(١) حلية الزمن ص ٣٠ .
(٢) ديوان مجدى بك ص ٤٥ .
(٣) روضة المدارس — السنة الرابعة — العدد السابع .

كتبه وانتفعوا بها ، فورد باسم ولده على فهمى رفاعة ، رسالتان : إحداهما من دمشق ، كتبها السيد محمد طاهر ، والثانية من السيد محمد صالح الدمشقى . ونشرهما ابن رفاعة ، فى العدد التاسع للسنة الرّابعة من مجلة ، روضة المدارس ، وجاء فى الأولى بعد مقدمة : « ألا إنّ بعض الخطب أهون من بعض ، كما أنّ بعضها أمرّ وأمضّ ، ولا كخطب ورد خبره إلى الشام ... فإنه انجرحت به الأفئدة ، ولا يلتام ما كلم الكلام ، وهمت له عيون العيون فكأنما هو قطر هام ، وذلك وفاة جامع أشتات المفاخر ، المتفرد بغايات محاسن الأوائل والأواخر ، صدر الزّمان وغرة الفضل والتبيان ، وينبوع الجود والإحسان ... ثمّ إنى لما كنت تلميذاً بحسب المعنى للعلامة الذى استؤثر به ، بسبب مطالعتى أكثر كتبه التى هى بكر الزّمان ، ونتيجة التحقيق والإتقان ، واستفدت منها فوائد دونها الفرائد ، ومعارف ، يبذل فيها التليد والطارف ، ولاسيما عباراته تثلج صدر قارئها ببرد اليقين ، وتشفى صدورَ قوم مؤمنين ، بادرت بنظم أبيات قياماً ببعض حقه فقلت :

مصاب له صمّ الجبال تصدّع ... وأحشاء كل الخلق منه تقطّع
ألمّ فأضنانا ، ففى القلب حرقة ... وشدّة أحزان ، وفى العين أدمع
يقلّ لنا أن نمزج الدمع بالدّما ... ونعذر فيه إذ نهيم ونجزع
فواأسفاه للشمس يحجب ضوءها ... وللمنهل الصّافى عن الورد يمنع
ألا كل خطب بعد ذا الخطب هين ... وليس لحزن بعد ذا الحزن موقع
تخيّر فيه الموت أمجد عصره ... وللموت فى الغرّ الكرام تولّع
رفاعة أعلى الناس نفساً ومحتدا ... وأشرف أهل الفضل طرّا وأرفع
وأغزرهم علماً وحلماً وفطنة ... وأوراهم فى المجد زنداً وأروع
وأمضاهم فى نصر دين محمد ... حساماً ، وأسمى من يفيد وينفع
هو الشمس ، شمس العلم والفضل والهدى
هو البحر منه الرّوض والدوح يمرع
هو المصقع النحرير ، أفصح ناطق ... وأبدع من يبدى البديع فيسمع
تآليفه لم يبصر الطّرف مثلها ... بها عن سواها للأفاضل مقنع

مطالعها يحظى بيانع روضة لأنواع أثمار المعارف تجمع
وشهرته فى الشام كالشمس فى الضحى
وفى غيرها كالبدر إذ يتشعشع
أتانا على بعد من الدار نعيه فأعيننا تبكيه ، والقلب موجع
ألا ليت شعرى من يعزّى به وقد تشارك فى ذا المأتم الناس أجمع

وجاء فى الثانية وهى رثاء لرفاعة وتعزية لابنه على : « وفقنا الله سبحانه وإياك للصبر فى هذا الخطب الذى آلم كل قلب ، ونزح ماء العيون ، وحرك من الخلق السكون ، وهزم جيش الاصطبار ، فأزال من الأطواد الوقار ، وأفاض بحر الدموع ممزوجة بالدماء ... كيف لا وهو فقد الهمام الذى تقف عن نيل علاه النجوم ، كما يقف عن حصر مناقبه الأقلام والفهوم ، العلامة الذى اتفقت على فضله جميع الأمم ، وسلم بتقدمه علماء العرب والعجم ، رفاعة المجد والفضل والهدى ، بحر المعارف والجود والندى ... » . وممن رثاه مصطفى أنطاكى الحلبى بقصيدة مطلعها :

ألاما لطرف المجد دام ودامع على وجنة العلياء هام وهامع

وقال فيها مشيراً إلى نجل الفقيد على فهمى :

وكادت تميد الأرض لولم يكن بها له خلف يحيى المآثر بارع (١)

وتلمس فى هذه المراثى صدق التعبير عما يشعر به أصحابها من الألم ، وعما يضمرونه لرفاعة من التقدير لعلمه ومؤلفاته ، وعما كان له من قدر فى العالم العربى ، وما خلفه من أسى فى القلوب ، وذكرى حية بين الناطقين بالضاد .

## صفاته

وصفه تلميذه صالح مجدى بك بقوله : « كان قصير القامة ، عظيم الهامة ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون ، وكان كابن عطاء فى لثغة الراء ، وكان صحيح البنية ، قوى الأعصاب (٢) » ، وإذا أنت تأملت صورته رأيت عينين

(١) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ص ٩ .
(٢) حلية الزمن ص ٢٧ .

واسعتين لهما نظرة هادئة حالمة ، وشفتان مطبقتان مصممتان .

أما صفاته الخلقية فمن أظهرها الصبر ، والمثابرة ، وقوة العزيمة ، ويتجلى ذلك في دأبه على العمل كبيرا ، حتى حقق آماله من النبوغ في اللغة الفرنسية ، والتعمق فيها ، وفيما يذكره له مؤرخوه من استغراق في العمل بالليل والنهار بمدرسته ، لينهض بها نهضة شاملة ، وليحقق أهدافها ، وليقوم بشتى الأعباء التي ألقيت على كاهله ؛ ويبدو صبره أيضاً في انتظاره الطويل بالسودان ، برغم تبرمه بالمقام فيه ، واعتقاده أنه كان مبعداً عن وطنه منفيا ؛ وتتجلى هذه الصفات أيضاً في انكبابه على الترجمة حتى يعرّب في الوقت القصير المجلد الضخم ، وفي زهده في النوم ، وانهماكه في التأليف والتراجم [1] ، ولولا تلك الخلال النادرة ، ما استطاع أن يترجم هو وتلاميذه ذلك العدد المتكاثر من الكتب ، ولا أن يؤلف هذه المؤلفات الكثيرة الواسعة ، ولا أن يساهم وقد أربى على الستين في الترجمة والتأليف والإدارة والإشراف كما رأينا .

ويتصل بتلك الصفات صفة الإقدام والجرأة وثبات العزم والحزم ، تلك التي نرى آثارها في نهوضه بما يوكل إليه من المشروعات ، والسير بها إلى مدارج النجح والفلاح . ووصفه تلميذه بالدهاء ، وربما كان يقصد بذلك الصبر على ما يكره حتى يظفر بما يحب .

ومن صفاته كذلك إباؤه وشممه ، وربما كان ذلك من العوامل التي لم تنهض به إلى منصب الوزارة ، ولم تفتح أمامه الطريق إلى رتبة الباشوية ، ولا يغض من هذا الإباء تلك القصائد والأناشيد التي رفعها إلى ممدوحيه ، من حكام الأسرة المالكة ، فإنه ما كان يستجدي بها ، وإنما دفعه إليها عرفان بالجميل ، أسداه إليه محمد علي ، وإعجاب بمآثره وعزماته ، وكانت مدائحه في بنيه إشادة بمجد مؤسس أسرتهم ، وحديثاً عن مصر ومجد مصر وجيشها الباسل ، وما ترنو إليه البلاد من إعادة ماض مجيد ، ولذا كان يسمي بعضها قصائد وطنية مصرية .

ومن أظهر صفاته حبه لوطنه حباً منشؤه الإعجاب بماضيه ، والأمل في مستقبله ، وكتبه وشعره يفيضان بهذا الحب العميق ، فهو يؤلف كتبه ؛ « لما كان من

---

(١) حلية الزمن ص ٢٧ .

الواجب على كلّ عضو من أعضاء الوطن ، أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة ،لمنفعة وطنه العمومية ، وينصح لبلاده ببثّ ما فى وسعهم من المعلومية[١] » ، وذكر رفاعة فى كتاب المناهج مقدمة فى ذكر هذا الوطن ، وما قاله فى شأن تمدينه أرباب الفطن[٢] ، قال فيها : « وإرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن ، كما رغّب فيه الشارع ؛ ففى الحديث حب الوطن من الإيمان ، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عمّر الله البلاد بحبّ الأوطان[٣] » ، « وحسب المؤمن بحبّ الوطن أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علا مطيته ، واستقبل الكعبة ، وقال : « والله لأعلم أنك أحب بلد الله إلىّ ... ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجت » « وبالجملة فحبّ الوطن على عظم الحسب ، وكرم الأدب ، أبهى عنوان ، وهو فضيلة جليلة ، لا يؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمائل النبيلة[٤] » ، ويرى مصر جديرة بالحبّ لخصبها وخيرها[٥] ، وأنها بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ، ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمّروا ممالك الدّنيا بتدبيرهم ، وحكمتهم، وفنونهم ، وصنائعهم ، ولم تزل إلى الآن يسير إليها طلبة العلم ، وأصحاب الفهم من سائر الأقطار ، لتحصيل درجة الكمال[٦] » ، ويرى رفاعة أنّ هذه الوطنية هى التى تدفع أبناء الوطن إلى العمل بكلّ قواهم على النهوض به إلى أسمى الذرا[٧] ، وقد أنهى رفاعة الكتاب بخاتمة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه[٨] .

وذكر رفاعة عدة فصول فى كتاب المرشد الأمين ، تحدث فى واحد منها عن

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٤ .
(٢) ص ٧ .
(٣) ص ١٠ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥ .
(٥) ص ١٦ .
(٦) ص ١٧ .
(٧) ص ١٨ .
(٨) ص ٣٤٨ .

تمدين الوطن ، وأن أعظم أسبابه التربية والتعليم واستكمال المعارف [١] ، وفى آخر عما يجب على أبناء الوطن لبلادهم [٢] ، تحدث فيه عن وجوب اتحاد الكلمة بين أهل الوطن « لأن الله سبحانه وتعالى إنما أعدهم للتعاون على إصلاح وطنهم ، وأن يكون بعضهم بالنسبة إلى بعض ، كأعضاء العائلة الواحدة ، فكأن الوطن إنما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم ، فليكن أيضاً محلاً للسعادة المشتركة بينهم » وفى هذا الفصل يقول : « فالوطنىّ المخلص فى حب الوطن يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ، ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويفديه بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر ، فينبغى أن تكون نيّة أبناء الوطن دائماً متوجهة فى حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم وإخوانهم . . . فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن ، بل يجب عليه أيضاً أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه » ، ويضرب المثل بالأمة الرومانية التى سادت الدنيا عندما كانت الوطنية متغلغلة فى نفوس بنيها ، فيقول : « فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها ، ولهذا تسلّطت على بلاد الدنيا بأسرها ، ولما انسلخت عنها صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملّة ، وفسد حالها ، وانحل عقد نظامها [٣] » .

ولميوله الوطنية عرّب نشيد فرنسا القومى [٤] ، ليظهر فى اللغة العربية ماحواه هذا النشيد من العواطف الوطنية الكريمة .

أما قصائده الوطنية فتفيض بتلك العاطفة القوية الصادقة ، وسوف نعرض لهذه القصائد بالتحليل ، عند الحديث على شعره .

ولحبه لهذا الوطن عنى بتاريخه ، وألف فيه ما يعد من أوائل ما ألف فى تاريخ مصر .

ومن صفات رفاعة حبه لمعالى الأمور ، وعشقه المجد وسامى المثل ، « فمن العار

---

(١) ص ٩٠ .

(٢) ص ٩٣ .

(٣) المرشد الأمين ص ٩٥ .

(٤) عصر محمد على ص ٥٠٥ .

على كامل التميز أن يطلب رتبة دون الرتبة القصوى ، وأن يقصّر عن الوصول إلى وصال سعدى وعلوى ، وأما قول الشاعر :

والنفس راغبـة إذا رغّبتها        وإذا تردّ إلى قليـل تقنع

فهو قول من يقنع بالدّون ، ويرضى بصفقة المغبون[١] .

ولذا لم يكن من الزاهدين فى الغنى ، بل من الراغبين فيه ، والساعين إليه ، وهو لذلك يستحسن ما قاله بعضهم :

إن الغنى لشهاب كلما اعتكرت        دجى الكروب جلا عنها حنادسها

لاتنفـع الخمسة الأسماء محدقة        لديك إلا إذا ما كنت سادسها

قال : « والمراد من الأسماء الخمسة أبوك ، وأخوك ، وحموك ، المرتجى نفعهم ونجدتهم عند الشدائد ، وهنوك ، وهو كناية عن الشىء ، وفوك وهو الفم ، والمراد الفصاحة والبلاغة ، وسادس الأسماء ذو مال ، وهو سيدها ، فذو المال أقرب لاكتساب المعالى لذويه ولوطنه ، وأن يقلده قومه ويتبعوه »[٢] .

ويرى أن تحقيق الآمال فى الغنى ونيل المجد إنما يكون بإحسان العمل ، والتماس الأسباب الموصلة إلى النجح ، وليس الأخذ بالأسباب مما ينافى التوكل ، أو ينافر القضاء والقدر الذى كان يؤمن به[٣] .

وكان رفاعة ذا نفس خيّرة كريمة ، وصفه تلميذه صالح مجدى بك بأنه كان فيه زيادة كرم وسماحة[٤] ، أعتق كثيراً من الأرقاء من الإناث والذكور ، ولم يزل قائماً لهم بالكسوة والمئونة متكفلا لهم بكل ما أمكن ، حتى مات[٥] ، ولم يمنع رفده عن أهله ، فكان يصل رحمه ، ويذهب إلى بلده فى الحين بعد الحين لزيارة أقاربه وصلتهم[٦] ، ولم يقف فى خيره عند أهله فحسب ، بل كان يبذل جهده

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٣٤٤ .

(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٣٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(٤) حلية الزمن ص ٢٧ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) المصدر نفسه .

لقضاء حوائج الجميع ، وكان كلما ازداد رفعة تضاعف سعيه فى ذلك[١] ، وقد خدم كثيراً من أبناء مدينته ، وكان هو سبب نعمتهم[٢] .

واشتهر رفاعة بالتواضع للرّفيع والوضيع ، والزّهد فى مظاهر الخيلاء ، وعدم الاغترار بزينة الدنيا وزخرفها[٣] .

ومع هذا الخلق الكريم لم يكن متزمتاً ، بل كان جميل المحضر ، يصف مجلسه تلميذه بقوله : « وكان مجلسه مجلس مسرّات وأفراح ، وطالما حضرته وسمعت فيه من لطيف المزاح مايشهد له برقّة المزاج ، ويقضى بأن سحره الحلال يقوم للعليل مقام العلاج[٤] » .

وكان أكبر غرامة بالتأليف والترجمة والتدريس ، وكوّن لذلك مكتبة ضخمة ، فقد كانت له عناية كبيرة باقتناء الكتب ، واشترى الكثير النادر منها ، وذكر على مبارك أن كتبه تبلغ بما اشتراه أولاده أربعة آلاف وخمسمائة كتاب ، فيها من الكتب العربية الغريبة ما ليس فى غيرها[٥] ؛ ولا بد أنها كانت تضم إلى جانب هذه الكتب العربية كثيراً من الكتب الفرنسية .

وذكر مؤرخه مجدى أنه ما كان يعتنى بملابسه[٦] ، وكان فى أوائل حياته إلى أن عاد من فرنسا يلبس اللباس العربى : من الجبّة والقفطان والعمامة ، ويقول جورجى زيدان : إنه استبدل به اللباس الإفرنجى المشهور[٧] ، ولكنى لم أر له صورة بغير الزى العربي .

أما من الناحية العقلية فهو ذكىّ حادّ الذّهن ، دقيق الملاحظة ، وحسبك دليلا على ذلك قصر المدة التى استوعب فيها علوم الأزهر حتى أصبح مدرساً فيه ، وعمق ملاحظاته ودقّتها فيما أبداه من موازنات بين الحياة فى الشرق والغرب ،

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .
(٣) حلية الزمن ص ٢٧ .
(٤) حلية الزمن ص ٢٧ .
(٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .
(٦) حلية الزمن ص ٢٧ .
(٧) مشاهير الشرق ج ٢ ص ١٨ .

وكان ذا عقلية منظّمة تلمس آثار نظامها فى مؤلفاته التى ينهج فيها نهج الترتيب والتبويب ، ولم يحطم هذا الترتيب أنه كان يستطرد فى كثير من الأحيان ، كما أنه عميق فى تفكيره ، يقلّب الأمر على وجوهه حتى يعرف حقيقته ، ويصل إلى نتيجته ، وعنده مقدرة على التفرس فى مبادئ الأعمال ليعرف عواقبها ، وبهذا الذهن الممتاز عالج أمور التربية والاجتماع والسياسة ، كما سنرى .

## رتبـــة

كانت ألقاب السلك العسكرىّ متّبعة يومئذ فى السلك المدنىّ ، وقد نال رفاعة كثيراً من هـــذه الألقاب ، فكان ، وهو فى البعثة بباريس ، فى مرتبة ( اليوزباشى ) له مرتباته وكسوته [١] ، وأنعم عليه محمد علىّ سنة ١٢٥٠ هـ برتبة (صاغ قول أغاسى) ، وهو بمدرسة طرة ، بعد أن عرّب مجلداً من كتاب الجغرافية لملطبرون [٢] ، ورقّى وهو بمدرسة الألسن فى أول افتتاحها إلى رتبة ( بكباشى ) [٣] ، وبعد سنة ونصف من إنشاء قلم الترجمة فى عهد محمد على أى سنة ١٢٦٠ هـ نال رتبة ( القائمقام ) [٤] ، ولما انتهى من ترجمة مجلد آخر من جغرافية ملطبرون سنة ١٢٦٦ هـ نال رتبة ( أميرالاى ) ، فصار يدعى رفاعة بك ، بعد أن كان الشيخ رفاعة [٥] ، وآخر ما ظفر به من الألقاب هو رتبة ( المتمايز ) التى أنعم بها عليه سعيد باشا سنة ١٢٧٥ هـ ، بعد ثلاث سنين من إنشاء المدرسة الحربية التى رأسها .

ولست أدرى لِمَ لَمْ يظفر رفاعة برتبة الباشوية ، مع ماله من مكانة علمية سامية ، معترف بها من الجميع ، ولعل السبب فى ذلك أن آخر المناصب التى شغلها فى عهد إسماعيل لم تكن متناسبة مع هذا اللقب الرفيع ، أما أنه لم يتعدّ هذه المناصب

---

(١) حلية الزمن ص ١٤ .
(٢) عصر محمد على ص ٤٨٥ .
(٣) حلية الزمن ص ١٢ .
(٤) عصر محمد على ص ٤٨٧ .
(٥) المرجع نفسه .

إلى منصب الوزارة الذى كان يطمع فيه من ينتظم فى سلك المناصب الحكومية ، مع كفاءته ومقدرته النادرة التى برهن عليها نجاحه فى إدارة ما وكل إليه من المدارس ، ومع أنه صاحب مشروع فى التربية الشعبية كان من الأفضل أن يوكل إليه أمر تنفيذه ، ومع أن ما ناله من المناصب أقل مما يستحقه ذكاؤه وعلمه ، ومع أن أقرانه ممن هم دونه مرتبة و كفاءة نالوا الوزارة حيناً والباشوية حيناً آخر — فيعلل الرافعى بك ذلك كله « بما اتصف به رفاعة من الشمم والإباء ، فإن هذه الصفات على كونها من أسمى الفضائل ، ليست محببة إلى الرؤساء وولاة الأمر ، ولا ترغبهم كثيراً فى أصحابها ، ولا تميل بهم إلى إسناد المناصب الرفيعة إليهم [١] » وأضيف إلى ذلك سبباً آخر ، هو أن رفاعة قد انصرف إلى تأدية ما كان يعتقده رسالة له ، وهو التأليف ونقل الثقافة الغربية إلى اللغة العربية ، تلك كانت رسالته التى عاش لها ، وكرّس من أجلها حياته ، ولعله كان يرى فى ذلك خلوداً دونه اسم الوزارة وجاهها ، وكان عليماً أن التاريخ سوف يسجل له مجهوده ، ويذكر اسمه مقروناً بأسمى آيات الإكبار والإجلال .

## ثروته

بدأ رفاعة حياته فى طلب العلم فقيرا ، يحتال على الاستمرار فيه ، بإعطاء بعض الدروس الخاصة لأبناء الأغنياء ، أو فى بعض المدارس ، حتى إذا تخرج فى الأزهر ، والتحق بوظيفة إمام واعظ ، نال مرتباً لم أعرفه ، وإن كنت أرجح ضآلته ، فلما ذهب إلى باريس ، كفل له عيشه ، وتعليمه ، ومسكنه ، وكان يُعطى له فضلا عن ذلك مائتان وخمسون قرشاً [٢] ، وبعد عودته كان مرتبه وهو بمدرسة الطب ثلاثة وعشرين ومائتين وألف قرش ، مع مرتبات أخرى ، حسبما كان جاريا فى ذلك

---

(١) عصر محمد على ص ٤٩٩ .

(٢) البعثات العلمية ص ٤٧ .

الوقت [١] ، وزاد مرتبه خمسمائة قرش ، وهو بمدرسة المدفعية ( الطوبجية ) [٢] ، ولا أدرى كم كان يتقاضى وهو ناظر مدرسة الألسن ، وفى عهد سعيد عندما كان ناظراً للمدرسة الحربية ، كان مرتبه ثلاثة عشر ألف قرش وعلى حسب الترتيب الذى صدرت به إرادة سنية بتعديل المرتبات ، عيّن له مرتب شهرى مقداره ثمانية آلاف قرش ، ثم عيّن له فى تعديل آخر مرتب قدره خمسة آلاف قرش [٣] ، وربما عاد مرتبه فى ذلك العهد إلى ثمانية آلاف قرش مرة أخرى [٤] ، وظل بهذا المرتب حتى فصل من خدمة الحكومة فى عصر سعيد ، وهو المرتب الذى كان يتقاضاه عند ما عين ناظراً لقلم الترجمة فى أول عهد إسماعيل .

ولم تكن الحكومة تقتصر على أن تمنح رفاعة مرتبه ، بل إن محمد على أنعم عليه بعطاء مالى جزل عقب أن قدم له مجلداً عرّبه من جغرافية ملطبرون [٥] ، كما أنعم عليه بجملة من الأطيان قدرها مائتان وخمسون فدانا ببلده طهطا ، وأقطعه إبراهيم باشا حديقة نادرة المثال فى الخانقاه ، تبلغ ستة وثلاثين فدانا ، ولم يمنحه عباس شيئاً ، أما سعيد فقد أنعم عليه بمائتى فدان ، وإسماعيل باشا بمبلغ مائتين وخمسين فدانا ، فيكون جملة ذلك أكثر من سبعمائة فدان [٦] .

ولا ريب أن هذه المنح المالية كانت ترجمة عملية للاعجاب بعمله ، ومكافأة على مابذله لنفع وطنه ، وممهّداً له عيشاً ناعماً ، يفرغ فيه للجهاد العلمىّ ، ولا يشغله أمر عيشه وتدبيره ، وفى هذا أيضاً مايبرهن على أن الحكومة العادلة تقدر النابغين من أبنائها ، وتغدق عليهم خيرها ونعمها .

ولم يقف رفاعة عند حد ما أنعم به عليه أمراء مصر ، بل اشترى هو تسعمائة فدان ، فبلغ جميع مافى ملكه من الأطيان إلى حين وفاته ألفاً وستمائة فدان ، وهذا

---

(١) حلية الزمن ص ١٤ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) حلية الزمن ص ١٦ .
(٤) تاريخ التعليم فى مصر : عصر إسماعيل ص ١٤٣ .
(٥) حلية الزمن ص ١١ .
(٦) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ و ٥٦ .

غير ما اشتراه من العقارات العديدة فى بلده وفى القاهرة [١] ، فكان بذلك مثالا من أمثلة العصامية النادرة ، والنجاح فى الحياة المادية والروحية .

## ولداه

تزوّج رفاعة بعد عودته من فرنسا بكريمة خاله الشيخ محمد الأنصارى [٢] ، وأنجب منها غير الإناث ابنين جليلين ، خلفهما بعد موته ، وهما على فهمى باشا ، وبدوى فتحى بك ، وكانا قد لازما الأزهر مدّة [٣] ، واقتبسا من معارف أبيهما ، وتخرّجا عليه فى العلوم العربية ، والحديث والنحو ، والتفسير ، والمنطق ، والتاريخ ، والجغرافية ، واللغة ، وبرعا فى فنون الأدب [٤] ، وسافر أولهما فى بعثة سنة ١٨٤٤م [٥] ، ولما عاد عيّن مدرّساً للانشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، ومحرّراً بمجلة روضة المدارس تحت نظارة والده ، وتذكره بعض الوثائق باسم مصحح [٦] الجرنال ، ولما مات أبوه سنة ١٨٧٣م ، جعل ناظر قلم الروضة والمطبوعات [٧] ، وفى سنة ١٨٧٨م عيّن ناظراً لدار العلوم [٨] ، وفى سنة ١٨٧٩م صار وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، فلما عيّن عبد الله فكرى باشا ناظراً للمعارف سنة ١٨٨٢م عيّن على فهمى ، وقد نال رتبة الباشوية ، وكيلا له [٩] ، وأدركته الوفاة فى يونيه سنة ١٩٠٣ م [١٠] ،

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .

(٢) توفى سنة ١٢٥٢ هـ وكان أمين الفتوى لمشيخة الأزهر فى عهد الشيخ حسن العطار ، وهو والد الشيخ على الفرغلى الأنصارى أحد مدرسى مدرسة الألسن — حلية الزمن ص ٤ .

(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .

(٤) حلية الزمن ص ٢٤

(٥) البعثات العلمية ص ٣١١ .

(٦) تاريخ التعليم فى مصر — عصر إسماعيل ص ١٥٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٨) المرجع السابق ص ٥٩٨ .

(٨) المرجع السابق ص ١٦٠ .

(١٠) البعثات العلمية ص ٣١١ .

وقد أكمل على فهمى باشا ما تركه والده من التاريخ ، وله اقتدار على النثر والنظم ، على أسلوب والده[١] ، وسار على نهج أبيه ، فخمّس قصيدة نبوية للشهاب محمود ، وله بعض المؤلفات .

أما ابنه الثانى بدوى بك ، فقد أتم دراسته بالمدرسة الحربية ، وارتقى إلى رتبة ( اليوزباشى ) ، وعيّن لمعاونة أبيه فى قلم الترجمة الذى أنشىء فى عهد إسماعيل[٢] ، ولكن يظهر أنه آثر الإقامة فى طهطا ، ليرعى أملاكهم بها ، واكتفى بالقراءة والاطلاع هناك[٣] .

## تلاميذه

كان لرفاعة تلاميذ منذ نصب نفسه للتدريس بالأزهر ، ولعلّ من هؤلاء الذين أخذوا عنه يومئذ الشيخ العزب مفتى المدينة المنورة ، الذى وصفه صالح مجدى بك بأنه الفقيه المدرّس المحقق[٤] .

ومنذ عاد رفاعة من فرنسا وعمل فى مدرسة الطبّ والمدفعية ، صار له تلاميذ يحبونه ويعجبون به ، وممن عرفهم التاريخ من تلامذته فى هذا العهد المبكّر ، الدكتور محمد على البقلى باشا ، فقد حدّث أنه أخذ مع عدّة من أمثاله عن رفاعة بعض المعارف الأوّلية ، بالمدرسة الطبية ، التى كانت إذ ذاك بأبى زعبل ، وذلك سنة ١٢٤٧هـ ، وقد شهد له أستاذه رفاعة شهادة ترتب عليها إرساله إلى باريس لدراسة الطب ، فلما عاد وانتفع الوطن بعلمه ، وعرف الوالى مقداره ، ومنحه رتبة (أمير الاى) سنة ١٢٧٧هـ مضى إلى رفاعة بالمدرسة الحربية التى كانت تحت نظارته ، وقبّل يده

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .

(٢) تاريخ التعليم فى مصر — عصر إسماعيل ص ١٤٥ .

(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .

(٤) حلية الزمن ص ٥ .

معترفاً بفضله [١]. وكان البقلى باشا من أعلام الطب فى عصر محمد على وإسماعيل [٢].

فلما جاء عهد مدرسة الألسن كثر عدد تلاميذه، ونبغ منهم عدد كبير، نهضوا بمهمة التعليم وترجمة الكتب فى مختلف المعارف الإنسانية، وتفوّقوا فى الأدب، والترجمة فى دواوين الحكومة، وتقلّدوا شتى المناصب الرفيعة.

وقد ذكر السيد صالح مجدى بك [٣] أسماء النابغين منهم، ويطول بى القول إذا أنا أوردت أسماءهم وحسبى أن أذكر منهم:

محمّد مصطفى البيّاع، مترجم مطالع شموس السّير، فى وقائع كرلّوس الثانى عشر.

وخليفة محمود [٤]، مترجم إتحاف الملوك الألبّا، بتقدم الجمعيات فى أوربا، وإتحاف ملوك الزّمان بتاريخ إمبراطورية شارلكان، وتنوير المشرق بعلم المنطق.

وعبد الله أبو السعود افندى [٥]، وهو أول صحفىّ سياسى، ظهر فى تاريخ مصر الحديث، حرّر جريدة وادى النيل، وهى أوّل صحيفة سياسية حرّة صدرت فى مصر فى عهد اسماعيل؛ وارتقى فى المناصب، حتى صار فى عهد إسماعيل باشا رئيساً لقلم الترجمة، ومدرّس التاريخ العام بدار العلوم، وله مباحث شيقة فى مجلة روضة المدارس، وفضلا عما ألفه، ترجم عدداً من الكتب، منها نظم اللآلىء في السلوك، فيمن حكم فرنسا من الملوك، وقناصة أهل العصر فى خلاصة تاريخ مصر، ويعرف بتاريخ قدماء المصريين تأليف ماريت بك، وقانون المحاكات والمخاصمات، بالاشتراك مع حسن فهمى، والدّرس المختصر المفيد، فى علم الجغرافيا الجديد، وباشر ترجمة تاريخ عام مطوّل، اسمه الدّرس التام فى التاريخ العام، طبع قسم منه سنة ١٢٨٩هـ، وترقية الجمعية بالكيمياء الزّراعية، وتاريخ الدّيار المصرية فى عهد الدّولة المحمدية العلوية.

---

(١) المرجع السابق ص ١١.
(٢) عصر محمد على ص ٥٠٨ وترجمته ص ٥٢١.
(٣) حلية الزمن ص ١٧ وما يليها.
(٤) شىء عنه بكتاب حركة الترجمة فى مصر ص ١٠٥.
(٥) راجع حلية الزمن، وعصر محمد على ص ٥٠٨ وحركة الترجمة ص ١٠١.

ومنهم محمد عبد الرازق ، مترجم كتاب غاية الأدب ، فى خلاصة تاريخ العرب للأستاذ سيديليو ، وعبد الجليل بك الذى صار (سكرتيراً) خاصاً لإسماعيل باشا[(١)]، وشحاته عيسى بك[(٢)] من نوابغ طلاب البعثات وصار ناظر مدرسة أركان حرب فى عهد إسماعيل ، وحسن بك فهمى ، وكيل سكك الحديد بالوجه القبلى ، ثم القاضى بالمحكمة المختلطة[(٣)] ، وأحمد بك عبيد[(٤)] ، وقد صار رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ، وعيّن قاضياً بمحكمة الإسكندرية المختلطة ، ومن مترجماته الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر ، وتعليمات البيادة ومناوراتها ، وتعاليم الخيالة ومناوراتها ، وتعليم السوارى ، والقانون الخامس وهو تعليم الأورطة البيادة وغير ذلك .

ورمضان عبد القادر ، المترجم بديوان البحرية ، وله تراجم عسكرية عديدة[(٥)].

وحسن الجبيلى المترجم بديوان الأوقاف ، وله تراجم فى التاريخ[(٦)] ، منها برهان البيان وبيان البرهان فى استكمال واختلال دولة الرومان .

وحسين افندى على الديك[(٧)] ، مدرس الحساب بمدرسة المحاسبة ، وله كتاب قيم فى مسك الدفاتر .

ومصطفى افندى رضوان ، مدرس اللغة الفرنسية بمدرسة الطب[(٨)] .

ومحمد زهران ، المدرس بمدرسة الطب[(٩)] .

ومنهم عبد الله السيد بك ، الذى عيّن رئيساً للمحكمة التجارية بالإسكندرية ، ثم مستشاراً بمحكمة الاستئناف المختلطة[(١٠)] .

---

(١) حركة الترجمة ص ٣٤ .
(٢) عصر محمد ص ٥٠٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠٩ .
(٤) حركة الترجمة ص ١٠٢ .
(٥) عصر محمد على ص ٥٠٩ .
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) المصدر نفسه .
(٨) المصدر نفسه .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) المرجع السابق ص ٥٣٣ .

historian

ومن أنبغ تلاميذه مؤرخه السيد صالح مجدى بك ، وقد التحق بقلم الترجمة ، وكانت كُتب التدريس فى العلوم الرياضية يومئذ لا يزال معظمها باللغة الفرنسية ، فتخصص فى ترجمتها ، ثم تولى ترجمة كتب الفنون الحربية وتصحيحها ، وتولى رياسة قلم الترجمة فى عهد إسماعيل ، وعـيّن قاضياً بمحكمة مصر المختلطة . وكان يحسن الإنشاء والكتابة وله ديوان شعر ، ومن أهم مترجماته كشف رموز السر المصون فى تطبيق الهندسة على الفنون ، والدرّ المنثور فى الظـلّ المنظور ، والنخبة الحسابية للمدارس العسكرية ، وميادين الحصون والقلاع ورمى القنابل باليد وغير ذلك (١) .

ومنهم محمد سليمان ، أول من برع فى اللغة الإنكليزية ، وله تراجم كثيرة ، وكان مدرس الإنكليزية بالمدارس الحربية (٢) .

وخورشيد فهمى ، وكان له وقوف تام على الفرنسية والتركية (٣) .

وعلى شكرى ، وكان متبحـراً فى اللغات الثلاث : العربية والتركية والفرنسية ، وكان مترجم الوقائع المصرية (٤) .

ومنهم مصطفى افندى الـكريدى ، العارف باللغات التركية والعربية والفرنساوية والرومية (٥) .

ومنهم منصور عزمى ، العارف بالعربية والفرنسية والطليانية (٦) .

ومراد مختار ، وكان ناظر مدرسة ، يجيد اليونانية والفرنسية والتركية (٧) .

وحسن وفائى ، الخطاط الشهير (٨) .

ومنهم العالم المشرع الـكبير محمد قدرى باشا ، وهو صاحب الـكتب الثلاثة

---

(١) راجع حركة الترجمة ص ٩٩ .
(٢) حلية الزمن ص ١٨ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) المرجع نفسه
(٦) المرجع السابق ص ١٩ .
(٧) حركة الترجمة ص ٣٦ .
(٨) عصر محمد على ص ٥١٠ .

الخالدة فى جمع أحكام الشريعة الإسـلامية فى المعاملات المدنية ، والأحوال الشخصية ، والوقف على مذهب أبى حنيفة ، وصوغها فى قالب القوانين الحديثة ، وهى كتاب مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية ، وكتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وكتاب قانون العدل والإنصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف ، وألّف أيضاً كتاب تطبيق ما وجد فى القانون المدنى موافقاً لمذهب أبى حنيفة . وقد ظل يشغل منصب الترجمة فى الحكومة ، وكان رئيساً لقلم الترجمة بوزارة الخارجيـة ، وترجم قانون الحدود والجنايات ، وقوانين المحاكم المختلطة ، تمهيداً لوضع قوانين المحاكم الأهلية الجديدة ، وتولّى وزارة الحقانية ، ثم المعارف في عهد توفيق باشا (١) .

ومنهم عثمان جلال بك الشاعر الناثر ، واضع أساس القصة الحديثة ، وكان ميالا إلى الفن الروائى ، يترجم ويمصر ما يترجم ، وقد استوزره توفيق باشا ، ومن مترجماته أمثال لافونتين ، نظمها شعراً ، ودعاها العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ، ورواية بول وفرچينى (٢) .

ومنهم مصطفى بك السراج ، الذى احتفل بجمع قاموس بالفرنسية والعربية (٣) .

وعباس سامي عبد الرحيم ، وكان مترجم قوانين (٤) .

وذكر قدرى باشا أحد المتخرجين فى مدرسة الألسن أن تلاميذ هذه المدرسة قد عرّبوا نحو ألفى كتاب أو رسالة فى مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا فى الترجمة فى عهد محمد على وإسماعيل كانوا تلاميـذ رفاعة بك ، أو تلاميذ تلاميذه (٥) .

---

(١) ترجمته فى حركة الترجمة ص ١٠٤ وعصر إسماعيل ج ١ ص ٢٩٣ وتراجم ص ١٠٩ وحلية الزمن ص ١٩ .

(٢) حركة الترجمة ص ١٠٣ وعصر محمد على ص ٥١٠ وحلية الزمن ص ٢٠ .

(٣) حلية الزمن ص ٢٠ .

(٤) حركة الترجمة ص ٣٦

(٥) عصر محمد على ص ٥١٠

## معاونوه

ساعد رفاعة فى النهوض بأعبائه طائفـة من العلماء الذين كان يوكل إليه أمر اختيارهم ، فكان يأتي بهم من الأزهر حيناً ، وممن تعلموا التعلم المدنى حيناً ، ومن تلاميذه النابغين حيناً آخر ، ولم أعثر إلا على أسماء قليلة من هؤلاء الجنود المجهولين ، الذين يعود إلى جهودهم الشيء الـكثير من نجاح رفاعة فى تأدية رسالته .

فمن كان يعمل تحت رئاسته في مدرسة الألسن الشيخ محمد قطة العدوى ، وكان « راسخاً فى المعقول والمنقول » ، واشتهر فى تصحيح الـكتب العربية[١] ، ومنهم الشيخ على الفرغلى الأنصارى ، ( وهو ابن خال رفاعة بك ) ، وكان يدرّس اللغة العربية بها[٢] ، ومنهم الشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، المؤلف فى التوحيد والفقه والنحو والأدب وغير ذلك من الفنون العربية والمحرر بالوقائع المصرية[٣] ، وكان « باشخوجة » اللغة العربية بالمدرسة التجهيزية ، وكبيراً للمصححين بمدرسة الألسن ، « ولم يطبع من كتب هذه المدرسـة كتاب إلا طالعه ، وتصفحه ، وقابله ، وصححـه ، وهو يشتغل ليلا ونهاراً[٤] » ، ومما قرأه للتلامذة في تلك المدرسة النحو ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، والعروض ، والقوافى ، والتوحيد ، وسمعوا منه أدبيات نثرية وشعرية ، كإنشاء العلامة الشيخ العطار ، والشيخ مرعى ، ودواوين ابن معتوق ، والصـفى ، وابن الفارض[٥] .

ومنهم الشيخ خليل الرشيدىّ ، والشيخ محمد المنصورى ، وكان مكفوف البصر ، وقد تعيّنا لإعطاء دروس الفقه والتوحيد بمدرسة الشريعة الإسلامية[٦] .

ومنهم الشيخ محمد الدمنهورى والشيخ عبد المنعم الجرجاوى .

---

(١) تجد له ترجمة مطولة برسالة حلية الزمن ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١ .
(٤) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٥ .
(٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٣ ، وله بهذا الجزء ترجمة واسعة .
(٦) حلية الزمن ص ٢١ .

وكان معه مدرسون فرنسيون ، منهم مسيو كوت ، وبتيير ، وديزون ، وقد عين هذا معاونًا لرفاعة وأمينًا للمكتبة الملحقة بالمدرسة (١) ، ثم قام المتخرجون فى المدرسة بمهمة تدريس هذه اللغة بعد أن تضلعوا فيها (٢) .

أما معاونوه فى قلم الترجمة فكانوا من تلامذته المتخرجين فى مدرسة الألسن ، ومنهم عبدالله أبو السعود افندى ، كما عاونه ولده بدوى فتحى بك ، عندما شكّل قلم الترجمة فى عهد إسماعيل (٣) ، وكان من المصححين بهذا القلم الشيخ نصر الهورينى ، والشيخ محمد المرصفى (٤) .

وممن ساعده فى اختيار بعض العبارات والأساليب فى الترجمة « الكامل الناجب ، صاحب الذهن الثاقب ، الأكمل الأمثل الشيخ محمد هدهد الطّنتدائىّ الذى قيده بصحبته ، بوظيفة مبيِّض لهذا الكتاب ( الجغرافية العمومية ) وكاتب لما يمليه عليه ، فقام بواجبات هذه الوظيفة وزيادة ، وربما تصرّف بعد مشاورته فى عبارات ، أو أشار عليه بتغيير ما يظنّ أنه يعسر فهمه ، على من لم يسبق له فى هذا الفن علمه » (٥) .

ذلك قلّ من كثر ، ساعدوا رفاعة على النهوض برسالته ، ولا ريب أنّ اسمه الضخم ، حجب كثيراً من تلك الأسماء التى عاونته .

## جهوده فى التأليف والترجمة

رأينا أنّ من أهم ما يمتاز به رفاعة ، الجلد والمثابرة ، وهو لهذا لم يكن يملّ العمل ، ولا يسأم الدرس ، ولم يحل بينه وبين الإنتاج ما كان يوكل إليه من أعمال وأعباء ، وبدت فيه رغبة التأليف مبكرة منذ كان فى الأزهر ، فإنه لم يلبث

---

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٥ .
(٢) حلية الزمن ص ٢٣ .
(٣) تاريخ التعليم فى مصر — عصر إسماعيل ص ١٤٥ .
(٤) حلية الزمن ص ٢٢ .
(٥) الجغرافيا العمومية ج ١ ص ٢ .

إلا يسيراً بعد انتظامه فى سلك طلبته حتى نظم أرجوزة فى علم الـكلام — كما سبق أن ذكرنا — وبدا فيه الشوق إلى الترجمة مبكـراً منذ أوّل عام أقام فيه بباريس، وظلّ يؤلف ويترجم إلى آخر أيام حياته، فلا نعجب إذاً لهذا الإنتاج الضخم فى التأليف والترجمة، فضلا عما أشرف عليه، مما ترجمه سواه، ولـكى نضع صورة إجمالية لتلك الجهود، يحسن أن نبين ألوانها فى إيجاز، منبّهين إلى أنّ ماسنذكره، ليس كل ما له من الآثار، فبعض مؤرخيه (١) يذكرون أن له مؤلفات لم تطبع، ولا يبيّنون أسماء هذه المؤلفات؛ ويقول على مبارك باشا (٢) مثلا: إنه ترجم وهو فى السودان كتباً منها كتاب تليماك، ويقول تلميذه صالح مجدى بك (٣): إنه فى تلك المدة ألّف وترجم عدة كتب من ضمنها كتاب تليماك، مع إننا لا نعرف من آثاره فى تلك الفترة سوى كتاب تليماك.

أما ما عثرنا عليه من مؤلفاته ومن أسمائها ففى فروع شتى:

١ — ففى علم الـكلام: نظم أرجوزة فيه.

٢ — وفى الفقه: كتب بحثاً فى المذاهب الأربعة، ورسالة عنوانها: القول السديد فى الاجتهاد والتقليد، وأخرى فى البدع المتقررة فى الشّيع المتبربرة.

٣ — وفى النحو: وضع خاتمـــة لقطر الندى، ومنظومة سمّاها جمال الأجرومية، وكتاباً دعاه التّحفة المـكتبية.

٤ — وفى علم الحديث: نظم مصطلحاته.

٥ — وفى البلاغة والأدب: اختصر معاهد التنصيص، وشرح لامية العرب

٦ — وفى التاريخ: كتب أنوار توفيق الجليل، ونهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز.

٧ — وفى الاجتماع والسياسة: وضع تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز، وكتاب مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية:

---

(١) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٥.

(٣) حلية الزمن ص ١٣.

٨ – وفى التربية ، ألّف كتاب المرشد الأمين للبنات والبنين ، ومنظومة فى تأديب الأطفال .

٩ — وفى الهندسة ، وضع منظومة فيها .

أمّا ماترجمه من كتب :

١ — ففى الجغرافية والفلك ، ترجم نبذة فى علم الهيئة ، ومقدمة جغرافية طبيعية ، وجغرافية عمومى فى كيفية الأرض ، وجغرافية صغيرة ، والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، والجغرافية العمومية لملطبرون .

٢ — وفى التاريخ ، ترجم نبذة فى الميثولوجيا ، وأخرى فى تاريخ الإسكندر الأكبر ، وتقويم سنة ١٢٤٤ هـ ، وينسب إليه أنه ترجم كتاباً فى تاريخ المصريّين القدماء .

٣ — وفى السياسة والاجتماع ، ترجم كتاباً دعاه قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر ، ودستور فرنسا ، وأصول الحقوق الطبيعية .

٤ — وفى الصحة ، ترجم فيها نبذة .

٥ — وفى الهندسة ، ترجم مبادئ الهندسة وثلاث مقالات من لجندر .

٦ — وفى القانون عرّب القانون الفرنساوى المدنى ، وقانون التجارة .

٧ — وفى الطب ، ترجم رسالة .

٨ — وله فى المعادن ، رسالة .

٩ — وفى الفنون الحربية ، ترجم قطعة من عمليات الضباط .

١٠ — وفى الأدب ، له نظم العقود فى كسر العود ، ترجمة قصيدة La Lyre Brisée ، ومواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ، ترجمة كتاب Fénelon الذى سماه Les Aventures de Télémaque ، والأمثال فى تأديب الأطفال .

وينسب إليه أنه ترجم تاريخ[١] قدماء الفلاسفة ، وليس له ، وإنما ترجمه عبد الله حسين ، وأشرف رفاعة عليه[٢] . وأنه ترجم كتاباً فى المنطق[٣] ألفه

(١) حركة الترجمة ص ٥٥ .
(٢) راجع مقدمة الكتاب .
(٣) حركة الترجمة ص ٥٦ .

De Dumarsais ، وليس بصحيح ، وإنما ترجمه خليفة محمود وراجعه رفاعة فحسب[١] ، وأنه ترجم كتاب إتحاف الملوك الألبّا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا[٢] ، ومترجمه خليفة محمود ، وأشرف رفاعة على ترجمته[٣] ، وأن له كتاباً فى الجغرافية اسمه الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار[٤] ، وليس له ، وإنما قام بتصحيحه فقط[٥] .

ومما أوردناه — وليس ذلك بكل آثاره — تتبين ضخامة الجهد الذى بذله رفاعة فى الإنتاج بنوعيه : تأليفاً وترجمة ، وتستطيع فى سهولة ويسر أن تتبين أثر نشأته الأولى بالأزهر ، فيما تناوله من التأليف فى المواد التى كانت تدرس بالأزهر يومئذ من فقه ، ونحو ، وكلام ، وحديث ، وبلاغة ، وفيما كان يحبه هو من الأدب والتاريخ ، وأثر مقامه فى أوربا ، فيما ألفه من كتب تتناول الاجتماع ، والسياسة ، والتربية .

أما مترجماته فيبدو فيها التنوع ، لأنه تخصص فى الترجمة لا فى علم بعينه ، وإن كان اتجاهه إلى الجغرافية أكثر من اتجاهه إلى أى مادة أخرى ، وكان يعانى تدريسها فى المدارس التى وكل إليه أمرها .

وإذا أردنا أن نقسم مؤلفاته ومترجماته تقسيما زمنياً رأينا أنه ألّف وهو بالأزهر أرجوزته[٦] فى التوحيد ، وخاتمة قطر الندى[٧] ، وأرجّح أنه ألف فى ذلك العهد أيضاً ، طالباً أو مدرساً ، منظومتيه فى علم الحديث ، وفى علم الهندسة ، فقد تحدث عنهما فى كتابه تخليص الإبريز[٨] ، مما يدل على رجحان تأليفهما ، وهو بالأزهر .

ولم يؤلف فى باريس سوى كتابه تخليص الإبريز ، فقد انصرف هناك إلى

---

(١) راجع مقدمة الكتاب .
(٢) حركة الترجمة ص ٥٦ .
(٣) راجع مقدمة الكتاب .
(٤) عصر محمد على ص ٥١٢ .
(٥) راجع خاتمة الكتاب .
(٦) حلية الزمن ص ٥ .
(٧) المرجع السابق ص ٦ .
(٨) ص ٦٠ و ص ٢٠٤ .

ما خصص نفسه لأجله ، وهو دراسة اللغة الفرنسية ، والترجمة منها إلى العربية ، فلمَّا عاد ، وتولى مدرسة الألسن وما ألحق بها من مدارس ، ألّف لطلبة الشريعة كتاباً فى المذاهب الأربعة ، انتفع به هؤلاء الطلبة [١] ، وأرجّح أنه وضع لطلبة مدرسة الألسن — وكان يدرّس اللغة العربية لهم أيضاً — شرح لاميّة العرب ، واختصر معاهد التنصيص .

وفى عصر إسماعيل أخرج جمال الأجروميّة سنة ١٢٨٠ هـ ، وطبع أنوار توفيق الجليل سنة ١٢٨٥ هـ ، وفى السنة التالية سنة ١٢٨٦ هـ ظهر له كتاب التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية ، ونشر القول السديد فى الاجتهاد والتقليد سنة ١٢٨٧ هـ ملحقاً بروضة المدارس ، وفى هذا العام ، وفى روضة المدارس أيضاً نشر رسالة البدع المتقرّرة فى الشّيع المتبربرة ، وفى هذا العام أو الذى قبله [٢] ظهر كتابه القيّم : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . وفى سنة ١٢٨٩ هـ [٣] أخرج كتابه المرشد الأمين ، للبنات والبنين ، وفى هذا العام بدأ ينشر آخر كتاب ألَّفه ، وهو كتابه الضخم : نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، ملحقاً بروضة المدارس فى سنتها الثالثة ، وظلّ ينشر فى الروضة تباعاً بعد وفاته حتى تم سنة ١٢٩١ هـ .

أما فى الترجمة فقد انكب عليها فى باريس ، وتفرغ لها تقريباً ، فترجم هناك اثنى عشر مترجماً ، بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذ قصيرة ، وقد عددنا هذه الترجمات فيما مضى [٤] ، ومما يلحظ أنه لم يتجه فى باريس إلى مادة معينة واحدة يترجم منها ، بل رأيناه يترجم فى الجغرافيـة ، والفلك ، والتاريخ ، والسياسة ، والاجتماع ، والصحة ، والهندسة ، والمعادن ، والفنون الحربية ، والأدب ، وذلك إن دل ، فإنه يدل على رغبته فى أن يتمرن على الترجمة فى مواد مختلفة ، وأن يبرهن

---

(١) حلية الزمن ص ٢٦ .

(٢) لم أر الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، ولكن عصر محمد على يقول إنه ظهر سنة ١٨٦٩ وهذا العام يقع بعضه سنة ١٢٨٦ ، وبعضه سنة ١٢٨٧ هـ .

(٣) عصر محمد على ص ٤٩٤ .

(٤) راجع ص ٢٦ .

على مقدرته فى الترجمة من المواد المختلفة حتى يركن إليه ، ويوثق به عندما يوكل إليه فى مصر بعد عودته أمر الترجمة فى مادة ما ، وقد طبع مما ترجمه وهو فى باريس كتاب المعادن النافعة ( سنة ١٢٤٨ هـ ) وكتاب قلائد المفاخر ( سنة ١٢٤٩ هـ ) ، ولست أدرى إن كان ما سماه نبذة فى علم الهيئة ، ونبذة فى علم الصحة شيئاً آخر غير مانشره بكتاب تخليص الإبريز[١] . أما الجزء الذى ترجمه من كتاب ملطبرون فى الجغرافية فقد أكمل رفاعة كتابه وطبع كما سنرى ، ولم أعثر على بقية ما ترجمه وهو بباريس ، ولا أدرى أطبع أم لا .

فلما عاد إلى مصر وعيّن مترجماً بمدرسة الطب ، ترجم رسالة فيه لم تطبع[٢] ، فلما مضى إلى مدرسة الدفعية ، ترجم لتلاميذ تلك المدرسة كتاباً فى الهندسة[٣] ، كما ترجم وهو بتلك المدرسة أيضاً سنة ١٢٥٠ هـ مجلداً من كتاب الجغرافيـة العمومية لملطبرون . وفى سنة ١٢٦٢ هـ ترجم منه مجلداً آخر . وترجم كتاباً دعاه جغرافية صغيرة طبع سنة ١٢٥٠ هـ[٤] ولم أعثر على هذا الكتاب ، كما لم أعثر على كتاب آخر ترجمه وطبع سنة ١٢٥٤ هـ وسمّاه جغرافية عمومى فى كيفية الأرض ، ولا على كتابه الذى ترجمه ،وسماه تاريخ المصريين القدماء وطبعه سنة ١٢٥٤هـ[٥] . ومن أهم ما ترجمه فى ذلك العهد ، وهوعهد محمد على ، كتاب التعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، المطبوع سنة ١٢٥٤هـ .

أما فى عهد عباس فقد دفعته الغربة إلى أن يجد لنفسه مسلاة ، يدفع بها عن نفسه السأم ، فترجم فى عهده ،بين سنتى ١٢٦٧ و١٢٧٠ هـ كتابه مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك .

ولم يترجم أيام إسماعيل سوى القانون المدنى الفرنسى المطبوع سنة ١٢٨٣ هـ وقانون التجارة المطبوع سنة ١٢٨٥ هـ .

---

(١) ص ٤٠ وص ١٠٥ .

(٢) حلية الزمن ص ٢٦ .

(٣) راجع مقدمة كتاب مبادىء الهندسة .

(٤) حركة الترجمة ص ٥٥ .

(٥) المرجع السابق ص ٥٦ .

ومن كلّ ما أسلفناه يتبيّن :

١ — أن العصر الذى ملأه رفاعة بالتّرجمة ، فلم يؤلّف فيه إلا اليسير هو عصر محمد على ، وأن العصر الذهبى لرفاعة فى التأليف ، كان عصر إسماعيل ، فقد ظهر فيه أهم كتبه وأنضجها .

٢ — وأن أكثر ما ترجمه رفاعة كان فى علم الجغرافية ، وهى مادة أحبها رفاعة وأغرم بها .

٣ — وأن مؤلّفاته فى عصر إسماعيل لم تكن امتداداً لترجمته ، فلم نره ألّف فى الجغرافية ، ولعلّه اكتفى بما ترجمه فيها ، اللهم إلا التاريخ ، فإن كتاب أنوار توفيق الجليل ، يعدّ امتداداً لترجمة كتاب تاريخ قدماء المصريين ، إذا صحّ أنه ترجمه .

٤ - وأنه يحاول إذا وضع فى مركز أن يملأه ، وأن يكون نافعاً فيه ، وأن يجتهد فى استخدام معلوماته واستغلالها ، فرأيناه مثلا في مدرسة الطب يترجم رسالة ، وفى مدرسة المدفعية ، يترجم كتاباً فى الهندسة العسكرية ، وفى عصر إسماعيل ، والحاجة ماسّة إلى ترجمة القوانين ، يترجم القانون المدنى وقانون التجارة .

والآن يحسن بنا أن نقف عندما ألّفه أو ترجمه ، لنرى جهده وما ابتكره ، وندرس منهجه ، ونقف على أثره فى تطويع اللغة العربية للعلوم التى ترجم فيها ، ونتبيّن فضله فى وضع مصطلحات جديدة أغنى بها اللغة ، وسهل بها التعبير أمام الباحثين والمؤلفين ممن جاء بعده .

## مؤلفـــاته

سوف أدرس بقدر المستطاع ما كتبه رفاعة فى كل مادة ألف فيها ، حتى نستطيع أن نتبيّن اتجاهاته المختلفة ، وتتضح أمامنا جهوده .

## فى علم الـكلام

كان لنشأة رفاعة بالأزهر ، وكثير من متون العلوم التى تدرس فيه منظوم ، أثر فى حبه أن ينهج نهج مؤلفى هـذه المنظومات ، فنظم منها خمساً : إحداها أرجوزة فى علم الـكلام ، ولا أعرف عن هذه المنظومة ، إلا ما ذكره عنها تلميذه مجدى[1] بك ، من أنه قرأها وهو فى الأزهر ، على الأستاذ الفضالى ، وربما رآها جديرة بأن يضع عليها شرحاً يسهل تناوله على الخاص والعام ، قال مجدى بك : ولعله شرح هذه المنظومة ولم يشتهر ، ولم يورد هو ولا رفاعة نموذجاً منها ، وأغلب الظن أنها مخطوطة لم تطبع .

## فى الفقه

كان رفاعة شافعى المذهب[2] ، ولـكنه كان مطلعاً على المذاهب الأخرى[3] ، عارفاً بطبقات رجالها[4] ، وقد هيأ له ذلك أن يضع بحثاً فى المذاهب الأربعة لطلبة الشريعة بمدرسة الألسن ، الذين كانت تعدهم دراستهم لتولى مناصب القضاء[5] ، ولم أطلع على هذا الـكتاب ، وأغلب ظنى أنه لم يطبع ، ولعله بحث مقارن بين هذه المذاهب ، يتيح لهؤلاء الطلبة أن يوازنوا بين الآراء المختلفة ، وربما كان يرمى بهذا إلى أن نختار أحكام القضاء من بين المذاهب الأربعة ، فقد كان رفاعة يرى جواز تقليد أى واحد منهم ، بل يجوز تقليد غيرهم ممن دون مذهبه ، وجواز الانتقال فى بعض المسائل إلى غير المذهب الذى عليه المقلد[6] .

---

(١) حلية الزمن ص ٥ .
(٢) تخليص الإبريز ص ٣ .
(٣) مناهج الألباب المصرية ص ٣٨٦ .
(٤) القول السديد ص ٨ .
(٥) راجع ص ٤١ .
(٦) مناهج الألباب المصرية ص ٣٨٨ .

وأعدَّ رفاعة بحثاً قصيراً ، لينشر ملحقاً بمجلة روضة المدارس ، سماه : القول السديد فى الاجتهاد والتجديد ، يفسر بهذا البحث فكرة عرضها فى مقال نشره بها ؛ فقد أخبر عن بعض العلماء الذين خلّدت آثارهم ، وهو تقىّ الدين السبكى أنه مجتهد منتسب ، فوضع هذا البحث ، يعرِّف به المجتهد[1] ، وأركان الاجتهاد وأدلَّته[2] ، ومراتب الاجتهاد ، فهناك مجتهد مطلق مستقلّ ، وهو من يستقلُّ بقواعد يؤصلها ، وأدلَّة يحرِّرها ، وبراهين يقرِّرها ، ويفرِّع عليها كالإمام الشافعىّ مثلاً ، ومجتهد مذهب[3] ، وهو من يختار طريقة إمامه فى الاستدلال ، ويفرِّع عليها ، بحسب ما يؤدِّى إليه اجتهاده ، كالمزنىّ من أصحاب الشافعىّ . ومجتهد فتوى وهو القادر على الترجيح فى أقوال إمامه كالرافعى والنووى ، ثمَّ يقابل بين طبقات فقهاء الحنفية والشافعية[4] ، وقد تعرَّض رفاعة فى هذا البحث لمسألة الاجتهاد وبقائه ، ولا يصدر حكما قاطعاً فى هذا الشأن ، بل يروى آراء غيره ، فمنهم من يرى أنَّ الاجتهاد المطلق قد انقطع منذ الثلاثمائة ، ومنهم — كالسيوطى — من يرى بقاءه إلى آخر الزمان ، والظاهر من عبارته ترجيح رأى من يقول بانقطاعه ، فهو لا يرى حجة السيوطى المبنية على حديث : يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها — حجة قاطعة ، فقد يكون المراد بمن يجدِّد أمر الدِّين من يقرِّر الشرائع والأحكام ، لا المجتهد المطلق ، وهنا يدخل فى الكلام على المجدِّدين ، فيذكر المجدِّدين على رأس كل مائة سنة[5] ، وعقد فصلاً بيَّن فيه أنَّ المجدِّد للدِّين يجوز أن يكون من المجتهدين أو المقلِّدين[6] ، لأنَّ التجديد للدِّين هو تقريره وتأييده « ولا يختصُّ بالفقهاء ، فإنَّ انتفاع الأمة يكون أيضاً بأولى الأمر ، وأصحاب الحديث والقراء والوعاظ[7] » . وولىُّ الأمر المجدِّد فى الدين ليس هو الذى يحكم فى التحريم والتحليل بما يخالف الأوضاع الشرعية المستنبطة

---

(١) ص ٢ . (٢) ص ٣ . (٣) ص ٦ .
(٤) ص ٨ . (٥) ص ١١ .
(٦) ص ١٧ . (٧) ص ١٧ .

عند الأئمة المجتهدين من أدلّة الكتاب والسنّة والإجماع[١]، بل هو المتخذ العلماء شعاراً، والصلحاء دثاراً، والحكم النصوح مستشاراً، حتى تدور مملكته بين نصائح العلماء، ودعوات الصلحاء، ووصايا أهل الإخلاص من الحكماء، ولا يتبع إلا القوانين المرعية، التى لها أصل فى الشريعة المحمدية، وهو يعدّ من المجدّدين للدّين والدّنيا، ولا سيّما إذا سلك فى العدل خير سنن، وأمات البدع وأحيا السنن[٢]، وتناول فى هذا البحث أيضاً، متى يجوز الانتقال من مذهب إلى آخر.

نشر هذا البحث ملحقاً بمجلة روضة المدارس[٣]، ثمّ أفرد مستقلاً بنفسه.

أما رسالته فى البدع المتقرّرة فى الشيّع المتبربرة، فلم تنشر مستقلّة، وإنما نشرت تباعاً جزءاً أصيلاً من المجلة[٤]، وقد بدأ هذه الرسالة متحدّثاً عن الأوهام الفاسدة، التى لا تكاد تخلو منها أمة من قديم الزّمان، « وبقى أثر ذلك فى كثير من الأمم المتبربرة المتأخرة، على طريقة قوية منتشرة »، وهنا يذكر بعض غرائب جزيرة بورنيو، والسودان، والهند، ثم قال: « ومع تقدّم التمدّن بالعلوم والمعارف والإرشاد إلى الشريعة الغرّاء، فلا تكاد تخلو البلاد الإسلاميّة الباقية على حالة الخشونة من بقايا أوهام وبدع قديمة أو مختلقة، كقبيلة إسلامية، تنسب الأولاد لأمهاتهم، دون آبائهم، فقد ورد من بعض علماء السودان سؤال فى العهد القريب يدلّ على أنّ بعض الجهة السودانية بإفريقة لم تزل فيها هذه العوائد الجاهلية[٥]».

ثم أورد نص السؤال، وما أجاب به عليه مختلف العلماء، ثم قال: « ومدار هذا الجواب على عدّة أشياء: الأول إثبات أنّ هذه الفرقة مبتدعة أى صاحبة بدعة، وأنها لا تكفّر. والثانى أنّ الولد يتبع أمه فى اثنى عشر حكما دون تسعة أحكام، وأنّ بعضهم زاد عدم تبعيتها فى النسب، وأنّ ابن الشريفة ليس بشريف، وإن

---

(١) ص ٢٠.
(٢) ص ٢١.
(٣) ابتداء من العدد السادس من السنة الأولى.
(٤) ابتداء من العدد الثالث عشر من السنة الأولى.
(٥) مجلة روضة المدارس العدد ١٣ ص ٤.

كان له شرف نسبيّ . الثالث أنه يجب الإنكار على هذه الفرقة المبتدعة ، فحسن لنا أن نذكر هنا ثلاثة فصول[١] . ومضى يشرح ما أجمله ، فتحدَّث فى فصل عن معنى السنة والبدعة ، وصلة الشرع بالعقل[٢] ، وفى فصل آخر عن اتّباع الفروع للأصول ، واختار أنَّ ابن الشريفة له شرف ، إن لم يكن حقيقياً فهو نسبى ، ويتطرَّق فى هذا الفصل إلى أولاد فاطمة الذين هو منهم فيقول : « فلا خفاء أنَّ من انتسب إلى رسول الله ﷺ ، بأم أو أب ، ففيه سريان لحمه ودمه الكريمين ، فالمنتمى إليه هو بعضه فى وجوب الإجلال والتعظيم ، والتوقير ، والبرّ ، والنصيحة[٣] ، وهنا يورد كثيراً من الشعر الذى قيل فى مدح أهل البيت .

## فى النحو

لم تُنسِ الثقافة الغربية رفاعة نشأته الأولى ، ولم تطفىء تلك الرَّغبة التى بدت فيه ، فى صدر شبابه : رغبة نظم العلوم ، وهاهو ذا يروقه متن الأجرومية ، وكانت من أوائل الكتب التى تدرس فى النحو بالأزهر ، فينظمه ، ويبدأ نظمه بمقدمة يستخدم فيها الألفاظ الاصطلاحية لعلم النحو إذ يقول :

عن حمد ذى الحمد اللسان يعرب ... معرّفاً ما للضمير ينسب
يبشّر بالصلاة والسلام ... نحوَ نبيّ رافع الأعلام
محمَّد مصدر كلّ علم ... ومظهر الحقّ بحكم الجزم
وآله من خفضوا بالكسر ... جمع العدا ، وانتصبوا للنصر
وفتحوا أبواب عز مقبل ... متّصل بالحالِ والمستقبل
وصحبه من عطفوا على الهدى ... وأكّدوا التنبيه حالاً بالندا
تميزوا فى محكم الآيات ... ونعتوا فى الفتح بِالصفات

(١) مجلة روضة المدارس العدد ١٤ ص ٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٣ .
(٣) المصدر السابق العدد ١٨ ص ٣ .

ثم مدح إسماعيل ، وأثنى على همته فى نشر المعارف والعلوم . ثم أشار إلى الدّافع له على نظم هذا المتن فقال :

وبعد ، فالقصد هنا والأمَل　　نظام منثور عليه العمل
فى النحو صاغه ابن آجروم　　متناً ، ونفعه من العلوم

ولم يكن رفاعة أوّل من نظم هذه الأجرومية ، بل نظمها قبله سواه ، كما أشار إلى ذلك فى مقدمته بقوله :

فى كشفهِ تنافس الشرّاح　　ونظمتهُ ألسن فصاح .
فلا عجيب أن نظمت نفسى　　فى سلكهم إذ حسن التأسّى

وجمال الأجرومية ، وهو الاسم الّذى سمّاه به رفاعة — من بحر الرّجز ، ذو أسلوب سهل واضح ، وهو يقف عند أبواب أصله ، ولا يتناول إلا أصول القواعد ، كهذا الأصل نفسه ، قال :

وربّما اقتضَى المقام بسطاً　　أو اختصاراً ، أو قضى بالوسطى

وهاك نموذجاً : باب المفعول لأجله ، يقف فيه عند حد تعريفه ، والإتيان بأمثلة له فيقول :

وإن تر اسماً فضلة منتصباً　　دلَّ على وقوع فعل سبباً
فذاك مفعولا لأجله دعى　　كهاجر السّنى خوف البدع
خضعت إجلالاً لِرَبِّ النّاس　　وزرت صحبى طلب الإيناس [١]

ولمـّا أنشئت المدارس الأولية فى عهد إسماعيل ، ورأى على مبارك وزير معارفه أن تلك المدارس فى حاجة إلى كتب تقرب لها مسائل العلوم ، وتبسطها ، قام هو بتأليف بعض رسائل فى العلوم والفنون متنوعة ، وأشرك معه فى مواد التصنيف عدة أفراد كان منهم رفاعة ، وكان ما كلف به رفاعة أن يؤلّف رسالة فى النحو ، سهلة المأخذ ، لدراسة المدارس الخصوصية والأولية ، فلبّى رفاعة طلبه ، وألّف هذه الرسالة « على أسلوب جديد ، يقرّب البعيد للمستفيد [٢] » ؛ وسمّاها التحفة

---

(١) جمال الأجرومية ص ١٧ .

(٢) المقدمة ص ٢ و ٣ .

المكتبية ، لتقريب اللغة العربية ، وهى رسالة جديدة حقاً ، إذا ووزنت بما كان معروفاً فى ذلك الحين ، من مختصرات موجزة غاية الإيجاز ، تحتاج إلى شروح ، يضع عليها العلماء حواشى وتقارير ، يضل الطالب بينها ، فلا يهتدى إلا بعد عناء وعسر ، وقد لا يهتدى ، فجاء رفاعة فى هذا الكتاب ، واستخلص القواعد ، وصاغها فى أسلوب سهل ، متجنباً الاختصار المخل ، والتطويل الذى لا حاجة إليه ، متبعاً القاعدة بأمثلتها ، وملخصاً — كلما أمكنه ذلك — ما ذكره من القواعد فى جدول يوضح الفكرة بمجرد الرؤية ، ويسهل استيعابها ، وأنهى المؤلف كتابه بخاتمة فى الإملاء وحسن القراءة ، ثم ختم الكتاب بإعراب البسملة الشريفة ، وأورد فى ذلك ما ذكره أستاذه الشيخ حسن العطار ، فى حاشية على الأزهرية ، وإنما ختم الكتاب بذلك ، ليكون محبوك الطرفين ، إذ بدأ الكتاب بالبسملة ، وختمه بإعرابها ، وقد انتقد أحد(١) دارسى رفاعة هذا الختام ، ولكنه سوف يلتمس لرفاعة العذر إذا علم مدى اهتمام رجال النحو يومئذ بهذا الإعراب ، وعلم أن إعراب البسملة ، ليس إلا نوعاً من التطبيق على قواعد النحو ، ثم رأى أنَّ رفاعة وضع هذا التطبيق فى موضعه ، فبينما تضعه كتب الأزهر فى أولها ، من غير أن يكون الطالب قد ألمَّ بشىء ما من قواعد النحو ، فيضطر إلى أن يردِّد القول كالببغاء ، إذا برفاعة يضع هذا التطبيق فى آخر الكتاب ، بعد أن يكون الطالب قد درس القواعد وهضمها ، فيستطيع بسهولة أن يعلل أوجه النطق المختلفة بها . ولست أدرى إن كان رفاعة فى هذا الكتاب ، قد تأثر بكتاب سلفستردى ساسى فى النحو ، الذى سماه التحفة السنية فى علم العربية ، فإن رفاعة كان معجباً بهذا الكتاب ، حتى قال فيه : إنه ذكر فيه علم النحو ، على ترتيب عجيب لم يسبق به أبداً(٢) ؛ ولم أطلع على كتاب دى ساسى ، حتى يمكننى الحكم القاطع .

بقى خاتمة قطر الندى ، التى سأله أحد أفاضل المدرسين أيام طلبه العلم فى

---

(١) محمد الصادق حسين .

(٢) تخليص الإبريز ص ٦٦ .

الأزهر — أن يؤلفها ، « فأنشأها رفاعة بصحن الأزهر ، فى جلسة خفيفة ، مع أنه لم يكن عنده من المواد ما يستعين به فى تأليفه ، ومن ذلك الوقت اعترف له ، وهو ابن عشرين سنة جميع أبناء طبقته[1] » ولا أعرف عن هذه الخاتمة أكثر من ذلك ، وأغلب الظن أنّ رفاعة لم يعن بالاحتفاظ بعمل أتمه على عجل .

## فى علم الحديث

ولرفاعة منظومة فى مصطلح الحديث ، ترك لنا بعضها فى كتابه تخليص الإبريز[2] منها قوله :

صحيح جسمى من فرط الهوى عضلا    ومرسل الدّمع من عينى قد اتصلا
تواترت قصّتى فى النـاس قاطبة    حتى لضعفى رثى لى كل من عذلا
تعنعن السحب عن عينى روايتها    كما يسلسل عنها القطر إذ همـلا

وختم هذه المنظومة بقوله :

وقفت حبى عليـه لا يجـاوزه    وهـكذا شأن صب فى الهوى كملا

وهى كما ترى — منظومة تضمُّ ألقاب أنواع الحديث ، وهو فى منظومته تلك ينهج نهج سلفه الذين نظموا هذه الألقاب ، كمنظومة ابن فرح التى تدعى الغراميـّة ، لبدئها بقوله :

غرامى صحيح ، والرّجا فيك معضل    وحزنى ودمعى مرسـل ومسلسل

وكمنظومة محمد الصبان التى بدأها بقوله :

صـلوا صحيح غرام ، صبره ضـعفاً    وبدلوا قطع من فى حسنكم شـغفا

ويتفق رفاعة فى الوزن مع إحداهما ، وفى الام الثانيـة ، وإن اختلفت حركتها ، وربما كانت إحدى هاتين المنظومتين أو كلتاهما مما كان يدرس بالأزهر يومئذ .

---

(١) حلية الزمن ص ٦ .
(٢) ص ٦٠ .

# فى البلاغة والأدب

لم يؤلف رفاعة كتاباً مستقلا فى البلاغة ، وكانت مما يدرس بمدرسة الألسن، بل كان التلخيص لجلال الدين القزوينى المعروف بخطيب دمشق ، أساس هذه الدراسة فى أغلب الظن ، وفى القرن العاشر ، وضع بدر الدين عبد الرحيم بن عبدالرّحمن العبّاسىّ ، المتوفى سنة٩٦٣هـ شرحاً على شواهده، دعاه معاهدالتنصيص، على شواهد التلخيص ، تكلم فيه على معانى أبيات الشواهد ، وتراجم قائليها إلا ما لم يطلع عليه بعد التفتيش فى كتب الأدب ، وما فيها من العروض والقوافى ، ومكان الشاهد فى البيت ، ويذكر القصيدة التى ورد فيها الشاهد ، ويورد ما قبله وما بعده ، ويضيف إلى كل شاهد ما يناسبه من نظائره الأدبية .

اختصر رفاعة هذا الكتاب وأضاف إلى أصله زيادات مفيدة نافعة ، كما روى ذلك تلميذه صالح مجدى بك [١] ، والكتاب غير مطبوع ولم أطّلع عليه .

وشرح رفاعة لاميّة العرب شرحاً غير مطبوع كذلك [٢] ، ولاميّة العرب قصيدة أنشأها عمرو بن مالك الأزدى المشهور بالشّنفرى ، وهوشاعر جاهلى يمانى ، كان من فتّاك العرب ، وعدّائيهم ، توفى قبل الهجرة بنحو مائة عام ، وأول اللامية قوله :

أقيموا بنى أمّى ، صدور مطيّكم     فإنى إلى قوم سواكم لأميل

وفى هذه القصيدة كثير من أبيات الأنفة ، وعزة النفس كقوله :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى     وفيها لمن خاف القلى متعزّل

وقوله :

وإن مدّت الأيدى إلى الزّاد لم أكن     بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

وقوله :

أديم مطال الجوع حتى أميته     وأضرب عنه الذّكر صفحاً فأذهل

(١) حلية الزمن ص ٢٦ .
(٢) المصدر السابق نفسه .

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له   علىّ من الطّول امرؤ متطوّل

ولعل فى هذه الأبيات الحكمية ، وفى قوة بناء القصيدة ما أغرى رفاعة بشرحها . ومما هو جدير بالذكر هنا ، أنه بعد أن تحدَّث عن المعلّقات ، وهو يتحدث عن أدب العرب ، فى كتاب أنوار توفيق الجليل — تعرَّض لقصيدة الشّنفرى فحسب إذ قال : « ومن قصائد العرب قصيدة الشنفرى » ، وبعد أن أورد مطلعها وبعض أبياتها ، قال : « وحماسها غريب ، ومفاده عدم حمل الضّيم، حيث العرب لا تطيقه (١) » . فأنت بهذا ترى سبباً من أسباب إعجابه بقصيدة الشّنفرى .

وقد سبق أن شرح هذه القصيدة الزّمخشرى شرحاً مطبوعا .

أما شرح رفاعة فلم أعثر عليه ، ولعل هذين الكتابين اللذين ألّفهما رفاعة كانا يدرسان بمدرسة الألسن ، وقد كانت النصوص مادَّة من مواد الدراسة فى هذه المدرسة ، لاحتياج المترجم إليها ، كى يتزوَّد بزاد قوى من اللغة ومفرداتها .

## فى الهندسة

أما منظومته فى علم الهندسة ، فلم أر منها غير هذين البيتين اللذين رواهما فى كتابه تخليص الإبريز ، يتحدث فيهما عن موضوع هذا العلم :

موضوعه قياس الامتداد   فسرَّه بالثلاثة الأبعاد

الطّول ، والعرض ، كذا والعمق   وشرح هذى غير مستحق

ولعل الهندسة كانت من بين العلوم الحديثة التى درسها رفاعة بالأزهر ، بإغراء أستاذه العطار ، ولعل ألفته لهذا العلم هى التى مهدت له سبيل الترجمة فيه .

## فى التاريخ

رسم رفاعة مشروعاً ضخماً ، كان يود من صميم قلبه أن يتمه ، فقد رأى وهو

---

(١) أنوار توفيق الجليل ص ٥٠٦ .

المحبّ لوطنه أن خير مايبعث حب الوطن فى قلوب بنيه ، وتقديرهم له ، وتفانيهم فى خدمته ، هودراسة تاريخ هذا الوطن ، ومعرفة أمجاده فى حاضره وماضيه ، فعزم أن يضع تاريخاً لمصر ، يبدأ من أقدم عصورها ، وينتهى بالعصر الذى يعيش فيه ، وأن يؤلف فى ذلك كتباً « مفصحة عن جميع من حكم مصر من الدول والملل فى جميع الأعصار ، سواء كان من أهل الوطن المنتسبين ، أومن الأجانب المتعصبين ، المحبين للتوطن بها والراغبين ، والمجدين فى حسن التربية والمهذبين ، قبل الإسلام أو بعده ، ممن بذل جهده فى التمدين أو لم يبذل فيه جهده (١) » ، وحين صمَّم على هذا المشروع أقدم عليه ، وهو يعلم ضخامته ، « فهو تاريخ أمّ الدنيا ، وعنوان ملوك المملكة العليا ، حيث إن مصر كنانة الله فى أرضه ، ولها العلائق الأكيدة مع سائر العالم فى طوله وعرضه (٢) » ، وأعد رفاعة ما بذله من جهد ، وما قرأه من كتب فى حياته الطويلة « عربية كانت أو غير عربية » ، ولكن هذا المشروع الذى أراد رفاعة أن ينهض به لم يخرج منه سوى جزأين ، تناول أولهما تاريخ مصر قبل الإسلام ، وتناول ثانيهما تاريخ صاحب الرسالة التى غمرت مصر بأنوارها ، أما الجزء الخاص بتاريخ مصر بعد الإسلام ، فقد انتهى فيه إلى خلافة المطيع (٣) ، وقام ابنه على باشا فهمى بإكماله من بعده ، على منهجه وأسلوبه (٤) ، وأما ما أتمه رفاعة ، فكتابا أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل ، ونهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز .

---

(١) أنوار توفيق الجليل — المقدمة ص ٣ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) حلية الزمن ص ٢٦ .
(٤) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٦ .

# أنوار توفيق الجليل

## فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل

هو الجزء الأول من تاريخ مصر ، كتبه تحت رعاية إسماعيل العظيم ، وأهداه إلى ولىّ عهده : محمد باشا توفيق [١] ، وأشار فى عنوانه إلى أن صدوره وافق تنظيم وراثة العرش فى أبناء إسماعيل [٢] .

بدأ رفاعة كتابه بمقدمات تمهيدية ، قسم فى إحداها [٣] التاريخ إلى أثرىّ طريقه الشرع ، كالقصص الواردة فى الكتب السماوية ، وبشرىّ وهو ما وقف عليه الناس من الوقائع والحوادث فى الأعصر القديمة والجديدة ؟ وتحدث فى ثانية [٤] عن قدم المدنية فى مصر ، وفضل مصر على العالم فى نشر هذه المدنية ، وهو يفيض إعجاباً بمصر حين يقول : « ولا يخفى على ضمائر أولى البصائر ، وخواطر أهل الفضل الباهر ، أن مصر نازعت قدماء الأمم فى الأقدمية ، فسلموا لها أنهم دونها فى مرتبة الأهمية ، وأن لم تسبقها آية فى سبيل التمدنية ، ولا فى حومة تقنين القوانين وتشريع الأحكام المدنيـة ، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة ، ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة ، فما اختصَّت به مصر من بين الممالك ، أنَّ كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفى ، وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى ، .. وأما مصر ... فإنها بقيت سبعين قرناً حافظة لمرتبتها العليا ، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا . . . فقد كانت فى أيام الفراعنة أمّ أمم الدنيا ، وكانت شوكة سلاحها قوية ، وهيبتها فى القلوب متمكّنة عليه ، وفى أيام الإسكندر ومن بعده من البطالسة ، وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة ، كانت مصر أيضاً رحيبة الدولة مهيبة الصولة ، لما

---

(١) أنوار توفيق الجليل ص ٤ .
(٢) محمد الصادق حسين .
(٣) أنوار توفيق ص ٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٨ .

انتقش فى سجايا قلوب الأمم من علو ونخار . . . فكانت إهابتها بالقوة المعنوية ، بقدر إهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسيّة ، أوليس أن حكماء الإسكندرية ، وعلماءها وفلاسفتها ، اشتهروا بالعلوم العقلية ، لاسيما علم الأخلاق والعوائد ، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم ، وأخذ عنهم الصادر والوارد . . . عموم المنافع والفوائد ، فتشعّبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد ... وكذلك فى القرون الوسطي المعلومة تجدد فى مصر مالا مزيد عليه من التقدمات والأهمية ، مما لايكاد يوجد فى غيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية ، إذ كانت قطب رحى ديار الاسلام ، ومركز دائرة شريعة خير الأنام ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الإفرنج ، وغلبوا الجمّ الغفير ، وهزموا الجند الكثير ، وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب ... وفى ابتداء هذا القرن الذى نحن فيه ، لاتخفى حوادثه الشهيرة على النبيه ، فقد تغلّب فيه عليها الفرنساوية ، ورجوا باستيلائهم عليها بلوغ الأمنيّة ، ويأبى الله إلا ما أراده ... فكانت من نصيب صاحب عزيمة ولا عزيمة الإسكندر ... محمد الاسم علىّ الشأن ... وورّثها لسلالته من بعده حتى وصلت الى حفيده إسماعيل الصّادق فى وعده ... فرفع فى عهده على أودية مصر أعلام العوارف والنعم ، ونشر على أنديتها ألوية المعارف والحكم ، فمكّن من أواوينها أصول الكياسة والرياسة ، ودوّن فى دواوينها قوانين التدبير والسياسة ، وقوّى عزم الشرائع والأحكام ، وأيد ملك مصر بتأسيس قواعد الجند المصرىّ على أقوى تأسيس وإحكام [1] ... »

وعلّل فى مقدمة [2] أخرى سبب سبق مصر بالتقدم والازدهار والمدنية ، وأرجع ذلك إلى حياة الاستقرار . وبعد أن قسّم تاريخ مصر [3] ، وبين نظامها الملكى [4] وكيفية الحدود والعقوبات عند المصريين [5] ، وتقدّم الفنون والمعارف لديهم [6] — رأى أن يمهد للتاريخ بمقال يتحدث فيه عن جغرافية مصر الطبيعية

---

(١) أنوار توفيق الجليل ص ٩ .

(٢) ص ١٢ . (٣) ص ١١

(٤) ص ١٤ . (٥) ص ١٦ . (٦) ص ١٨ .

وبيان حدودها . ثم أخذ فيما ألف الكتاب لأجله ، وهو تاريخ مصر من أقدم عصورها المتوغلة فى القدم منذ عصر الطوفان ، وأخذ ينتقل من عصر إلى عصر ، ومن دولة إلى دولة ، يتحدث عن ملوكها وحال الشعب فى عهدها ، وصلتها بمجاوريها ، وما قامت به من إصلاحات أو شنته من حروب ، وهكذا يسير من عصور الفراعنة إلى عصر الرعاة ، وعصور الفرس والبطالسة والرومان ، حتى إذا انتهى إلى عصر الفتح الاسلامي ، رأى أن يتحدث عن العرب الذين قاموا بهذا الفتح ، فتحدث عن صفات العرب ، ولسانهم ، وأسواقهم ، ومعلقاتهم ، وشعرهم ، وبين أن العرب كانوا يومئذ مستعدين لتحمل العبء الذى سيلقى على أكتافهم ، كما تحدث عن رسل العرب الذين أرسلوا إلى قومهم بخاصة .

اجتهد رفاعة فى أن يمحص تاريخه من الخرافات والأباطيل ، ومما تولع به الإخباريون والقصاص من اختراع الخزعبلات ، ومما توهمه أرباب الاوهام الفاسدة من تخيل العجائب ، لان كثيراً من كتب السير ، مشحون بخوارق العادات[١] .

ومع ذلك لم يخل الكتاب من آراء نصيبها من الصحة ضئيل ، مثال ذلك قوله : « وربما أثبت التاريخ أن دولة حمير ملكت العالم بأسره من عرب وعجم ، وأن لهم آثاراً ببلاد التتار فى مدينة « بلخ » و « همدان » وخلافها ، وأن ذا القرنين كان حميريا ، واستولى على جميع الامم[٢] » . ومما لاريب فيه أن هذه المدة التى مضت منذ وفاة رفاعة إلى اليوم ، قد غيرت كثيرا من مسائل هذا التاريخ ، بما جد من كشف ، وما أصاب العلم من تقدم ، وهو بذلك يعطينا صورة لآخر ما وصلت إليه المعارف ، عن تاريخ مصر القديم فى عصر رفاعة ، وبموازنته بما نعرفه اليوم من تاريخ مصر ، ندرك الفرق بين عصرنا وعصر رفاعة ، ونتبين ما نلنا من تقدم فى معرفتنا بتاريخ الاجداد .

وقد اجتهد رفاعة فى تمحيص الروايات وعرضها على عقله ، ليقبل أيها يوافق العقل ، كما ترى ذلك مثلا فى تحقيق الأسباب التى حدت بقمبيز إلى غزو مصر[٣]

---

(١) ص ٣ .

(٢) ص ٤٨٠ :

(٣) ص ١٢٨ .

أما ماعنى به من ألوان التاريخ فضلا عن الحالة السياسية ، فقد أجملها رفاعة فى قوله : « اكتفيت بذكر جوامع الكلم فى هذا التاريخ النافع ، وبيان ماالشتمل عليه ، فيما يخص أزمان مصر ، مما يتعلق بالمدنية والعسكرية من الوقائع ، مع الإعراب عن صيغ المبانى والعوامل ، ورفع أعلام الفتوحات إلى فواعلها ونصب معالم الهياكل ، والإفصاح عما سلف من إبداع الفنون والصنائع ، واختراع وسائل عموم المنافع ووسائط المصانع ، مع ما يضاف إلى ذلك من ملاحظات اقتضاها الحال ، أو من إيقاظات تربط ما تأخر بما سبق وارتضاها المقال ، حيث أوجبها الكلام لدفع المنافاة بين العبارات السابقة واللاحقة ، أو للجمع بين الأقوال المختلفة لتصحيح التوفيق بينها والمصادقة(١) » .

ومضى رفاعة وهو يتحدث عن تاريخ مصر يحقق مسائل تاريخية وردت فى القرآن الكريم ، فيذكر زمنها ، ويتحدث عن تفاصيلها ، ويضعها فى مكانها من التاريخ ، فحقق حادث خروج بنى إسرائيل من مصر ، وغرق فرعون(٢) ، كما قص قصة أصحاب الكهف(٣) ، ووضعها كذلك فى مكانها من التاريخ .

قسم رفاعة كتابه مقالات ، تحوى المقالة جزءا ضخماً من أجزاء التاريخ ، وتقسم إلى أبواب ، يندرج تحتها فصول ؛ فتجد مثلا مقالة فى طبقات ملوك مصر وباباً فى طبقة من هذه الطبقات ، وفصلا فى دولة من هذه الطبقة ، ويذكر كل مهم بعنوان خاص .

واعتاد رفاعة أن يقف فى أعقاب كل دولة يتدبر أمورها ، ويعرف أسباب رفعتها وانهيارها ، ويتأمل آثارها ، ويدرس النتائج التى نشأت من حكمها ، وله نظرات يستنبطها من حوادث التاريخ ، فعندما يلمس تململ المصريين من حكم دخيل ، وتجمع كلمتهم على خلع طاعته ، يقول : « والأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب(٤) » ؛ وعندما يرى ميل قدماء اليونان إلى تصديق الخرافات ، يستخلص أن قدماء اليونان كانت طباعهم كغيرهم من أهالى هذه الأزمان الحديثة يميلون إلى

---

(١) ص ٣ .　　(٢) ص ٨٧ .

(٣) ص ٤١٩ .　　(٤) ص ١١٣ .

التقاط الخرافات العجيبة ، والأباطيل الغريبة ، فتصديق الأمور الغير المعقولة ، قدر مشترك بين أمم سائر الأزمان القديمة والحديثة[١] .

كما تسمع مصريته واضحة ، وهو يتحدث عن مصر عندما كانت ولاية رومانية ، فلم يحل ذلك بينه وبين أن يرى فى مصر ناحية من نواحى عظمتها فيقول : « ... مصر إيالة رومانية ... ليس لها علاقات خارجية ... فهى ، وإن فقدت فى هذه المدد الاستبداد بسلطنتها على نفسها سلطنة حسية ، وهى فى قبضة الرومانيين ، لم تزل إذ ذاك حافظة لسلطنتها المعنوية ، بالقوة العلمية والشوكة الروحانية ، فى تلك المدة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وكان لها علوّ الدّرجة والمرتبة المعنوية على رومة ، وعلى بلاد اليونان بقوة أنوار العلم الساطعة ، وأضواء الفهم اللامعة فى تلك الأزمان ، فما كان هذه إلا مزيّة للديار المصرية ، وخاصية من خواصها الذاتية ، لأنها على اختلاف الأزمان ، ودوران الحدثان ، متّصفة بصفة القوة المعنوية والظهور المعنوى ، على أعظم مدينة من مدن الدنيا ، ولو كان لتلك المدينة الحكم الحسىّ على مصر ، فهى ، وإن كانت فى الظاهر ليست فى درجة العظمة السلطانية ، لا تتنازل أبداً عن درجة السلطنة العقلية[٢] » .

أما استطراداته فى هذا الكتاب ففى موضعها ، تزيد البحث جلاء ووضوحا ، فعندما تحدث عن فتح الإسكندر لمصر ، ذكر فصلا مطولا عن الإسكندر وأعماله وفتوحه[٣] ، وعندما ذكر دخول مصر فى حكم الدولة الرومانية ، تحدث عن أصل هذه الدولة[٤] .

ولم يقف استطراده عند ذكر الدّول التى اتصلت مصر بها ؛ بل يضم الشبه إلى نظيره ، ويوازن بين فعل وفعل ، فتراه يقول : « فشتّان بين صنيع بطليموس ملك مصر ، وبين محمد بن معاوية عامل مصر ، حيث أجار رجاء بن روح ، فى أيام الخلفاء العباسية » ؛ ويمضى موازنا بين الصنيعين[٥] .

ويوازن بين قول قيصر لعامله على مصر « أشتهي من الراعى تسمين مايرعاه ،

(١) ص ١٢٩ .
(٢) ص ٣٩٠ .
(٣) ص ١٥٥ .
(٤) ص ٢٣٤ .
(٥) ص ٢٠٩ .

ولا أرضى منه أن يذبحه » ، وقول عمر بن الخطاب لعامله عليها : « إن اللقحة قد درّت ، ولكن أجاعت أولادها[١] .

وعندما تحدث عن خاتمة كليوباطرة ، أثارت فيه هذه الخاتمة ماحدث من نظيرها للزّباء ، فاستطرد إلى ذكر قصتها[٢] .

ويثير فيه سيرة ملك غشوم ذكرى الوليد بن يزيد ، فيمضى موجزاً قصة زندقته[٣] ، وهكذا إلى استطرادات من هذا القبيل .

ولقد تغلبت روح الأدب على رفاعة ، فهو يستشهد بالشعر[٤] ، ويرويه ، يصوّر به خاطراً ، أو يوضح فكرة ، وإنّ غرامه بالأدب قد دفعه إلى ذكر ما قاله شعراء رمسيس فيه ، عقب معركته مع ملك الخيتاس .

أما أسلوب رفاعة فى هذا الكتاب ، فيميل إلى السّجع ، ويكاد غرامه به يكون عامّا فى معظم فصوله ، فقد يعقد الفصل كله مسجوعا ، أو يأتي فى الفصل المرسل بالجمل المسجوعة ، وحيناً يأتى بالفصل كله مرسلا ، ومع مجيئه بالسّجع ، لاتشعر بخفاء فى أفكاره ولا غموض .

ومما هو جدير بالذكر أنه أرّخ حوادث هذا الكتاب بالسنين الهجرية .

وقد استقبل علماء[٥] عصره هذا الكتاب بأكمل مظاهر الحفاوة والتقدير ، فهذا شيخ الإسلام السيد العروسى يقول عنه : « وجدته أجمل كتاب فى الفنون التاريخية ألّف ، وأجمع لشوارد الفرائد الأثرية من كل مصنَّف صنف ... وقد طالما أوقعتنا الأسفار التاريخية فى ظلمات من الأوهام بعضها فوق بعض ، فأوقفتنا تحريراته الشافية على صريح الحق الذى عليه بالنواجذ يعض » ؛ والشيخ الدمنهورى يقول عنه : « ولعمرى إنه تاريخ فاضل ، تزدحم خواطر الفضلاء عليه ،

---

(١) ص ٢٤٤ . (٢) ص ٢٢٢ .

(٣) ص ٤٣٦ .

(٤) راجع ص ٢١٠ و ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٥٢ و ٢٥٩ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٦ و ٢٧٩ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٨ و ٣٠٩ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٥١ و ٣٥٣ و ٣٨٢ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٤٠٠ وغيرها .

(٥) تجد أقوال العلماء فيه بأول الكتاب .

ومؤلف كامل تتمثل المؤلفات بين يديه ، تتفجر أنهار الإجادة من غياض براعته ، وتتعطر أزهار الإفادة من رياض فصاحته » ، ويقول عنه شاهين باشا ناظر الجهادية : « وجدته مع خلوه من أحاديث الخرافات جمع فأوعى ، وأحاط بأحوالها وأحوال ملوكها أصلا وفرعا ، فسررت ، وشكرت مؤلفه على هذا المسعى » ؛ وأما أحمد خيرى بك مهردار الخديو الأكرم ، فيرى هذا الكتاب الأول من نوعه « إذ لم يسبق بمثله بالديار الإسلامية فى هذا الباب » ، ويقول عنه على مبارك باشا : « إن فنّ التاريخ على كثرة مؤلفاته العديدة ، ومصنّفاته القديمة والجديدة ، قلّ أن تخلو كتبه من حكايات مبتدعة ، وتقوّلات مخترعة ، وأمور وهمية ، لا تستقلّ بالمفهومية ، تولع بها أرباب العجائب ، ونقلها عنهم من تطلع لذكر الغرائب ، بدون عرضها على محك الاختبار... وأما مافى هذا الكتاب المستطاب ، فهو من الحقائق الموزونة بميزان الصواب ... »

وهذه الأقوال وسواها ، وإن كانت قد قيلت فى معرض التقريظ ، تدل على الروح التى استقبل بها هذا الكتاب ، الذى جمع — ربما — لأول مرة فى اللغة العربية ، تاريخ مصر القديم ممحصاً بقدر الإمكان .

## نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز

رأى رفاعة عندما شرع فى الجزء الثانى من كتاب أنوار توفيق الجليل ، وهو الجزء الذى يقص تاريخ مصر بعد الإسلام — أنه لاغنى عن تتويج هذا الجزء بالسيرة النبوية ، لأنها سيرة النبىّ الذى جاء بهذا الإسلام ؛ فوضع كتابا ضخماً فى هذه السيرة ، دعاه نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ؛ وبدأ ينشره ملحقاً بمجلة روضة المدارس فى سنتها الثالثة . ولكن رفاعة مات قبل أن يتم طبعه ، وترك الباقى من الكتاب مسودّات قام عليها من بعده ولده علىّ « قراءة وتصحيحاً ، حذفاً وإثباتاً [1] » حتى أتمّ طبع الكتاب ، وقد استقلّ الابن بوضع جدول يجمل

---

(١) نهاية الإيجاز ص ٥٣٠ .

غزوات الرسول ، كان الوالد يريد أن يضعه ، فعاجلتـه منيته دونه[١] .

ولما كان هذا الكتاب مسلسلا مع الجزء الأول فقد بدأه بالمقالة الخامسة ، لأن الجزء الأول ينتهى بالمقالة الرابعة .

بدأ رفاعة كتابه بمولده صلوات الله عليه ، فتحدث عن نسبه ، وزمان ولادته ومكانها وأسمائه ، وفى هذا الفصل يحقق ما رواه علىّ بن أبى طالب عن رسول الله أنه قال : « خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم ، إلى أن ولدنى أبي وأمّى ، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء » ؛ ويؤمن بأنه صلى الله عليه وسلم لم يتدنّس هو ولا آباؤه بما كانت عليه الجاهلية ؛ ويتعرّض رفاعة لوالدى الرسول ، فيرى نجاتهما من النار ، لأنهما من أهل الفـترة ، « أو بإحيائهما له عام حجة الوداع ، حتى آمنا بالله ورسوله ، ونفع الإيمان بعد الموت من خصائصه ﷺ ، وليس بممتنع عقلا وشرعاً[٢] » ، « ولا بدع أن يكون الله كتب لأبوى النبى ﷺ عمراً ، ثم قبضهما قبـل استيفائه ، ثم أعادهما أى أحياهما ... لاستدراك الإيمان ، من جملة ما أكرم الله به نبيه عليه الصلاة والسلام[٣] » .

ويسير رفاعة متتبعاً حياة الرسول رضيعاً ، وعنـد قبيلة مرضعته ، ويؤمن بحادث شقّ صدره الشريف هناك ، وإخراج قلبه وغسله بماء الثلج فى طست من ذهب وملئه حكمة وإيماناً ، واستخراج حظّ الشيطان منه ، وهى مضغة سوداء[٤] ، وشق صدره الشريف أيضاً ، وهو ابن عشر سنين ، ثمّ عند مبعثه ، ثم عنـد الإسراء[٥] » ، ويرى هذا الشق حقيقة لا رمزاً .

وفى الفصل الثانى تحدّث عن شرعية الاحتفال بميلاده ، صلوات الله عليه ، وأجمل رأيه فى ذلك إذ قال : « وبالجملة فالاعتناء بوقت مولده الشريف ﷺ ، والإنشاد للمدائح النبويّة والزّهدية والعرفانية ، وإطعام الطعام ، والصدقات السنّية ، أمر حسن منيف ، يثاب فاعله الثواب الجزيل ، بقصده الجميـل ، وإن كان عمله

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٩ .
(٢) ص ١٢ .
(٣) ص ١٣ .
(٤) ص ٢٨ .
(٥) المرجع نفسه .

لم ينقل عن أحد من السلف الصالح والقرون الثلاثة الفاضلة ، وإنما حدث بعدها فلذلك كان بدعة حسنة ، عند من تحقق العلم وأتقنه[١] .

ويتدرّج المؤلف مع حياة الرسول ، فيصحبه مع أبى طالب فى الشام ، وفى تجارة خديجة وزواجه منها ، وما أنجبت له من البنين والبنات والأحفاد ، حتى إذا تعرض للحسن والحسين ، ذكر ما اختصَّا به من مزايا لا توجد فى غيرهما ، حيث نسبا إليه خصوصية لهما ، وقد انقرض نسبه إلاّ من جهتهما ، قال : « وانعقد الإجماع بأن المراد بآل البيت فى الآية الشريفة علىّ وفاطمة والحسن والحسين وذرّيتهما[٢] » .

وفى الباب الثانى[٣] تحدّث عن مبعثه عليه السلام ، وهنا شرح صفات الرّسل ، وأطال البحث ، وتعمق فى تحقيق انتفاء جواز الغفلة عن الرسول فى تبليغ أحكام الله ، ورد على من زعم غفلة الرسول ، حين قرأ سورة النجم ، فلما بلغ : « ومناة الثالثة الأخرى » وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً ، إلى أن قال : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهنّ لترتجى ، ففرح به المشركون ، حتى تابعوه بالسجود لمَّا سجد فى آخر سورة النجم[٤] » .

ويخطو المؤلف مع الرسول خطوة خطوة منذ بعثته إلى هجرته ، ويقف طويلاً عند الإسراء والمعراج ، وهو فى هذا يؤيّد رأى الأكثرين من طوائف المسلمين فى أن الإسراء والمعراج كانا بجسده ، وأنهما كانا يقظة لا رؤيا ، « لأنه قد صح أن قريشاً كذبته ، وارتدّ جماعة ممن كان أسلم ، وسألوه أمارة ، فأخبرهم بقدوم العير يوم الأربعاء ، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا ، حتى كادت الشمس أن تغرب ، فدعا الله تعالى ، فحبس الشمس ، حتى قدموا كما وصف » ، وكذلك تجلى البيت المقدس له ، ونظره إليه ، وإخبار قريش ، فهذا يدل على أن ذلك كله لم يكن رؤيا ، ولو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت رؤيا ، لما كذب ، ولا أنكر ذلك على غيره ،

---

(١) ص ٤٠ .      (٢) ص ٥٢ .
(٣) ص ٦١ .
(٤) ص ٧٣ وما بعدها .

فضلاً عن إنكاره عليه ، لأن آحاد الناس يرون فى منامهم أنهم ارتقوا إلى السموات وليس ذلك بعجيب[١] » .

وفى قصة الإسراء والمعراج تعرض مسألة رؤية الرسول لله ، وهنا يؤمن رفاعة بأنه صلوات الله عليه رأى ربه عز وجل بعينى رأسه ، بلا كيف ولا أين ولا زمان[٢] ، وينقل إجماع العلماء على أن رؤيته تعالى بالأبصار يقظة فى الدنيا جائزة عقلا ، مستحيلة شرعاً على غير رسول الله[٣] . أما البراق الذى حمل الرسول فهو « دابة بيضاء طويلة فوق الحمار ، ودون البغل ، تضع حافرها عند منتهى طرفها[٤] » .

وعندما وصل رفاعة إلى حياة الرسول فى المدينة اقتدى بمن سبقه من المؤرخين كالطبرى وابن الأثير ، فقد مضى يؤرخ لتلك الحياة عاماً بعدعام ، فيذكر فى كل عام أعمال الرسول فيه ، وغزواته ، وما نزل فيه من أحكام ، وهكذا يسير عاماً عاماً ، حتى ينتهى بوفاته صلى الله عليه وسلم ، فإذا انتهى من تاريخ الحوادث ، عاد فتحدث عن أخلاق الرسول وصفاته ومعجزاته التى يعدّ القرآن أكبرها ، ويطيل الحديث عنه ، ولكنه لايقف بها عنده ، بل يعدّ من أمّهات معجزاته انشقاق القمر[٥] ، « وأن الملأ من قريش تعاقدوا على قتله ، نخرج عليهم نخفضوا أبصارهم ، وسقطت أذقانهم فى صدورهم ، وأقبل حتى قام على رءوسهم ، فقبض قبضة من تراب ، وقال : شاهت الوجوه ، وحصبهم ، فما أصاب رجلاً منهم من تلك الحصباء شىء إلا قتل يوم بدر[٦] » . وأطال رفاعة فى عدّ معجزات الرسول .

وفى فصل رابع[٧] تحدث عن أزواجه وقرابته ومواليه .

ورأى المؤلف لكى تتم سيرة الرسول — أن يعقد باباً فى النظم الإدارية ، كما كانت فى عهد رسول الله . والحق مع رفاعة فى إضافة هذا الفصل ، لأن العمل الإدارى للرسول يتمّ به عمله التشريعى ، وجهاده لتثبيت دعائم هذا الدين . والواقع أنه فصل ممتع ، لأنه يريك البذور الأولى للادارة الإسلامية ، ويصورلك الحكومة

---

(١) ص ٩٤ . (٢) ص ٩٧ .
(٣) المرجع نفسه . (٤) ص ٩١ .
(٥) ص ٣١١ . (٦) ص ٣١٢ .
(٧) ص ٣١٧ .

الإسلامية الأولى ؛ فالإمامة العظمى بالإصالة هى منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى استحقاق التصرف العام على المسلمين فى أمور الدين والدنيا[١] ، أما معاونو الرسول ، وهم أشبه ما يكون بالوزراء ؛ فقد ورد فى الحديث الشريف : وزيراى من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيراى من أهل الأرض أبو بكر وعمر[٢] ؛ وأما الحجابة له صلى الله عليه وسلم ، فقد ثبت أن أنس بن مالك كان حاجبه صلوات الله عليه[٣] ؛ وكان الرسول شديد الاحتياج إلى الكتابة فكان من كتاب الوحى له عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، ومن كتاب الوحى وكتاب الرسائل والإقطاع أبىّ بن كعب الأنصارى وزيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم الزّهرى ، فكان هؤلاء يكتبون له الوحى ، كما يكتبون إلى أمراء الأجناد والملوك أو إلى إنسان بإقطاع[٤] ، وأما العهود والمصالحات ، فكان كاتبه فيهما على بن أبى طالب[٥] .

واستعمل رسول الله أناساً فى أعمال فقهية كتعليم القرآن ، فقد أرسل مصعب ابن عمير إلى المدينة يعلم أهلها القرآن ، ومعاذ بن جبل إلى مكة يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن وغيرها[٦] — وكتعليم الكتابة وممن كان يعلّمها عبد الله بن سعيد بن العاص ، أمره رسول الله أن يعلم الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً[٧] . ومن العمالات الفقهية تعليم الفقه فى الدين ، ووظيفة الإفتاء ، وقد أرسل رسول الله رسله إلى الجهات المختلفة لتعليم الفقه فى الدين ، وممن كان يفتى على عهد رسول الله أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن مسعود وأبىّ بن كعب ، وغيرهم[٨] .

ومن أشرف العمالات الفقهية إمامة الصلاة ، ولهذا نصّ العلماء أن السلطان أحق بالإمامة فى الصلاة إلا أن يأذن لغيره فى ذلك ، وكان إذا بعث أميراً كانت الصلاة إليه ، وقد استخلف أبا بكر الصديق ليصلى بالناس فى مرض موته[٩] .

---

(١) ص ٣٥٧ . (٢) ص ٣٧٧ .
(٣) ص ٣٧٨ . (٤) ص ٣٨٤ و٣٨٥ .
(٥) ص ٣٨٨ . (٦) ص ٣٨٩ .
(٧) ص ٣٨٩ . (٨) ص ٤٠١ . (٩) ص ٤٠٦ .

وعقد المؤلف فصلاً [١] لمن استخدمهم الرسول رسلا بكتبه إلى الملوك ، أو يدعون الناس إلى الإسلام ، أو يحملون الصلح والأمان .

وتولّى حذيفة بن اليمان كتابة الجيش لرسول الله [٢] ، فقد أمر رسول الله بكتابة الناس فى الجيش ، فكتبوا فى عصره [٣] .

وبعث رسول الله أمراء كثيرين لولاية الجهات ، فممّن أمَّره على مكة عتاب ابن أسيد ، وعلى اليمن باذان [٤] ، كما قلد القضاء عمر بن الخطاب ، وعلىّ بن أبى طالب ومعاذ بن جبل [٥] ، ووضع رسول الله أصول الحسبة ، واستعمل رسول الله على سوق مكة بعد الفتح سعيد بن سعيد بن العاص [٦] ، وأما صاحب العسس فى المدينة فقد كان ذلك أيضاً من عهد النبى صلى الله عليه وسلم [٧] ، وكان السجن موجوداً منذ عهده صلوات الله عليه [٨] .

أما العمالات الجهادية فكان رسول الله يبعث الأمراء للجهاد فى سراياه ، وكانت سراياه كثيرة ، وأوصلها بعضهم إلى ست وخمسين سرية ، والسرية قطعة من الجيش [٩] ، وكان رسول الله يعقد الرايات لأمراء البعوث والسرايا [١٠] ، وكان الجيش يقسم فى عهده خمسة أقسام : مقدمة وميمنة وميسرة وقلباً وساقة [١١] ، وكان لكل من هذه الخمسة رئيس يسمي صاحباً [١٢] ، وأعدّ رسول الله الخيل فى سبيل الله ، ونظّر عليها من يحفظها [١٣] ، كما كان يضع على مغانم الحرب صاحباً [١٤] ، مثل كعب بن عمرو بن زيد الأنصارىّ ، وأبى سفيان بن حرب .

واستخدم رسول الله عمّالا يجمعون الجزية والزكاة ، منهم أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل [١٥] ، وخالد بن سعيد بن العاص [١٦] ، وأبىّ بن كعب [١٧] ، كما كان يبعث مستوفياً يقبض المال من العمال ، كما بعث علياً إلى اليمن ليستوفى من

---

(١) ص ٤٠٩ . (٢) ص ٤٢٠ . (٣) ص ٤٢١ .
(٤) ص ٤٢٨ . (٥) ص ٤٢٩ . (٦) ص ٤٣٨ .
(٧) ص ٤٣٩ . (٨) ص ٤٤١ . (٩) ص ٤٤٦ .
(١٠) ص ٤٥٠ . (١١) و (١٢) ص ٤٥١ .
(١٣) ص ٤٥٣ . (١٤) ص ٤٦٨ . (١٥) ص ٤٧٤ .
(١٦) ص ٤٧٧ . (١٧) ص ٤٧٨ .

خالد بن الوليد [١] ، ولم يتخذ رسول الله بيت مال ، ولا خزانة للنقدين ، وإنما كان يعجّل قسم ما أتاه من الفيء فى يومه [٢] .

وتلك كانت نواة الحكومة الإسلامية الأولى .

وختم المؤلف كتابه بباب ذكر فيه بعض الحرف والصناعات التى كانت فى عهد رسول الله ، ليتمّ بذلك كله وضع صورة تقريبية لألوان الحياة فى ذلك العصر : دينية ، واجتماعية ، واقتصادية .

وبما جمعه الكتاب من أخبار وأبحاث وآراء ، يأخذ قيمته بين مؤلفات السيرة النبوية ، مهما تكن مخالفاً له فى بعض ما يبديه من آراء .

وإذا كان الغالب على أسلوب رفاعة الصناعة والسجع فى الجزء الأول من تاريخه ، فالغالب هنا فى كتاب نهاية الإيجاز الترسّل ، وترك القلم على سجيّته ، إلا أن يأتى السّجع طبيعياً غير مقصود .

## فى السياسة والاجتماع والاقتصاد

لا أريد بهذا العنوان أن رفاعة قصد تأليف كتب تتحدث فى أصول السياسة ، أو تبين أركان الاجتماع ، أو تذكر أسس الاقتصاد ، وربما كان فى مستطاعه أن يؤلف فيها ، فقد قرأ فى ذلك كتباً ألّفها أساطين الفرنسيين ، كروسّو ومونتسكيو ، كما قرأ كتاب ابن خلدون ، ولكنه ألّف كتابين نثر فيهما آراءه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وإن اشتملا على كثير غير ذلك أيضاً ، وهما كتاباه : تخليص الإبريز ومناهج الألباب المصرية .

(١) ص ٤٨٤ .
(٢) ص ٤٨٥

# تخليص الإبريز ، إلى تلخيص باريز

عندما سافر رفاعة إلى أوربا ، أشار عليه بعض أقاربه ومحبيه ، ولا سيما شيخه العطار ، « فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على عجائب الآثار — أن ينبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما يراه ، وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ، ليكون نافعاً فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع ، التى يقال فيها : إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصاً وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها ولا أحوال أهلها (١) » ؛ فاستجاب رفاعة لهذه الإشارة ، ووضع فى وصف هذه الرحلة كتابا توخى فيه « سلوك طريق الإيجاز ، وارتكاب السهولة فى التعبير ، حتى يمكن لكل الناس الورود على حياضه (٢) » .

بدأ رفاعة الكتاب بمقدمة ، ذكر فى الباب الأول منها أسباب رحلتهم إلى فرنسا ، وأنها احتياج مصر إلى الغرب فى كسب ما لا تعرفه من العلوم ، التى بلغت فيها البلاد الإفرنجية أقصى مراتب البراعة ، وهى العلوم الرياضية والطبيعية ، وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها (٣) ، ومعرفة العوامل التى دفعت أوربا إلى التفوق ، فقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم ، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب ، وتنوعهم واختراعهم فيها ، « ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلاشىء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم (٤) » ؛ ورجا أن تثمر هذه البعثة ثمرتها المرجوة ، فتقوم بنشر علوم أوربا ، وفنونها ، وترجمة كتب معارفها ، إلى العربية (٥) .

---

(١) تخليص الإبريز ص ٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥ . (٣) ص ٧ .

(٤) ص ٨ .

(٥) ص ٩ .

وفى الباب الثانى تحدث عن العلوم والفنون المطلوبة ، والحرف والصنائع المرغوبة[١] ، ممّا وجده فى الغرب ، ولأهله به معرفة تامة ، بينما هى ناقصة عندنا أو مجهولة بالكليّة .

ورأى المؤلف أن يحدد فى الباب الثالث[٢] من المقدّمة البلاد الإفرنجيّة ، ومزيّة الأمّة الفرنسيّة التى بعثت العاهل الكبير على اختيارها لمبعوثيه .

وفى الباب الرّابع ذكر رؤساء تلك البعثة[٣] .

أما مقصد الكتاب ففى ذكر السّفر من مصر إلى باريس ، وما رآه من الغرائب فى الطريق ، أومدّة الإقامة فى هذه المدينة العامرة ، بسائر العلوم الحكمية والفنون والعدل العجيب ، والإنصاف الغريب[٤] ؛ ومضى رفاعة يقصّ خروجه من مصر إلى دخوله ثغر الإسكندريّة[٥] ، ويخصّ الإسكندريّة بفصل يصفها فيه ، ويذكر تاريخها[٦] ، ويتابع رحلته فيصف ركوبه البحر[٧] ، وما رآه من الجبال والبلاد والجزائر[٨] ، حتى وصل إلى مرسيليا[٩] ، وهناك رأى أوّل مظاهر الحضارة فى تلك البلاد ، وقد وصف لنا ما فوجىء به من نظام يخالف ما ألفه فى مصر ، إذ قال : « ولم نشعر فى أوّل يوم إلاّ وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها ، وذلك أنهم أحضروا لنا عدّة خدم فرنساوية ، لا نعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأنّ هذه البلاد يستغربون جلوس الإنسان على نحو سجّادة مفروشة على الأرض ، فضلا عن الجلوس بالأرض ، ثم مدّوا السّفرة للفطور ، ثمّ جاءوا بطبليّات عالية ، ثمّ رصّوها من الصّحون البيضاء الشّبيهة بالعجميّة ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من القزاز ، وسكيناً ، وشوكة وملعقة ، وفى كلّ طبليّة نحو قزازتين من الماء وإناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثمّ رصّوا حوالى الطّبليّة كراسىّ ، لكلّ واحد كرسىّ ، ثم جاءوا بالطّبيخ ، فوضعوا فى كلّ طبليّة صحناً كبيراً ، أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطّبليّة ،

---

(١) ص ١٠ . (٢) ص ١٢ . (٣) ص ٢٠ .
(٤) ص ٢١ . (٥) ص ٢٢ . (٦) ص ٢٣ .
(٧) ص ٢٦ . (٨) ص ٢٨ .
(٩) ص ٣٢ .

ويقسم على الجميع ، فيعطى لكلّ إنسان فى صحنه شيئاً يقطعه بالسّكين التى قدامه ، ثم يوصّله إلى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل إنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره أو سكّينه ، أو يشرب من قدحه أبداً (١) . ومضى رفاعة يحدثنا عن مرسيليا ، فوصفها ووصف ما رآه فيها ، ثم غادرها ومضى إلى باريس (٢) .

أما المقالة الثالثة (٣) التى وصف فيها دخوله باريس ، وذكر جميع ما شاهده بها ، وما بلغه خبره من أحوالها ، فهى الغرض الأصلى من وضعه الرّحلة ، ولذلك أطنب فيها غاية الأطناب ، وإن كان يعتقد — مع ذلك — أنه اختصر فيها وأوجز (٤) .

خصّص رفاعة الفصل الأول من هذه المقالة ، لتحديد باريس ، ووصف طبيعتها ، ووازن بين ربوعها وربوع القاهرة ، فقال : « وشتّان بين هذا وبين النّيل والرّوضة والمقياس ، فإنّ نزهة الإنسان فى الرّوضة والمقياس لا تضاهى ، لأن الخليج يعبر مصر ، والسّين يعبر باريس ، إلاّ أنّ نهر السين بتمامه يشقّ باريس ، وتجرى بها السّفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيّدة ، والنّظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارّة ، وشتّان أيضاً بين ماء النيل والسين من جهة الطعم وغيره ، فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله ، كما هو العادة فى ماء نهر السين ، لكان من أعظم الأدوية ... وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين تربة مصر وباريس ، ومياههما وفواكههما إلا فى نحو الخوخ وإقليمهما ، فلولا نجابة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم ، وحسن تدبيرهم واعتناؤهم بتعهّد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شىء (٥) » .

أما الفصل الثانى (٦) فخصّص به أهل باريس ، تحدّث فيه عن أخلاقهم الفردية والاجتماعية وكان إعجابه بهم بادياً إذا استثنينا بعض صفاتهم ، وقد عرضنا ذلك فى فصل حياته بباريس (٧) .

وذكر فى الفصل الثالث نظم فرنسا السياسية ، وترجم فيه دستورها يومئذ ،

---

(١) ص ٣٣ . (٢) ص ٣٨ . (٣) ص ٣٩ .
(٤) ص ٢٢ . (٥) ص ٤٦ .
(٦) ص ٥٢ . (٧) راجع ص ٣٠ .

وعلق على موادّه ، وستتحدث عن هذه التعليقات عند الكلام على آرائه السياسية

ووصف فى الفصل الرابع[١] البيت الفرنسى : نظامه وأثاثه ؛ وختم هذا الفصل بقوله : « وتعهُّد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائماً مفرحة ، بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضعاً عظيماً ، يجلب النور والهواء ، وظرفات الشبابيك دائماً من القزاز ، حتى إذا أغلقت فإن النُّور لا يحجب أصلا ، وفوقها دائماً الستائر للغنىّ والفقير ، كما أنَّ ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس[٢] » .

وتحدث فى الفصل الخامس[٣] عن أغذية أهل باريس وعاداتهم فى طعامهم وشرابهم ، وطريقتهم فى ذبح حيوانهم ، ولعلَّ رفاعة لم يستسغ طعامهم ، فقد قال: « فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هذه المدينة إلا فى الخوخ[٤] » .

ووصف ملابس الفرنسيين رجالا ونساء ، فى دقة تسترعى النظر فى الفصل السادس[٥] ، ولجأ إلى الأرقام فى هذا الفصل والفصل السابق ، فتحدَّث عما تستهلكه باريس كل عام ، من أنواع الطعام واللباس .

أما الفصل السَّابع الذى تحدّث فيه عن متنزهات باريس ، ويعنى بها كل مكان يلجأ إليه الفرنسيون للترويح عن أنفسهم ، من مسارح وملاه وحدائق ، فقد علّق عليه كارادى ڤو بقوله : إنّ الطريقة التى تحدَّث بها رفاعة عن المسرح تجعلنا نبتسم لأول وهلة ، فالمسرح كان مجهولا تمام الجهل لديه ، ولدى بنى وطنه ، ومع أن وصفه له ساذج تمام السذاجة ، كان وصف رجل دقيق الملاحظة ، ولم تخل ملحوظاته من فلسفة[٦] » ، قال رفاعة فى أوّل هذا الفصل ، يصف لك هذا الذى لم تقع عليه عينه فى بلاده من قبل : « اعلم أن هؤلاء الخلق حيث إنهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية ، لا شغل لهم بأمور الطاعات ، فإنهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيويّة واللهو واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفنناً عجيباً ، فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى

---

(١) ص ٨٥ .
(٢) ص. ٩٠ .
(٣) الصفحة نفسها .
(٤) ص ٩٢ .
(٥) ص ٩٣ .
(٦) (1) Les Penseurs de L' Islam. V. P. 240.

التياتر ( Le Théâtre ) بكسر التاء المشددة ، وسكون التاء الثانية ، والسبكتاكل ( Le Spectacle ) ، وهى يلعب فيها تقليد سائر ما يقع ، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبراً عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى إن الفرنساوية يقولون : إنها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها ، فهى وإن كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات ، ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية ما معناه باللغة العربية : « قد تصلح العوائد باللعب[(١)] » ؛ ومضى رفاعة يصف هذه المسارح ، وما يدور فيها ، وأثنى على ممثلى كبار المسارح ، فربما كان لهم كثير من التآليف الأدبية والأشعار[(٢)] .

وفى الفصل الثامن[(٣)] تحدث عن وسائل صحة الأبدان بمدينة باريس ، وأطال الكلام عن حماماتها . ووازن بينها وبين حمامات مصر . وفى الفصل الذى يليه[(٤)] عنى بذكر اهتمام باريس بالعلوم الطبية ، وأنواع الأطباء بباريس ، فكل طبيب خاص بمرض معين ، وهنا ترجم رفاعة نبذة فى قانون الصحة ، وسوف نعرض لها فيما بعد .

وفى الفصل العاشر[(٥)] تحدث عن نظم فعل الخير بباريس ، وأن الإحسان فيها ليس فرديا ، بل جماعيا قال : « اعلم أن غالب الناس ببلاد الإفرنج وسائر البلاد التى تكثر الصناعة والتجارة فيها يعيشون من كسب أيديهم ، فإذا حصل للانسان منهم مانع كمرض أو نحوه فقد معيشته ، واضطر إلى أن يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف الناس ، أو نحو ذلك ، فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير ، حتى إن الإنسان لا يسأل ما فى أيدى الناس ، وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها ، كثرت أهاليها ، فاحتاجت إلى مارستانات أكثر من غيرها ، ومعلوم أن مدينة باريس من أعمر المدن ، وأكثرها صناعة وتجارة ، فلذلك كثرت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها ، سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم ، لما تقدم أنهم

(١) تخليص الإبريز ص ٩٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ص ١٠١ .
(٤) ص ١٠٢ .
(٥) ص ١٢٠ .

بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم حاتم طى ولا ابنه عدىّ » . ووصف رفاعة نظم هذه المارستانات والجمعيات ، وبمناسبة التجاء بعض الناس إلى المارستانات وأنه لا يلجأ إليها إلا من عجز عن الكسب ، عقد فصلا [١] بين فيه محبة أهل باريس للكسب ، وصرف الهمة إليه بالكلية ، فتحدث عن تجارة باريس ومصارفها وبريدها ، والضرائب المفروضة ، وأسباب غنى أهلها ، ومكتب التجارة ذى الخمس عشرة مدرسة .

وتحدث فى الفصل الثانى عشر [٢] عن دين باريس ، وقد بيّنا ذلك فيما مضى [٣] . وقد فصّل فى هذا الفصل درجات الكهنوت ، والأعياد الدينية بفرنسا .

وفى الفصل الثالث عشر [٤] ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصناعات ، وهو هنا يبدى إعجاباً لاحدّ له بعلماء باريس إذ يقول « الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعية ، فى هذا العصر بمدينة باريس ، أنّ المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدنية ، وأنه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهى حكماء باريس ، بل ولا فى الحكماء المتقدمين » ؛ ولا يأخذ عليهم رفاعة إلاّ أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية ، مخالفة لسائر الكتب السماوية [٥] . وفى هذا الفصل يتحدث رفاعة حديثاً تفصيلياً عن الحياة العلمية بباريس من جميع نواحيها . ومما استرعى نظر المؤلف هناك أن العالم عندهم لا يتصف بهذا الاسم الضخم إلا إذا أتقن علوما عدة ، واعتنى زيادة على ذلك بفرع مخصوص وكشف كثيراً من الأشياء ، وجدّد فوائد غير مسبوق بها ، فليس عندهم كل مدرس عالما ، ولا كل مؤلف علامة ، بل لابد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابدّ له من درجات معلومة ، فلا يطلق عليه ذلك الاسم إلا بعد استيفائها [٦] ؛ ومضى رفاعة يحصى مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، والمتاحف .

أما المقالة الرابعة فخص بها حياته وحياة المبعوثين العلمية ، وأولى حياته نوعا

---

(١) الفصل الحادى عشر ص ١٢٣ .

(٢) ص ١٢٧ . (٣) راجع ص ٣٣ .

(٤) ص ١٣٠ . (٥) ص ١٣١ .

(٦) ص ١٣٣ .

من البسط ، فتحدث عن دراساته[١] التى قام بها فى باريس ، وعن الكتب التي قرأها ، والأساتذة الذين أشرفوا على دراسته ، والامتحانات التى أدّاها[٢] ، وسجل رعاية محمد على لأعضاء البعثة[٣] ، وعنايته بأمرهم ، وما كان يرسله إليهم حيناً للتشجيع ، وحيناً للّوم والتوبيخ . كما سجل فى الفصل الرابع[٤] من هذه المقالة بعض مراسلات بينه وبين بعض كبار علماء فرنسا .

وأرّخ فى المقالة الخامسة ذلك الانقلاب الفرنسى الذى شهده ، وانتهى بعزل شارل العاشر ، وتولية لويس فيليب ، وله على هذا الانقلاب تعليقات سوف نعرض لبعضها ، عند حديثنا عن آرائه السياسية .

ولم يشأ رفاعة أن يختم كتابه حتى يذكر نبذاً عن العلوم والفنون التى ذكر ازدهارها فى بلاد الغرب ، فكانت المقالة[٥] السادسة فى ذلك ؛ وتحدث فى الخاتمة[٦] عن رجوعه من باريس إلى مصر ، وهو فى هذه الخاتمة يقول[٧] ( وقد رأى بعض آثار مصر فى باريس ) : « حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبها عنها شيئاً بعد شيء يعدّ عند أرباب العقول من اختلاس حلىّ الغير للتحلى به ، فهو أشبه بالغصب ، وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان ، لما أنه واضح البيان » .

وأمعن رفاعة الفكر فى عقد شبه بين الشعب الفرنسى وغيره من الشعوب ، فقال : « ظهر له بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية ، أنهم أقرب شبهاً بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور : كالعرض والحرية والافتخار ، ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ، وتبرهن عليه آثارهم[٨] » .

---

(١) ص ١٥٨ . (٢) ص ١٦٣ .
(٣) ص ١٥٠ . (٤) ص ١٥٢ .
(٥) ص ١٨٨ . (٦) ص ٢٠٨ .
(٧) ص ٢١٠ . (٨) ص ٢١٢ .

ومضى رفاعة يبين معنى العرض عند الفرنسيين ، وبهـذه الخاتمة انتهى كتاب تخليص الإبريز .

كان إتمام هذا الـكتاب بعد عودته ، أما معظمه فمما كتبه فى باريس، وأطلع عليه بعض علماء فرنسا ، كما ذكر ذلك رفاعة .

أما النهج الذى اتبعه ، والهدف الذى رمى إليه من تأليف رحلته ، فإنا نتركه يحدثنا عنهما فى مقدمة كتابه ، إذ يقول : « قيدت فى سفرى رحلة صغيرة نزّهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرّأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ، ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحثّ ديار الإسلام ، على البحث عن العلوم البرانية ، والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع ، والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله إننى مدة إقامتى بهـذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك ، وخلو ممالك الإسلام منه ، وإياك أن تجد ما أذكره لك خارقا عن عادتك ، فيعسر عليك تصديقه ، فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيّز الإفراط والمبالغات ... وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألاّ أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها ، على حسب ما يقتضيه الحال ، ومن المعلوم أنى لا استحسن إلا مالم يخالف نص الشريعة المحمدية[(١)] » .

والـكتاب ذو قيمة كبرى بين مؤلفات رفاعة ، لأن معظمه مبنى على ملحوظات رآها ، وآراء أبداها ، لا على نقل أو ترجمة ، فهو كتاب ذاتى ، فكر فيه رفاعة ، ووضع لبناته ، وأخرجه ، وفضله فيه فضل الخلق والإبداع ، وقد استقبله عزيز البلاد أجمل استقبال ، فحاز إعجابه قبل نشره ، ودفعه هذا الإعجاب إلى الأمر بطبعه ، وإصدار أمره بقراءته في قصوره ، وتوزيعه على الدواوين والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية[(٢)] . وطبع الـكتاب لأول مرة سنة ١٢٥٠ هـ ، وثانى مرة ببولاق سنة ١٢٦٥ ، وثالث مرة سنة ١٣٢٣[(٣)] .

---

(١) ص ٤ . (٢) حلية الزمن ص ٢٥ .

(٣) معجم سركيس ج ١ نهر ٩٤٣ .

وقرّظ الكتاب شيخه الذى أشار عليه بتأليفه ، وهو الشيخ حسن العطار ، وقال فى هذا التقريظ : « أودع فى هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب ، والفاضل الذكى اللبيب ، ماشاهده من عجائب تلك البلاد ، وأحوال هؤلاء العباد ، مايحرض العاقل على الأسفار ، والتنقل فى الأمصار ، حتي يزداد بذلك علماً يقيناً ، ويفوق بالإحاطة بأحوال عباده فى الزمن اليسير ، بما لايدركه القاطن بداره ، ولو عاش من السنين مئينا[1] » .

ولكن يظهر أن كثيراً من العامة كانوا يسيئون الظن بمن عاشر الأوربيين من المسلمين ، فعادوا كتبهم وإن لم يقرءوها ، ويصور لنا المستشرق لين Lane هؤلاء بقوله : « كنت جالسا يوما عند أحد باعة الكتب ، فأتى رجل يطلب نسخة من رحلة رفاعة ، فسأل أحد الحاضرين عما فى هذا الكتاب ، فتطوع رجل لإجابته بطريقة تهكمية تبين رأى العامة فيه ، قال ذلك المتطوع : أنا أقصّ عليك نبأ هذه الرحلة بالحق ، إنها تحتوى على وصف سفر رفاعة من الإسكندرية لمرسيليا ، وعلى ماجرى له أثناء هذا السفر ، عندما سكر وعربد ، عند ذلك أمر الربّان بشد وثاقه إلى صارى السفينة وجلده ؛ ثم نزل بلاد الإفرنج حيث طاب له لحم الخنزير ومعاشرة النساء الإفرنجيات ؛ ثم بعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار عاد إلى مصر[2] » .

وقد اطلع على الأجزاء التى تمت من هذا الكتاب بباريس بعض المستشرقين ، وأبدوا فيها رأيهم ، فمنهم من أثنى عليه بدون تحفظ كالمستشرق كوسين دى برسفال (Cossin De Perceval) فقد قال عنه : « وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيراً من المدح ، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا وعوائدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة ، أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ويُدخل عندهم الرغبة

---

(١) التقريظ على الصفحة الأولى من تخليص الابريز .

(٢) تقديم كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على صفحة ص (ص) .

فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدُّن الإفرنجى ، والترق فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية ، والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك ، وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب على سلامة عقله ، وخلوّه من التعسف والتحامل ، وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة [١] » . أما سلفستر دى ساسي Selvesters De Sacy فإنه علّق على قول رفاعة : « إن الفرنساوية ليس لهم دين ألبتة ، وإنهم ليسوا نصارى إلا بالاسم » فقال : « فى ذلك القول نظر ، نعم ، إن كثيراً من الفرنساوية خصوصاً من سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط ، لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبّدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لايتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ، تراهم مادامت حياتهم ، لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضاً من يقيم على دين آبائه ، يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم فى ورعهم وتقواهم على مراتب شتى ، منهم من يشارك عامة الناس فى تصرفاتهم ، ويحضر معهم فى محافل اللذات أعنى (السبكتاكل) و(البال) ، ومجامع الأغانى ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عدداً ، وإن دخلت كنائسنا أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى » . وعلّق رفاعة على ملحوظة دى ساسى بقوله : « والحامل له على ذلك كونه من أرباب الديانة ، وعددهم نادر لا حكم له [٢] » . أما رأى المستشرق فى الكتاب بعامة ، وما أبداه من ملحوظات عليه ، فقد سجلها رفاعة فى كتابه ، إذ ترجم رسالة بعث بها إليه المستشرق ، وفيها يقول : « قرأت هذا التاريخ إلا اليسير منه ، فحقّ لى أن أقول : إنه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهماً صحيحاً ، عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية

---

(١) تخليص الابريز ص ١٥٥ .

(٢) تخليص الابريز ص ١٢٨ .

والعلمية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية ، ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم ، وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا ، بما لا يحكم به إلا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن ، وقد حرص فى باب العلوم ، على ذكر المعلومات توطئة للتوصل إلى المجهولات ، خصوصاً فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب وبهيئة الدنيا ، وعبارة هذا الكتاب فى الغالب واضحة ، غير متكلف فيها التنميق ، كما يليق بمسائل هذا الكتاب ، وليست دائماً صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسويده ، وأنه سيصلحه عند تبييضه ، وفى التكلم على علم الشعر ذكر استطراداً بعض أشعار عربية أجنبية ، من موضوع هذا الكتاب على ما يظهر لى ، ولكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده ، وفى الكلام على تفضيل الصورة المدوَّرة على غيرها من الأشكال ، ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها (١) » .

وقد أجاب رفاعة على ملحوظات هذا المستشرق بأنه ذكر ما يعتقده (٢) .

ومن كل ما ذكرناه يبدو ما اتصف به رفاعة من شجاعة فى تسجيل ما رآه واعتقده ، لا يبالى فى سبيل ذلك أن يستر ما قد لا يرضى عنه من اتصل بهم من علماء فرنسا ، ثم هو يسجل فى كتابه ما يراه غيره نقائص فيه ، وما أبدى عليه من ملحوظات لا تخلو من قسوة ، ويبدو كذلك ما اتصف به من دقة الملاحظة ، وصفاء الذهن ، فاستطاع أن يوازن بين عادات الشرق والغرب ، وخلال المصريين والفرنسيين ؛ كما أنه سجّل ملحوظاته على ثورة فرنسا سنة ١٨٣٠ م فى حرية ، لا تستر شيئا .

ويظهر من تلك الرحلة أيضاً أنه لم يخلع رداء قوميته ، فيعدّ كل ما فى أوربا خيراً ، وينتقص كل ما فى بلاده ، بل يحتفظ بشخصيته ، فيعترف بما للغرب من حسنات ، وما تفوّق فيه على مصر ، ولكن لا يفوته أن ينتقد سيئاتهم ، « فجاءت

---

(١) ص ١٥٣ .

(٢) ص ١٥٦ .

رحلته هذه ، أشبه بنافذة تطلّ منها مصر على الحياة الأوربية كما هى ، فترى ما بينها وبين الحياة المصرية من فروق [١] » ومما هو جدير بالذكر أن هذه الرحلة قد ترجمت إلى اللغة التركية [٢] .

## مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية

هذا كتاب ألّفه رفاعة لما رأى بلاده تتقدم فى طريق المدنية ، وتأخذ بأسباب الحضارة والرقى ، فرأى من الواجب « أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة ، لمنفعة وطنه العمومية ، وينصح لبلاده ببثّ ما فى وسعهم من المعلومية [٣] » ، وذلك « بتصنيف نخبة جليلة ، وترصيف تحف جميلة ، فى المنافع العمومية ، التى بها للوطن توسيع دائرة التمدنية ، اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة ، واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة ، مع ما سنح بالبال ، وأقبل على الخاطر أحسن إقبال ، وعزّزتها بالآيات البينات ، والأحاديث الصحيحة ، والدلائل البينات ، وضمّنتها الجمّ الغفير من أمثال الحكماء ، وآداب البلغاء ، وكلام الشعراء ، من كل ما ترتاح إليه الأفهام ، وتنزاح به عن الذهن الأوهام [٤] » .

ذلك هو هدف رفاعة من تأليف كتابه ، والخطة التى أراد انتهاجها فيه ، فهو كتاب يريد أن يدرس فيه المنافع العمومية ، التى تعود على الوطن بالخير والإسعاد .

قدّم رفاعة كتابه بمقدّمة بيّن فيها أن كمال التمدين والعمران له وسيلتان : إحداهما ، تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية ، والفضائل الإنسانية [٥] ، والثانية المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى ، وتحسين الحال على الهيئة الاجتماعية [٦] ، وبعبارة أخرى : للتمدّن أصلان : معنويّ ومادى [٧] .

---

(١) محمد الصادق حسين .
(٢) حلية الزمن ص ٢٥ .
(٣) مناهج الألباب ص ٤ .
(٤) مناهج الألباب ص ٥
(٥) ص ٧ .
(٦) ص ٨ .
(٧) ص ٩ .

والرغبة فى تمدين الوطن ، لا تنشأ إلا عن حبه(١) ، وقد شبّه بعضهم حبّ الأوطان بحرارة جديدة ، تتمكن من أبدان أهله ، وإذا حلّت بيدن إنسان غلبت على الحرارة الغريزية ، ولذا إذا ظهرت الحميّة الوطنية فى أبناء مصر بلغ هذا الوطن من التمدّن الحقيق والمعنوى أمنيته .

عرض رفاعة فى الباب الأوّل لبيان المنافع العمومية ، فعرّف المنفعة بأنها ما يفعل لمصلحة تخصّ بلدة أو مملكة لراحة أهلها ، وتنظيم أحوالهم ، من كلّ ما يعود عليهم بفائدة لها وقع فى المملكة ، وبها يترق الوطن ، ويشترك فى ثمرتها أربابه(٢) ، ومبنى المنفعة فى السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف ، وإنفاقه فى المصارف الحميدة والعاقبة الجيلة الذّكر(٣) .

وطرق اكتساب المال ترجع إلى ثلاثة أشياء ، وهى : الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، وبذلك ترى أن رفاعة قد وضع كتابه فى الحديث عن منابع الثروة الثلاثة ، وفى وسائل النهوض بها ، وطريقة إنفاق ما يخرج منها . وهذه المنافع إذا وجدت فى مملكة دامت ، متى كان العدل والإنصاف مستتباً ، فبواسطة اكتساب الأهالى المال من هذه الينابيع ، يصحّ لهم الإنفاق المنزلى مع السعة والثروة ، وبفضول اموالهم يؤدّون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم ، مما يوجب ثروتها واقتدارها ، وينفقون فى سبيل الله ما شاء أن ينفقوا ، رحمة بذوى الحاجات ، وبهذا يتمّ النظام المنزلى ، والنظام المدنى(٤) .

وذكر المؤلف أن ينبوع السعادة ، واكتساب الثراء من تلك المنابع ، هو العمل والكدّ ومزاولة الخدمة . ففى الزراعة مثلاً ، يساعد العمل على الغنى والثراء أكثر مما تساعد خصوبة الأرض . « فلو زرعنا أرضاً خصبة ، وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل ، وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة ، ودليل ذلك ، أن الأمة المتقدمة فى ممارسة الأعمال والحركات الكدّية ، ذات الكمالات العملية المستكملة

---

(١) ص ١٠ .
(٢) ص ٢٤ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) ص ٢٤ .

للأدوات الكاملة ، والآلات الفاضلة ، والحركة الدائمة ، قد ارتفعت إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوربا وإفريقية ، ظهر لك حقيقة ذلك ، فمن هذا يظهر أن أساس الغنى مبنى على كثرة الأشغال والأعمال ، فهى مصادر وموارد للأموال، ومنابع لأسعد الإقبال(١) » .

ومما يعين على تقدُّم المنافع العمومية ، الأسفار والسياحات(٢) ، وأكبر دليل على ذلك دولة الإنكليز فى العصر الحديث ، والصوريُّون فى العصر القديم .

وكانت الدِّيار المصرية متقدِّمة فى المنافع العمومية تقدُّماً عظيماً ، وكانت حركتها على غاية ما يمكن من النشاط والإتقان ، ، وكان للنيل وتسهيله سير السفن بين بعض البلاد وبعض ، أكبر الآثار فى أنَّ الدِّيار المصرية اكتسبت قبل غيرها من الممالك فى الأزمان الخالية ، صفة الثروة والغنى ، وتقدمت فى المنافع العمومية(٣) .

ويرى رفاعة أنَّ أعظم وسائل تقدُّم الوطن فى المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الأجنبية ، واعتبارهم فى الوطن كالأهلية(٤) ، فهو على مبدأ القائلين بحرِّية التجارة .

ومضى رفاعة ، فتحدَّث عن الرَّغبة التى استبدَّت بمحمد على فى أن يعيد المنافع العمومية إلى مصر ، وقد أدرك بقريحته الصحيحة ، وفطنته الرَّجيحة ، أنَّ سعادة المملكة فى ثرائها ، وأنَّ منبع ثراء مصر ، إنما هو الزِّراعة ، وكأنما ورد بخاطره الملحوظات الآتية :

الأولى أنه لم يكن للنيل فى هذه الأيام إلا فرعان : فرع رشيد ، وفرع دمياط ، وأنه يجب عمل أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضى ألا ينصبَّ ماء النيل فى البحر الأبيض إلا ما لا يمكن تركه ، فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الفائض جسيما ، ويمتدُّ على كثير من الأراضى ، زيادة عما هو عليه ، فبهذا تتسع الأرض الصالحة للزِّراعة ، أو للسكنى ، أزيد من الحالة الرَّاهنة .

---

(١) ص٨٨ . (٢) ص ١٤٦ . (٣) ص ١٧١ . (٤) ص ١٨٨ .

الثانية : إذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كما ينبغى ، وصار الاجتهاد فى تكثيرها بقدر اللزوم ، تمكث المياه على الأراضى جزءاً عظيما من السنة ، فيتسع وادى النيل ومجراه ، ويمتدُّ ، فيروى الأراضى الصالحة للزراعة .

الثالثة : قد صحّ بوجه الحدس والتخمين أنَّ بواسطة الطريقة السابقة المستحسنة .. يزيد فى مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع .

الرَّابعة : الظاهر أنَّ النيل فى الأعصر السابقة سبق مروره بالفيُّوم ... وجرى من الفيوم إلى بحيرات النطرون ...

الخامسة : من المعلوم مما سبق ، أنَّ خصب مصر ويمنها متسبب عن النيل ، ويمن غيرها الزِّراعى ، متسبب عن اختلاف الفصول والأمطار ، فبهذا كانت مصر مستعدَّة لكسب السعادة أكثر من غيرها ، بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها ...

السادسة : إذا صار الشروع فى عملية قناطر عظيمة ، تسدُّ فرع دمياط ورشيد ، وعمل لها أبواب ورياحات ومصارف ، فإنَّ بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التى لا يصل إليها بدون ذلك[١] ...

هذا ما تصوَّره محمد على ، عند ما أراد بناء القناطر الخيرية ، فقد كان متجهاً اتجاهاً كاملاً إلى بذل مجهوده ، وقوة نشاطه ، لإحياء عملية الرَّىِّ والزِّراعة ، فحييت مصر وأهلها[٢] .

ولمَّا مهَّد محمد على ، فى مصر ، الزِّراعة والتجارة والصناعة ، التى هى المنافع العمومية ، وكثرت ثروة مصر بالأخذ والعطاء ، وسعد الأهالى برفاهية العيش ، وكان يفكر دائماً فى تكميل المنافع العمومية لمصر ، وكان السودان يتجر قديماً وحديثاً بالمعادن ، ولا سيما الذَّهب — صرف همته إلى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهة ، فأرسل إلى السودان من يكشف أمر معادنه ، ومضى هو يشرف على هذه التجارب[٣] .

وخصَّ رفاعة فصلاً بذكر تقدُّم مصر فى عهد إسماعيل[٤] ، وما يصلح فى

---

(١) ص ٢٢٥ . (٢) ص ٢٢٧ .
(٣) ص ٢٤٩ . (٤) ص ٢٨٢ و ٢٩٥ .

مصر من أنواع المزروعات، وما يصلح تربيته فيها من الحيوانات[١]. وبيَّن رفاعة ما يكون لتقدُّم الصناعة والتجارة فى أمة من حفظ كيان الأمة، وبعد عقول بنيها عن الأفكار الباطلة، التى يتسبب عنها هدم بناء الأمة بالفتن والشرور[٢].

وأنهى رفاعة الكتاب بخاتمة، قسم فيها أهل الوطن أربع طبقات: الطبقة الأولى، ولاة الأمور، والطبقة الثانية، طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين، والطبقة الثالثة الغزاة، والطبقة الرَّابعة أهل الزِّراعة والتجارة والصناعة، ومضى يتحدَّث عن عمل كلِّ طائفة، وواجبها، وحقوقها، وصفاتها، ووجَّه رفاعة إلى الطوائف كلها قوله: « ينبغى لأبناء الوطن، أن يؤدُّوا ما يجب عليهم من الحقوق لوطنهم، أياما كانت طبقتهم، لاتحادهم فى وصف الأهلية، وأن يتعاونوا على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية، وأن يبذل المستطيع ما عنده فى إصلاح حالها ومآلها، حتى يصدق عليه أنه ممن أحيا نخوة الملة، وأنعش قوَّة الدولة فيشكره وطنه الذى هو مصره، ويحمده زمنه الذى هو عصره، فيكون مخلد الذكر فى دفاتر أخبار الذين اشتهروا فى سلسلة الأعصار، وأن يتصف كل عضو من أعضاء الجمعية الأهلية بالأمانة، التى هى أشرف الخصال التى يحتاج إليها فى المعاملات، وقد كانت هذه الفضيلة قديماً فى الدِّيار المصرية على غاية من التمسك بها ... وأن يتمسك بكلِّ فضيلة يتمدَّح بها، وتبيضُّ بها صحيفته دنيا وأخرى، من كلِّ ما يحرز المنافع العمومية، دنيوية أو دينية، مما يكون به لأهل ملته تمام النظام، وتعود منفعته عاجلاً أو آجلاً، على قوَّة دولة الإسلام[٣] ».

وإذا كان الغرض الأول من كتاب مناهج الألباب المصرية هو الحديث عن المنافع العمومية التى تعود على الوطن بالغنى والثراء، فإن رفاعة قد استطرد فى أثناء كلامه عن ذلك إلى موضوعات شتى: منها الخلقىّ كحديثه عن الفضيلة، وأنها وسط بين طرفين مذمومين[٤]، وبحثه فى تعريف الفضيلة وأركانها وأقسامها[٥]، ومنها

---

(١) ص ٢٨٢ و ٢٩٥ .
(٢) ص ٣٢٨ . (٣) ص ٤٣٣ .
(٤) ص ٢٥ . (٥) ص ١٣٠ .

الاجتماعىّ كموضوع الصدقة الجارية [١] ، ومنها الأدبى كإيراد ما قيل فى البخلاء من الشعر [٢] ، وما قيل فى حمامة البطاقة من الأدب نثراً ونظما [٣] ، ومنها التربوى كمباحثه فى العلوم وأقسامها وتعليمها ، ومنها السياسى ، كمطلب التسوية بين أبناء الوطن من غير نظر إلى اختلاف فى الدين [٤] ، وحديثه عن تأسيس مجلس شورى النواب [٥] ، ومنها التاريخى كتاريخ حروب رومة مع قرطاجنة ، وحروبها مع مقدونية ، وغزوات الرسول ، وتاريخه للكثير من شئون مصر [٦] ، ومنها ما هو تفسير آية [٧] أو حديث [٨] ، ومنها الدينىّ كبحثه فى العمل والنية ، والجغرافى كبحث تكوُّن أرض مصر من الطمى [٩] ، والإدارىّ كمباحثه فى العمد ومشايخ البلاد [١٠] ، إلى غير ذلك من استطرادات ، لا أنكر أنها شوهت وحدة الكتاب ، وجعلت الوصـــول إلى الغرض منه يحتاج إلى الأناة والتريث ، فقد لفت هذه الاستطرادات الموضوع بنوع من الغموض .

أما أسلوب رفاعة فى كتابه فيمتاز بالترسُّل فى معظم صفحاته ، وإن كنت لا تعدم غرامه بالسجع ، فى وسط الفصول حيناً ، وآخرها حيناً آخر ، كما أن بالكتاب نقولاً كثيرة من كتب شتى .

هذا ، وقد سمى بعض مؤرخيه الكتاب باسم مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية [١١] .

## فى التربيـــة

هيأت الظروف لرفاعة مدرّساً ومشرفاً على بعض معاهد التعليم ، أن يؤلف فى التربية وأن يكون له فيها بعض الآراء ، وقد وضع فى ذلك كتابا ضخما ، دعاه

---

(١) ص ٣١ . (٢) ص ٣٦ .
(٣) ص ٣٣٤ . (٤) ص ٩٨ .
(٥) ص ٣٢٣ . (٦) ص ١٧١ و ١٧٢ و ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ .
(٧) ص ١٤٧ .
(٨) ص ٩٦ . (٩) ص ٢٢٩ .
(١٠) ص ٣٦٥ و ٣٦٦ . (١١) حلية الزمن ص ٢٦ .

المرشد الأمين للبنات والبنين ، كما عرض كثيراً من هذه الآراء فى مناهج الألباب المصرية ، وله منظومة فى تأديب الأطفال [١] مكوَّنة من خمسة وأربعين بيتاً ، نظمها فى نحو ساعتين ، وهو فيها يتجه حيناً إلى الابن يوصيه ، فيقول له :

فى برِّ والديك بالغ تغنم | لا سيما فى العيد أو فى الموسم
وإن ترم سرور أم أو أب | يوماً فكسب العلم خير مكسب

وحيناً يخاطب الأب يرشده قائلا له :

إن رمت أن تشوِّق الأولادا | وأن ترى من نجلك اجتهاداً
فعده بالإتحاف يوم العيد | وقدِّم الوعد على الوعيد

وحيناً يضع قاعدة للأخلاق كقوله :

وشرُّ أوصاف الفتى هو الغضب | يفضى إلى ارتكاب مالا يرتكب
فياله من خصلة ذميمة | فى تركها مصلحة جسيمة

وقد تحدث فى هذه المنظومة عن بعض الأمور المهمة فى التربية ، كطاعة الأطفال وأن من الواجب على الصغير ألا يكتم سراً عن أبيه وأمه ، لأنه ، وهو صغير ، فى حاجة إلى تسديد خطاه بنصح والديه ، وكتمانه أمراً دونهما قد يعرضه لما لا تحمد مغبته ، قال :

مما يعد من صفات الذم | كتم الصغير عن أب أو أم
سراً حقيراً أو جليلاً ، بل يجب | إبداؤه ، وعنهما لا يحتجب

والمنظومة توصية بمكارم الأخلاق ، ولم ينس فيها حضَّ البنت على التمسك بالحشمة والحياء ، وله فيها رأى فى أفضل طرق الحفظ ، سنشرحه فيما يلى :

## المرشد الأمين للبنات والبنين

عزم إسماعيل باشا على أن يفتح أبواب العلم أمام المرأة ، وأن يسوِّى فى اكتساب المعارف بينها وبين الرجل ، ويخصها بمدارس تتعلم فيها ما يخرجها من

(١) نشرها فى كتاب مناهج الألباب المصرية ص ٧٦ .

ظلمة الجهل إلى نور العرفان[١] ، فطلب ديوان المدارس إلى رفاعة أن يعمل « كتاباً فى الآداب والتربية ، يصلح لتعليم البنين والبنات على السَّوِيَّة » ؛ فألف هذا الكتاب ، وأهداه إلى نجل إسماعيل ، وهو حسين كامل باشا ناظر ديوان المدارس ؛ والكتاب ذو مستوى رفيع فى تفكيره ، لا يصلح إلا للكبار ، فلعله مما كان يقرؤه كبار الطلبة والطالبات ، وكان مما يدرس فى مدارس المعلمين[٢] .

رتّب رفاعة كتابه على مقدّمة وأبواب مشتملة على فصول وخاتمة ، فعرّف التربية فى فصل من فصول المقدمة ، وبين أثرها ، وذكر فى فصول تالية ماينبغى أن يؤخذ به الأطفال من صغرهم ، من تربية خلقية ودينية ، حتى إذا وصل إلى بعض ما يجب أن يعتقده الطفل منذ صغره ، مضى يبرهن على بعض هذه العقائد كعقيدة البعث والنشور[٣] ، وأثنى رفاعة ثناء جما على تربية اليونان[٤] الأقدمين أطفالهم ، فكثر حكماؤهم ، وحموا بلادهم ، واشترك فى هذه التربية الحازمة نساؤهم ورجالهم . وهنا يعود رفاعة إلى تاريخ العرب لينقل إلينا ما كان نساء العرب يربّين عليه أولادهن من الشجاعة والإقدام[٥] ، وينقل بعض عوائد الأوربيين فى تربية البنات والبنين[٦] .

تحدث رفاعة فى الباب الأول عن الإنسان ، ونسبته إلى غيره من المخلوقات[٧] ، وأخذ فى الباب الثانى يذكر الصفات التى يشترك فيها الذكور والإناث ، والتى يختص بها أحدهما ، وكأن رفاعة بهذا الفصل وسابقه ، يريد أن يفهم الطلبة والطالبات مكانتهم فى العالم كأناسىّ يمتازون عن باقى المخلوقات بالعقل ، فى حين أن كثيراً من هذه المخلوقات يمتاز ببسطة الجسم ، وقوّة الأعضاء ؛ فمن الواجب العناية بهذا العقل ، وإمداده بالتربية والتثقيف ، وأن يعرف كلا الجنسين موقفه من صاحبه ،

---

(١) المرشد الأمين ص ٤ ،
(٢) تاريخ التعليم فى مصر — عصر إسماعيل ص ٦١٢ .
(٣) المرشد الأمين ص ١٤ .
(٤) المرجع السابق ص١٦ ومايليها .
(٥) ص ١٨ .
(٦) ص ١٩ .
(٧) الصفحة نفسها .

وما خص به كل واحد منهما ، فيعمل جهده فى تقوية ماخص به من المنح والمزايا ، حتى يسعد المجتمع العائلى ، وتنهض بذلك الأسرة .

وكان رفاعة صريحاً عندما تحدّث في كتاب أعد لقراءة الفتيات — عما فى النساء من ميل دائم « إلى إظهار اللطافة والمحبوبيّة للرّجال ، فجميعهن على الإطلاق يرغبن فى التحبّب للرجال ، وأن يكون معلوما عند الرجال ما حزنه من الجمال والكمال والعفّة وجميع الفضائل ، فالأنثى من حيث هى أنثى ، ولو بلغت ما بلغت فى درجة العفة ، ترغب أن تكون مألوفة محبوبة بعيدة الصّيت فى المعانى الحسان ، ولا تأنف أن يكون لها فى القلوب موقع استحسان ، ولو أنها مجردة عن الشجاعة الحسية ، ومعنوياتها التى هى عبارة عن اللطف والظرف ولين الكلام والإشارة ، سلاح لها يسهل عليها تجريده ، لتسبى به الرّجل ، وتنتصر عليه ، فنبال عيونهن رسل المنون ، والبيض والسمر منهن مفاتيح الحصون .. فكل امرأة مستعدّة لأن تبرز بهذه الصفات لحرب الرجال ، بحيث لاتخلّص للرجال من أسر جمالها المكنون ، وقهر سلطان حسنها المصون[١] » .

وكأنه بذلك ينبّه الفتاة إلى ما منحته من سلاح ، تستطيع به أن يكون لها على رجلها سلطان ، تجعل به الحياة الزوجية رغدة سعيدة .

وأمدّهم فى الباب الثالث بأحاديث عن التعليم وأنواعه ، ليحيطوا خبراً بدرجات التعليم فى وطنهم ، وشوّقهم فى فصول متتالية إلى الدّراسة والاطلاع على ألوان الفنون المختلفة ، لمنفعتهم ومنفعة بلادهم ، وحرّك فيهم عامل المنافسة بينهم ، وأبان لهم فضل الرحلة فى طلب العلم ، لينهض بجدّهم وطنهم .

وهنا ينتقل انتقالا طبيعياً إلى ذكر الوطن ، الذى يعد الجيل نفسه لخدمته ، ويكملها لهذه الخدمة بالعلم والثقافة ، وبدأ رفاعة هذا الفصل بعبارة مؤثرة ، قال فيها : « الوطن هو عش الإنسان الذى فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، ومقطع سرّته ، وهو البلد الذى نشّأته تربته ، وغذاه هواؤه ، وربّاه نسيمه ، وحلّت عنه التمائم فيه[٢] » ، وتحدث عن مصر حديثاً يمتلىء حباً وإعجاباً إذ يقول :

---

(١) المرشد الأمين ص ٥٦ . (٢) المرجع السابق ص ٩٠ .

« ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل : إنها أشرف الأمكنة ، فهى أرض الشرف والمجد فى القديم والحديث ، وكم ورد فى فضلها من آيات بينات وآثار وحديث ، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ، منقوشة فى عرض الأرض ، بيد الحكمة الإلهية التى جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تكاد أن تكون حصرتها فى أرجائها ونواحيها ، بلدة معشوقة السكنى ، رحبة المثوى ، حصباؤها جوهر ، وترابها مسك أذفر ، يومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنئ ، وثراها مرئ ، واسعة الرقعة ، طيبة البقعة ، كأن محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة ، واسطة البلاد ودرتها ، ووجهها وغرتها ، بلد كم خرج منه من كبار ملوك وسلاطين ، وحكماء وأساطين ، وكم نبعت منه عيون علوم ، وانجلى به من البلاد سحائب غيوم ، فمن ذا يضاهى مصر فى كمال الافتخار ، أو يباريها فى الجمال والاعتبار ، أمتها أول أمة ، فى المجد وعلو الهمة :

بهاليل فى الإسلام سادوا ، ولم يكن كأولهم فى الجاهلية أول
هم القوم : إن قالوا أصابوا ، وإن دعوا أجابوا ، وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا

موصوفة عند الجميع بالشجاعة والحماسة ، والكياسة والرئاسة ، فضلا عن الذكاء والفطنة ، ولطافة العوائد والأخلاق ، مما سارت به الركبان بسيرتهم الحميدة فى سائر الآفاق ، فلها الحق فى أن يحترمها جميع الأمم والملل ، وملوك الدنيا والدول ، فكم اقتبسوا منها فى الأزمان الخالية ، أنوار العلوم والمعارف التى طوقت أجياد الدنيا ، وصارت بها فى الدرجات العالية ، ولم تزل إلى الآن ، فخار كل زمان ، كما لم تزل آثار محاسنها زينة لكل مكان ، حظها من التمدن عظيم ، ورونق تاجها در نظيم ، فهى الكنانة ، ذات المنعة والمكانة[١] » .

وغرس هذه العقيدة فى نفوس النشء له أكبر الأثر فى تربيتهم تربية وطنية صادقة .

وتحدث فى فصل تال[٢] عما يجب على أبناء الوطن من اتحاد كلمتهم ، وعدم تشعبهم أحزاباً متعددة بآراء مختلفة ، لما يترتب على ذلك من التشاحن والتحاسد

(١) المرشد الأمين ص ٩١ . (٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

والتباغض ، ومن الانقياد لقانون الوطن ، والاستعداد لأن يفديه المرء بروحه ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر ، وضرب المثل بالرومانيين الذين تسلطوا على بلاد الدنيا بأسرها لحبهم وطنهم وتفانيهم فى هذا الحب .

ولما عرض لتمدن[١] الوطن ذكر أن أسبابه هى التمسك بالشرع ، وممارسة العلوم والمعارف ، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة ، واستكشاف البلاد التى تعين على ذلك ، واختراع الآلات والأدوات من كل مايسهل طرق التمدن أو يقرّبها بإيجاد الوسائط والوسائل .

وتحدث رفاعة فى الباب الخامس[٢] عن الزواج والتسرّى وما يتعلق بهما ، وهو بذلك يسبق إلى الحديث فى موضوع محبب إلى الشباب ذكره ، ووضع رفاعة فيه بعض المبادئ الصالحة للفتى والفتاة ؛ ومما حواه هذا الباب أحاديث طريفة فى أخبار النساء ، وفى الاختلاف فى تفضيل السمر على البيض ، والبيض على السمر ، وفى البكارة والثيوبة ، واختلاف الأذواق فى السّمن والضّمور ، وتزيد طرافة هذه الموضوعات إذا علم أنها كتبت لتقرأها الفتاة والفتى ، وفيها مثل قوله : « قال أبو الفرج فى كتاب النساء : بنت عشر سنين تشمس وتلين ، وبنت عشرين تسر الناظرين ، وبنت ثلاثين لذة للمعانقين ، وبنت أربعين ذات رخاوة ولين ، وبنت خمسين ذات بنات وبنين ، وبنت ستين عجوز فى الغابرين ، وقال بعضهم فى أعمار النساء من الشعر ماحسن به وصفهن ، مما لم يسبق إليه :

متى تلق بنت العشر قد بضّ ثديها ... كلؤلؤة الغواص يهتزّ جيدها
تجد لذة منها لخفة روحها ... وعزتها ، والحسن بعد يزيدها
وصاحبة العشرين لاشىء مثلها ... فتلك التى يلهو بها مستفيدها
وبنت الثلاثين الشّفاء حديثها ... هى العيش ، مادقت ولا رق عودها
وإن تلق بنت الأربعين فغبطة ... وخير النساء ودّها وولودها
وصاحبة الخمسين فيها بقية ... من الحسن نوع الحسن صلب عمودها
وصاحبة الستين لاخير عندها ... وفيها متاع ، والحريص يريدها[٣]

(١) ص ١٢٤ .   (٢) ص ١٣٤ .   (٣) المرشد الأمين ص ١٦٨ .

وقال بعضهم : قالت امرأة لأخرى : ماتقولين فى ابن عشرين ؟ قالت : ريحانة تشمين . قالت : فابن ثلاثين ؟ قالت : شديد متين . قالت : فابن أربعين ؟ قالت : أبو بنات وبنين . قالت : فابن خمسين ؟ قالت : يجوز فى الخاطبين . قالت : فابن ستين ؟ قالت : صاحب سعال وأنين .

ومن هذا ... يفهم أن بلوغ الستين من الرجال والنساء ، هو حدّ فقدان الأرب غالباً ، وأن الخير فى كل من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الأعمار ، وذكر بعضهم الأعمار وصفاتها فى النساء ، فقال : إن منهنّ الكاعب ، وهى التى كعب ثدياها أى برزا وظهرا ، ومن طباعها الصدق فى كل ما تسأل عنه ، وقلة الكتمان لما علمته ، وقلة التستر ، والحياء ، والتساهل ، ومنهن الناهد أى التي نهد ثدياها ، واستدارا ، ولم يتكامل شبابها ، فتستتر بعص الاستتار ، وتظهر بعض محاسنها ، وتحبُّ أن يتأمل ذلك منها ، ومنهنّ الممتلئة شباباً ، التى قد استكمل خلقها ، وعظم ثدياها ، فيحدث عندها ، دلال وأدب ، وتحلو ألفاظها ، ويعذُب كلامها ، ويتخلق فيها الميل لجنسها ، ومنهنّ العانس ، وهى المتوسطة الشباب ، التى تهيأ ثدياها للانكسار ، فتحمش مشيتها ومنطقها ، وتبدى محاسنها ، بحفز ودلال ولعب ، وأحبُّ الأشياء إليها مفاكهة الرجال ، وهى فى هذه الحالة ، قوية الميل لما تقتضيه أنوثتها ، مستحكمة العشق ، ومنهنّ المتناهية الشباب ، ولا شىء أشهى إليها من الاتصال بالرجال ، ومنهنّ النصف ، وهى التى يأخذ ماء وجهها فى النقص ، ولحمها فى الاسترخاء ، وذلك بعد مجاوزة الأربعين ، وهى التى قيل فيها :

وإن أتوك ، فقالوا : إنها نصف     فإن أحسن نصفيها الذى ذهبا

فتكون ملاطفة للرجال ، مدارية لهم ، شديدة الحرص عليهم ، وما فوق ذلك فالعجوز ( أى المسنة ) التى يجب على العاقل أن يرغب عن زواجها[١] » .

ومن مثل تغزل فى عجوز ، وذم نكاح ست من النساء ، وينقل رفاعة كثيراً من أخبار شهيرات النساء ، بأى نوع من أنواع الشهرة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩ .

وكان رفاعة يتناول موضوعاته ، بحرّية لا نظفر بها اليوم ، فيما نؤلفه من كتب لتلاميذ مدارسنا وتلميذاتها ، بل نعدُّ الحديث عنها اليوم محرَّماً فى كتبنا ، وهاك نماذج لهذه الموضوعات : الكلام على المحبة والصداقة بين الزوجين وغير الزوجين [١] — مذهب المحبين التمسك بعدم الشريك فى المحبة [٢] — الحب فى مبدئه اختيارى ، وبعد ذلك يصير اضطرارياً [٣] — العشق قسمان : عشق الحواس ، وعشق القلب [٤] — الحبُّ يعمى بصيرة العاشق ، ويشوّش ذهن الوامق [٥] — بادية العرب كانوا متفرّغين للعشق بالذات ، لعدم اشتغالهم بالعوائق ، والفرس أيضاً لهم رغبة فى العشق [٦] — للعشق مكارم أخلاق ، تتفرّع منه وتنتسب عنه [٧] — العاشق العنيف الصابر الكاتم ، إذا مات ، نال الشهادة [٨] — الحبُّ ليس بمستنكر فى الدُّنيا ، ولا بمحظور فى الشرع [٩] — مذهب بعض المحبين ، استعذاب المطل [١٠] — ينبغى أن يكون الحب بين المتحابين ، وداداً خالصاً صافياً من الشوائب [١١] .

وهكذا لم يغمض رفاعة عينيه عن عاطفة قوية ، تضطرم فى صدر الشباب ، فحدّثهم عنها حديث والد ، بارّ ، وذلك أفضل من أن يتلقوا هذه المعلومات من كتب لا رقيب عليها ، تثير غرائز ، وتدفع إلى فساد ، ويختم رفاعة هذا الباب بنصائح للزّوج والزّوجة ، توطد دعائم البيت [١٢] ، ولذلك خصَّ رفاعة الباب السادس بالحديث عن أسباب عمار البيوت والمنازل [١٣] ، فأطال الحديث عن العفة والحياء ، وأمانة الزّوجين وصدقهما فى المحبة [١٤] ، والعرض وصيانته ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ، وروى كثيراً من وصايا الآباء والأمهات للبنين والبنات [١٥] فى أمور الزّواج ، وعرض رفاعة لما يكون للتوادّ وحسن العشرة من أثر فى كثرة الرّزق والثروة وتحسين تربية النسل والخدم [١٦] ، وحثّ الزّوجين على أن

(١) ص ١٩٥ .
(٢) ص ١٩٦ .
(٣) ص ١٩٧ .
(٤) ص ١٩٨ .
(٥) الصفحة نفسها .
(٦) ص ١٩٩ .
(٧) و(٨) و(٩) ص ٢٠٠ .
(١٠) ص ٢٠١
(١١) ص ٢٠٥ .
(١٢) ص ٢٠٦ .
(١٣) ص ٢٠٧ .
(١٤) ص ٢١٥ .
(١٥) ص ٢٥٦ .
(١٦) ص ٢٧٣ .

يصبر كل منهما ، على سوء خلق الآخر[١] ، وتحدَّث فى فصل ، عن واجبات كلّ من الزّوج والزّوجة[٢] .

وخصَّ الباب السابع[٣] ، بالكلام على حقوق القرابة ، بعضهم على بعض ، فعرف القرابة بأنهم : الآباء والأمهات ، والبنون والبنات ، والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، وأولاد العمّ والعمة ، وأولاد الخال والخالة ؛ وتحدَّث عن واجب البرّ بهم ، والمحبة بين أفرادهم .

وقصر فصلا[٤] على برّ الوالدين ، وذكر الأسباب التى تدفع إلى ذلك ، ولم ينس الحديث على حقوق الولد على والده ؛ ولما كان الأستاذ والداً روحياً للتلميذ ، أخذ رفاعة فى هذا الفصل يتحدَّث عن حقوقه على هذا التلميذ[٥] ، وحقوق التلميذ على أستاذه ، وهنا يجد المجال فسيحاً ، لشرح بعض مبادئه فى التربية ، وتقسيم العلوم ، وبيان العقيدة الدينية ، وأن أول واجب على معلم التلاميذ ، أن يعلمهم عقائد التوحيد ، وأورد كثيراً من أمور الدين ، وسيرة الرسول الكريم .

وتحدَّث فى فصل[٦] ، عن المحبة الأخوية ، بدأه بقوله : « متى صحَّ الودّ بين الآباء والأمهات ، وصحَّت تربية البنين والبنات ، بسلوك الآباء طريق العدل والإنصاف ، فى تسوية أبنائهم وبناتهم فى تقويم أودهم ، شبَّ الإخوة على التحابب والتوادد بعضهم لبعض ، فهذه محبة الأخوية ، وهى فضيلة من الفضائل العظيمة ؛ لأنها عبارة عن وجود الوفاق والاتحاد بينهم ، فهذه الفضيلة تكسب العائلة قوّة وأمناً وحفظاً وصوناً ، فإن اجتماع الإخوة المتحابين ، تعاون على الأجنبى ، فيحمى بعضهم بعضاً من عدوّهم ، فلا يصاب أحد الإخوة بضيم ، ما دام إخوته أنصاراً له ، وعند الضرورة المعاشية ، يعين بعضهم بعضاً ، ويساعد الأخ أخاه ، إذا جار عليه الزّمان ، وحاربته صروف الحدثان ، فباتحاد الإخوان ، يثبت قدم العائلة ، ويرسخ أساسها ، ويكون له صورة وجود قوىّ ، فى خارج الأعيان ، بخلاف ما إذا بغض الإخوة ، بعضهم بعضاً ، ووقع بينهم التحاسد

---

(١) ص ٢٧٥ . (٢) ص ٢٧٧ .
(٣) ص ٢٨٤ . (٤) ص ٢٩٨ .
(٥) ص ٣٢٧ وما يليها . (٦) ص ٣٧٨ .

والمشاحنة ، وصار أمر كلّ منهم موكولاً على حدته لقوّة نفسه ، لا ناصر له ولا معين من إخوته ، فإنه بهذه المثابة ، يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والانفراد، والضعف الشخصى المترتب على عدم الاتحاد[١]» .

وتطرّق من الحديث عن المحبة الأخوية ، إلى الصداقة واختيار الأصدقاء ، وختم كتابه بحديث عن الصحة وحفظها ، وجرّه الحديث ، إلى ما يجده بعض التلاميذ من الرّاحة فى تصنع المرض ، وما يراعى فى صحة الأطفال .

وفى آخر فصل[٢] ، ذكر شذرة من كلامه صلوات الله عليه ، تدعو إلى الخير ، وتحثّ على كلّ فضل ، وكان آخر ما أورده من تلك الأحاديث ، قوله : « بشّر المشائين فى الظلَم إلى المساجد ، بالنور التام يوم القيامة » .

ليس كتاب المرشد الأمين ، ككتب المطالعة ، المؤلفة فى عصرنا الحاضر ، تجمع موضوعات شتى ، لا تربط بينها فكرة ، ولا يجمعها سلك ، ولكنها مقالات منتثرة من هنا وهناك . بل كتاب المرشد الأمين ، كتاب ذو فكرة واحدة ، ترمى إلى خلق الوطنى الصالح ، فهذا الكتاب يعرّفه حقوقه وواجباته ، إنساناً يمتاز عن الحيوان بعقله وخُلقه ، خلقه الله ذكراً وأنثى ليتم بقاء هذا العالم، له وطن يعمل بكلّ قوته على إسعاده ومجده ، وأسرة يعيش لخيرها ورفاهيتها ، وأقارب يجب أن تسود صلته بهم الحب والوفاء ، وإله يدين له بالعقيدة والعبادة .

فرفاعة فى هذا الكتاب يقدّم لتلاميذه حقوق الإنسان وواجباته فرداً ، وفى جماعة صغيرة هى أسرته ، وجماعة كبرى هى وطنه وأمّته ، والكتاب كله يدور حول ذلك ، فهو كتاب ذو فكرة ومنهج ، يقسم الفكرة إلى أبواب ، ويضع للأبواب فصولا ، تتناول جزئيات صغيرة . وأنت لذلك تنتقل فى هذا الكتاب بين معارف تربويّة ، ومعلومات سياسية ، وعواطف وطنية ، ومبادئ إصلاحية ، وشئون اجتماعية ، ومسائل دينية .

والكتاب يبدو فيه أثر الثقافة الأجنبية من حيث وحدة الفكرة وتنظيمها ، وأثر ثقافته العربية ، من حيث كثرة استشهاده بالشعر وإتيانه بالحكم وأقوال السلف وأحاديث الرسول .

---

(١) ص ٣٧٨ . (٢) ص ٣٩٣ .

الفكر منظم

والكتاب كثير الاستطراد ؛ فبينا تراه مثلا يتحدث في بر الوالدين[١] إذا به يتحدث عن الزهد ، ومواقف تاريخية لبعض النجباء ، وعن الدعاء وشروطه وأركانه ، ويحقق الولاية وكرامات الأولياء ، ويترجم للغزالى إلى غير ذلك من موضوعات يدفعه إلى إيرادها المناسبات ، وفى بعض الأحيان يحشد الحكم بعضها إلى بعض حتى يصبح معرضاً لها ، كخطبة قس بن ساعدة[٢] .

وأسلوب رفاعة فى كتابه مزيج من الترسل والسجع ، وإن كان ميله إلى السجع واضحاً يلجأ إليه كلما واتته الفرص .

هذا ، ومما يذكر هنا أن هذا الكتاب ، ككتاب نهاية الإيجاز بدأ طبعهما فى حياة رفاعة ولكنه مات قبل إتمام هذا الطبع ، فأشرف ولده على إتمامهما ، وتم طبع كتاب نهاية الإيجاز لأول مرة سنة ١٢٩١هـ ، وطبع كتاب المرشد الأمين لأول مرة كذلك سنة ١٢٩٢ هـ .

## منهجه فى التأليف

اعتاد رفاعة فيما يؤلف أو يترجم أن يبدأ كتابه ببراعة استهلال تنبىء عن مضمون الكتاب وفكرته ، وتأثر تلاميذه خطاه فى هذا البدء ، فتراه مثلا يفتتح مقدمة كتاب رحلة تخليص الإبريز بقوله : « سبحان من سير أقدام الأنام إلى ما مضى فى سابق علمه ... وأصلى وأسلم على من سارت ركائب شوقه إلى مدبره ... سيدنا محمد الذى سافر إلى الشام ، وهاجر إلى المدينة ، وسار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكان جبريل أمينه » . ويقول فى مفتتح ترجمته لكتاب مبادىء الهندسة : « الحمد لله المحيط علمه بدائرة ما يكون وما كان ، المنزه عن الأشكال الجسمية وعن أن يحويه زمان أو مكان ، فسبحانه من إله استمد الكون الوجود من نقطة وجوده ، واستبد بالاستغناء بنفسه ، فافتقر كل إلى منشور كرمه وجوده والصلاة والسلام على قطب مدار العالم ومركزه ، من رسمت أنواع الكمالات فى

(١) الفصل ص ٢٩٨ . (٢) راجع ص٣٢٣ وما بعدها .

حيزه ، وعلى آله ، أعمدة الشريعة الغرّا ، وأصحابه أساطين الناس طراً » .

يضع رفاعة بعدئذ موضوعه الذى يريد أن يكتب نصب عينيه ، فيقسمه أقساماً منسقة ، يمضى فى شرحها فى كتب وفصول ، ولكنه يميل إلى الاستطراد كلما دعا المقام إليه ، وقد يؤدى هذا الاستطراد بمنهج بحثه ، حتى يستره فى ثوب من الغموض والإبهام ، كما حدث ذلك فى كتابه : مناهج الألباب المصرية ، ولو أن رفاعة حذف هذه الاستطرادات من كتبه لبدت الفكرة أوضح وأقوى ، ولذلك ترى الفصول التى يكتبها بدون استطراد مشرقة منيرة ، لا إبهام فيها ولا غموض .

وعندما يكثر رفاعة من الاستطراد يضطر إلى ذكر عناوين جزئية على حافة الكتاب ، تدل على ما يتناوله بحثه من الفروع .

ولا يعنى رفاعة إلا نادراً بذكر مراجعه فى التأليف ، فلا يذكر لك ثبتاً فى أول كتابه أو آخره بما رجع إليه فى دراسته ، ولا يعين تلك المراجع فى أثناء بحثه إلا قليلاً . فهو من تلك الناحية يخالف النهج الحديث مخالفة بينة . ومما لا شك فيه أن رفاعة كان يرجع فى تأليف كتبه إلى مراجع فرنسية إلى جانب المراجع العربية[1] .

ولا يعنى كذلك ، بعرض آراء غيره ومناقشتها إلا قليلا ، فهو يعرض عليك مايرى أنه صالح لأن تأخذ به ، وأمّا ماعداه فلا شأن له به .

ولحب رفاعة للأدب وامتلاء وعائه منه ، كان كثير الاستشهاد بالشعر والحكم ومأثور القول ، يرى فى ذلك وسيلة لتعضيد رأيه والإيمان بفكرته .

وخلص رفاعة من تأثير كتب الأزهر فيه ، فى تآليفه المطوّلة ، وبعد تركه للأزهر ، فلم نره يميل كما يميلون إلى تأليف الموجزات تطبع عليها الشراح والحواشى حتى فى النحو ، وهو من علوم الأزهر الأساسية ، نراه يميل إلى البسط والإيضاح وتجنب الرمز والإشارة ، ولا يقلل من ذلك نظمه من الأجرومية ، فهو استجابة لميل قديم لم يحل بينه وبين اتجاهه الحديث فى التأليف « المبسط السليم » ، وكان رفاعة لا يألو تدليلاً على فكرته بالمنطق حينا ، وبالمأثور من الشعر والنثر حيناً آخر ويتناول العناصر المختلفة للموضوع ، حتى يرى أنه قد استوفاه من جميع جوانبه .

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٥ .

## مترجمــــــاته

كان رفاعة يرى عمله الأساسي فى الدولة هو الترجمة ، والقيام على شئونها ، يحن إليها فى كل عمل تولاه ، ويدعو أولياء الأمور إلى العناية بها ، فقد بهره ما رآه فى الغرب من علوم ضؤل حظها فى مصر ، أو لم يكن لمصر فيها من نصيب ، ورأى أن رقىّ بلاده لايكون إلا إذا نقلت تلك العلوم إلى اللغة العربية ، فصمم منذ كان فى باريس ، على أن يكون عمله بعد عودته إلى بلاده خدمتها ، بنقل العلوم العصرية إلى لغتها ، وقد تنوّعت الميادين التى ترجم فيها ، ونرى أن نتناول بالتفصيل الممكن تلك الجهود الموّفقة ، لنرسم صورتها بقدر المستطاع .

### فى الجغرافية

استرعت الجغرافية نظر رفاعة عندما كان بفرنسا ، ورأى عناية القوم بها ، وعرف فائدتها وأنها من مواد الثقافة العامّة التى لا بد منها لجميع التلاميذ[١] ، وأنها من أصول العلوم ، ولابد من معرفتها قبل الدخول فى المدارس الكبرى[٢] ، وأدرك جهل مصر بهذه المادة ، وكانت فرنسا قد أخذت تعنى بالجغرافية خاصة قبل سفر رفاعة إليها[٣] .

ومما استرعى نظره فيها هناك كتاب ألّفه ملطبرون Malt - Brun ( ١٧٧٥ — ١٨٢٦ م ) ، وهو جغرافىّ فرنسىّ من أصل دنماركى[٤] ، شهر فى فرنسا ببحوثه الجغرافية ، وبالمنهج الجديد الذى سلكه فى تأليفها ؛ فجعلها موضوعاً حياً مشوّقاً ، خلافاً لمن تقدّمه من جغرافيّى فرنسا ، وكان قد نشر سنة ١٨١٠ م

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٠ .

(٢) التعريبات الشافية ص ٥ .

(٣) محمد الصادق حسين .

(٤) Larousse P. 1516 .

الجزء الأول من كتابه القيّم : الجغرافية العمومية Géographie Universelle وأتمّ تأليف هذا الكتاب فى ثمانية أجزاء سنة ١٨٢٩م ورفاعة فى فرنسا[١].

ترجم رفاعة وهو فى باريس قطعة من هذا الكتاب[٢] ، لا أدرى من أى جزء هى ، فلما عاد إلى مصر ، وحلّ وباء بالقاهرة سنة ١٢٥٠هـ سافر إلى طهطا ، وترجم بها أحد مجلدات هذا الكتاب[٣] ، فى نحو سبعة أشهر[٤] ، ثمّ رجع به وقدّمه إلى محمد على ، فأعجب به ، كما قلنا — وأجزل له العطاء من المال[٥] ، وأنعم عليه برتبة[٦] . وفى سنة ١٢٦٢هـ انتهى من ترجمة مجلد آخر نال على إثر انتهائه من ترجمته رتبة أميرالاى ، فصار يدعى رفاعة بك[٧] .

وجعل رفاعة من أهدافه ترجمة هذا الكتاب ، ولا أدرى كم جزءاً أتم ترجمته ، وقيل إنه ترجم منه أربعة مجلدات ، ولكننى لم أعثر إلا على جزأين هما الأول والثالث ، وهما اللذان طبعا مما ترجمه[٨] .

• وترجم كذلك وهو فى باريس مقدمة جغرافية طبيعية[٩] لم أستطع العثور عليها ، وقد عرّف هذه الترجمة فى موضع آخر من كتابه تخليص الإبريز[١٠] بأنها مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافية الطبيعية . كما ترجم هناك أيضاً نبذة فى علم هيئة الدنيا[١١] ، وأغلب ظنى أن هذه النبذة هى التى ألحقها بكتابه تخليص الإبريز ، عندما تحدث عن موقع مدينة باريس[١٢] ، وقد شعر بأن إضافة هذه النبذة خروج عن الموضوع إذ قال : « ولنذكر هنا كيفية معرفه درجتى الطول والعرض من مكان من الأمكنة ، وثمرة ذلك ، وإن كان يخرجنا عما نحن بصدده » وبدأ هذه النبذة مبيّناً موضوعها بقوله : « اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كرويّة الأرض وأنها غير صادقة التكوير ، ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها

(١) محمد الصادق حسين . (٢) تخليص الإبريز ص ١٦٤ .
(٣) عصر محمد على ص ٤٨٥ . (٤) مقدمة الجغرافية العمومية ص ٢ .
(٥) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤ . (٦) عصر محمد على ص ٤٨٥ .
(٧) المصدر السابق ص ٤٨٧ . (٨) معجم سركيس نهر ٩٤٤ .
(٩) تخليص الإبريز ص ١٦٤ . (١٠) ص ١٦٥ .
(١١) تخليص الإبريز ص ١٦٤ . (١٢) ص ٤٠ .

صورة الأرض ، ولإمكان تقسيم الأرض وتسهيل معرفتها ، توهموا فيها دوائر أنصاف نهار ، ودوائر متوازية ، ومحوراً ، وقطبين ، ورسموها على صورتها المصطنعة » ومضى رفاعة يشرح ما أجمله من ذلك ، مطبقا عليه بموعد الظهر فى البلاد المختلفة . وقد تكون هذه النبذة هى التى وضعها فى كتاب التعريبات الشافية ، وسوف نتحدث عنها .

وينسب إليه مؤرخوه كتابين آخرين فى الجغرافية ، لم أستطع العثور عليهما : أحدهما كتاب جغرافية صغيرة طبع [1] فى بولاق سنة ١٢٤٦ هـ ، والثانى كتاب جغرافية عمومى فى كيفية الأرض ، طبع [2] فى بولاق أيضاً سنة ١٢٥٠هـ .

أما الكتابان الضخمان من مترجماته الجغرافية فهما كتاب الجغرافية العمومية ، وكتاب التعريبات الشافية لمريد الجغرافية .

ومما يذكر أن رفاعة بعد عودته من باريس قام بتدريس الجغرافية فى تجهيزية القصر العينى [3] وغيرها من المدارس .

## الجغرافية العمومية

خير ما نستطيع أن نصور به هذا الكتاب ، هو أن ننقل هنا ماذكره المؤلف فى أول كتابه ، يوجز به موضوع هذا الكتاب ، ويبين نهجه فى تأليفه ، وبذلك نستطيع أن نرسم صورة لهذا المؤلف الضخم ، وفى الوقت نفسه نتذوق لغة رفاعة فى الترجمة ، قال : « كيفية اختصار كتابنا مع توفية المقصود ، أن نبتدىء بصورة تاريخ تقدم الجغرافيا ، فنذكر هذا العلم من زمن كونه فى المهد ، أى قاصراً ، لايعلم منه إلا اليسير ؛ فنبين أن موسى عليه السلام ، وأوميروس اليونانى ، هما أول من أظهر صورة الأرض المعروفة عند الأمتين القديمتين : اليونان والعبرانية ، ثم سافر الملاحون من أهالى فينكيا ، بدلالة نور النجوم فى البحر الأبيض الرومى ، واستكشفوا

---

(١) معجم سركيس ج ١ ص ٩٤٤ .

(٢) حركة الترجمة ص ٥٥ .

(٣) راجع ص ٣٨ .

البحر المحيط ، و « هردوت » حكى لليونان ما رآه فى سياحته ، وما بلغه خبره . وكل من قبائل قرطاجنة الساكنين بالبلاد الغربية ، وأسفار بوثياس المرسيلى عرّفنا الغرب تعريفاً صحيحاً ، والشمال تعريفاً ظنّيا ، ونفر إسكندر الأكبر بالغزوات عرّف الأقاليم الشرقيـة ، ثم جاء الرومانيون ، فورثوا أكثر الاستكشافات التى ظفرت بها الأمم المتأدبون من القدماء ، ثم إن إراطستينس وأصحابه ، واسترابونيس وأتباعه ، وبانياس ومقلديه ، وبطليموس وجماعته ، أرادوا توفية هذه المواد التى كانت دائماً ناقصة ، ثم حصل رحيل الأمم الأكبر ، وأبطل جميع قواعد الجغرافيا القديمة ، ولم يعرف اليونان ولا الرومان أن الأرض أوسع مما كانوايظنونه فيها ، إلا قريب انقراضهم، ثم عقب انقراضهم زال ظلام ليل الجغرافيا على التدريج ، ولما تغيرت بلاد أوربا وتعلّمت العلوم تولّدت أصول جغرافيا جديدة ثم كثرت الرغبة فى السفر ، وتنبهت الأمم للسياحة ، فسافر السكندناوة إلى أمريكا ، والعرب إلى جزائر الملوك ، ولم يكن عندهم آلات اجتناء ثمرات هـذه الأسفار المبنـيّة على المخاطرة ، ولما كان أهالى إيطاليا والبرتغال أعلم من السكندناوة والعرب ، وكانوا مثلهم فى الشجاعة ، ساروا بواسطة بيت الإبرة فى أعلى البحر بغاية الأمان ، فسقطت من كل جانب الموانع التى أسستها الأوهام ، فـكانت سبباً فى تضييق أفق الجغرافيا ، فـكشف كلمب الدنيا الجديدة ، وشرعت الأمم جميعاً فى كشف المحال المجهولة الحال براًوبحراً ، وبسبب اجتماعهم فى القوة واتفاقهم على الأسفار، انكشف جميع الـكرة الأرضية للعلم ، إلا بعض خيالات يسيرة . . .

ثم بعد ذكر أزمان الجغرافيا نذكر قواعدها وأصولها العامة ، فنبحث عن أسبابها الرياضية والطبيعية والسياسية المسماة بوليتيقية ، فنستعير من علم الهيئـة ما يحتاج إلى معرفته بالنسبة لشكل الأرض وعظمها وحركتها ، ونستعير من علم الهندسة المسائل اللازمة فى صناعة رسم الأراضى والبحار رسماً صحيحاً ... ونذكر كيفية تحديد الأماكن ، ومقابلة المقاييس المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هى فيها .

ثم إذا وصلنا إلى ذكر طبيعة الأرض نتأمل فى الأشكال العظيمة الموجودة فى طبيعة الأرض ، كالجبال المضرّسة لسطحها ، والبحار المحيطة بها ، والأنهر والوديان

المحدِّدة عليها ، ثم ننزل إلى داخل الأرض فنذكر الكهوف والمعادن ، ثم ننظر فى أفواه جبال النار المدخنة ، فنذكرها ، وبالجملة فنذكر بنية الكرة ، ثم بعد معرفة حركات كرة الهواء ، وأحكام الحرارة والبرودة ، نوزع الحيوانات والنباتات وسائر المخلوقات المغتذية من خير الأرض كل واحد منها على رتبته الطبيعية ، ثم نذكر الإنسان بحالته الفطرية وحالته البوليتيقية ، ونرتّب أنواع البشر على رتب ، على حسب ألوانهم ولغاتهم التى يتكلمون بها ، وأديانهم التى تسليهم وتصبرهم ، أو تسترقهم ، وعلى حسب الشرائع والأحكام التى تدل على تقدمهم فى التمدّن أو كونهم على حالة البربرية ...

وهذه المقدمة التاريخية والمباحث الفلسفية فى الجغرافيا ، تملأ الجزأين الأولين من كتابنا ، والأجزاء الأخر تكون مخصوصة بتخطيط سائر أقسام الأرض على التدريج . . .

ومن اشتغالنا مدة خمس عشرة سنة بمطالعة الجغرافيا ودراستها ، تبين لنا أن مزج الجغرافيا بالأدب ... يفتح لها باب شريف العلوم التاريخية ، ويوصلها إلى محرابها بأحسن مما توصل إليه تلك الطرق الصعبة الغامضة ، التى لا يليق استعمالها إلا فى العلوم الرياضية ، وإنما تصدينا لأن نؤلف كتاباً بهذه المثابة ، لا دفتر سرد أسماء يشبه الفهرسة ، كما فعل بعض المؤلفين (١) .

فأنت ترى الكتاب يؤرّخ للجغرافيا ، منذ أن كانت فى المهد ، لا تعرف إلا جزءاً صغيراً من الأرض ، ثم يتبع نموّها جيلا بعد جيل حتى عصر المؤلف . كما أنه تحدّث عن الكتب التى ألفت فى الجغرافيا والمؤلفين فيها ، وذلك موضوع تاريخى مشوق ، تتبع فيه ما كانت الأمم تتصوره عن الأرض فى كل عصر وجيل ، وما بذله الكاشفون والرحالة من جهود ، وسّعوا بها دائرة المعارف البشرية ، وأناروا بأضوائها النواحى المظلمة المجهولة ، من جوانب هذا الكون ، ولم يدّع المؤلف أنّ الكشف قد قال كلمته الأخيرة ، ولم يعد ثمّة مجال للكشف عن مجهولات لم يعرفها العلم بعد ، بل هو يدعو من يمضى بالبيكارات الهندسية والنظارات

---

(١) الجغرافية العمومية ج ١ ص ٣ .

الفلكية ، والأسلحة الحربية ، ليكشف ما بقى مجهولا من الكرة الأرضية ، فهناك فى وسط بلاد آسيا ، المحاطة بجبال شاهقة كجبال الألب ، ماهو مجهول يحتاج إلى من يعرفه ، ليتمم تاريخ النوع البشرى ، وفى جزيرة هولندة الجديدة كثير من الأنهار والجبال المجهولة ، التى تنتظر من يضع لها أسماء تدل عليها ، كما أن أمريقة فى حاجة إلى معرفة حقيقة أمرها ، وهل تنتهى بعد امتدادها هذا ببحر القطب ، أولا تزال ممتدّة إلى ما لا نهاية فى برور قفرة ثلجية ، وشواطىء نهر الزّنج جهة تمبكتو ، ومنابع نهر النيل المجهولة فى حاجة كذلك إلى مخاطر كاشف(١) .

ومما يجدر التنويه به هنا ، أنّ المؤلف وهو يؤرّخ للجغرافيا ، عقد فصلا(٢) مطوّلاً ، ذكر فيه معارف العرب فى الجغرافيا ، وما أخذوه عن اليونان وجهودهم الخاصة فى تقدّم الجغرافية ، وما وضعوه من كتب ، ومما قاله فى ذلك : « ولنترك لحظات ذكر أوربا ، حيث صارت مقرّ الجهالات ، ونقول : إنّ أمماً غيرهم ، أشرقت عندهم أنوار العلوم ، وأينعت أزهارها ، وظهر التولع بالاستكشافات فى غير بلادهم ، من أقسام الأرض ، والجغرافيا التى يظهر أنها أشرفت فى أوربا على المحاق ، وتداعت إلى السقوط ، انتقلت إلى العرب ، واهتموا بشأنها ، وبذلوا الجهد فى تحصيلها ، ونجحت عندهم ، وهؤلاء الأمم التى أيقظهم محمد من الغفلات ، وأنقذهم من حيرتهم فى غياهب الجهالات ، جاوزوا حدود الأرض المعروفة ، وتوغلوا ، لا سيما فى أرض آسيا وإفريقة ؛ فالخلفاء فى صدر الإسلام ، وفتوحات البلاد بدينه ( عليه الصلاة والسلام ) أمروا أمراء جيوشهم وعمالهم ، أن يرسم كلٌّ منهم ، خطط البلاد التى فتحها واستولى عليها ؛ وفى سنة ٨٣٣ من الميلاد أمر المأمون أبناء شاكر ، أن يقيسوا درجة عرض فى صحراء سنجار بين الرّقة وتدمر ، فمسحوها ، ومسحت ثانياً بقرب الكوفة ، فبهذا توصل إلى معرفة مقدار مساحة الأرض . وقبل كرستف كلمب بمدّة ، خرج من مدينة اشبونة جماعة هائمون من العرب ، يقال لهم : المغرورون ، فركبوا البحر ، وساروا يبحثون عن

(١) المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .

الأراضي الغربية ، خلف بحر الظلمات المسمى : بالبحر المحيط الغربي ، ويسمى عند الإفرنج : البحر الأطلنطيق ، وسنتكلم على هذا السفر فيما يأتي ، ولكن قد استكشفت العرب ، في بحرى الهند والصين ، استكشافات أتمّ مما كان في بحر الظلمات ، فقد ظهر منهم راصدان ، بذلا وسعهما في التخطيط ، وهما الواقدى وأبو زيد ، فإنهما جابا أبعد بلاد آسيا ، التي سها عنها الأقدمون ، فخطاها من سنة ٨٥١ إلى سنة ٨٧٧ من الميلاد[١] » .

ولما انتهى المؤلف من الناحية التاريخية ، أقبل على أقسام الكرة الأرضية ، يتحدَّث عن كلّ قسم ، في إطالة وإسهاب ؛ وإذا اتخذنا الجزء الثالث المطبوع نموذجاً لما لم يطبع من بقية المجلدات ، رأيناه يدرس قارّة آسيا ، فيتحدث عن اسمها وحدودها ، وأقسامها الطبيعية العظمى ، ومناطقها الحارة والباردة ، وجبالها وأنهارها وبحيراتها ، وغير ذلك ، مما يدخل في الجغرافية الطبيعية ، ثم يتناول كل قسم من أقسام هذه القارّة ، فيتحدَّث عن طبيعة أرضه ، وما بها من معادن ، ونبات ، وحيوان ، وزراعة ، وتجارة ، ومن يسكنه من أجناس بشرية ، يصف شكلها ، وبنيتها ، ولغتها ، وأخلاقها ، ومساكنها ، وحالة معيشتها ، ودينها ، وعوائدها ، وقوانينها ، وحضارتها ، وملابسها ، وعيوبها ، وأغذيتها ، ونظمها في الزَّواج والموت ، وحياتها العسكرية والسياسية ، ومدنها ، وبخاصة الكبرى ، وما قد يكون لها من نظم ، في التربية والتعليم ، ولا ينسى أن يذكر شيئاً من تاريخها ، فهو بذلك يصف الأرض وما عليها ، ومن عليها ، ويعقّب ذلك بجداول ، منها ما يتحدَّث عن الأقسام السياسية للاقليم ، وعواصم هذه الأقسام ، وهو في هذه الجداول ، يضع في مقابلة الأسماء الحديثة ، ما كان لها من أسماء قديمة ، ولا ينسى أن يتحدَّث عما قد يكون هناك من كتب ، تناولت هذا الموضوع بالدراسة والوصف .

ومن هذا الوصف الموجز ، تبدو لك الحيوية القوية ، التي تتدفق في هذا الكتاب ، فهو بعيد كلّ البعد ، عن جفاف الإحصاءات الخالية من الحياة ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٢ .

وكان انتقاله من غرض إلى غرض ، مجدّداً شوق القارئ ، ومثيراً فيه رغبة التتبع والاستمرار فى القراءة .

والكتاب بعدئذ ، سجلٌ لما وصلت إليه الجغرافية ، من تقدُّم وازدهار ، حتى عصر المؤلف ، وبه نستطيع أن نقيس مدى التقدُّم ، الذى وصلت إليه الجغرافية فى عصرنا الحاضر ؛ ومما يلحظ ، أنَّ كثيراً مما كان يجهل فى عهده ، كمنابع النيل مثلا ، أصبح معروفاً عندنا .

وقد وضع المؤلف كتابه لمدرّسى هذه المادَّة ، ولطلبة المدارس العليا ، « بل يمكن أنه لا تسأم منه نفوس العامة الذين يريدون تعلم الجغرافيا من غير معلم ، وعسى أن يكون هذا الكتاب مقبولا عند الفلاسفة العظام » .

هذا ، ولم يشأ رفاعة أن يستر فضل من ساعده فى ترجمة هذا الكتاب ، وهو الشيخ محمد هدهد الطنتدائى ، فقد كان وهو يبيض هذا الكتاب ، يجد بعض عبارات يعسر فهمها على من لم يسبق له ألفة بهذا الفنّ ، فكان يشير عليه بتغيير هذه العبارات ، ويقترح عليه غيرها ، فيجيبه رفاعة عند ما يرى ضرورة هذا التغيير[1] .

وليس لرفاعة فى الكتاب سوى لغته العربية ، التى لا تخلو بعض جملها من الركاكة التى جلبها سرعته فى الترجمة . ولكننى عثرت فى الكتاب[2] على دفاع عن دين الإسلام ، أغلب ظنى أنه لرفاعة ، وهو مع دفاعه عن الإسلام ، لا ينكر ما عليه عوام المسلمين من التأخر والانحطاط .

ورفاعة فى هذا الكتاب ، يميل إلى الأسلوب المرسل ، الذى لا زخرف فيه ولا محسّنات ، وإن كنت ترى السجع فى بعض الأحيان ، يتسرّب هنا وهناك فى أنحاء الكتاب .

---

(١) الجغرافية العمومية ج ١ ص ٢ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٨٨ .

# التعريبات الشافية لمريد الجغرافية

هذا كتاب ، كان رفاعة يعتز به ، ويحيل عليه من يريد التوسع فى هذه المادة الحبيبة إليه [١] ، ترجمه رفاعة عند ما وكل إليه أمر فتح مدرسة للجغرافية والتاريخ [٢] ، وأغلب الظن ، أن هذه المدرسة التى أشار إليها رفاعة ، هى تلك الفرقة التى أسند إليه أمرها بمدرسة القصر العينى [٣] ، فلما وكلت إليه تلك المهمة لم يجد لديه شيئاً من كتب الجغرافية باللغة العربية ، يحتوى على التفصيل والترتيب على نسق ما فى الكتب الغربية ، ولهذا مضى إلى كتاب موجز فى هذا الفن موضوع لمدارس مبادىء العلوم ، فشرع فى ترجمته درساً درساً ، ولكنه رأى أن المؤلف قد أطال فى أوربا لأنها وطنه ، وأوجز فى غيرها ، ولهذا رآه رفاعة غير واف بالغرض منه ، فلخص من الكتب الأخرى التى كان قد اطلع على الكثير منها وهو بباريس ، ما يتمم به هذا النقص ، فجاء الكتاب متضمناً خلاصة كتب الجغرافية المطولة [٤] . وقد أهدى المترجم كتابه ، لأبناء محمد على وأحفاده ، وأمل ألا يقف النفع به عند حد فرقة الجغرافية ، بل يكون عليه مدار التدريس فى مدارس مصر ، وسائر بلاد الإسلام [٥] .

ذكر رفاعة فى مقدمة هذا الكتاب ، ضرورة دراسة الجغرافية ، ولا سيما لأرباب الدولة والسياسة المدنية ، وأصحاب الإدارة الملكية ، وكبار أهل المناصب وضباط الجنود ، وذوى الحرف والتجار ، ولا ينسى رفاعة الأزهرى صلة الجغرافية بالشرع ، فيرى أن كثيراً من مسائلها « تنبنى عليه أحكام شرعية ، وحكم وآداب عرفية... فهو لمثل هذا الغرض ، يعد عند أرباب الصناعة من المفترض [٦] »

---

(١) راجع كتاب الكنز المختار فى كشف الأراضي والبحار ص ١٤٣ ،

(٢) التعريبات الشافية ص ٣ .

(٣) راجع ص ٣٨ .

(٤) التعريبات الشافية ص ٣ .

(٥) و (٦) المصدر السابق نفسه .

كما أنَّ تأثير الأزهر والعلوم الحديثة ، يبـدو فيه حين يقول : « قد يتوارد عليك عبارات من فنى الهيئة والطبيعة ، يأبى اعتقادها علماء الشريعة ، ولـكن نذكرها على سبيل الحـكاية ، تأدية لحقّ الترجمة الصحيحة ، ولنمش عليها فى الحسابيات والعمليات لا فى الاعتقاديات[١] » .

قدم رفاعة لـكتابه بمقدمة بين فيها أقسام الجغرافيه ، فهي جغرافية رياضية ، إذا نظر إلى الأرض من جهة اعتبار شكلها وصورتها وسكونها أو حركتها ، ونسبة النجوم والـكواكب إليها ، وجغرافية طبيعية إذا درست الأرض من جهة طبقاتها الزراعية ، والمعدنية ، والبركانية ، ومياهها ، وما يخرج منها من المعادن والنباتات ، وما يعيش على وجهها من الحيوانات ، وجغرافية دينية إذا نظر إلى الأرض من جهة مادة الأديان والملل ، والمذاهب ؛ فإن لاحظتها من جهة اختلاف أحكامها وسياستها وتدبيرها ، سمى هـذا بالجغرافية السياسية ، وإن لم تر إلا آداب أهل الأرض وأخلاقهم وعوائدهم وطباعهم وأحوالهم ، فهذا مايسمى بالجغرافية الأدبيـة ، فإن لم يذكر فيه إلا التغيرات الواقعة فى أزمان مختلفة ، فهو الجغرافيا التاريخية أو علم تاريخ الأرض وأهلها[٢] ، قال رفاعة : « إن العلماء المعتنين بهذا الفن تفننوا فيه ، فمزجوا هذه الفنون ببعضها ، وجعلوها فناً واحداً ، وهو الجغرافية المعروفة الآن عند الإفرنج ، وهـذه الأقسام ستذكر فى هذا الـكتاب مختلطة أولاً ، وممتازة آخراً ، وقد أدخلنا فى هذا الـكتاب ما يحتاج إليه الحال من قوة الدول والملوك وإيرادها السنوى[٣] » . فأنت ترى ضخامة فـكرة الـكتاب ، ورغبـة رفاعة أن يجعله عاماً شاملاً .

أما منهجه فى عرض هذه المعلومات — وكان لرفاعة نوع من الحرية فى الترتيب ، لأنه لم يترجم كتاباً واحداً ، بل لخص عدة كتب ، كما ذكر — فأن يتحدث عن ولايات كل قارة ، وبحارها ( وبوغازاتها ) ، وخلجانها ، وجزائرها ، وأشباه

---

(١) المصدر السابق ص ٦ .

(٢) التعريبات الشافية ص ٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٥ .

جزأرها ، وبرازخها ، ورءوسها ، وجبالها ، وبراكينها ، وبحيراتها ، وأنهرها ونهيراتها ؛ ثم يعود إلى كل ولاية ليذكر أقسامها ومدنها ، ثم يعود بعدئذ إلى كل قارة فيذكر مجموع سكانها وحدودها ومساحتها ، ويصف طبيعة أرضها ومناخها وخصب أرضها ، وحيوانها ، ونباتها ، ثم يتناول كل ولاية على حدة ، فيتناول عدد أهلها ، وشيئاً من تاريخها ، ويصفها أوصافاً عامة ، ويبين أقسامها ، ويتحدث عن مدنها ، وخصائص هذه المدن ، ويعود إلى الجغرافية الطبيعية لكل ولاية ، ويسجل قوتها العسكرية وماليتها .

وأطال رفاعة الحديث فى بلاد العرب ، عندما تحدث عنها قسما من قارة آسيا ، وذكر بهذا الفصل [١] كثيراً من الفوائد الجغرافية والتاريخية والأدبية ، كما كان الفصل الذى كتبه عن مصر [٢] أكبر فصول الكتاب ، فاستطاع بذلك رفاعة أن يجعل معلومات الطالب المصرى غزيرة بالنسبة إلى بلاده ، أكثرمنها بالنسبة إلى غيرها من البلاد ؛ ومما يذكر أنه سجل عدد المصريين فى عهده ، فأنهاهم إلى أربعة ملايين [٣] ، وذكر أن قوة مصر العسكرية يومئذ ، تنوف على مائة وخمسين ألف مقاتل [٤] ، ومما يذكر أيضاً أن منابع النيل لم تكن معروفة على وجه التحديد يومئذ [٥] .

وخصّ رفاعة عادات السودان بفصل [٦] ، وكشف أمريكا بفصل آخر [٧] .

ولما انتهى من الحديث عن القارات على النهج الذى وصفناه — أخذ يتحدث عن علم الهيئة وصلة الأرض بهذا الكون ، فوصف الحركة اليومية للأرض ، وخطوط الطول والعرض ، والحركة السنوية ، والقمر وكسوفه ، والنجوم الثوابت ، واليوم النجمى ، وفروق السنة الشمسية والقمرية .

وفى القسم الثالث من الكتاب تحدّث عن طبيعة الأرض ، فوصف سطحها ، وجبالها ، وبراكينها ، وأحجارها ، ومعادنها ، ومياهها ، وهواءها ، ورياحها ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٢) ص ٢٠٩ .
(٣) ص ٢٣٤ .
(٤) ص ٢٣٩ .
(٥) راجع ص ٢١٠ .
(٦) ص ٢٦٠ .
(٧) ص ٢٦٥ .

ونباتها ، ومعادنها ، وحيوانها ، وفى القسم الرابع تكلم على الجغرافية الدينية ، والسياسية ، واللغات ، والألسن .

وختم الكتاب بطريقة رسم المصوّرات الجغرافية ، وذيّله بجدول يشتمل على الألفاظ الاصطلاحية المستعملة فى الجغرافية بأنواعها ، وسوف نتحدّث عنه فيما بعد .

ولما عرض رفاعة كتابه على محمد علىّ أمر بطبعه ونشره لتعميم نفعه[1]، وطبع ببولاق سنة ١٢٥٠ هـ ( ١٨٣٨ م ) ، وطبع للمرة الثانية سنة ١٢٥٤ هـ مما يدل على ما لقيه هذا الكتاب من إقبال عليه ، وأغلب الظن أنه كان من الكتب التى تدرس فى هذه المادة بالمدارس المصرية ، كما ظفر بتقدير الدارسين .

وقد تأثر أبو السعود أفندى أحد تلامذته ، أستاذه فى العناية بالجغرافية ، ورأى أنّ أحوال هذا العالم سريعة الانتقال والتغيّر ، مما يحتاج إلى من يقف بالمرصاد ، لتسجيل هذه التغيّيرات والانتقالات ، حتى لا يقف هذا العلم ، بينما العالم يسير ، فألّف كتاباً سماه : الدّرس المختصر المفيد فى علم الجغرافية الجديد ، قال فى مقدمته : « وكان قد سبقنى فى انتهاج هذا المنهاج .:. فى منتصف هذا القرن الأخير ، وأول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير ، حضرة أستاذى رفاعة بك أفندى الشهير ، وهو وإن كان لم يزل له فضل السبق ، وكان بالاحترام والتبجيل أحقّ ، ... غير أنه لما كان هذا العلم عبارة عن استقصاء حقيقة أحوال هذا العالم السريع الانتقال من حال إلى حال ... احتاج هذا العلم لمن يقف له بالمرصاد ، ويبذل فى خدمته على الدوام ، كالحاصل فى البلاد المتمدنة كل الاجتهاد ، فلذلك قفوت من أستاذى الأثر ، وحذوت حذوه فى شقة ذلك السفر ... وإذا كان أستاذى حفظه الله ، قد أتى من هذا الأكل بالبا كورة ، فقد أتيت بوفرة الثمر ... وعسى أن يأتى بعدنا من يقوم للخطة المصرية ، بواجب هذه المادة الضرورية[2] » .

أدّى كتاب التعريبات الشافية رسالته فى عصره ، ولا يزال إلى اليوم نعدّه

---

(١) عصر محمد على ص ٥١٣ .

(٢) الدرس المختصر المفيد ص « خ » .

مرجعاً لتاريخ الجغرافيا ، نعود إليه ، لنرى مدى ما كان يعرفه ذلك العصر عن الكوكب الأرضى ، وصلته بهذا الكون .

# فى التاريخ

ما عرفنا أن رفاعة ترجم فى هذه المادة قام بترجمته وهو فى باريس ، وقد تحدث هو فى كتابه : تخليص الإبريز عما عرّبه من الموضوعات التاريخية ، وهى نبذة فى الميثولوجيا ، ونبذة فى تاريخ الإسكندر الأكبر ، وتقويم سنة ١٢٤٤هـ (١) ، أما ماينسب إليه من أنه ترجم كتاباً فى تاريخ المصريين القدماء ، فأغلب ظنى أنها نسبة غير صحيحة ، فإن مؤرخيه قد ينسبون إليه ما ترجمه تلاميذه من كتب ، وأشرف هو فحسب على هذه الترجمة ، والراجح لدىّ أن هذا الكتاب ليس شيئاً آخر غير كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء ، الذى ترجمه بعض تلاميذ مدرسة الألسن ، وأشرف رفاعة عليهم ، ففى هذا الكتاب حديث عن تاريخ قدماء المصريين ، ومما يقوّى لدىّ هذا الظن أن الكتاب المنسوب إلى رفاعة أرّخ طبعه بسنة ١٢٥٤ هـ ، وهى سنة طبع كتاب بداية القدماء ، كما سيأتى .

أما الميثولوجيا ( Mythologie ) التى ترجم رفاعة نبذة منها ، وعرّفها هو بأنها جاهلية اليونان وخرافاتهم — فالراجح عندى أنه لم يطبع ماترجمه منها ، ولعله اكتفى بهذه الترجمة التى قام بها بعض تلاميذه للميثولوجيا اليونانية ، فى كتاب بداية القدماء ، وقد حدثنا رفاعة عن بعض هذه الخرافات فى كتابه : تخليص الإبريز (٢) ، عندما تحدّث عن هرقول ( Hercule ) وأنه من فحول الرجال الذين يعبرون عنهم بأنصاف الألهة ، ويعتقدون أنهم متولدون بين الإله جوبتير Jopiter ، وبشر ، هى الملكة الكمينة Alcméne ويوازن رفاعة بين هذه العقيدة وعقيدة العرب ، فيمن ولدوا بين سعلاة وإنسان ، أو بين ملك وإنسان ، أو بين الجن والإنس .

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٦٤ . (٢) ص ٢٤ .

وأما النبذة فى تاريخ الإسكندر فأرجّح أنها لم تطبع كذلك ، وأغلب ظنى أنه قد وضعها هى بنصها ، أو اقتبس من معارفها ما أرّخ به للاسكندر فى كتابه مناهج الألباب المصريه[1] ، حيث أرّخ لأبيه ، وما أدخله على العسكرية من نظم ، وحربه للعجم وقتله ، وتربية أرسطو للاسكندر وفتوحه وحروبه ، حتى توفى فى عنفوان الشباب ، ونقل رفاعه أنه يغلب على ظن أرباب المعارف أن قبر إسكندر بقرب المحل المسمى نبىّ الله دانيال ، أو هو هو[2] .

وأما تقويم سنة ١٢٤٤ هـ فهو من تأليف مسيو جومار Jomard ، ألّفه لاستعمال مصر والشام ، ليعين به على حسن تمدّن البلاد المصرية ، ولم أر هذا التقويم ، ولكن رفاعة ترجم فى كتابه : تخليص الإبريز مقدّمة هذا التقويم ، وهى تدل على ما يحتوى عليه ، وهو عدّة أمور مهمة ، أوضحها بقوله : الأمر الأول : الدّلالة على تقدّم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أوّلها لآخرها . الثانى : تجارة أهالى أوربا وآسيا وإفريقية ، كقوافل بلاد البربر ، ودارفور وسنّار وبلاد الحجاز ... الثالث : ذكر أمور الزراعة ، فإنها كانت سبباً فى سالف الأعصر فى غنى أهل مصر . . . الرابع : نتكلم على أمور مختلفة من علوم الطبيعة ، ومن علم المواليد الثلاثة ومن العلوم الرياضية ... الخامس : يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها ، وغنى أهلها ، وعلى أحوال المعاش . المعاد ، وعلى ولادة الذكور والإناث فى كلّ بلدة من البلاد ، وعلى الإدارة الملكية ، وعلى الأصول العامة المستعملة أساساً لسياسات الإفرنج ،وهى الحقوق العقلية ، والحقوق القانونية ،والحقوق البشرية ، أى الحقوق التى للدّول بعضها على بعض . السادس : سياسة الصحة العمومية والخصوصية ... السابع : نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم... وفيه نتكلم أيضاً على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة ، ونبذات فى تواريخ البلاد . . . والثامن . . . وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية ، وإقامة العربات العامة ،وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ... وبالجملة

---

(١) ص ١٩٦ . (٢) مناهج الألباب ص ٢٠٦ .

فنذكر نبذاً صغيرة متشعّبة من أصول عظيمة ، ومستفادة من أفواه الثقات ، سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئاً من أصحاب الكتب [١] اهـ .

فانت ترى أن هذا التقويم تاريخ لجميع ألوان النشاط فى مصر : صناعياً وزراعياً وتجارياً ، ومايدور فى مصر من ألوان التقدّم الصحىّ ، والعلمىّ ، والأدبىّ ، والمالىّ ، وهو جدير إذا استمر نشره كل عام أن يتكوّن منه تاريخ دقيق لتلك الدّيار ، ولكن المؤلف لم يستمر فى إخراج هذا التقويم سنويا ، بل لم يخرج منه سوى تقويم ١٢٤٤ هـ ، ولعله كان يريد أن يجعله نموذجاً لما سيقوم به من تقويم فى كل عام ، ولكن محمد على لم يشجعه .

وترجم رفاعة فى التاريخ أيضاً مقدمة كتاب فى تاريخ مصر ، وضعه أستاذه يعقوب (Agoub) ، وهى تتحدث عن فوائد دراسة التاريخ ، وقد ترجمها بكتاب تخليص الإبريز [٢] بمناسبة التحدث عن العلوم المختلفة ، ولكنها تشتمل على قصر نظر ، عندما تحدث عن مصر وسكانها ، فقد قالت : إن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنساً من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون إلى عدّة جنوس مختلفة ، من بلاد آسيا وإفريقية ، فهم مثل خليط من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم ، لا تتقوّم منها صورة متحدة ، بها يعرف كون الإنسان مصريا » ؛ فالدّارس لتاريخ مصر القديم والحديث ، يؤمن بأن الجنس المصرىّ لا يقلّ صفاء عن أى جنس آخر .

هذا كل ما عثرت عليه من مترجماته فى التاريخ ، وكان رفاعة مصمما يوم عاد إلى وطنه ، أن يدأب على نقل التاريخ من الفرنسية إلى العربية [٣] ، ولكنا نرى أنه لم يقم فى مصر بترجمة شيء فى التاريخ ، فلعله قام بترجمة بعض كتبه من غير أن أقف حتى على أسمائها ، أو أنه وجّه جلّ عنايته إلى الجغرافيا ، مكتفياً فى التاريخ بما قام به تلاميذه ، من ترجمة مختلف كتبه كما سنرى .

---

(١) تخليص الإبريز ص ٢١٩ .
(٢) ص ٢٠٥ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٢٠٧ .

## فى السياسة والاجتماع

كذلك ما عرفنا أنه ترجمه فى السياسة والاجتماع — ترجمه وهو فى باريس ، فمن ذلك دستور فرنسا ، وكان لزاماً عليه أن يترجمه عند الحديث على الحياة السياسية لفرنسا ، فى كتاب تخليص الإبريز [١] ، وقد تضمن هذا الدستور عدّة مقاصد : الأول فى الحقوق العامة للفرنسيين من حرية ومساواة ، والثانى فى كيفية تدبير المملكة ، وتوزيع السلطة بين الملك ، ومجلس النبلاء ، ومجلس النواب ، والثالث فى مجلس النبلاء ( Chambre des Pairs ) ، والرابع فى مجلس النواب ( Chambre des Députés ) ، والخامس فى الوزراء ، والسادس فى طبقات القضاة، والسابع فى حقوق الرعية ، ولم يكتف رفاعة بترجمة الدستور ، ولكنه علق على بعض مواده كما سنرى .

وترجم ، وهو فى باريس أيضاً ، كتاب أصول الحقوق الطبيعية التى يعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم . واسم الكتاب بالفرنسية Le Droit Naturel لمؤلفه Burlamaqui وكان هذا الكتاب من بين ماقرأ وهو فى باريس [٢] .

وطبع له من مترجماته بباريس فى الاجتماع كتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر ، ويحسن أن نخصه بكلمة .

## قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر

فى تخليص الإبريز [٣] أن رفاعة وهو فى باريس ترجم كتاباً دعاه : دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها ، ولم أعثر على كتاب له بهذا الاسم ، فلما رجعت إلى كتاب قلائد المفاخر [٤] ، رأيت أنه ترجمه وهو بباريس، فى حين أن هذا الاسم لم

---

(١) ص ٧٤ .

(٢) Les Penseurs de L' Islam. V. P. 242

(٣) ص ١٦٤ . (٤) ص ٣ .

يرد بين أسماء كتبه التى ترجمها هناك ، ولما كان الموضوع الذى يدل عليه العنوانان واحداً رجحت أن العنوانين يدلان على كتاب واحد ، سماه رفاعة عندما ترجمه سنة ١٢٤٥ هـ : دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها ، ثم آثر بعد عودته إلى مصر وعند طبعه سنة ١٢٤٩ هـ [١] أن يضع له عنواناً مسجوعاً . أما اسم الكتاب الذى وضعه له مؤلفه دبنغ [٢] Depping فهو [٣] (Mœurs et Usages des Nations) أخلاق الأمم وعوائدها .

ولم ينقله رفاعة إلى العربية بتمامه ، بل حذف ما ذكره مؤلف الكتاب من الحط والتشنيع على بعض العوائد الإسلامية ، أو مما لاثمرة لذكره ، ذلك أن الكتاب لم يقتصر على مجرد نقل العوائد ، بل هو مشتمل على استحسان أو استقباح بعضها [٤] .

وقد رتبه المصنف على مقالتين ، تحتوى أولاها على أحد عشر فصلا ، وتحتوى الثانية على خمسة عشر :

ذكر فى الفصل الأول [٥] من المقالة الأولى أصناف السكنى ، واختلاف العوائد فيها منذ العصور الأولى ، ومما أثبته فى هذا الفصل أنه إلى الآن « لم يعلم أحد يستغنى عن السكنى ، إلا أهل جزيرة الفلمنك الجديدة ، فى البحر المحيط الأكبر ، فإنهم كالوحوش إلى الآن ، على أصل الفطرة ، وإذا غلب عليهم الليل ، رقدوا على حشيش بشاطىء البحر ، ومنهم من يرقد على شجر الغابات » .

وفى الفصل الثانى [٦] ، تحدث عن اختلاف عوائد الناس فى المئونة ، فكل أمة تتعاطى من القوت ما تقدر عليه مما يسوغ لها تعاطيه ، وأورد ما يستحسنه الأقوام المختلفون من أنواع الأغذية ، فسجل أن هناك قوماً يستحسنون أكل سائر الحيوانات كالفأرة والهرة ، والكلب والضب ، والثعبان والخفاش ، وما أشبه ذلك ، وقد علق رفاعة فى هذا الفصل على مدح المؤلف لطعام الفرنسيين بقوله : « ولمترجم هذا الكتاب أن يقول : جميع ما تقدم من مدح الأطعمة الفرنساوية

---

(١) قلائد المفاخر ص ١١١ و ١١٢ .
(٢) تخليص الابريز ص ١٥٨ .
(٣) معجم سركيس ج ١ نهر ٩٤٥ وراجع أيضا حركة الترجمة ص ٢٥٥ بالهامش .
(٤) قلائد المفاخر ص ٣ .   (٥) ص ٤ .   (٦) ص ٨ .

فهو بالنسبة إلى الذوق غير السليم ، والطبع غير المستقيم ، فهو فى الواقع ونفس الأمر ، كلام خرافة يا أم عمرو ، كيف وقد ذقته ، ورفضت قياسه بطعام مصر ، وما قبلته[١] » وأخذ يعدد مساوئ هذه الأطعمة .

وفى الفصل الثالث[٢] يشرح اختلاف العادات فى الملبس والزّى ، فيصور لك أقواماً عرايا ، يصبغون وجوههم بالسواد والحمرة ، وأخرين يدهنون أجسادهم بشحم مشوب بطين أحمر ، وفى مصر وغيرها من بلاد الشرق ، تخضب النساء الأظافر والأكف بالحناء ، ونساء الصين يجعلن من جمالهنّ تطويل الأظافر ، حتى زعم بعض الناس أنّ لأظفارهنّ غلافات لتحفظها عن السقوط ؛ فهو فصل يعدُّ معرضاً لألوان الجمال ، كما تراه الأمم المختلفة .

ووازن فى الفصل الرّابع[٣] بين الأمم المختلفة من حيث اعتناؤها بالنظافة ، فأعظمهم اعتناء بنظافة المنازل أهل الفلمنك ، فترى فى مدائنهم غالب مسالك حاراتهم ، مبلطة بالحجر الأبيض المتعهد بالتنظيف ... وهى قليلة فى فرنسا وألمانيا ، ووازن بين الأمم المختلفة فى مدى محبة بنيها للنظافة .

وأبان اختلاف عوائد الناس فى الزّواج وحفلاته فى الفصل الخامس[٤] ، وتجد فى هذا الفصل تصويراً فيه كثير من الدّقة والحياة .

أما الفصل السادس[٥] ، فعرض فيه موقف الأمم المختلفة من المرأة ، وصدّر هذا الفصل ببيان موقفه هو من المرأة ، فقال : « كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم ، وظرافتهم ، فعدم توفية النساء حقوقهنّ ، من عدم الحجر عليهم حجراً كلياً ، فيما ينبغى لهنّ الحرّية فيه ، دليل على الطبيعة البربرية ، وقد عهد أنّ شدّة انطلاق النساء من الحجر وضعفه ، يصدر بعضها عن طبيعة الإقليم ، وما يتولد فيه من القوة الصادرة عن الغيرة ، وما بقى عن الشرع أو العادة » . ولست أدرى إن كان المؤلف أو المترجم هو الذى عدّ من محاسن الإسلام أنّ الله سبحانه وتعالى « قد أودع فى قلب الرّجل الغيرة على نسائه ، حتى جعل سبحانه وتعالى

---

(١) ص ١٣ . (٢) ص ١٤ .

(٣) ص ٢٠ . (٤) ص ٢١ .

(٥) ص ٢٧ .

سائر بدن الحرّة عورة بالنسبة للأجنبى ، فلا يحلّ لها كشفه عليه ، ولا يحلّ له نظرها أيضاً ، فلذلك كانت نساء الإسلام مصونات فى بيوتهن ، سيدات على غيرهن"(١)» . وتحدّث كذلك عن بعض البلاد التى تهب للنساء من الحرية فى صلاتها بالرجل ما ينكره الذوق السليم ، وعن الصلات الجنسية ونظرة الأمم إليها ، والطلاق ، واختلاف الناس فى رفضه أو استساغته ، وموقف المرأة من الحرب .

وفى الفصل السابع (٢) بيّن موقف الآباء فى الأمم المختلفة من أبنائهم ، فبعضهم يبيع ذريته ، وبعضهم يذبحهم أو يتركهم فى الطرق العامة ، ووصف عادتهم فى تربية الأطفال ، والاحتفال بولادتهم ، وما أنشأته بعض المدن من ملاجئ للأيتام واللقطاء .

أما الفصل الثامن (٣) فخصّ به الشيوخ والمسنّين ، وموقف أممهم منهم ، فبينما نراهم فى البعض أمناء على الشرائع والأحكام ، إذا ببعض الأمم المتوحشة تعجل بقتل الهرم العاجز عن كسب قوته ؛ ومما أورده فى هذا الفصل من غريب العادات فى بلاد الهند ، أنه لو كان لإنسان دين على آخر وعجز عن تخليصه ، أو كان له مظلمة ، ولم ينل منها مقصوده ، بعث إلى دار غريمه : المدين أو الظالم موقداً مشعولاً بالنار ، وامرأة عجوزاً ، ربّما كانت أمّ ذلك الدائن أو المظلوم أو من أقاربه ، فتنذر نفسها للاحتراق بهذه النار ، وتنشر اللعنة على أهل بيت الغريم ، وتوعدهم بأنها لاتبقى لهم راحة فى الدنيا ولا فى العقبى ، فتارة يتشاءم الغريم من احتراقها ، ويأخذه الرعب ، فيسارع إلى وفاء الحق ، أو استسماح الخصم ، وتارة ينكل ، فتلقى نفسها فى النار فتحترق ، فيسقط أهل البيت دائماً من أعين الناس ، ويصيرون مجتنبين ، حتى إن سائر الناس تعتقد أن غضب الله تعالى حلّ بأهل هذا البيت إلى أبد الآبدين .

وفى الفصل التاسع (٤) وصف اختلاف الناس فى تكريم موتاهم ، وتشييع جنائزهم ، فعند بعض الأمم إذا مات ملك أو أمير غنى ، ذبحوا بعض عبيده على قبره ،

---

(١) ص ٣٠ . (٢) ص ٣٦ .

(٣) ص ٣٨ . (٤) ص ٤٠ .

ليدفنوهم إكراماً له ، وسجل فى هذا الفصل ما يقال من أنه ليس من القدماء من كان يهتمّ بأمور الأموات كقدماء المصريين ، وهنا أطال فى وصف تحنيط الموتى وقبورهم بوادى النيل ، ووازن بين قوم لهم اعتناء بتجهيز موتاهم ودفنهم ، وبين مجوس فارس الذين يغرون الطيور ، التى تأكل اللحم عليها لتأكل لحمها ، فإذا مات الميت وضعوه فى حفرة مكشوفة تحت السماء ، فتأتى الطيور وتأكل اللحم ، وتبقى العظمات ، فيأخذ أقارب الميت أو أحبابه هذه العظمات .

وتحدث عن صيد البر والبحر ، وأنه عند قوم ضرورة ، وعند آخرين نزهة أو رياضة ، وذلك فى الفصل العاشر [١] . وفى هذا الفصل معرض لأنواع من الحيل اخترعها الإنسان ، لصيد الحيوانات التى تفوقه فى الأيد والبطش ، كصيد الفيلة فى بلاد الهند مثلاً .

وفى الفصل الحادى عشر [٢] عرض ألوان التبادل التجارى ، وأنواع النقود فى الأمم المختلفة .

والمقالة الثانية فى أخلاق الأمم وعوائدهم ، وفيها خمسة عشر فصلا :

الأول فى ألوان اللعب ، وأنواع الرياضة البدنية ، وأطال فى بيان هذه الألعاب .

ووازن فى الفصل الثانى [٣] موازنة عابرة بين موقف الأمم من الشعر والموسيقى ، ومما جاء عن العرب فى هذا الفصل قوله : « وعرب البادية ، والمغاربة ، يميلون إلى نظم الشعر ، واختراع الأحدوثات المضحكة التى فى معنى ألف ليلة وليلة ، والتى ترجمها الإفرنج من العربية إلى ألسنتهم ، ومن العرب أناس معدون لحكاية القصص فى المجالس ، ومشهورون بكثرة الهذر وسماع الحكايات المصنّفة ، هو نزهة أهل هذه البلاد ، وذلك أن عرب البادية أو القرى ، يمضون نهارهم فى الكدّ وحرّ الخلا اليابس المحرق ، فإذا دخل الليل ، واستراحوا بطراوة الزمن ، اجتمعوا تحت الخيام وحول النار ، ليشووا عليها ذبيحة ، أو يغلوا قهوة ، واحتاطوا حول واحد منهم ، يحفظ القصص ، ليحكى لهم مدة سويعات حكايات فى معنى قصة

---

(١) ص ٤٤ .
(٢) ص ٤٧ .
(٣) ص ٥٦

ألف ليلة وليلة ، وفى قهاوى إسلامبول ، وأزمير ، ودمشق ، والقاهرة ، وغيرها من الأمصار محدِّثون يسلون من يجتمع عليهم كل ليلة .

وتحدث فى الفصل الثالث [1] عن الخط والكتابة عند الأمم المختلفة ، وفى الرابع [2] عن الرقص ، وفى الخامس [3] عن التمثيل ، وخصّ الفصل السادس [4] بعادات الأمم فى أعيادها ومواسمها ، والسابع [5] بطرق الأمم فى تحاياها .

وبيّن فى الفصل الثامن [6] مذاهب الأمم فى إكرام ضيفها ، وذكر ما للعرب من فضيلة الكرم ، حتى إن أهل البدو ، حين ينزل عندهم الضيف يذبحون له ذبيحة ، ومنهم من يغسل له رجليه ، ويتقاسم معه خبزاً وملحا ؛ ولكنه إلى جانب ذلك سجّل ما كان من إضرارهم بالمسافر فى المفازة ، وسلب جميع ما عليه من الثياب ، لا يرق قلبهم لشكواه ، ولا لبكائه .

أما الفصل التاسع [7] ، ففى الرِّق ، ولما ترجم رفاعة قول المؤلّف : « من المعلوم أن النفس تميل دائماً إلى الحرية التى هى أعظم ما فى يدى الإنسان » . قال — فى أغلب الظنّ — . « ولذلك ندب إليها الشارع صلى الله عليه وسلم » . ومضى يتحدث عن أسباب الاسترقاق عند الأمم المختلفة ، ومعاملتهم للأرقاء .

وفى الفصل العاشر [8] قصّ كثيراً من العقائد الفاسدة ، والبدع والأوهام المنتشرة فى كثير من الأمم ، فلا تكاد توجد أمة لا تنمو فيها هذه الأباطيل ، وإنما يضعف أثرها بانتشار نور العلم والعرفان ، ولحظ المؤلف أن الضلالات أكثر انتشاراً فى القرى منها فى المدن ، وأنها مانعة من التقدّم فى العلوم والفنون ، ومما قاله : « إن الإفرنج كانوا يعتقدون فى سابق الزمان وجود السحر والشعبثة ، ومن منذ ثلاثة قرون بطل عندهم هذا الاعتقاد ، وصاروا لا يعتقدون شيئاً خارقاً للعادة أصلا ، فالعادة لا تتخلف على رأيهم أبدا ، وسائر الأشياء تدور مع الحكم الطبيعى أينما دار [9] » .

---

(١) ص ٦٢ . (٢) ص ٦٤ .
(٣) ص ٦٦ . (٤) ص ٧٠ .
(٥) ص ٧٥ . (٦) ص ٧٩ .
(٧) ص ٨١ . (٨) ص ٨٥ . (٩) ص ٨٨ .

وتحدّث فى الفصل الحادى عشر (١) عما اعتاده بعض الأمم المتوحشة من أكل اللحم الآدمىّ ، وموقف الأمم المختلفة من الحرب وآلات القتال .

وفى الفصل الثانى عشر (٢) وازن بين الأمم المختلفة فى نظرتهم إلى العقوبة ، ومنهجهم فيها ، وصدَّر هذا الفصل بقوله : « إنما شرعت الحدود فى سائر الشرائع حذراً من هتك حجاب الشريعة ، وقد جرت العادة فى سائر الأماكن أن من عمل صالحاً يوكل جزاؤه إلى الدّار الآخرة ، ولا يجازى بشىء فى الدار الدنيا ، بخلاف من عمل سيئة فإنه يعاقب عليها فى الدنيا لينزجر غيره وتحسن أحوال الخلائق » .

ونقل عادة عن العرب فى العقوبة لا أدرى مدى صحتها ، إذ قال : « والعرب إذا قتل منهم إنسان ، واتهموا شخصاً بقتله ، فلا يبرأ المدعى عليه إلا إذا لمس حديدة محماة فى سخونة محمصة البنّ ، فيسخن القاضى الحديدة وينفخ عليها ، ويعطيها للمدعى عليه يضع لسانه عليها ، فإن وُجد لسانه غير محروق فإنه تتبين براءته ، ويلتزم له المدعى ببعير ليجبر ما رماه به فى ادعائه عليه ، فإن كان لسانه محروقا ، كان مستحقاً للقتل إلاّ إن عفت عنه عيلة القتيل على قدر معلوم » .

أما الفصل الثالث عشر (٣) فلبيان الطبقات الاجتماعية عند الأمم ، ومما يسترعى النظر فى هذا الفصل ، أن أسماء قبائل أمريكة الشمالية ، تشبه أسماء قبائل العرب ، فتجد قبيلة تسمى ( رونرد ) يعنى بنى ثعلب ، وقبيلة ( قستور ) يعنى بنى كلب ، وقبيلة ( بفل ) يعنى بنى جاموس .

وتحدث في الفصل الرابع عشر (٤) عن الملوك ، وقد حذف من هذا الفصل ما وصف به ملوك الإسلام ، فلم يترجمه رفاعة ، وكان أولى به أن يترجمه ، حتى نعلم وجهة نظر الفرنج فى سياستنا وملوكنا . وختم المؤلف كتابه بفصل ذكر فيه جملة عوائد مختلفة .

فأنت من ذلك ترى الكتاب عرضاً موجزاً لغرائب الأحوال الاجتماعية بين الأمم .

---

(١) ص ٨٩ . (٢) ص ٩٤ .
(٣) ص ٩٩ .
(٤) ص ١٠٥ .

وبدأ رفاعة هذا الكتاب بقاموس صغير ، سوف يكون محل دراستنا ، عندما نتحدث عن جهود رفاعة اللغوية .

ومما هو جدير بالذكر هنا ، أن مؤلف الكتاب طلب أن يقيد اسمه ، لدى رفاعة ، « لتحصيل عدّة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء » بعد أن يتم طبع الترجمة (١) .

## فى الصحة والطب

كان مما ترجمه رفاعة ، وهو فى باريس ، وتقدم به للامتحان النهائى نبذة في علم سياسات الصحة (٢) ، ولم أستطع العثور على هذه النبذة مستقلة ، وأغلب ظنى أنه ألحق هذه النبذة بكتابه تخليص الإبريز ، فقد قال مقدماً لهذه النبذة : «ولنذكر لك نبذة من فنّ قانون الصحة وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة ، وهذه النبذة ترجمتها فى باريس ، لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهى وإن كانت تخرجنا عمّا نحن بصدده ، إلا أن منفعتها عظيمة ، وثمرتها جسيمة » ، وأغلب الظن أنه ألحقها بكتابه ، بعد عودته إلى مصر ، فى الفصل الذى عقده لاعتناء باريس بالعلوم الطبية .

تناولت هذه النبذة أموراً عدة ، فمنها فصل ضمنه نصائح لصحاح الأبدان ، وآخر لما يصنع حينما يأخذ المرض فى الظهور ، وثالث لما يصنع حين ظهور المرض ، ورابع لمعالجة الناقه ، وخامس فى وصايا عامة على الصحة ، وسادس لمعالجة جملة علل وأمراض . وهى تملأ زهاء ثمانى ورقات من كتابه . وربما كان الدافع له على ترجمة تلك النبذة في باريس ، ما رآه من عناية محمد على بتدريس الطب ، فربما كان يريد أن يبرهن له على مقدرته على ترجمة كتبه .

ولما كان أول عمل تولاه — بعد عودته — هو الترجمة بمدرسة الطب كما سبق أن

(١) تخليص الإبريز ص ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٤ .

ذكرنا ، دفعه هذ الظرف إلى أن يترجم رسالة فى الطب ، أثبتها تلميذه السيد صالح مجدى بك في سجلّ كتبه ، ولكنه ذكر أنها لم تطبع وأنه لم يرها[١] .

## فى الفنون الحربية

لا أعرف أنه ترجم فيها سوى هذه القطعة من عمليات ضباط عظام ، وهى التى ترجمها بباريس ، ولا أدرى عن هذه القطعة شيئاً ، ولم أرها منشورة فى أى كتاب له ، بل إن اسمها مختلف ، فهو فى تخليص الإبريز[٢] : قطعة من عمليات ضابطان عظام ، وفى حركة الترجمة بمصر[٣] اسمه : قطعة من عمليات الضباط .

كما أنه عرّب لمدرسة المدفعية ( الطوبجية ) كتاباً فى الهندسة ، سنتحدّث عنه فيما بعد .

## فى المعادن

ترجم فيها ، وهو فى باريس[١] ، كتاباً من تأليف فيرارد Ferard ، دعاه بعد أن ترجمه : المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق ، قال مؤلفه يبين هدفه من تأليف كتابه : « قد ذكرت ما ينبغى معرفته فى حقيقة المعادن وأحوالها لمن يستعملها ، ويشتغل بها ، وسردت جميع الجواهر المعدنية ، سواء كانت عامّة النفع ، أو من جواهر العادة ، أو لمجرّد الزّينة والتجمل ، وقد تكلمنا عليها من أحقرها إلى أعظمها ، فبحثنا عن الجواهر الأرضية الترابية ، كالأرض التى نحرثها كل عام ، إلى الجواهر النفيسة التى لا توجد إلا صغيرة الجرم ، ومع ذلك فالشذرة منها تساوى فى القيمة رزمة عظيمة من الزّرع ، أو إيراد إقليم كامل...

---

(١) حلية الزمن ص ٢٨ .

(٢) ص ١٦٤ .　　　(٣) ص ٥٥ .

(١) تخليص الإبريز ص ١٦٤ و البعثات العلمية ص ٢١ .

وقد حاولت اجتناب ما يوجب السآمة والملل للقارئ ، حيث إنى لم أذكر إلا ما يشتمل على منفعة أرباب الصنائع ، مما لا بدَّ من معرفته[١] » .

وحصر كتابه فى جنسين من النصائح : نصائح خاصة ، ونصائح عامة ، وجعل الأولى عشر نصائح : الأولى لأرباب الفلاحة على أرض الزِّراعة ، والثانية للبنائين على الجير ، والجصّ ، وحجر النحت ، والقيشانى ، والرَّمل ، والآجر ، و ... والثالثة على أحجار النحت ، والأحجار المتأثرة بالصقعة ، وتمييزها بالامتحان . الرَّابعة للسَّباكين ، والبياطرة ، والحدَّادين ، وللسكاكينية ، والنحاسين ، والمذهبين ، والنقاشين ، والصفائحية ، وغيرهم على المعادن . الخامسة على الملح . السادسة للجوهرية ، والصقالين ، والصاغة ، والسكاكينية على الجواهر ، وأحجار الصقالة . السابعة للرّخامية على الرّخام . الثامنة للفخارانية على الطين والطلاء . والتاسعة للقصارين . العاشرة للمزوقين للأبنية على الألوان المعدنية .

وأما النصائح العامة ، فهى ستة : الأولى على الزَّرنيخ . الثانية على الطين المذهب للون . الثالثة على حجر الفتيلة . الرَّابعة على فائدة حجر الفحم فى الفنون والصنائع . الخامسة على التوربا ومنفعته ، والتوربا طين منعقد من تحليل النباتات التى فى وسط الماء . السادسة على تفتيش المعادن[٢] .

ومن ذلك كله ، يبدو لنا الهدف الذى دفع رفاعة إلى ترجمة هذا الكتاب ، وأنه هو عينه الهدف الذى دفع المؤلف إلى تأليفه ، وهو رغبته فى تقدُّم الصناعة والزراعة ، ولا سيما أن رفاعة رأى الحرف والصنائع ، حتى الدَّنىء منها مدوَّناً فى الكتب ، وعرف أثر ذلك فى تقدُّم الصناعة ، فأراد أن ينقل إلى العربية بعض ما ينفع الصّناع والزّرّاع فى مهنهم ، وكانت مصر فى ذلك العهد مقبلة على نهضة فى الصناعة والزِّراعة .

---

(١) المعادن النافعة ص ٤٧ .
(٢) المعادن النافعة ص ٣ و ٤٥ .

## فى الهندسة

ترجم رفاعة وهو فى باريس ، رغبة منه فى أن يتمرّن على ترجمة مختلف العلوم — كما سبق أنْ ذكرنا — ثلاث مقالات من كتاب مبادئ الهندسة ( Eléments de Géometrie ) لمؤلفه Légendre[1] ، فلما عيّن بمدرسة المدفعية ( الطوبجية ) بِطره ، عرّب مختصراً فى الهندسة كان يدرس فى مدرسة السوارى الفرنسية ، ومدرسة سان سير ، وغيرها من المدارس العسكرية ، ولما ترجم أدهم بك كتاب لجندر فى الهندسة ، أهمل الكتاب الذى ترجمه رفاعة .

ولست أدرى لِمَ لَمْ يتم رفاعة ترجمة كتاب لجندر ، مع أنه قد بدأ ترجمته بباريس؟ ولكن لم يلبث الأمر أن احتيج إلى كتاب رفاعة على عادة تغيُّر مزاج الزّمان وطبعه ، فطبع للمرّة الثانية سنة ١٢٥٨ هـ ، ثم طبع مرّة أخرى ، ولعله فى هذه المرّة احتيج إليه كى يدرس ( بالمهندسخانة ) ، فإنّ ناظر هذه المدرسة هو الذى عنى بهذا الكتاب ، « ولما كان فيه من الاصطلاحات القديمة ما تمجه الأسماع ، ولا يميل إليه سليم الطباع ، ومن اللعثمات فى الترجمة ، ما يوقع فى الحيرة من أراد تفهمه ، اقتضى الحال... أن يطبع بمطبعة مهدسخانة ، بعد أن يقابله من خروجاتها أولو الفطانة ، وأن يصلح ماوقع فيه من الغلطات ، وأن يغيّر منه ما لا يليق من الاصطلاحات ، فاهتمّ بذلك ناظر هذه المدرسة ، التى هى على المعارف مؤسسة ، وأحال مقابلته على المتوكل على ربه المعيد المبدئ ، أحد خوجاتها برعى أفندى ، فشمر عن ساعد الجدّ فى مقابلته وتغيير الاصطلاحات ، مع مشاركته فى بعض الأوقات ، لبعض الخوجات[2] » .

ومن هذا يرى أنّ بعض الاصطلاحات التى اختارها رفاعة ، فى ترجمة كتابه ، لم يرض عنها بعض علماء هذه المادة ، فغيّروها عند إعادة طبعه ، على أنّ رفاعه عند ما ترجم هذا الكتاب ، لم يستقلّ باختيار الاصطلاحات لكتابه ، بل استعان

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٦٤ و نظم العقود : مقدمة الناشر .

(٢) مبادىء الهندسة طبع سنة ١٢٧٠ ص ٣ .

فى اختيارها بهذا الجمّ الغفير ، « ممن لهم اليد الطولى فى الرّياضيات ، وعليهم مدار تلك العمليات » ممن كان يعمل بمدرسة المدفعية يوم ترجم رفاعة كتابه ، « فكلهم أعان على تصحيحه وتهذيبه ، وإفراغه فى قالب العبارات الهندسية وحسن تعريبه[١] » ؛ ولا ريب أنّ رفاعة بذل جهداً ضخماً فى تذليل الصعوبات لنقل المعلومات الهندسية ، واصطلاحاتها إلى العربية ، وساعده على ذلك أنه درس فى باريس شيئاً من الهندسة ، فقد قرأ المقالات الأربع الأول من كتاب لجندر[٢] ، واستطاع بجهد أن يعبّر عن هذه المادَّة فى أسلوب واضح ، وإن كان يقلُّ في وضوحه عن ذلك الأسلوب الذى نقرؤه فى كتب الهندسة المترجمة في عصرنا الحاضر ، وهاك نموذجاً منه : « الفراغ الذى يشغله الجسم التعليمى له بالضرورة ثلاثة أبعاد ، ويسمونها بالطول والعرض والعمق أو الارتفاع ، ونهايات الجسم سطوح ، فالسطح هو الطول والعرض من غير عمق ، ونهايات السطوح خطوط ، فليس للخطوط إلا بعد واحد ، وهو الطول ، ونهايات الخطوط نقط هندسية ، فهى خالية من الأبعاد الثلاثة ، ومن المعلوم أن هذه النهايات الثلاثة المختلفة لا وجود لكل منها على حدته فى الخارج ، وإنما نعتبرها منفردة فى الذهن والوهم فقط[٣] » ، وهاك نظرية من نظرياته : « المربع المرسوم على وتر القائمة من المثلث القائم الزاوية ، يساوى مجموع المربعين المرسومين على الضلعين الآخرين[٤] » ؛ وبهذا وضع رفاعةُ لبنة فى بناء هذا العلم ، ومهد بذلك السبيل لمن ألّف بعده ، أن يختار ما اختاره هو من مصطلحات ، أو أن يعدّل فيها ويقوّمها ، وهو بذلك من الرُّوّاد الأول من واضعى المصطلحات الهندسية .

(١) من مقدمة كتاب مبادىء الهندسة طبع سنة ١٢٥٨
(٢) تخليص الإبريز ص ١٥٩ .
(٣) مبادىء الهندسة طبع سنة ١٢٥٨ ص ٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٩ .

## فى القانون

لرفاعة فضل كبير فى نهضة القانون فى مصر ، ذلك أن الحكومة عند ما فكرت فى إصلاح النظام القضائى فى عهد إسماعيل ، مهدت لذلك بتعريب القوانين الفرنسية المعروفة ( بالكود ) Le Code [١] ، وذلك عمل يتطلب جهداً جباراً ، ودأبا على العمل ، وصبراً على مشاقه ، وإلماماً تاماً بأسرار اللغتين : العربية والفرنسية ، واطلاعا واسعاً على القوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية ، حتى يمكن اختيار المصطلحات الفقهية ، المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى ؛ ولم تجد الحكومة من يقوم بهذه المهمة الشاقة سوى رفاعة وتلاميذه ، فعرّب هو وعبد الله السيد بك رئيس قلم الترجمة ، ومن تلاميذ مدرسة الألسن ، القانون المدنى الفرنسى ، وعرّب قانون المرافعات عبد الله بك أبو السعود أفندى ، وحسن أفندى فهمى ، وعرب محمد قدرى باشا قانون العقوبات ، وصالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات ، وهم جميعاً من تلاميذ رفاعة بك . ومن تلك القوانين استمدّ المشرع المصرى معظم أحكام قوانين المعاملات المدنية ، والمرافعات والعقوبات ، وتلك هى القوانين التى بنى على أساسها النظام القضائى الحديث ، ومن ذلك نتبين قدر فضل رفاعة بك وتلاميذه فى إقامة صرح العدالة فى مصر [٢] .

---

(١) يطلق على مجموع القوانين الفرنسية ، وهى ثمانية : القانون المدني Code Civil وقانون المرافعات المدني Code de Procedure Civil وقانون العقوبات Code Pénal وقانون تحقيق الجنايات Code d' Lnstruction Criminelle وقانون الغابات Code Forestier وقانون الحقول Code Rural والقانون التجارى Code de Commerce والقانون العسكرى Code Militaire . ا هـ Larousse. P. 205

(٢) عصر محمد على ص ٤٩٥ .

## القانون المدنى الفرنسى Le Code Civil

يقع هذا القانون فى إحدى وثمانين ومائتين وألفى مادة ، تملأ زهاء خمسمائة وثلاثين صفحة ، وهو يشمل عدا المعاملات المدنية أحكام الأحوال الشخصية[١] . وأحكام المواريث[٢] ، ومما يذكر أن هـذا القانون قد أباح الطلاق[٣] لأسباب أوردها ، ونظم صدوره ، وفى مقدمة القانون ، ذكر فى البند الثالث أنه يجب على كل من سكن فى بلدة فرنساوية أن يتبع أحكامها المتعلقة بالضبط والأمن مثـل أهلها سواء بسواء ، وتسرى أيضاً أحكام المملكة على جميع عقاراتها وأراضيها المملوكة ، ولو كانت فى يد وتصرف ملاك أجانب ، وبهذا قرر سريان أحكامه على جميع سكان الوطن ، ولعـل فى إخراج هذا الكتاب عن رفاعة ، فى الوقت الذى استرد فيه القانون المصرى سيادته على جميع السكان ، خير تحية لرفاعة .

والقانون مكون من مقدمة وثلاث مقالات : الأولى فى الكلام على الأشخاص ، وفيها أحد عشر كتاباً ، الأول فى التمتع بالحقوق المدنيـة وأسباب الحرمان منها ، والثانى فى عملية تسجيل الأنساب ، وإثبات الولادة والزواج والوفاة ، والثالث فيما يتعلق بالموطن ، والرابع فيما يتعلق بأحكام الغائبين ، والخامس فى أحكام النكاح وما يتعلق به ، والسادس فى أحكام الطلاق ، والسابع فى الأبوة والبنوة ، والثامن فى التبنى والكفالة الخيرية ، والتاسع فى ولاية الأبوين ، والعاشر فى قصور الأولاد والولاية عليهم ، والحادى عشر فى الرشد والحجر .

والمقالة الثانية فى الأملاك وفيهـا أربعة كتب : الأول فى بيان الأملاك ، والثانى فى حق الملكية ، والثالث فى إباحة منافع الأعيان وثمراتها وريعها ، والرابع فى الحقوق القسرية الأرضية .

والمقالة الثالثة فى أنواع الطرق التى تفيد الملكية ، وفيها عشرون كتاباً :

---

(١) ج ١ ص ٣٨ وما يليها .
(٢) ج ١ ص١٥٩ وما يليها .
(٣) ج ١ ص ٥٤ وما يليها .

الأول فى الميراث ، والثانى فى الهبة والوصية ، والثالث فى العقـود والالتزامات وأنواعها ، والرابع فى الأحكام والحقوق المترتبة على العقود ، والخامس فى الشروط الواقعة بين الزوجين فى وثيقة عقد النكاح ، وفيما يجب على كل منهما فى حق الآخر من الحقوق ، والسادس فيما يتعلق بالبيع ، والسابع فى بيان المقايضة ، والثامن في الإجارة ، والتاسع في الشركة ، والعاشر فى العارية والقرض ، والحادى عشر في الوديعة والحجر ، والثانى عشر فيما يتعلق بعقود الصدفة المعلقة على شرط أو حادثة مغيّبة ، والثالث عشر فى الوكالة . والرابع عشر فى الضمان ، والخامس عشر فى الصلح ، والسادس عشر فى القبض على الإنسان وحبسه بخصوص الحقوق والدعاوى المدنية ، والسابع عشر في الرهون ، والثامن عشر فى المزايا والرهون ، والتاسع عشر فى إخراج الملك عن ملكية المالك قهراً ، والعشرون فى المدة الطويلة .

وتحت هذه الكتب أبواب ، وتحت الأبواب فصول ، وفروع ، فأنت ترى من هذا العرض الموجز ضخامة العمل الذى قام به رفاعة وصاحبه .

أما لغة القانون فواضحة سهلة موجزة ، ولا تكاد تشعر فى الكثير من مواده أن هناك ترجمة ، إذ لا عسر فى أسلوبه ولا التواء ، وهاك نموذجا لبعضها :

بند ٢١٢ : يجب لكل من الزوجين على الآخر الأمانة والمعاونة والمواساة[١] .

بند ٢١٣ : يجب على الزوج حماية زوجته ، وعلى المرأة إطاعة زوجها[٢] .

بند ٢١٤ : يجب على المرأة أن تسكن مع زوجها فى بيت واحد ، وتتبعه أينما سار ، لتقيم معه فى أى محل أراد ، ويجب على الزوج إسكانها معه ، والقيام بكفايتها على قدر طاقته وحاله[٣] .

ولكنك تشعر حيناً بالغموض يكتنف بعض مواده مثل البند ٢٠٤ : ليس للولد مرافعة مع أبويه لتطلّب زواج أو صنعة أو غـير ذلك[٤] ، ولكن هذا الغموض نادر ، وطُبع هذا القانون لأول مرة سنة ١٢٨٣ هـ ( ١٨٦٦ م ) .

---

(١) و (٢) و (٣) القانون المدنى ج ١ س ٥١ .
(٤) المصدر السابق س ٤٩ .

## قانون التجارة Code de Commerce

انفرد رفاعة بترجمته ، ويقع فى ثلاث وسبعين وأربعمائة مادة ، ويملأ ثلاثاً وعشرين ومائتى صفحة ، قال رفاعة فى مقدمته ، مشيراً إلى الحاجة إلى ترجمته : « هذا القانون التجارى مما تمس إليه الحاجة فى غالب الأحوال والأوقات ، حيث اتسعت الآن فى مصرنا دائرة المعاملات بين أهالى الممالك الأوربية ، وكثرت التعلقات ، فصار لا بأس لأرباب التجارة بمعرفة قوانين المعاملة الجارية عند الأجانب ، بل صار الاطلاع عليها لمن يعقد عقود التجارات معهم من الواجب ، فلهذا حسن إبراز هذا القانون بالعربية إلى حيّز الوجود (١) » .

وهو ينهج فى تقسيمه نهج القانون المدنى ، فهو مقسم إلا مقالات ، يندرج تحتها كتب ، تحتوى على أبواب ، وتشتمل الأبواب على فصول وفروع .

المقالة الأولى فى التجارة من حيث هى ، وفيها ثمانية كتب : الأول فى المتجرين ، والثانى فيما يتعلق بدفاتر التجارة ، والثالث فى الشركات ، والرابع فى انفصال أموال الزوجين ، والخامس فى بيان مجمع التجار ( البورصة ) ، والسادس فيما يتعلق برهن المنقولات وبتوكيل الوكلاء فى المعاملات ، والسابع فى أحكام البيع والشراء ، والثامن فيما يتعلق بسندات الحوالة .

والمقالة الثانية فيما يتعلق بالتجارات البحرية ، وفيها أربعة عشر كتابا ، أولها فيما يخص السفن ، وثانيها فيما يتعلق بملاك السفن البحرية ، ورابعها فيما يتعلق بقبطان السفينة ، والخامس فى عقد الاتفاقات مع الطوائف البحرية ، والسادس فى عقد إيجار السفن ، والسابع فى بيان سند الشحنة بمحافظة الرسالة ، والثامن فيما يتعلق بأجرة السفينة ، والتاسع فى عقد الاقتراض البحرى ، المعلق على الحوادث البحرية المغيّبة ، والعاشر فى التأمينات البحرية ، والحادى عشر فى الخسارات البحرية ، والثانى عشر فى تعويض الخسارات ، والثالث عشر فيما يتعلق بالمدد

(١) قانون التجارة ص ٢ .

وفوات الحقوق بانقضائها ، والرابع عشر فيما يتعلق بدفع الخصومة .

والمقالة الثالثة فيما يتعلق بالتفليس ، وفيها ثلاثة كتب : الأول فى ذكر التفليس ، والثانى فى التفليس الناشىء عن سوء الاختيار ، وما يترتب عليه من الأحكام ، والثالث فى كيفية إعادة اعتبار المفلس إليه قانوناً .

والمقالة الرابعة فيما يتعلق بالأقضية التجارية ، وفيها أربعة كتب : الأول فى تنظيم المحاكم التجارية ، والثانى فى بيان وظائف محاكم التجارة وخصائصها ، والثالث فى بيان المحاكمة أمام محاكم التجارة ، والرابع فى صورة إقامة الدعاوى ؛ ويختم القانون بتكملة فى المحاكمات .

ولغة رفاعة فى ترجمة هذا القانون سهلة واضحة دقيقة خالية من الصناعة ، لا تحس فيها بروح الترجمة إلا نادرا ، وهاك مادة منه :

بند ١٣ : فى جميع اجتماعات الجمعية العمومية تؤخذ القرارات بموجب أغلبية الآراء ، ويلزم تقييد الحاضرين المساهمين فى قائمة ، يبين فيها أسماؤهم ومساكنهم ، وعدد ما أدى الواحد منهم من الأسهم ، ويصدق على هذه القائمة أعضاء الجمعية العمومية ، وتوضع ببيت الشركة المركزى ، ليطلع عليها كل من رغب (١) . وتم طبع هذا القانون سنة ١٢٨٥هـ .

## فى الأدب

أول ماترجمه رفاعة من الأدب الفرنسى تلك القصيدة التى أنشأها يوسف أجوب وسماها ( La Lyre Brisée ) ، وسوف نتحدث عنها طويلا فى فصل خاص .

وترجم وهو فى باريس أيضاً بعض مقطوعات فرنسية ، منها قوله :

وإذا القلوب تعلقت رأت الجميع جايلا
كسفينة تسعى إلى شعب يكون مهولا
لهفى على زمن الهوى إن صح كان بخيلا (١)

(١) قانون التجارة ص ٢٣ . (٢) تخليص الإبريز ص ٦٨ .

وقوله :

ودّع القلب فيــك ياقاتلى    ياخيـال المســعد الزائر

إن روحى بالجراح اصطلت    وعلى البرء لســت بالقادر

وسرورى فى الهــوى لمحة    مثل زهر الورق الزاهر [١]

وهى أبيات تنقصها حرارة العاطفة وقوة الأسلوب .

وأعجبته رسالة أحد المتطوعين فى الحرب مع الروس ضد الدولة العثمانية، حررها إلى بعض أمراء الألوية بباريس فى ١٢ يوليه سنة ١٨٢٨ م ، وهى تشيد ببطولة الأتراك وشجاعتهم فى الحروب ، ولعل هــذا هو ما دفع رفاعة إلى ترجمتها ، وقد تشتد الحماسة برفاعة ، فيبدو أثرها فى أسلوبه ، قوة فى الصنعة تسمو من غير كلفة ، كقوله : « ولوشاهدت عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية ، تروع الإنسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الألحان الوحشـية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية ، لحكمت مثلى بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول ، أوليس أن للدولة العثمانية فرساناً عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة علية بنظام غريب ، وهل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشـية طائعة لسيدها فى الإقدام والإحجام ، يبلغ عليها فى الحرابة المقصود والمرام ، فياويح العساكر القرّابة التى يلتحم صفـّها بصفّ هذه الخيول ، المركوبة لهؤلاء الفحول ، الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الإسلامية والوطنية [٢] » .

وأخبرنا رفاعة فى مناهج الألباب المصرية [٣] ، أن له كتاب : تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال ، ولم أستطع العثور على هذا الـكتاب ، وربما عرّب به كتاب لافونتين : Les Fables ، ولست أدرى إن كان قد عرّبها نثراً أو نظماً .

وترجم رثاء ڤولتير الشاعر للويس الرّابع عشر ، واختار ترجمته فى أسلوب

(١) المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) ترجمة الرسالة كلها بتخليص الإبريز ص ١٦١ .

(٣) ص ٧٦ .

مسجوع ، وكان الرّثاء قصيراً ، وهذه ترجمة رفاعة له : « لم يتولَّ قبله ملك من تلك العصابة ، ولا ساواه غيره فى تربية الرَّعية بهذه المثابة ، فالفخار شعاره ، والمجد دثاره ، وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد ، كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الأخدان والأضداد ، وربما كان دونهم فى ميل الرَّعية إليه ، ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه ، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزَّمان ، وتتلاعب به حوادث الحدثان ، وهو عند النصرة يظهر الفخار ، ويتجلد عند الهزيمة ، ولا يظهر بمظهر الذّل والانكسار ، فقد أرهب عنده عشرين أمة عليه تعصبت ، وعلى قتاله تحالفت وتحزَّبت ، وبالجملة فهو أعظم الملوك فى حياته ، كما كان عظيم العبرة عند مماته[١] » .

ولغرام رفاعة بالشعر الوطنى ، نقل إلى العربية النشيد الفرنسى القومى الذى يدعى بنشيد ( المارسيليز[٢] ) .

## نظم العقود فى كسر العود

نقل رفاعة إلى العربية ، أول ما نقل ، قصيدة فرنسية ، قال عنها[٣] : إنها « منسوبة لريس من يعلمنا من هذه اللغة القواعد ، ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ، العارف بأسلوب لغتى العرب والفرنساوى ، والبارع فى فهم المعنيين ، فهو لفخرها حاوى ، الخواجا يوسف أكوب المصرىّ منشأ ، تتضمن تشبيباً وغزلاً ، وحنيناً وتفاخراً ، ومدحاً لمصر ووزيرها حضرة أفندينا ، وكان جل ما فيها يهجس فى فؤادى ، وينطق به لسان مرادى ، فأردت أن أبذل جهدى ، وأمعن نظرى وخلدى ، وأنقلها إلى العربية ، ولو كان فى ذلك مشقة قوية ، فقدمت على ذلك ، فإذا هى بالنسبة إلى مثلى دونها خرط القتاد ، تحتاج زيادة على الترجمة إلى التوفيق على المعنى المراد ، ولا أقرب حينئذ عندى من مراجعة مؤلفها ،

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٢٠ .
(٢) عصر محمد على ص ٥٠٥ .
(٣) من مقدمة نظم العقود ص ٧ .

وسماع الـكلام من فيه ، لما أن صاحب البيت أدرى بالذى فيه ، فالتزمت مراجعته فى سائر أبيات القصيدة وترجمتها ، فجاءت على حسب ما يسره الله كالأصل فريدة ، مع إبدال بعض المعاني بآخر لأمر ما ، لأنّ مبنى معانيها كان على أسلوب غير العرب فحاولتها على أسلوبهم » .

وكان ناظم القصيدة قد أهداها إلى شاعرة فرنسية ، تدعى Dufrenoy ، كانت شهيرة بالمراثى[1] ، وهى تتضمن ثورة على الحب ، والتجاء إلى عود الغناء يبثه الشاعر آلامه وآماله ، ولـكن الثائر لم يلبث أن رأى دموع الحبيبة ، تنهمل على خديها ، حتى حطم عوده وعاد إلى حبيبته ، ولذلك سميت القصيدة : العود المكسور ( La Lyre Brisée ) ، ولغرام رفاعة بالسجع فى عناوين كتبه ، ترجمها بنظم العقود فى كسر العود .

وترجمة هذه القصيدة كانت أول عمل قام به رفاعة بعد دراسة اللغة الفرنسية ، أقل من عام ، فإنه قد أتم ترجمة هذه القصيدة ، فى العشر الأواخر من شهر شعبان سنة ١٢٤٢ هـ .

ويبدو الجهد الذى بذله رفاعة واضحاً فى ترجمة هذه القصيدة ، بل فى ترجمة مقدمتها ، حتى لينِدُّ عنه الأسلوب العربى . واستمع إلى ترجمة رفاعة لمقدمة أ . كوب لقصيدته إذ يقول : « وقد لزم أننى أطيع بالترتيب ذهاب هيام الأشعار الغنائية ، وأتخلص من أسلوب إلى آخر ، فأعقب الافتخارات الشعرية ، بالحركات الحنينية ، مهيجات المحبة العشقية ، ثم مزايا هذا التأليف ، إنما هى فى بلاغة النظم ، إذ هى أوقع من دواعى الغرض ؛ وبالجملة إنه ما كان فى هذه القصيدة نصب عينى ، كما فى الأولى شكل آثار مصر ، ولـكن أذعن أن قلبى ما استحسن أبداً رجحان تأليفى ، كما فى هذه ، وفى تقديم هذه الهدية لذكر تلك المحبوبة الشهيرة ، ليت لى غصن نصرة ، فأضعه على قبرها[2] » .

إننى أحس بالعناء الذى بذله رفاعة فى الترجمة ، وأشعر بما كان من الغموض

---

(١) من ملحوظات المترجم ص ٣٥ .

(٢) نظم العقود ص ١٠ .

فى المعانى عنده ، فلم تنقد لقلمه ، يعبر عنها فى وضوح وبيان ، وترى شيئاً من هذا الغموض فى بعض أجزاء القصيدة ، وقد اعتذر هو فى أول القصيدة حين قال : « ثم إننى أعتذر لمن يطّلع على هذه القصيدة فى تهافت بعض الكلمات بأنّ لى أعذاراً شتى ، كالمحافظة على إبقاء روح المعنى الأصلى الذى لا يجىء إلا بذلك ، وكضيق القوافى ، وكتكدُّر البال بمفارقة الأحباب والأوطان(١) » .

والقصيدة تتنقل من غزل إلى فخر بمصر ، وربما كان يشير إلى ما كان لكشف أسرار قراءة الخط المصرى القديم ، بحل رموز حجر رشيد ، من أنه أظهر فجأة ما كان لمصر من مجد قديم ، وذلك حيث يقول :

لكن المفخر الذى قد تخبا تحت أطلالك القديمة حقبا
قد أزيل القناع عنه فهبّا ضوءه فى الأنام شرقاً وغربا
وعجيب أن مرعة قد تبدى(٢)

إلى مدح محمد على مجدِّد هذا المجد القديم ، إلى انصراف عن الحب إلى العود ، ثم تحطيم العود وعود إلى الحب .

ويحسن هنا أن ننقل تحليل رفاعة لتلك القصيدة حتى تكمل صورتها فى الذهن ، قال(٣) : « ومن القصيدة المسماة : نظم العقود فى كسر العود ، للخواجه يعقوب ، المصرى منشأ ، الفرنساوى استيطاناً ، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنتين وأربعين ، وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، قول صاحبها ، ونظمه للعبد الفقير :

زاد بى الحال إذ صفا لى حانى وغنائى بالعود والألحان
باسم ربى ، والسادة الأعيان وترنمت شجوة بالحسان
وبسعدى ذات الجبين المفدّى

فصغى سمعها إلى إنشادى ورمى النار لحظها فى فؤادى

(١) نظم العقود ص ٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٦٩ .

فلهذا شعرى غدا فى اتقاد　　وبدا من حماسه فى انفراد
لذوى الفهم والمعـــارف يهدى

أحرق العشق قلبها كاحتراق　　فأتت تطفىء اللظى بالعناق
فتضاممنا ضمَّة المشـــتاق　　وتلاثمنا عادة العشـــاق
فتثنت لتخجل الغصن قدّا

شنف السمع من رقيق التغانى　　واستمع يا أخىَّ صوت المثانى
يا خليلى بالله ، هلاَّ ترانى　　أننى قد أحييت شعر ابن هانى
بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذا بعدَّة أبيات ، تخلص الشاعر إلى ذمّ العشق وتوابعه ، فقال :

واحيائى ، واخجلتى ، صار فنى　　أننى فى هوى الملاح أغنّى
برخيم الغنا كظبى أغنّ　　وبأوتارى أبتدى وأثنّى
ما أرى هـذا للفضائل أجدى

أفأيامى كلها لى عقيمـــة　　أو مالى عواقب مستقيمة
بل على طاعة الهوى مستديمة　　أفما هـذه مراق ذميمة
أفتنى هزلهـا وأرفض جدّا

أعلىَّ احتساء كأس نصيب　　خامل غير كافـــل لأريب
مع أنى والله غـــير مريب　　همّتى همَّة الذَّكى النجيب
تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ، ويوبخها على العزم على فراق محبوبته ، لا سيما وهى تتأذى من فراقه :

نوح عنّ وسؤدد نشتريه　　بنواح الملاح إذ نشتهيه
يا فؤادى سل عند أى فقيه　　يغفر الذنب من قتال بتيه
لنوال الفخـــار ، علك تهدى

يا فؤادى قد أسلمتك الأمورا　　وأباحتك متجراً لن يبورا
أفترضى على الظبا أن تجورا　　لست ألفيك آسفاً مقهورا
حيث قدَّيت قلبهـا الآن قدّا

ومن جملة قوله فى مدح أفندينا حفظه الله ، مخاطباً لمصر فى هذه القصيدة :

بسياسات فيك أضحى كفيلا    بيد دانت من مضى التقبيلا
جدَّدت فى جبينك الإكليلا    نضرت غصنا فيك حاز ذبولا
وأعادت فيــــه الشبيبة ودّا

وقال فيها مخاطباً لولىِّ النعمة حفظه الله ، مشيراً إلى واقعة المماليك :

فملك الخير بعده حسن ذكر    مستمر على مدى كل دهر
فاغتنم حفظ مشتهي نيل مصر    فلقد شابه دماً سيف نصر
وغدا فى حمــــاك ينفق رفدا

هذا ، ومما يذكر أن تلك الأبيات من أجود ما فى القصيدة .

أما أعظم عمل أدبى قام بترجمته فهو كتاب : مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ، الذى نرى من الواجب أن نخصه بكلمة :

## مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك

عنوان الكتاب بالفرنسية Les Aventures De Télémaque : وقائع تلماك ، واختار رفاعة لترجمته هذا الاسم ، وكأنه يرمز بالأفلاك إلى أحداث الليل والنهار ، وبمواقعها إلى تغيرها وتبدلها .

ومؤلف القصة قسيس فرنسى ، يدعى فنلون Fénelon (١) ، ولد سنة ١٦٥١ وتوفى سنة ١٧١٥م ، وكان ذا نفس رحيمة غيور ، التحق بسلك رجال الدين ، وعيِّن مربياً لحفيد لويس الرابع عشر ( دوق دى بورجونى ) Duc de Bourgogne فاستطاع أن يغيِّر تغييراً تامّا قسوة خلق تلميذه ، ونزوعه إلى الشر ، وكان يبنى عليه كبار الآمال عندما يئول إليه العرش ، وله ألّف كتباً منها Des Fables خرافات و Dialogues des Morts : محادثات الموتى ، وكتابه هذا الذى ترجمه رفاعة ، يريد تنمية الإحساس الخلقى عند الأمير الشاب ، وأن يريه التاريخ الشعرى

---

(١) رجعت فى ترجمة إلى Larousse P. 1373 وإلى Lanson et Tuffrau P. 330 .

لليونان القديمة ، كما ملأه بالتلميحات والنقد غير المباشر لحكومة لويس الرابع عشر ؛ وكان نشر هذا الكتاب سنة ١٦٩٩ م ، مما جر عليه غضب الملك .

والكتاب يحتوى على ثمانى عشرة مقالة ، تتحدث الستة الأولى منها عن البطل ، وقد قذفت به العاصفة إلى « كالبسه » التى أحبته ، وأخذ يقص عليها وقائعه . وفى المقالات الباقية يصف وصوله إلى ( سالانت ) عند ( إدومنيه ) وما حدث من المعارك .

أرانا هومير فى أول ( الأوديسة ) تليماك ماضياً يبحث عن أبيه ، ثم عائداً بعدئذ إلى ( إيتاك ) ، وأطال فنلون هذه الرحلة ، بأن افترض أن البطل الشاب : تلماك ، تقوده ( منرفا ) Minerve إلهة الحكمة والفنون ، متنكرة فى شكل صديقه ومؤدبه : ( منتور ) Mentor ، وتجوب به البحار منذ أمد بعيد — قد ألقت به عاصفة فى جزيرة ( كالبسه ) Calypso ، ولقد شغفت هذه الإلهة حباً بتلماك ، ورجته أن يقص عليها وقائعه ، وشعرت ( كالبسه ) أن حبها لتلماك قد تضاعف ، وكان تلماك من ناحية قد أحب الحورية ( إيشاريس ) Eucharis ، ولأجل أن يخلصه مربيه ( منتور ) من هذا الحب أسرع به إلى البحر ، وألقيا فيه بأنفسهما ، وطلب الاثنان ممن التقطهما ، وهو قائد سفينة فينيقية أن يقودها إلى إيتاك Ithaque ، غير أن السفينة مخدوعة بالآلهة ، قادتهما إلى ( سالنت ) Salente ، وهى عاصمة لمملكة جديدة ، لم يكد يفرغ ( إدومنيه ) Idoménée من تأسيسها ، وقد استطاع ( منتور ) أن يحبب السلام إلى البلاد ، وقد كانت فى حرب ، وان يشرع فى وضع قوانين حكيمة عادلة للحكومة الجديدة ، وهذا الفصل العاشر هو الفصل الرئيسى فى الكتاب ، فقد جمع فيه فنلون كل أفكاره فى الإصلاح من تنظيم الإدارة إلى ترك الترف ، وغير المفيد من الفنون ، إلى تشريف الزراعه ، والعودة إلى البساطة والتقشف .

وانتصر تلماك هو الآخر فى معركة خاضها من أجل ( إدومنيه ) ، ولما كان مشغول الفكر بأبيه نزل إلى جهنم ، ومضى إلى رياض الجنة [1] ، حيث أعد فيها

(١) ترجم رفاعة Chemps - Elysée برياض الجنة ، وقد سرنا على ترجمته . راجع ص ٩٩ تخليص .

أفضل الأرائك للملوك المسالمين العادلين ، أما الملوك المحبون للحرب فلهم المقاعد الثانوية ، وأخيراً علم من والد جدّه أن ( إبليس ) Ulysse وهو والده لا يزال حياً ، ولقنه بعض المبادىء الحكيمة فى فن الحكم ، ولما رجع إلى ( سالنت ) أعجب بما أدخله منتور من تعديلات .

غادر الاثنان ( أدومنيه ) ، وقد وعد تلماك بابنته زوجة له ، وهنا كشف ( منتور ) عن حقيقة أمره ، وظهر بمظهره الحقيق ، وعلمه بعض المبادىء الحكيمة ، ولما عاد تلماك إلى مدينة ( إيتاك ) وجد والده عند الراعى المخلص ( إيميه ) Eumée .

كان هذا الكتاب مظهراً لسخط مؤلفه على حكومة لويس الرابع عشر ، فإن فنلون مسيحياً لم يغفر له حروبه ، وشريفاً لم يسامحه فى الحطّ من شأن الأشراف ، وفيلسوفاً لم ينس تسببه فى شقاء الشعب ، ولذا كان من الطبيعىّ أن يبثّ الكراهة فى قلب الحفيد لأعمال جدّه ، ويبدو أنه رمز ( بإدومنيه ) للويس الرابع عشر نفسه ، فهو برغم ذكائه محبّ للحروب والترف والملذات .

وإن النظام المثالى لمملكة ( سالنت ) هو النظام الحكومى الذى يحلم به فنلون لفرنسا ، على يدى تلميذه ؛ فهو يبغى حكومة ملكية كهنوتية ، يقبض على زمامها الأشراف ، وتعمل لخير الشعب بلا إسراف ، بل بتوزيع عادل للضريبة ، وإدارة أمينة للمالية العامة ، وبإلغاء الوظائف التافهة ، وبالبعد عن الترف ، والانصراف عن الحروب ، فإنها برغم فائدتها تكلف الدّولة كثيراً .

وما بثه فنلون فى الكتاب من آراء سياسية وتربويّة واضح غالباً :

« أما أسلوب الكاتب فبعيد كل البعد عن الصنعة ، وينبع من خيال مشبّع بشعر هومير ، وتعلوه حرارة الإعجاب الصادق بالقدماء »(1) .

ترجم رفاعة هذا الكتاب الضخم يدفعه ألم بعاده عن بلاده ، وهو بالسودان ، وقدّم بين يديه ديباجة تكشف شيئاً من عقيدة اليونان التى أسس عليها فنلون كتابه ، قال رفاعة : « ولما جاء الفرنج يحذون فى آدابهم حذو اليونان ، اتخذوا الخرافات اليونانية قدوة فى ذلك وأسوة ، وألفوا فيها تآليف تسمى الميثولوجيا ،

(1) man. II. d' Histoire de La Littérature Française P. 335.

ووقائع تلماك مشحونة بهذه الأشياء ، وما فيه من الآداب مبنيّ على الآداب اليونانية(١) » ولخص رفاعة كذلك فى هذه الديباجة القصة تلخيصاً يشوق إلى قراءتها.

ترجم رفاعة القصة فى أسلوب سهل واضح ، وإن التزم السّجع التزاما ، فقد رأى هذا السّجع والصناعة أنسب لترجمة هذا العمل الأدبى ، ولـكنه سجع لم يخل بوضوح الفـكرة ، وهاك نموذجاً من ترجمته :

« وفي خلال الـكلام يسأل تلماك منطورا ، ويقول له : « ما المانع من التوطّن بهذه الجزيرة التى امتلأت حبوراً ؟ وهل يعيش الآن عولوس ( Ulysse ) فالغالب أنه ابتلعه البحار ، وجذبه التيار ، وهذا من مدة مديدة ، وسنوات عديدة ، وأمّى حيث طال عليها غيابى ، وغياب والدى بدون إيابه وإيابي ، لا بد أنها أيست ونأت عن مقاومة الطالبين ، وعن مطاردة الراغبين ، وغصبها أبوها ( إيقارص ) على أن ترضى بزوج جديد ، وأكرهها على ذلك فما قلبها بحديد ، فـكيف يسوغ أن أعود إلى طيا كى ( Ithaque ) وأراها فى عصمة زوج آخر غير أبى ، خائنة ماعاهدته عليه فالعود بهذه المثابة ليس من مذهبى ، لا سيا وأن أهل ( طيا كى ) قد نسوا ( عولوس ) كل النسيان ، وطرحوه فى زوايا الإهمال بحيث لا يذكره إنسان ، فهل يمكننا أن نعود إلا إذا سلكنا سبيل التفريط ، ورضينا بالموت المحقق هناك من معشر هو بالوالدة محيط ، حيث كلهم مرابط بالثغور ، ليتحقق لنا الهلاك والثّبور .

فأجابه منطور بقوله : « الحبّ يعمى ويصمّ ، ويعيب ويصم ، وهذه نتيجة من نتائجه الشهوانية ، وفعلة من فعلاته التأثيرية الهوائية ، فإن المحب يبحث بكل دقة وتلطيف ، فى تحسين القبيح السخيف ، وتصحيح الضعيف ، وبهذا يتخلص من الملامة ، ويدبّر الحيلة فى غش نفسه اللّوامة ، حتى يداهنها ، ويجعلها راضية مرضية ، ويبدل الحـكمة بالأمور السوفسطائية ، أنسيت ياتلماك أنك موعود من طرف الحق بالخير ، وأن تعود إلى وطنك بدون ضير ، وكيف خرجت من صقلية غبّ المصائب المعدّة ، وكيف تحولت فى مصر أحوالك للرجا بعد الشدّة ؟ وهل

---

(١) مواقع الأفلاك ص ٢٧ .

تنسى فضل المولى عليك فى صور ؟ حيث أمّن روعك وهيأ لك أسباب الفرج وأنت محصور ؟ ! أبعد هذا كله تنكر ما أعده المولى لك من بلوغ المراد ، والعود إلى البلاد ؟ ! ولكن ماذا أقول ؟ فأنت لست أهلا للمعروف المأمول ؛ وأما أنا فمرتحل عن هذه الجزيرة حالاً ، وأعرف كيف أرتحل وأجد المقام مجالا ، فيأيها الجبان الخارج من خير أب عاقل كريم النفس فائق الأقران ، أتعيش بهذه الجزيرة عيشة الارتخاء والبطالة والخسة بين النسوان؟ فافعل هنا ما لا يرضى المولى ولا يرضاه أبوك ، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت فهل أولو الحجا إلى أبيك فى هذا نسبوك ؟ (١) » .

ولعلّ غرامه بالسجع ، وظنه أنه لغة الأدب ، هو الذى جعل ترجمته ترجمة فيها تصرّف ، ليتأتّى له هذا اللون من الصناعة ، ولكن هذا التصرف لم يغير من المعنى شيئاً ، وإن استطاع أن يأتى ببعض جمل ، كان من الممكن الاستغناء عنها ، ولنأت هنا ببعض ما كتبه فنلون ، ونعقّب عليه بالترجمة الدّقيقة له ، ثم نأتى بترجمة رفاعة ، ليتبين من هذا العرض مدى التصرف الذى أباحه رفاعة لنفسه ، قال فنلون : « Calypso ne pouvait se consoler de départ d'Ulysse : Dans sa douleur, elle se trouvait malheureuse d'être immortelle . Sa grotte ne resonnait plus de son chant : les nymphes qui la servaient n'osaient lui parler . Elle se promenait souvent seule , sur les gazons fleuris dont un printemps éternel bordait son île : mais ces beuax lieux , loin de modérer sa douleur , ne faisaient que lui rappeler le triste d'Ulysse , qu'elle y avait vu tant de fois auprés d'elle . Souvent elle demeurait immobile sur le rivage de la mer , qu'elle arrosait de ses larmes ; et elle était sans cesse tournée vers le côté où le Vaisseau d'Ulysse , fendant les ondes , avait disparu à ses yeux . (٢) »

أما الترجمة الدقيقة فهى : لم تستطيع كالبسو أن تتعزّى عن فراق إيليس ،

---

(١) مواقع الأفلاك ص ١٨٤ .

(٢) Les Aventures de Télémaque. P. 1 .

ولحزنها وجدت نفسها شقية بخلودها ، ولم يعد كهفها يردّد صدى غنائها ، ولم تجسر الحوريّات اللاتى يخدمنها أن يكلمنها ، وكانت غالباً ما تتنزّه وحيدة على الأعشاب المزهرة ، فقد كان الرّبيع الدّائم يوشّى جزيرتها ، ولكن هذه الأماكن الجميلة ، بعيدة عن أن تخفف شجنها ، ما كانت إلا لتثير ذكريات ( إيليس ) الحزينة ، فكم من مرة رأت تلك الأماكن وهو بالقرب منها ، وكثيراً ما كانت تظلّ ساكنة على شاطئ البحر الذى تسقيه بدموعها ، وكانت دائماً تتجه إلى حيث مضت سفينة إيليس تشقّ الأمواج ، حتى اختفت عن ناظريها » .

وترجم رفاعة تلك العبارة بقوله :

« كانت كالبسه بعد سفر عولوس ( Ulysse ) لا تستطيع الصبر على فراقه ، بل تكابد أهوال العشق وأشواقه ، وكانت عليه متحسرة متأسّفة ، حتى كرهت البقاء والتخليد بعد فراقه ، وتمنت الموت لو صحّ لها ، إذ إليه صارت متشوّقة متشوّفة ، وبعد أن كانت جبالها وكهوفها مملوءة بأصوات الألحان ، ويرجع الصدى إليها نغمات العيدان ، صار لا يسمع فيها النّغم ، وتبدّل السرور عندها بالغم ، والقينات الحسان ، الخادمات لجنابها السامى بالحسن والإحسان ، العذارى الهاروتية ، والحور العين الماروتية ، لزمت السكوت ، وصممت على الصموت ، وإنما صارت تتماشى وحدها فى غالب الأحيان فى الرّياض الزاهرة ، والغياض الزاهية الباهرة ، التى هى دائماً كناية عن زهور ربيع مقيم ، وزمن معتدل مستديم ، لا ينفك محفوفاً بهذه الجزيرة حبًّا فى النسيم ، الذى هو أرقّ من التنسيم ، ومع أنّ شطوط جزيرتها من المتنزهات ، وفى العادة تجلب المسرّات ، فكان لا يخفف أحزانها ، ولا ينسيها إنسانها ، بل يذكّرها هذا المحبوب ، الذى طالما واصلها هناك ، وبوصله تعلقت القلوب ، وفى أكثر أوقاتها تقف على البرّ باهتة متحيّرة ، ترشه بوابل دمعها ، وما كان أغزره ، شاخصة البصر نحو الجهة التى خرجت منها سفينة معشوقها المفارق ، وخفيت عنها ذات هذا الحبيب فى آفاق المغارب والمشارق[1] » .

وعلى هذا النسق يسير فى ترجمته ، وأنت تستطيع أن تدرك مدى التصرّف

(١) مواقع الأفلاك ص ٢٩ .

الذى تصرّف فه رفاعة ، وأنه تصرّف يسيغه ذوق اللّغة العربية ، ويزيد المعنى قوّة ووضوحاً ، من غير أن ينقص منه أو يشوّهه ، ومع هذا التصرف لم يكن رفاعة راضياً بالوقوف عند حدوده ، بل كان يرى — كما سبق أن ذكرنا — أن يفرغه فى قالب يوافق مزاج العربية ، ويصوغه صياغة أخرى أدبيـة ، ويضمّ إليه المناسبات الشعرية ، ويضمّنه الأمثال والحكم النثرية والنظمية ، أى أن ينسجه على منوال جديد ، وأسلوب به ينقص عن أصله ويزيد ، حتى لا يكون إلاّ مجرد أنموذج لأصله الأصيل ، ولـكن الزّمن دفعه إلى الاكتفاء بالمحافظة على الأصل المترجم منه حسب الإمكان[١] .

كان رفاعة معجباً أيّما إعجاب بكتاب وقائع تلماك ، واتخذ تعريبه تعزية له عن غربته فى السودان ، فقـال : « إنّ تعريب تليماك ، بكلّ من فى حماك ، أوليس إنه مشتمل على الحـكايات النّفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه مدار التعليم فى المـكاتب والمدارس ، فإنه دون كل كتاب ، مشحون بأركان الآداب ، ومشتمل على مابه كسب أخلاق النفوس الملـكية ، وتدابير السياسات الملـكية[٢] »

وقال فى موضع آخر من الـكتاب نفسه : « اشتهرت هذه القالات بين الملل والأمم ، اشتهار نار على علم ، وترجمت فى سائر اللغات ، وسارت بفصاحتها الرّكبان فى سائر الجهات ، لـما اشتملت عليه من المعانى الحسنة ، مما هو نصائح للسّلاطين والملوك ، وبها لسائر الناس تحسين السلوك ، تارة بالتصريح والتوضيح ، وأخرى بالرّمز والتلويح[٣] » .

كما نوّه عنه فى كتاب مناهج الألباب المصرية ، وقال عنه : إنه من أنفع كتب الآداب والحـكم[٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٣) ص ٢٩ .
(٤) مناهج الألباب المصرية ص ٢٧٩ .

# ما أشرف على ترجمته

أدّت مدرسة الألسن رسالتها فى نقل كتب الثقافة الغربية إلى اللغة العربية ، فقد أقبل تلامذتها والمتخرّجون فيها فى جدّ وحماسة ، يترجمون فى مختلف نواحى العلوم ، حتى بلغ ما ترجموه إلى العربية والتركية هم وأستاذهم زهاء ألفى كتاب[١] وقد روينا ذلك عن قدرى باشا فى كتابه : ( معلومات جغرافية[٢] ) وفى مقدّمة كتابه : ( الدرّ النفيس فى لغة العرب والفرنسيس[٣] ) ويقال : « إنه ترجم بنفسه وبإشرافه ما يربو على ستمائة كتاب[٤] ».

والسبب فى هذا التجنيد للترجمة رغبة محمد على باشا فى أن يظفر فى وقت قصير ، بالنتائج التى وصلت إليها أوربّا فى تقدّمها ورفاهيتها ، معتقداً أنّ هذه النهضة الباهرة إنما قامت على أساس من العلم ، فمن المستطاع فى اعتقاده إذا نقلنا العلم إلى لغتنا أن نبنى نهضة كنهضتهم ، وننشىء مدنيّة تشبه مدنيّتهم فى أسرع وقت ، من غير حاجة إلى أن نمرّ بالتجارب التى مرت بأهل أوربا ؛ يقول رفاعة فى مقدمة كتاب بداية القدماء[٥] : « ومثل هذا من سعد ولىّ النعم ، حيث إنّ ما مكث فيه الإفرنج السنين العديدة ، والمدد المديدة ، يكتسبه فى أقرب زمان، مع غاية الإحكام والإتقان » . وكان محمد علىّ يرى أنّ كلّ ما هو مفيد من النظم الغربية قد كتبه أصحابها ، فإذا ترجم إليه استطاع أن يسير طبقا له[٦] .

ولوأنّ هذه النهضة فى الترجمة قد دامت ، وكانت تشمل مختلف العلوم ، لكانت مصطلحات الطبّ وغيره من العلوم قد استقرت مع الزمن ، ولم نر من بين كليات الجامعة ما تحتاج إلى لغة أجنبية للتدريس فيها .

---

(١) Encyc . P.1236

(٢) تراجم مصرية وغربية ص ١١٢ .

(٣) محمد الصادق حسين .

(٤) أعلام البيان ص ٩٣ .

(٥) ص ٧ . (٦) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٢٩ .

وقد أشرف رفاعة على كثير من الكتب التى ترجمها تلاميذه ، وعثرت على بعضها ، فرأيت معظمه فى التاريخ ، ثم فى الجغرافية ، ورأيت كتباً فى الطب والمنطق والفلسفة والزراعة قد أشرف عليها أيضا ، وبعض ما أشرف عليه كان قد قرأه وهو فى باريس .

ومعنى هذا الإشراف مقابلة الكتاب على أصله المترجم عنه ، ومراجعته من ناحية لغته ، وما وضعه معرّبه من مصطلحات ، ومساعدة المترجم فى اختيار هذه المصطلحات ، فقد كان تلاميذه يلجئون إليه ليعينهم ، ويمدّهم ، ويسدّد خطاهم كما سنرى فيما نعرضه من هذه الكتب ، وربما اشترك فى ترجمة الكتاب الواحد عدّة مترجمين يختصّ كل واحد منهم بجزء من الكتاب .

فمن كتب التاريخ التى أشرف رفاعة على ترجمتها ، كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء ، ويعرف بتاريخ القدماء ، وقد وضع رفاعة مقدّمة هذا الكتاب ، وبين السبب الذى دفعه لاختيار أن يقوم تلامذته بترجمته ، وأنه الرّغبة فى نفع العامة به والخاصة ، فالتاريخ « مشير كل أمير ، وأمير كل مشير ، وسمير كل وزير ، وظهير كل سمير ، إذا سئل أجاب ، وأبدى العجب العجاب ، ترتاح به الأرواح الفاضلة ، وتلتاح إليه النفوس الكاملة ، من الحكماء والأساطين ، والملوك والسلاطين[1] » .

وفى ذلك تحقيق رغبة من رغبات محمد على باشا ، فقد « كان تولعه بالتواريخ شديداً ، وتطلعه لأخبار الملوك الماضين مزيدا ، وله فى معرفة فحول رجال القرون الأولى ، المادّة الغزيرة واليد الطولى ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النقادة ، وكان تاريخ تلك العصور ، بالكتب العربية فى غاية القصور ، لا سيما تاريخ اليونان[2] » .

قسم رفاعة الكتاب بين بعض تلاميـذه ، فترجم مصطفى الزّرابى المترجم بمدرسة الألسن تاريخ اليونان ، وترجم عبد الله أبو السعود أحد تلامذة المدرسة الخرافات اليونانية ، ورأى رفاعة أن يضمّ إلى الكتاب تاريخ الخليقة منذ وُجدت ، فذكر تاريخ آدم وبنيه ، والأنبياء حتى سيدنا عيسى ، ثم تحدّث عن تاريخ قدماء

---

(١) مقدمة الكتاب ص ٣ .

(٢) بداية القدماء ص ٥ .

المصريين ، وعن الصوريين ، والسريانيين ، والبابليين ، وتاريخ العجم ، وأذربيجان والهنديين ، متعرضاً فى ذلك للحياة السياسية والاجتماعية ، وناقلا ما أضافه من كتاب الكامل لابن الأثير ، والمختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء ، وغيرهما ، وبذلك أصبح الكتاب « فى تاريخ القدماء ، جمع فأوعى ، وإليه فى هذه المادة الرّجعى [١] » وقابل رفاعة الترجمة على أصولها مقابلة دقيقة [٢] ، وعلّق على بعض ما ورد فيه ، كما فعل عندما وازن بين ما كان العرب يذكرونه من تولّد بعض الناس من ملائكة وآدميين ، أو حيوان وبشر ، وبين ما كان اليونان يعتقدونه من تولّد الناس من الآلهة والبشر [٣] .

حوى الكتاب إذاً تاريخ الأقدمين المعروف تاريخهم ، وربما تغير كثير من الحقائق التى يحويها ، بما أصاب العلم من تقدم مبنىّ على ما عثر عليه من المكشوفات ولكن الكتاب بعدئذ تبقى له قيمته التاريخية .

ولغة الكتاب سهلة واضحة ، وبه معجم يشرح الكلمات الغريبة التى بالكتاب « مرتبة على حروف المعجم ، مضبوطة حسب الإمكان ، ومفسرة على الوجه الأتم ، سواء كانت أسماء بلدان أو أقاليم أو جبال أو أنهر أو خلجان أو بوغازات أو غير ذلك ، ترجمة محمد افندى عبد الرازق أحد تلامذة مدرسة الألسن [٤] » .

وقد نقل الكتاب إلى العربية ورفاعة ناظر لمدرسة الألسن ، وطبع بمطبعة بولاق سنة ١٢٥٤ ﻫ وكان مما يدرس بالمدارس التجهيزية [٥] .

ورغب رفاعة بعد ترجمة تاريخ القدماء أن يترجم تاريخ القرون الوسطى للافرنج والعرب ، حتى تكمل سلسلة التاريخ ، فاختار لذلك كتابا ، قال رفاعة فى مقدمته : « أما بعد فيقول الفقير إلى الله تعالى رفاعة رافع ناظر مدرسة الألسن : هذه رسالة فى تاريخ القرون الوسطى ، تكملة لتاريخ القدماء ، الذى طبعه ولى النعم ، صاحب

---

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .

(٤) بداية القدماء ص ١٩٣ .

(٥) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٢٢٩ .

الجود والكرم ، ترجمه من الفرنساوية إلى العربية مصطفى أفندى الزّرابى ، وصحّحه المصّححون بمدرسة الألسن نظارة الفقير، ثم قابلته على أصله ، وسمّيته قرّة النفوس والعيون ، بسير ما توّسط من القرون » ، فجاء بحمد الله تعالى عظيما فى معناه ، نافعاً لمن اعتناه ، تعرف به أحوال القرون المتوسطة حق المعرفة[(١)] » .

والكتاب ضخم يقع فى جزأين ، يبلغان أكثر من ستمائة صفحة ، واعتمد المترجم فى حلّ كثير من مشكلاته على رفاعة ، كما قرّر ذلك فى خاتمة الكتاب[(٢)] .

ولما كان اتّصال مصر بفرنسا يومئذ قويّا من ناحية الثقافة رأينا عناية كبيرة من المترجمين بتاريخ فرنسا ؛ فهذا عبد الله أبو السعود مدرس اللغة العربية بمدرسة الألسن ، يترجم كتاباً من الفرنسية إلى العربية فى تاريخ فرنسا ، يسميه : « نظم اللآلئ فى السلوك ، فيمن حكم فرنسا من الملوك » . وقد أُمِر بترجمته ، وهو تلميذ بتلك المدرسة « لما أنه كتاب مفيد مختصر ، وفى جميع مدارسها ومكاتبها مشهور معتبر » . قال مترجمه : « فامتثلت الأمر وأطعت ، وترجمته فى أقرب وقت ... وتعريبه مما يوثق بما فيه ، ولا يبخل بالمعارف على من يقتفيه ، كيف لا وقد صححه وقابله على أصله من حاز الصفات الحميدة ، والفعال المجيدة ، فأصبح سالم المجد مما يشين ، وأضحى غانماً من المعارف بما يزين ، حضرة رفاعة أفندى ناظر المدرسة المذكورة ، رفعه الله ، وبلّغه مناه[(٣)] » .

ويبدأ الكتاب بذكر تاريخ سكان فرنسا الأولين من الغال وينتهى بذكر تاريخ ملك فرنسا يوم ترجم الكتاب وهو لويس فيليب ، ولستُ أعرف المؤلف الفرنسى للكتاب .

وهو يتبع نظام السؤال والجواب ، ولا يراد بالسؤال أكثر من الإشارة إلى الموضوع الجزئى الذى يريد أن يتحدث عنه ، ولعلّ مؤلفه قصد من هذه الأسئلة أن تكون عوناً للطلبة على الاستذكار .

ولكى تزيد فائدة هذا الكتاب وضع مترجمه تاريخاً للملوك الذين حكموا مصر

(١) قرة النفوس والعيون ص ٢ .
(٢) ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٣) مقدمة كتاب نظم اللآلىء ص ٤ .

فى مقابلة ملوك فرنسا ، ولـكنه لم يتحدث عن ولاة مصر وحكامها الخاصين بها ، بل تحدَّث عن الخلفـاء الذين كانت مصر تدين لهم بالطاعة الفعليـة حيناً والاسمية حيناً ، وبالولاء الدينى حيناً آخر ، فذكر الخلفاء الرّاشدين ، وخلفاء بنى أميّة ، وبنى العباس ، وتحدث عن الدولة الفاطمية والأيوبية ، والمماليك ، وسلاطين بنى عثمان ، حتى انتهى إلى سلطان عصره وهو عبد المجيد بن محمود ، ورأس الأسرة العلوية محمد على ، ولـكى تسهل المقابلة بين هؤلاء وملوك فرنسا ، وهو يذكر تاريخ حكام مصر بالتاريخ الهجرى — عقد فصلا[١] ، قرن فيه السنين الهجرية بالسنين الميلادية منـذ أول سنة هجرية إلى سنة ١٣٠٠ من الهجرة ، فيذكر إزاء كل سنة هجرية مايقابلها من الميلادية حتى يسهل معرفة المتعاصرين ، من ملوك العرب والفرنج .

وترجم حسن قاسم ( الخوجة ) والمترجم بمدرسة الألسن كتاباً فى تاريخ ملوك فرنسا ، ألّفه ( الخواجة ) مونيقورس الفرنساوى و « أهداه مؤلفه لحضرة ربّ المعارف الوفيّة ، شريف باشا مدير عموم المالية ، فبالمذاكرة مع حضرة البيك المفخم ، مدير عموم المدارس إبراهيم أدهم ، استقرّ الرأى على طبعه ، وأن يطابع على ذمّة حضرة الباشا المشار إليه ، مكافأة لمؤلفه فى نظير الإهداء ، ومجازاة له عليه ، فلما أمرت بترجمته بذلت فى ذلك الهمة ، وفاء بخدمة ولى النعمة ، ولما تمّ هـذا التعريب ، لحظه بنظر التصحيح والتهذيب حضرة رفاعة بيك ناظر مدرسة الألسن وقلم الترجمة ، فشيّد مبنى ألفاظه وأحكمه[٢] » . ومما يلحظ على هذا الـكتاب أن مترجمه لم يضع له عنواناً مسجوعاً ، كمنهج معظم المترجمين فى عصره .

يؤرخ الـكتاب ملوك فرنسا من مبدأ ملـكهم إلى ملك فرنسا المعاصر للمؤلف والمترجم وهو لويس فيليب ، ويسير كسلفه على نظام السؤال والجواب ، ويقرن المؤلف عقب كل فصل أو عدّة فصول — حوادث فرنسا بأهم حوادث العالم ، وذلك مما يساعد على وحدة التاريخ ، وربط حوادثه بعضها ببعض فى ذهن القارئ .

---

(١) ص ٢٨٨ .

(٢) تاريخ ملوك فرنسا ص ٢ .

ويظهر أن كل كتاب يترجم فى التاريخ ، كانت ترجمته تهدف إلى غرض معين ، ويراد به نفع المجتمع ، والسير به إلى مراقى الكمال ، وكان اتجاه محمد على وشغفه بقراءة التاريخ باعثين للمترجمين على اختيار الكتب التى تتفق مع ميوله ، وتفيد الشعب ، وتدفعه إلى اقتباس النظم الصالحة ، والطرق الممهدة للرقى ، والتقدم فاختير كتاب يجمع بين الهدفين ، وهو كتاب تاريخ الإمبراطور شارلكان[1] ، وعهد بأمر ترجمته إلى أحد أبناء مدرسة الألسن ، وهو خليفة بن محمود ، وهو كتاب ضخم يقع فى أربعة أجزاء كبيرة ، خصص أولها لبيان الحالة التى كانت عليها بلاد أوربا قبل حكم هذا الإمبراطور ، قال مؤلف الكتاب : « لما كنت أعلم أن من قرأ تاريخ شارلكان لا يستفيد منه فائدة تامة إلا إذا كان له إلمام بالحالة التى كانت عليها بلاد أوربا قبل حكم هذا الإمبراطور ، جعلت له مقدمة تمهد لقارئه طريقاً يسلكه فى هذا الغرض ، وذكرت فى تلك المقدمة مع الإيضاح ، جميع الوقائع والحوادث التى كانت سبباً فى التغيرات المتوالية ، التى اعترت حالة أوربا السياسية ، من منذ انقراض الدولة الرومانية إلى ابتداء القرن السادس عشر ، وسميتها بتقدُّم الجمعيات ببلاد أوربا ، وذلك لأنى أودعت فيها تقدُّمات الجمعية الإفرنجية وتحسين شأنها ، فيما يخص تدبير البلاد الداخلى ، وشرائعها ، وأخلاقها ، وما يخص القوى العسكرية المدّية اللازمة لتنجيز الأعمال والمشروعات الخارجية ، وبينت فى تلك المقدمة أيضاً القوانين والأصول السياسية التى كانت بالدول الكبيرة من أوربا فى أوائل حكم شارلكان[2] » .

أما تاريخ شارلكان نفسه ، فيملأ ثلاثة مجلدات أخرى ، وقد اقتصر المؤلف فى هذا التاريخ على ذكر الوقائع الكبيرة التى عمّ تأثيرها بين البلدان ، حتى إنها

---

(١) شارلكان Charles Quint بن فيليب الجميل ، ولد سنة ١٥٠٠ وصار ملك أسبانيا سنة ١٥١٦ ، وإمبراطور ألمانيا سنة ١٥١٩ ، وسيد ممتلكات إسبانيا ومستعمراتها وقسم من إيطاليا والنمسا ، وكان يحلم حينا أن يحكم العالم ، ولكن حروبه الأربعة ضد فرانسوا الأول وضد سليمان الثانى سلطان الترك وضد اللوتريين من الألمان بددت مطامعه ، وقد أدركه التعب لطول هذه الحروب فتنازل عن العرش ، والتجأ إلى أحد الأديرة حتى توفى سنة ١٥٥٨ . اهـ Larousse P. 1274 .

(٢) إتحاف الملوك الألبا ص ١١ .

لم تزل إلى الآن مؤثرة فى حالة أوربا[١] ، واختار المؤلف تاريخ شارلكان ، « لما أنّ فى مدّة حكمه ، تجدد بين ممالك أوربا مذهب سياسىّ متسع الدائرة ، بحيث إنه من مدّة حكمه أخذت كل دولة منزلة معلومة بين الدول لم تزل تشغلها من ذلك الوقت مع شديد ثبات ، وكبير صمود ، زيادة عما يتبادر لمن اطلع على التقلبات والتغيرات المهولة ، الناشئة عن الفتن الكثيرة الداخلية ، والحروب الكبيرة الخارجية ، التى حصلت فى ذلك الوقت ، فترى الحوادث العظيمة التى حصلت إذ ذاك لم تنقطع إلى الآن مدخليتها فى حالة الممالك الإفرنجية ، حتى إن الأصول السياسية التى ترتبت عليها لم تزل مؤثرة تأثيراً عظيماً فى حالتنا الرّاهنة ، وترتّب على تلك الحوادث أيضاً أصول كالميزان للتعادل بين الممالك وبعضها ، ولم تزل هذه الأصول تؤثر فى المصالح والأعمال السياسية التى تنعقد الآن فى دواوين أوربا ، وعلى ذلك يمكن أن يقال : إن القرن الذى حكم فيه الإمبراطور شرلكان هو أول زمن حسن به شأن السياسة فى بلاد أوربا ، وأخذ يسلك مسلكاً جديداً[٢] » .

كتب تاريخ شارلكان بالإنجليزية سنة ١٧٢٩ م[٣] مؤلف إنجليزى هو روبرتسون[٤] ، واستقبله علماء عصره استقبالاً حافلاً ، وأرسل إليه ڤولتير الفرنسى رسالة يثنى عليه فيها[٥] ، ثم نقله من الإنجليزية إلى الفرنسية سوار الفرنسي ، وعن هذه الترجمة نقل إلى العربية[٦] .

أما الذى دعا إلى ترجمة هذا الكتاب فيجمله مترجمه فى قوله : « كنت أرغب الرغبة التامة فى تعريبه لأنى أعلم أنى لم أسبق بترجمة مثله ، كيف وقد جمع بين غرضين مهمين : أحدهما تاريخ الإمبراطور شارلكان ، والثانى : كشف القناع عن الحوادث العظيمة والانقلابات الجسيمة التى حصلت فى قسم عظيم من أقسام الدُّنيا ، أعنى قسم أوربا ، وكان فى أفظع درجات التبربز والتخشن ، ثم صار فى

---

(١) إتحاف الملوك الألباء ص ١١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٦ .
(٦) المرجع السابق ص ٧ .
(٦) المرجع السابق ص ١٣ .

أكمل درجات الرفاهية والتمدُّن ... ولعلَّ ديارنا إن اطلعت ، ووقفت على أسرار حقيقة ما فيه ، تتعلق بالأسباب التى تمسكت بها البلدان الأخرى ، فأخرجتها من حيز الغفلة ، وتبادر إلى سلوك سبل الفلاح والتقدم لتعود كما كانت أعظم ملة[١] »

« وهو أيضاً مهم لمن أراد معرفة إدارة الممالك ، والقوانين السياسية أصولا وفروعاً[٢] »

ويقول فى مقدمة كتاب إتحاف الملوك الألباء : « فكان إدخالها فى اللغة العربية من أعظم المهمات ، ولا سيما وأن الخديو الأعظم الذى يسلك مسلك حسن التربية والتمدن يرغب الاطلاع على مثل هذه الوقائع ، ويروم تعليم أهالى مملكته ، وإطلاعهم على هذه المنافع[٣] » .

ترجم خليفة محمود كتاب تاريخ شارلكان فى أربعة مجلدات ، كما ذكرنا ، ولأن الجزء الأول منها ذو أهمية خاصة ، لبحثه فى مسائل الاجتماع صارت نسبته إلى الكتاب ، نسبة مقدمة ابن خلدون إلى تاريخه[٤] ، فأفرده المترجم بعنوان خاص هو : « إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » ؛ بينما سمى تاريخ شارلكان بمجلداته الثلاثة : « إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شارلكان » .

والمترجم فى الجزء الأول والأجزاء الثلاثة يعترف بما قدّمه رفاعة من جهد فى تصحيح الكتاب ومقابلته بأصله ، وتقويم لغته ، إذ يقول فى الجزء الأول ( وهو المقدمة ) : « وحيث إنها باللغة الفرنساوية من مستصعبات التأليف ، ومختصرات التصانيف ، استعنت فى تذليل صعابها ، وكشف نقابها ، بمراجعة من لسان القلم فى مدحه ووصفه قصير ، ومن أتى فى مدحه بأبدع مقال ، فإنما هو آت بيسير من كثير ، حضرة رفاعة أفندى مدير مدرسة الألسن حين التوقف والحاجة إلى ذلك ، وهو أيضاً الذى صححها على أصلها ، وقابلها كل المقابلة[٥] » . وفى موطن آخر يتحدَّث عن الصعوبات التى كانت جديرة أنْ تثنيه عن عزمه على ترجمة هذا

---

(١) إتحاف الملوك الألبا ص ٦ سابقة .
(٢) المرجع السابق ص ٩ .
(٣) ص ٣ .
(٤) إتحاف ملوك الزمان ص ٣ .
(٥) إتحاف ملوك الألبا ص ٣ .

الكتاب الضخم الصعب ، فيقول : « ولكن غرّنى الرجاء والأمل ، وأمنت الخطأ والزلل ، حيث كان لى ثمّ بطل أرجع إليه ، وصنديد نحرير فى هذا الشأن أعوّل عليه ، كيف لا ، وهو النجيب اللبيب ، الألمعى الأريب ، من هو لفكّ المشكلات قريب مجيب ، رفاعة أفندى رافع ، لا زال به ظهور المنافع ، تمكّن من حلّ مشكل اللغتين ، فحلّ فوق الفرقدين[1] » .

ومن ذلك « كتاب الرّوض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر » وقد طلب رفاعة إلى أحد تلامذته وهو أحمد بن عبيد الطهطاوىّ أن يترجمه ، وهنا يحسن أن ننقل بعض مقدّمة المترجم ؛ لنرى فيه أثر رفاعة فى تلاميذه ، وجهده فيما كانوا ينهضون به من كتب يترجمونها ، قال : « إنى لما اغتنمت يد الفخار والعزّ ... ألقتنى بمدرسة الألسن ... فمكثت تحت إرشاد مدير أشغالها ، وناسج منوالها ، حضرة المولى الذى شهدت برفعته غرر الكواكب ، ونطقت بفضله ألسنة المناقب المؤيد برعاية الملك المبدى ، السيّد رفاعة بدوى رافع أفندى ، . . . فأجاد تربيتى كغيرى ، حتى حسن حالى وسيرى ، وتعلمت بإرشاده من اللغتين الفرنساوية والعربية ما يحتاج اللبيب إلى معرفته . . . فبعد أن رأى فى التعليم حسن حالى ، واجتهادى فى نيل المعالى بين أمثالى ، اقتضى رأيه المؤيّد ، وحزمه المعضّد أن أترجم كتابا من كتب التاريخ ، فاختار تاريخ ملك من ملوك الإفرنج ، تعلو همته بينهم على المرّيخ ، وهو تاريخ بطرس الأكبر ، الذى فضله بين ممالك أوربا أشهر من أن يذكر ، فأخذت أمره بالطّاعة والانقياد ، وشمّرت عن ساعد الجدّ والاجتهاد ، وشرعت فى نقله من الفرنساوية إلى العربية ، مع إعانته لى فى حلّ مشكلاته ، وما عسر علىّ من غوامضه ومعضلاته ، لاسيما ومؤلفه من كبار الفلاسفة الإفرنجية ، وهو الفيلسوف الشهير المسمى ڤولتير ( Voltaire )[2] الذى غاص من

---

(١) المرجع السابق ص ٥ سابقة .

(٢) ولد سنة ١٦٩٤ وتوفى سنه ١٧٧٨ وتنقسم حياته قسمين ، فقد عنى إلى سنة ١٧٥٥ بالأدب بخاصة وانغمس بعدئذ فى الفلسفة وله مؤلفات شعرية وتمثيلية وتاريخية وفلسفية . وترجمته فى كتاب . Man. Il. d'Histoire de La Littérature Française P. 388

بحار الفلاسفة أى لجة ، ويعدّ بين أكابرهم أعظم حجة [١] » ، فأنت تسمع اعتراف أحد تلامذته بفضله ، وترى بعض ما كان يبذله رفاعة من جهد فى اختيار الكتب الصالحة ، التى يرى فيها نموذجا يقتدى به فى النهوض بالوطن ، فيكلف تلامذته ترجمته .

والكتاب تاريخ مستفيض فى تاريخ بطرس الأكبر ودولة الروس فى عهده ، وقد تمت مراجعة رفاعة له ، وهو ناظر قلم الترجمة ومدرسة الألسن ، وإن كان طبعه فى عهد عباس باشا سنة ١٢٦٦ ﻫ .

ولا ريب أن كتابا يؤلفه ڤولتير ، جدير بالثقة والتقدير ، وأن يعد من خير المراجع عن تلك الشخصيه الكبيرة .

وأمر مدير المدارس يومئذ مختار بك ترجمة كتاب تاريخ كرلّوس الثانى عشر ملك السويد المتوفى سنة ١٧١٨ م ، وربما كان الدافع على تعريبه ما امتاز به هذا الملك على صغر سنه من خوض غمار كثير من الوقائع ، والرغبة فى معرفة تاريخ أوربا ، والاستفادة من الأخطاء التى وقع فيها الملوك ، وقد وكل ناظر مدرسة الألسن رفاعة افندى ترجمة هذا الكتاب إلى محمد مصطفى ( الباشجاويش ) بمدرسة الألسن ، « والذى ألبسه ثوب التصحيح ، وكساه حلة التهذيب والتنقيح ، وكشف القناع عن مسائله الصعاب ، وقد كانت شمسه متوارية بالحجاب ، هو ربُّ الفصاحة والبراعة ، والقريحة التى هى لفهم المعضلات سلسة مطواعة ، كيف لا ؟ وهو فى اللغتين سبّاق غايات ، وصاحب آيات بينات ، ناظر المدرسة المذكورة ، التى باللغات والعلوم صارت معروفة مشهورة ، حضرة رفاعة أفندى ، حفظه المعيد المبدى ، وقد سميت هذا التعريب الذى يروق الخاطر ، ويعجب الناظر « بمطالع شموس السير فى وقائع كرلّوس الثانى عشر [٢] » .

---

(١) من مقدمة الكتاب ص ٢ و ٣ .

(٢) من مقدمة الكتاب ص ٤ وكرلوس الثانى عشر بن شارل الحادى عشر ملك حربى ولد فى استكهلم سنة ١٦٨٢ م لم يكد يتسلم مقاليد الملك بعد بلوغه سن الرشد حتى انتصر على ملك الدنمرك وعلى الروس وملك بولونا ولكنه لما حارب بطرس الأكبر ملك الروس مرة أخرى لم يستطع أن ينتصر عليه ، واضطر إلى الالتجاء إلى الترك ، ثم استطاع أن يستعيد بلاده السويد سنة ١٧١٥ ومات قتيلا سنة ١٧١٨ ، ودفنت معه أطماعه الواسعة . ا ﻫ

La rousse. P. 1274

وفى مقدمة الكتاب والتعليق عليه ما يشير إلى الهدف من وراء تعريبه ، إذ يقول معرِّبه : « هذا تعريب فائق ، وتهذيب رائق ، لكتاب من صعاب كتب التاريخ الفرنساوية ، معتنى به عند سائر الملل الإفرنجية ، بل ترغب فيه كل أمة تميل إلى الجهاد ، لما فيه من الوقائع الحربية ما يفى بالمراد ، فكيف ومنه يستفاد غرائب وقائع ملوك الإفرنج الكبار ، الذين حازوا فى مضمار الميادين كلّ فخار ، لا سيما ملك إسوج كرّلوس الثانى عشر فى مبارزته لقيصر الموسقو : بطرس الأكبر ، ومن نظر بعين التحقيق ، ونقد الوقائع مع غاية التدقيق ، عرف أن غزوات ولىِّ النعم مرآة تنطبع فيها تماثيل وقائعهم الماضية ، ومشكاة يسفر مصباحها عن لوامع سيوفهم الماضية ، ولذا أهديته لصاحب مصر ، نادرة العصر [(١)] » .

وهاك ما علق به المترجم على سيرة هذا الملك ، مما يدل على روح نقديّة حازمة ، وعلى أنّ بعض المترجمين لم يكونوا آلات تنقل فحسب ؛ ولكن يفكّرون ويستنبطون ويزنون ، قال « فهكذا كانت ميتة ذى الشّوكة القويّة ، كرّلوس الثانى عشر ، ملك البلاد الإسوجية ، شرب كأس المنون صرفا ، وقد بلغ من العمر ستاً وثلاثين سنة ونصفا ، بعد أن حاز من السعادة منتهاها ، وكابد من شدائد النكبات أقصاها ، من غير أن تكسبه الأولى رفاهية ورخاوة ، أو تزيل عنه الثانية بالوهن والهوان القوة والقساوة ، كانت مشروعاته عجيبة ، وكيفية عيشه غريبة ، خرقت العادة فقلّ من يذعن إليها ، وتجاوزت الحدّ فلا مصدّق بما لديها ، وهو الذى امتاز إلى الآن عن الملوك وسائر الناس بهذه الشّوكة القويّة وشدّة اليأس ، تجاوز الحدّ فى فضائل الأبطال ، حتى عادت فى الخطر كضدّها من ذميم الخصال ، فإنّه لمّا أفرط فى الثبات والتصميم ، كان ذلك من باب العناد الذّميم ، وأوجب له ... حلول النكبات ، وترتب عليه أن أقام ببلاد الترك خمس سنوات ، ولما بلغ كرمه حدّ التبذير . آلت بذلك مملكته إلى التفليس والتدمير ، ولما تجاوزت شجاعته الحدود ، أفضى به ذلك إلى أن ثوى باللّحود ... وهو أوّل من أولع بفتح البلاد من غير أن يطمع لمملكته فى الاتّساع والازدياد ، فكان يرغب فى فتحها

---

(١) مطالع شموس السير ص ٣ .

لمنحة غيره ، إيثاراً لنشر شهرته وفخره ، وقد منعه تولّعه بالفخار ، وفرط رغبته في قتال عدوه لأخذ الثأر أن يكون صاحب سياسة ، وتدبير وحزم و كياسة ، مع أنّ الفاتح بدون ذلك لا يظفر ، ويبعد عنه مرامه ويتعذّر ... فهو حرّى أن يوصف بالانفراد ، لا أنه عظيم بين العباد ، وجدير بأن يتعجب من أفعاله ، لا أن ينسج على منواله [١] » .

ولم يذكر المترجم اسم مؤلف الكتاب ولعله ڤولتير [٢] .

وكتاب آخر تلائم ترجمته ذلك العصر الذى مضت فيه الدّولة المصرّية تتلمس أسباب الكمال ، وتتجنب علل النقصان ، وهو الكتاب الذى ألّفه العالم الفرنسى مونتسكيو [٣] ( Montesquieu ) وتحدّث فيه عن أسباب ارتفاع دولة الرومان وانحطاطها وسماه ( Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence. ) .

فقد قام أحد تلامذته فى مدرسة الألسن ، وهو حسن بن الجبيلى بترجمته إلى العربية بعنوان « برهان البيان ، وبيان البرهان ، فى استكمال واختلال دولة الرومان » .

ويقول مترجمه فى مقدمة ترجمته [٣] : « ثمّ إنّى لم أغفل عن مراجعة الفاضل اللّبيب ، الكامل الأريب ، الدقيق فهمه ، الكثير علمه ، سيدى رفاعه أفندى ، حفظه المعيد المبدى ، فى حلّ بعض مشكلاته ، وفك ما عسر علىّ فهمه من معضلاته »» ، ويقول فى خاتمة كتابه : « كان المعوّل فى ترجمته ، وترقى الفهم إلى منيع ذروته بالمراجعة والتوضيح ، والمقابلة والتصحيح ، على صاحب المآثر الوطنية ، الأمير الشهير ، المرحوم رفاعة بك [٤] » ولست أدرى إن كان هذا الكتاب هو الذى أشار إليه رفاعة ، وهو يعدّد آثاره العلمية فى قوله :

على عدد التواتر معرباتى تفى بفنون سلم أو جهاد

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥١ .

(٢) راجع man. Il. d' Hist. P.388

(٣) ص ٤ . (٤) ص ٨٣ .

وملطبرون يشهد ، وهو عدل ومونتسكو يقرّ بلا تماد [١]

فإنى لم أعثر على اسم كتاب لمونتسكيو ، ترجمه هو أو تلامذته غير هذا الكتاب ، لكن يعكر على ذلك أن فراغ مترجمه من تمام تعريبه وتصحيح ترجمته وتهذيبه [٢] كان سنة ١٢٩٠ ، وتلك القصيدة التى يتحدث فيها عن آثاره العلمية ، أنشأها وهو فى السودان ( ١٢٦٧ — ١٢٧١ هـ ) ، فهل كان حديثه عنه ، لأنه أشرف على ترجمته التى بدأها صاحبها فى عصر محمد على ، كما يدل على ذلك مقدمة الكتاب [٣] ، أو أن هناك كتاباً آخر لمونتسكيو ترجمه رفاعة ، ويميل إلى ذلك — كما أميل إليه أيضاً — الأستاذ الرافعى إذ يقول : « قرأت للأستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان رسالة [٤] يقول فيها : « إنه سمع من ابن رفاعة بك أن أباه عرّب مونتسكيو » ، ورأيت فى قصيدة لرفاعة بك ما يؤيد ذلك [٥] » .

ولست أدرى أى كتاب عرّبه لمونتسكيو ، فإن له عدة كتب قرأ منها رفاعة وهو فى باريس كتاب روح الشرائع L'Esprit des Lois فلعله هو الكتاب الذى ترجمه رفاعة .

وأنت ترى من كل ما أسلفنا بعض الاتجاهات فى ترجمة كتب التاريخ : بين تاريخ دولة ، أو تاريخ شخصية عظيمة ، وهى ترمى فى جملتها إلى معرفة الأسباب التى نهضت بأوربا حتى وصلت بها إلى عصر النهضة الزاهرة ، تلك النهضة التى رغب محمد علىّ أن ينالها فى أقصر الأوقات .

ومن كتب الجغرافيا التى صححها رفاعة كتاب « الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار » ، ألّفه أحد مستشرقى الإفرنج فى عصر محمد على باشا ، ويقول صاحب كتاب حركة الترجمة : إن الذى نقله إلى العربية هو يوسف فرعون [٦] . ولكنى رجعت إلى الكتاب ، فلم أجد شيئاً عن المترجم ، ولم يشر إليه إشارة ما ،

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٦ .
(٢) برهان البيان ص ٨٣ .
(٣) ص ٣ .
(٤) تجد نصها بكتاب مناهج الألباب ص ٤٤٩ .
(٥) عصر محمد على ص ٥١٤ .
(٦) شيء عنه وعن آثاره بكتاب حركة الترجمة ص ٥٦ .

بل يذكر رفاعة أنه صححه ، واجتهد حسب طاقته فى تصليحه ، وصياغته صياغة عربية ، بعد أن كانت عبارته مالطية حشية[1] ، وقد طبع أول ما طبع بمالطة[2] ، وذاك مما يرجح أن يوسف فرعون لم يترجمه ، وأن المستشرق وضعه بهذه العربية السقيمة التى صححها رفاعة .

والكتاب مختصر فى الجغرافيا مرّتب على مقدمة فى أقسام الأرض ، وخمسة فصول فى جغرافية أوربا وآسيا ، وإفريقية ، وأمريكا ، واستراليا ، وخاتمة فى أمور تتعلق بالكرة الأرضية بعامة ، وهو مؤلف على طريقة السؤال والجواب ، وأسئلته ليست مبنية على الطريقة الدقيقة للسؤال ، بحيث تثير التفكير فى نفس المسئول ، وهى تؤدى عمل العناوين الجزئية ، وهاك نموذجا منها :

س : ما هى الحدود الكائنة فيما بين أوربا وأفريقية ؟

ج : بحر الروم .

س : ما هى الحدود الكائنة فيما بين أوروبا وأمريكا ؟

ج : بحر الظلمات وهو المحيط الغربى .

والكتاب صغير فى حجمه ، موجز فى أسلوبه ، مضغوط فى معلوماته .

ولما عاد أحمد[3] حسن الرشيدى من بلاد أوربا ، وقيد بمدرسة الطبّ حكيما ومعلماً ، تشاورأرباب ديوان المدارس فى اختيار كتاب يقوم بترجمته حسبما تقتضيه القوانين والرسوم ، فانعقد الرأى على كتاب الدراسة الأولية ،فى الجغرافية الطبيعية ، الذى ألفه فيلكس لامروس[4] ، قال المترجم : ولما كمل حسب الطاقة تصحيحاً ، وتم تهذيباً وتنقيحاً ، رأيته يحتوى على أسماء بلاد كثيرة وأنهار ونحو ذلك ، لست فى ترجمتها إلى العربية قوىّ البضاعة ، لأنى وإن كنت درست أصول الجغرافيا فى أوربا ، إلا أننى لم أتخذها صناعة ، فجزمت أن لا مردّ لها إلا العمدة الفاضل ،

---

(١) الكنز المختار ص ١٤٣ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ترجمته وآثاره بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٤ ص ١٦٥ وكتاب حركة الترجمة بمصر ص ٦٩ .

(٤) الدراسة الأولية ص ٣ .

والسيد الكامل ، الحاذق اللبيب ، والنحرير النجيب ، رفاعة أفندى ، معلم الجغرافية الطبيعية ، ومن له فى هذا الفنّ التآليف والتراجم البهية ، فأعرضت للدّيوان أن لا بد من مقابلته مع هذا الهمام ، فأجبت إلى ذلك ، وبلغت من سؤالى المرام ، وقابلته معه على أصله مع غاية الانتباه والإتقان ، تحرّيا فى الوقوف على المعنى المراد ، وفى زيادة البيان[1] » ؛ والكتاب مكوّن من أجزاء : الجزء الأول فى علم الفلك ، والجزء الثانى فى الجوّ ، والثالث فى المياه ، والرابع فى طبقات الأرض Géognosie والكتاب معدّ لتلامذة المكاتب والمدارس وللشبان الذين يميلون إلى اكتساب العلوم.

وأشرف رفاعة على ترجمة كتابى رحلة : أما أولهما فكتاب سياحة فى أمريكا ، ألفه المعلم هنرى مركام ، يصف فيه سياحته بتلك البلاد ، وقد صدر أمر من ديوان المدارس بتعريبه ، فاختار رفاعة له سعد نعام[2] ، وقام هو ومحمد قطة العدوى بتصحيح تراكيبه وتنقيح أساليبه[3] ، ويتحدث الكتاب فضلا عن مشاهدات مؤلفه حديثاً طويلا عن استكشاف أمريكا ، وأخلاق قدماء أهلها .

وأما ثانيهما فكتاب سياحة فى الهند ، ألفه ( أوبيرثولد ) ، ولما صدر أمر ترجمته ، اختار رفاعة له إبراهيم مصطفى المشهور بالبياع الصغير[4] ، لينقله من الفرنسية إلى العربية ، وأشرف رفاعة على هذه الترجمة[5] ، والكتاب يصف ما شاهده مؤلفه بالهند عند ما ارتحل إليها سنة ١٨٣٧ م ، فتحدث عن جغرافيتها ومدنها ، وما بها من مدارس وعمارات ، وآثار قديمة وغرائب ، وعن العوائد الهندية ، والحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية واللغات واللهجات ، وصلة الهند بالأجانب وغير ذلك .

وفى الفلسفة ، أشرف رفاعة على كتاب تاريخ الفلاسفة ، الذى نقله إلى اللغة العربية عبد الله بن حسين أحد تلامذة مدرسة الألسن ، وقد أراد مترجمه أن يكسب

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٢) سياحة أمريقة ص ٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٩ .
(٤) سياحة الهند ص ٣ :
(٥) المرجع السابق ص ١٦٢ .

بعمله رضاء الخديوى الأكرم ، الذى أحسن إليه بحسن التربية وأنعم [١] ، واستعان فى مشكلات الكتاب وتحرير ترجمته بناظر المدرسة [٢] .

والكتاب عرض موجز لحياة أشهر فلاسفة اليونان وآرائهم ، بدأه بترجمة طاليس المليطى المولود فى السنة الأولى من الأولمبياد الخامس والثلاثين ، أى قبل الميلاد بنحو ستمائة وأربعين سنة [٣] ، وختمه بتاريخ زينون ، ومن بين الفلاسفة الذين ترجم لهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور .

وأشرف على تعريب كتاب فى المنطق ، وصححه ، وقد قام بترجمة هذا الكتاب أحد تلامذة مدرسة الألسن خليفة بن محمود ، قال فى مقدمة كتابه : « لمّا تجدّدت للألسن مدرسة ، وكانت على أصول العلوم وفروع الترجمة مؤسسه ، وكنت من زمرة تلامذتها الباذلين الهمة فى تحصيل مرغوبات ولىّ النعمة ، فتعلّمنا مايسّر به الخلاق لتوفيقه لمدير تلك المدرسة فى مزيد اجتهاده معنا على الإطلاق ، أعطى البعض منا كتباً لتعريبها وتنقيحها وتهذيبها ؛ فكان من جملة ما أخذته رسالة فى علم المنطق ، تذكر فيها عمليات العقل الأصلية ، تأليف المصنف دومرسيه ( Dumarsais ) الفرنساوى ، وسمّيت تعريبها ( تنوير المشرق بعلم المنطق [٤] ) .

والكتاب يبدأ بدراسة الفرق بين الرُّوح والجسم ، ثمَّ يشرح عمليات العقل والتصوّر والتصديق والقياس والاستقراء والسفسطة وألوانها .

وفى الطب البيطرى راجع رفاعة كتاباً ألّفه حكيم باشا أمون ، الذى بنيت له مدرسة البيطرة ، وقرأه بها ، ثمّ ترجمه إلى العربية يوسف فرعون ، وسماه ( التوضيح لألفاظ التشريح [٥] ) ، والكتاب يتحدّث عن خواص الحيوان : من خيل ، وحمير ، وبغال ، وبقر ، ومعز ، وطيور ، وغيرها ، ويتحدث عن أعضائها ، ووظيفة كل عضو فيها ، ولمّا صحح الكتاب ، وقوبل بأصله « صدر أمر

---

(١) تاريخ الفلاسفة ص ٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٤ .
(٤) مقدمة الكتاب ص ٣ .
(٥) مقدمة الكتاب ص ٣ .

كريم ، من رؤساء ديوان الجهادية بأن يقابله كل من الفاضل البارع ، رفاعة أفندى رافع ، والجناب المكرم بيكباشى هرقل ، فبادرا بالامتثال ، وقابلاه مقابلة ليس لها مثال ، مع إمعان النظر ، وإيضاح ماخفى واستتر ، فصار هذا الكتاب مرتّب المبانى ، مهذب المعاني[1] » .

وألّف الطبيب جيرارد رئيس المدرسة البيطرية كتاباً فى أمراض قدم الحيوان وترجمه إلى العربية الحاذق النجيب ، « المجتهـد فى تحصيل النجاح ، محمد أفندى عبد الفتاح[2] ، أحد شبان أبناء العرب الذين أرسلوا إلى بلاد أوربا ، لتعليم مايحوزون به الفضائل والرتب ، وقابله على أصله العمدة الفاضل ، والحجة الكامل من لاينازعه فى الفصاحة والبلاغة منازع حضرة رفاعة أفندى رافع » ، وسمى الكتاب بعد ترجمته ( تحفة القلم فى أمراض القـدم ) والكتاب يشرح أقدام الحيوانات ، ويدرس ما يعتورها من الأمراض .

ورأى خليل محمود أن كثيراً من فنون الفرنج قد ترجم إلى العربية ماعدا فنّ الزراعة ، فأخذ فى ترجمة كتاب كبير فى هـذا الفن يبلغ نحو أربع مجلدات[3] ، وترجم كتاباً مختصراً يعدّ مقدمة لهذا الكتاب الضخم ، « وكان ممن نظر إلى هذا الكتاب بعين الاعتبار ، كى تدنو قطوفه ، وتجتنى ، حضرة ناظر مدرسة الألسن ، الجالب لها ما يعذب ويحسن ، فلا بدع أن يرتفع قدرها برفاعة ، وأن تسمو به إلى أعلى يفاع البراعة[4] » ، قال المترجم : « والقصد من هذا الكتاب تقريب هذا الفن للطلاب ، وإنما اخترته على ما سواه ، لأنه معد لتعليم التلامذة ما فى فحواه ، مع صغر حجمه ، وغزارة علمه ، فيقبس منه أهل هـذه الأمصار كيفية زراعة الإفرنج ، المهرة الشطّار ، وبه تـكمل كتب الفنـون الإفرنجية ، المترجمة إلى العربية ، حيث كان هذا الكتاب ، أول ماطبع فى هذا الفن المستطاب وسميته ( كنز البراعة فى مبادئ فن الزراعة[5] » .

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) شيء عنه فى كتاب حركة الترجمة ص ٦٠ .
(٣) كنز البراعة ص ٣ .
(٤) المرجع السابق نفسه .
(٥) المرجع السابق نفسه .

والكتاب يتحدث عن زراعة الأرض وطرق إصلاحها ، وأنواع المزروعات والحيوانات التى تعد لوازم للزراعة والتجارة : كالخيل والحمير والبغال والمعز والضأن.

وهو مبنى على السؤال والجواب ، والسؤال فى الواقع يقوم مقام عنوان جزئى فى الفصول ، وهاك نموذجاً له :

السؤال : ماهى الأوقات المناسبة للسقيات ؟

الجواب : هى وقت الصباح ، بعد زوال كثافة النداء ، وفى العشيّة ، قبل نزول الطل ، فأما إذا كان الوقت غيما فلا بأس بالسقى فى أىّ ساعة[1] .

ذلك ماعثرت عليه مما أشرف رفاعة على ترجمته ، فراجعه ، وقابله بأصله ، وأنت ترى من ذلك تنوّع الميادين التى كان يعمل فيها ، من تاريخ ، إلى جغرافية ، إلى فلسفة ، ومنطق ، إلى طب ، وزراعة ، وكان عمله فى كثير من الأحيان مراجعة الصياغة ، حتى تصبح فى أسلوب عربى ، والعثور على مصطلح يقابل اللفظ الأجنبى وقد استطاع بدأبه ودأب تلاميذه أن يطوّع اللغة للتعبير عن كل ما تريد الفرنسية التعبير عنه فى مختلف هذه الميادين .

ومما يلحظ أن هذا الجهد القيم ، الذى بذله رفاعة ، قد وقف عندما أغلقت مدرسة الألسن ، فلم أر له إشرافاً على كتب بعد ذلك التاريخ ، اللهم إلا كتاب برهان البيان ، الذى لم يطبع إلا بعد وفاته[2] سنة ١٢٩٣ هـ ( ١٨٧٦ م ) ، ولست أدرى متى تمت مراجعة رفاعة له ، وإن كنت أرجّح أن تلك المراجعة قد تمت فى عهد مدرسة الألسن ، كما يدل على ذلك مقدمة الكتاب وخاتمته .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ .

(٢) بناء دولة ص ١١٦ .

# أدبـــــه

تنوع أدب رفاعة بين شعر ونثر ، يضعانه فى الصف الأول بين أبناء عصره ، فقد بعـد بهما فى غالب الأمر عن أن يجعلهما مظهراً للصناعة اللفظية فحسب ، ينشىء القطعة من الشعر ، والمقامة من النثر ، يتلمس بهما محسناً بديعياً ، أو نـكتة للزخرفة ليس غير ، ولـكن كان لديه مايريد أن يعبر عنه من المعانى ، وإذا كانت الـصنعة قد وجدت سبيلها إلى أدبه ، فرأيناه فى النثر يعمد إلى السجع ، ويلتزمه أحياناً ، وفى الشعر يلجأ إلى بعض الزخارف ، فمنشأ ذلك حكم العصر الذى عاش فيه ، والذى لم يتخلص من قيود الماضى ؛ وليس معنى ذلك أننا نضع أدب رفاعة فى صف أدبنا اليوم ، ولـكننا نعـده من طلائع هذا الأدب الذى يرمى إلى نقل المعانى ، وتصوير مايجول بالنفس من إحساسات .

والذى هيأ لرفاعة هذا الإنتاج الأدبى ، غرامه منذ نشأته فى الأزهر بالأدب ، وشغفه به ، وإقباله على حفظ الـكثير من مأثوره ، حتى قال عن نفسـه ، وهو يتحدّث عن اللغة العربية : « وقد كلفت منهـا بالآداب ، كلف العاشق بزينب والرّباب [1] » وكان لذلك أثره فى إنتاجه طول حياته ، فـكثيراً ما يستشهد فى مؤلفاته بما وعته حافظته من هذا المأثور ، ترى ذلك فى أول كتاب ألّفه فى باريس وهو تخليص الإبريز ، وفى كتاب مناهج الألباب المصرية ، وهو من أواخر ما ألفه وكان رفاعة يرى ذلك من ضرورات التأليف الأدبى ، ويعدّه مما يناسب الذوق العربىّ ، حتى إنه لم يكن راضياً تمام الرضا عن تقديم ترجمته لوقائع تليماك إلا بعد أن يخضعه لهذا النّهج من التأليف — كما ذكرنا —

واطلع رفاعة على الـكثير من أدب فرنسا ، وما كان يـكتب فى صحفها ، وكان لذلك أثره فيما عالجه من مقالات ، وما أنشأه من شعر يترجم عما فى نفسه ، ولا يقف به عند حد المدح أو الهجاء ، ويحسن بنا أن نقف عند كل لون من ألوان أدبه ، ندرس خصائصه على حدة .

(١) نظم العقود ص ٣ .

## شعره

كان لرفاعة نفس حساسة بما يحيط بها من مظاهر الجمال ، ولسان يريد أن يعبر به عما يملأ نفسه من هذه المعانى ، ولعل حبه للأدب ، كان لإشباع هذه الرغبة فيه ، فهو يستشهد به حين لا يسعفه اللسان لتبيين ما يختلج فى صدره من خواطر ، وما يمر به من إحساس ، واختياراته من الشعر تدلنا على حبه لهذا اللون من الفنون الجميلة ، وإن كنا نشعر بأن ذوقه لم يتخلص بعد من عصره الذى يعيش فيه ، والذى يميل إلى أنواع المحسنات البديعية .

ويدلنا على حساسية هذه النفس ، ورغبتها فى التعبير عما يجيش بها ما رواه رفاعة عن نفسه عندما مرَّ بمدينة ( مسِّينة ) وسمع بها أصوات النواقيس ، فقد أطربه صوتها ، فأثار فيه مكامن الشعور بالجمال ، فجرى الشعر على لسانه ، قال فى رحلته [1] ، يصف ما شعر به عندما مرَّ بمدينة مسينة : « والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث إننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا ، حتى إنَّ ضربهم النواقيس مطرب جداً ، وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى ، فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة مضمونها ثلاثة معان ؛ الأول المجادلة فى أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة وأنشأت فيه قولى :

أصبو إلى كلِّ ذى جمال ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب وإنما شيمتى العفاف

الثانى سكر المحبِّ من معانى خمر عينى محبوبه ، واستغناؤه عن الراح براحته ، وأنشأت فى هذا المعنى قولى :

قد قلت لما بدا والكأس فى يده وجوهر الخمر فيها شبه خدَّيه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ونشوتى من معانى سحر عينيه

---

(١) تخليص الإبريز ص ٣١ .

الثالث فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، إذا كان من يضرب الناقوس ظريفاً ، يحسن ذلك ، وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالنـاقوس قلت له     من علَّم الظبى ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس : أى الضرب يؤلمك     ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسى

وذيَّلتها ببعض أبيات مجنسة .

وهذا يدلنا على رهافة حسه ونظرته إلى الشعر ، وأنه وسيلة للتعبير عن هذا الإحساس .

وهو يؤمن بأن الشعر هبة ، وأن معرفة قوانين النظم لا تكفى لقرض الشعر بل لا بد أن تكون الشاعرية سجيَّة ، والنظم سليقة وطبيعة ، وإلا كان نفسه بارداً وشعره غير مقبول [1] .

ولكن رفاعة ما كان يعدُّ الشعر من بين ما يعتز به من المواهب ، ولا ما يفتخر به عند تعداد مفاخره ، ولا مما يقف جهده عليه ، وإنما هى نفثات يفيض بها قلمه ، عندما يمتلىء بها صدره ، وها هو ذا يقول :

وما نظم القريض برأس مالى     ولا سندى أراه ولا سنادى [2]

* * *

كان اتصال رفاعة بالبيت المالك ممـا جعل مدح أبناء هذا البيت غرضاً من أغراض شعره ؛ فجميع ملوك هذا البيت ، وبعض أمرائه ، نظمهم رفاعة فى سلك مدائحه ، فهو يمدح محمد علىٍّ ، وابنه ابراهيم باشـا ، ويذكر ما أبلياه فى حرب الحجاز والسودان واليونان ، وما نال العلم فى ذلك العهد من الإحياء قائلا [3] :

ولئن حلفت بأنَّ مصر لجنَّة     وقطـوفها للفائزين دوانى
والنيل كوثرها الشهىُّ شرابه     لأبرُّ كلَّ البرِّ فى أيمـانى
دار يحقُّ لها التفاخر سيما     بعزيزها جدوى بنى عثمان
حاز المحـامد إذ دعى بمحمَّدٍ     ورقى العلا فعـلا على الأقران

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٩١ .
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٩ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٤٩ .

من كان مثـل أميرنا فقرينه     إسكندر أو كسر نوشروان
فى وجهه النصر المبين على العدا     لاحت بشـائره لـكل معاني
فى كفه سيفان : سيف عناية     والشهم إبراهيم سـيف ثان
سل عنه ينبيك الحجاز مشافها     بدمار أهل الزَّيغ والبهتان
من قبل كانت سبله مذعورة     والآن صـارت فى كمال أمان
لا غرو إن نجد أدامت شكره     فلقد كساها حلة الإيمان
وسعت إلى زنج طلائع جيشه     فأطاعهـا العاتى من السُّودان
وتقلُّب الأروام عدل شـاهد     كم منه قد نالوا شديد طعان
حتى لقد باءوا بوافر خزيهم     وتقاسمـوا حظاً من الخسران
لم تخط قامة رمحـه أغراضها     وإصابة الأغراض نيل أمانى
أحيا بدولته علوما قد غدت     لوضـوحها تجلى على الأذهان
بطلٌ مـكارمه الجليـلة قلَّدت     هام الزَّمان مكلل التيجان
يهنيك يامصر ، لقـد حزت البها     بمحمد باشـا علىِّ الشان
فاحظىْ بفاخر حكمه وتمتـى     وبذلك افتخرى على البلدان
مدىِّ أكفَّ الشكر ، وابتهلى بأن     يبقيـه مولاه طويل زمان

وأنشأ فى مدح محمد على قصيدة أخرى مطولة بدأها بقوله :

ملا الـكون بشراً عدله واعتداله     وأغنى البرَايا برُّه ونواله

وفيها يتحدث عن نور العلم الذى بدأ يشع فى أرجاء الوادى ، وما يؤذن به هذا العهد من دخول مصر فى عهد حافل بالمجد ، وتحدَّث فى تلك القصيدة كذلك عن فتح الشام ، ودخوله فى طاعته ، إذ يقول :

محا غيهب الأوهام قسراً بمصره     أما تبصر العرفان يسمو هلاله
لمصر بهِ شأنٌ ظريفٌ زهتْ به     وعزٌّ منيفٌ قد أظلتْ ظلاله
أليس منيع الشام قد زال شؤمه     وصـار سواء سهله وجباله
لئن قام أحيـاء الدروز لحتفهم     فيا ويح من أخنى عليه ضلاله
هنيئاً لمن ألقى السـلاح بساحة     يصـان بها نفس النزيل وماله

ألمّ حمى لا ضيم فيـــه لوافد ولاذ بطود لا يسامى قـلاله
مناهجه فى حـكمه مستقيمة ملا الـكون بشراً عدله واعتداله[1]

وكان رفاعة معجباً بمحمد على أيما إعجاب يرى فيه مجدد نهضة مصر ، وباعث مجدها ومحيى عظمة جيشها ، وقد ظلّ طول عمره يحمل له هذا الإعجاب ، ولا تـكاد قصيدة لرفاعة ، يمدح بها أحداً من أبناء محمد على وأحفاده ، إلا أثنى عليه ، ونظم فيه عقود المدح ، وأحيا ذكراه مقرونة بأجلّ آيات الإجلال ، وفى قصائده الوطنية يذكر محمد على ، ويبجل مآثره ، واستمع إليه يحيى ذكراه ، ويستمطر عليه شآبيب الرّحمة والرّضوان ، فى إحدى قصائده الوطنيـة المهداة إلى سعيد باشا فيقول :

عقـــلٌ علوىٌّ فيك ظهر يا مصر ، لعقل الناس بهر
ولأهل الظـلم الـكل قهر فمحدنا لعـلىّ الشان
فادعوا بالرحمة والرّضوان لجميـل الذكر بكل أوان

* * *

فلقـــد أحيا ذاك البطل ما أعدمـــه منك الأول
حـــتى عجبت منه الدول لمّا أحيا عصر العرفان
فادعوا بالرحمـــة والرضوان لجميـل الذكر بـكل مكان

وهو يحفظ فى قلبه ماغمره به محمد على من الأيادى والنعم ، وقد سجل ذلك فى قصيدته التى أنشأها وهو بالسودان — كما سنرى — وفى جميع كتب رفاعة : مؤلفة ، أو مترجمة ، أو مشرفاً هو على ترجمتها ، لايذكر اسم محمد على إلا مقترناً بأسمى آيات التقديس والإجلال .

ولما ولّى عباس باشا أمر مصر ، هنّأه رفاعة بتقلده هذا المنصب السامى ، وبعودته من الحج بقصيدة طويلة[2] مطلعها :

مابال مصر ، وقد جلت عن باسها وافترّ ثغر البشر من عباسها

---

(١) القصيدة كلها بكتاب بداية القدماء ص ٤ .
(٢) القصيدة كلها فى تخليص الإبريز ص ٢٢٣ .

وفيها يتحدث عن حجه ، فيقول :

إن سار نحو الحج خلَّف وحشة أو عاد عادت مصر فى إيناسها

وعن الأمل المعقود عليه فى أن يسير على سنن جدِّه ، ويحيي مآثره :

فبجده يحيي مآثر جدِّه ويمد بالتأييد قوة باسها
بالألمعية لا يسام ذكاؤه إن شئت قسه بقسها وإياسها
وسلالة علويّة هو دوحها وبيان معناها بديع جناسها
وفصاحة عربية هو ربها وبراعة هو منتهى نبراسها
وعقيدة مما يشين سليمة تأبى طموح النفس فى إهجاسها
هو جسم مصر ، وفرد جوهر روحها فاعجب لفرد ، وهو جمع حواسها

ويصف يوم ولايته بقوله :

يوم الولاية كان يوم مسرة فرحت به أمم على أجناسها
فشريعة الإسلام زاد فخارها وتشيدت بالعز بعد دراسها

ولما قدم عباس من الآستانة وقد حاز رتبة الصدارة العظمى ، وتزينت مصر لمقدمه قال رفاعة مؤرخا هذه الزينة :

يأيها الصدر أقبل واشرح بمصر صدوراً
وأنت يا سعد أرّخ زينت مصر سروراً[1] (١٢٦٥هـ)
٤٦٧ ٣٣١ ٤٦٧

وأنشأ قصدة مطولة يهنئه فيها بهذا القدوم ، وتلمح فى هذه القصيدة تبعية مصر للآستانة يومئذ ، ولذا مدح رفاعة دار السلطان مدحاً يناسب مكانتها ، إذ يقول :

ياحبّذا دار السعادة مقصدا هى كعبة كلّ إليها يحرم
حرم به ملك الملوك أجلُّهم خاقان أهل الخافقين الأكرم
حرم به ظلُّ الإله على الورى حامى حماة الدين ليث ضيغم

وأخذ رفاعة يتحدث عن آماله ، وآمال مصر فيه ، فى أن يقتفى آثار جدِّه الذى توسم فيه النجح وبلوغ الآمال فيقول :

يأيها المولى الموَلَّى مصره كل يظن الخير فيك ويعشم

---

(١) تخليص الإبريز ٢٣٣ .

كل تفاءل بالنجاح وبالهنا　　حسبان جدك صائب لا يثلم
جدٌّ رأى فيك الشهامة فى الصبا　　إذ أنت مغرى بالمعالى مغرم
جدٌّ توسَّم فيك تبلغ شأوه　　فبلغته لا خاب فيك توسّم
جدٌّ تفرس فيك تقفو إثره　　ولطالما أمسى به يترنّم

وأنت ترى من ذلك كثرة حديث رفاعة عن محمد على جدّ عباس وآماله فى أن يقفو الحفيد أثر الجدّ ، وهو ما كان يطمع فيه رفاعة ، ويأمله ، كى يستطيع أن يتابع الرسالة التى وهب نفسه لها ، وهى نشر العلم فى ربوع مصر ، ونقل تراث الغرب إلى اللغة العربية ، ولكن هذا الأمل عند رفاعة قد خاب — كما ذكرنا — ومما مدحه به بيتان ، أنشأهما ثانى يوم ولايته ، وقد انسكب الغيث فيه ، فقال :

تقلَّد مصر عبَّاس فجادت　　بما فيها من الغيث السحاب
فقال الفأل يحصل للرعايا　　بفيض سخائه العجب العجاب (١)

وأنشأ رفاعة قصائد يمدح بها سعيداً باشا الذى وُلِّىَ مصر بعد عباس ، فله قصائد أربعة ، عنون كل واحدة منها بعنوان : قصيدة مصرية وطنية ، طبعت سنة ١٢٧٢ ، أما الأولى فحديث إلى جند مصر : نخربه ، وحث له على أن يتبع تقاليده التى سار عليها منذ القدم ، وقد بدأ تلك القصيدة بقوله :

يا جند مصر ، لكم فخار　　بين الورى عالى المنار
كالشمس فى وسط النهار　　صيت لكم فى الكون سار
حادى السعود به حدا　　والطير صاح وغرّدا

* * *

بشرى لمصر ، قد بدا　　فيها الفخار مؤبّدا
بأميرها بحر الندى　　أعنى السعيد محمّدا

وعقب كلّ دور مكوّن من أبيات ثلاثة يكرّر تلك اللازمة التى يمدح بها سعيدا ، وكأنّه أنشأها نشيدا ، ينشده الجند ، يشجّعون به أنفسهم ، ويثنون به على قائدهم ، ولا يقتصر مدح سعيد فى تلك القصيدة على هذا ( المذهب ) الذى يكرّر عقب كلّ ( دور ) ، بل هناك ( أدوار ) تمدحه وتثنى عليه كقوله :

---

(١) تخليص الإبريز ص ٢٣٩ .

في وقتكم هذا الجديد   مصر لها مولى سعيد
في الفخر يبلغ ما يريد   هل ثمّ شيطان مريد
إلاّ له قد شرّدا   وأزال ما قد أفسدا

ولا تنسى القصيدة الدّور الذى قام به محمد على فى النهوض بالجيش ، وما عادت به فتوحاته على مصر من خالد المجد .

والقصيدة الثانية فخر بمصر القديمة ، وتسجيل لأعمال محمد على ، ثم ينتقل إلى مدح سعيد ، ويكون نصيبه من المدح هنا أكثر من نصيبه فى القصيدة السالفة ، وهى كسابقتها تتكوّن من أدوار ، ومذهب ، يتكرر عقب كل دور ، ومطلعها قوله :

ياسعد ، أتحف مسمعى بصبا الصّباح   وتغن لى بمحاسن البيض الصّباح
وقتى صفا فى مصر ، لاواش ولاح   فى دولة الإقبال عرف المجد فاح

* * *

بشرى لمصر سعدها بالعزّ لاح   وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح

* * *

وهذا البيت الثالث هو المذهب الذى يتكرّر عقب كل دور مكوّن من بيتين ، ومما قاله فى هذه القصيدة يمدح به سعيدا :

إرث تنقّل للوليد من التّليد   ولحسن حظّ العصر آل إلى سعيد
عصر غدا لسعود كلّ النّاس عيد   شهم أتى لفخار مصر بما أتاح
فلأقسمن بوالد وبما ولد   لا شكّ هذا الشّبل من ذاك الأسد
هذا أمير يسلك النّهج الأسد   وبيمن طالعه خطيب السّعد صاح
هـذا الذى مصر بمفخره تسود   هذا الذى يحمى حماه من الأسود
هذا الذى بجنوده قطع الحسود   عالى الجناب وجنده شاكى السّلاح

ولا ينسى فى هذه القصيدة الفخر بالجيش ، ويختمها بالدّعاء لسعيد أن يسلك الله به سبل الرّشاد ، وأن يبلغه الله من العزّ ما يريد .

أما القصيدة الثالثة فدعوة إلى أن يعاهد كلّ إنسان نفسه على أن يبذل كل ما

يملك لوطنه ، وفى ثنايا ذلك تمجيد لسعيد ، وإشادة بذكر جدّه محمد على ، الذى يستمطر الشاعر لذكراه سحب الرّحمة والرضوان ، وهاك مفتتح القصيدة :

هيّا نتحالف يا إخوان     بأكيد العهد وبالأيمان
أن نبذل صدقا للأوطان     وبيمن سعيد نحن نصان
للحرب هلمّوا يا شجعان     حبّ الأوطان من الإيمان

ومما قاله فى تلك القصيدة يمدح سعيدا :

وسعيد حاز الملك كما     بسياسة والده حكما
أبدى حكما منذ احتلما     وأقام على العليا برهان
للحرب هلمّوا ياشجعان     فسعيدكُم حامى الأوطان

والقصيدة الرابعة حماسية كذلك ، كلها فخر بالشجاعة ، ودعوة إلى الدفاع عن الوطن بالنّفس والنّفيس ، وفى خلال ذلك حديث عن سعيد ، وتمجيد لشأنه ، ومطلع القصيدة أو بالأحرى النشيد قوى ، إذ يقول :

يا حزبنا ، قم بنا نسود     فنحن فى حربنا أسود
عند اللقا بأسنا شديد     هام عدانا لنا حصيد
حامى حمى مصرنا سعيد     فى عصره مجدنا يعود
بجنده المجنّد     وسيفه المهنّد
ونصره المؤيّد     وعزه المشيّد
فى عصره مجدنا يعود

وهذه القصائد الأربعة قصائد وطنية ، ترمى إلى تمجيد الوطن حينا ، وبعث الحماسة والأمل فى نفوس بنيه حيناً ، وتأجيج نيران الوطنية فى قلوب الجند آنا آخر ، وسعيد يمدح ، لأنه رمز هذا الوطن ، وقائد جنده ، وحامى حماه .

وهناك قصيدة (١) خامسة من بحر الرّجز أنشأها فى مدح سعيد أيضاً ، وتاريخ إنشاء هذه القصيدة مجهول ، ومنها قوله :

ممدوحنا محمد السّعيد     عزيز مصر بالعلا معيد

---

(١) مواقع الأفلاك ص ١٦ .

وهل مجال فى الولا بعيد إلاّ ويرقاه بأدنى يسر
بسرّ عزم فى المعالى يسرى

فإذا صعد إسماعيل إلى أريكة الوادى ، ونظم الكونت (پلجرينى الإيطاليانى) قصيدة يمدح فيها إسماعيل باشا وجد رفاعة فى تلك القصيدة صدى ما يجول بنفسه نحو صاحب العرش ، فنقل القصيدة إلى العربية ، وهى تبتدىء بالإشادة بمصر والحديث عن مجدها القديم ، وعمل إسماعيل على بعث هذا المجد القديم ، واستمع إلى مطلع تلك القصيدة :

يا مصر أنت أرض كلّ معجزة كم فيك من آثار فخر منجزة
قد عدت كالعصر القديم منتزه لله إسماعيل فيما أبرزه
فى حيّز الوجود فوق الحدّ يدوم فخره كما الأهرام
ولم يزل يقرن بالتحدّى صحائفاً صحيحة المرام
يعيش إسماعيل رب المجد على مدى الأجيال والأعوام

ويتحدّث عن إسماعيل باعثاً لمجد مصر القديم قائلاً :

ما أنت إلاّ روضة بهيّة شمس علاك بالسّنا زهيّة
بالنيل خصب أرضك الزكية قد سطعت أنوارك السّنية
شعاعها انبثّ بأرض الهند والصّين والرّوم وأرض الشّام
لما انطفى النور بدهر مردى قد سخّر المولى له محامى

وهنا يكرّر المذهب السّابق : يعيش إسماعيل ...

والقصيدة كلها تمجيد لإسماعيل وتسجيل لمآثره على وادى النيل ، ولعله مما تحسن الإشارة إليه هنا أن القصيدة قد سجلت لإسماعيل من بين ما سجلته تعليمه المرأة ، واهتمامه بأن تنال نصيبها من الثقافة إذ تقول :

قد لهجت بمدحه اللغات ورددت نشيده الأصوات
لم يرو مثل فخره الرّواة عن ملك شهم له هبات
تجعل (هندا) فى النهى (كزيد) والدرس للانثى كما الغلام
من بعد أسرها بقيد وغد بالعلم حازت صفة احترام

وبالحنان الأبوى رتّبا تربية البنات من عهد الصبا
يقضين من حق النهى ما وجبا يحرزن علماً نافعاً وأدبا
تشملهن منه عين الرشد وبجدة العزم والاهتمام
حتى يصلن بعقول النقد لقوة الإفهام والتفهيم[1]

ولعل الباعث على إنشاء هذه القصيدة شكر الجالية الإيطالية لإسماعيل ، على ما أولاها من حب وعطف .

ولم يكتف رفاعة بترجمة هذه القصيدة ، بل أنشأ قصيدة وطنية ، على غرار القصائد التى أنشأها فى عهد سعيد ، وإن كانت أقصر منها ، وهى قصيدة حماسية ، سجل فيها تجديد إسماعيل لمجد مصر ، إذ يقول :

فى الدنيا مصر أجلّ وطن يدها عليا فى كل زمن
فلكم قهرت شاماً ويمن فانقاد الشامى واليمنى
والآن تسامت دولتها وبإسماعيل صولتها
لو جالت عظمت جولتها من أرض الروم إلى عدن[2]

وله مدائح أخرى فى إسماعيل ؛ فهذه أرجوزة منوهة « بنبذة من المحاسن الخديوية » ، منها قوله :

وبعد حمد الله فالتقدم له بمصر فى الرسوخ قدم
إسعاد إسماعيل بالفنون جدد عهد زمن المأمون
فقد غدت مصر به بغدادا بل عصر مصر فى العلوم ازدادا
فليس بدعا أن ترى الأفريقة بسعى مصر روضة أنيقة
فكم بمصر من دروس تتلى على نفوس ، كم علوم تملى
وكم مدارس له تجددت وكم مغارس به تمهدت
تعديله المحاكم المتزجة يرقى بها العدل لأعلى درجة[3]

وهذه قصيدة أخرى يهنىء بها الخديو إسماعيل بإقبال العام الجديد ، يبدؤها

---

(١) قصيدة وطنية إسماعيلية ص ٤ .
(٢) مقدمة وطنية مصرية ص ١٤ .
(٣) مجلة روضة المدارس : العدد السادس من السنة الأولى .

بالإشادة بمصر ، ويثني على مآثر إسماعيل ، وما جدده فيها من إصلاحات إذ يقول:

إن إسماعيل أصل حوله الأنجال أغصن
قد حذوا حذو أبيهم صوب عطف وتحنن
حوّل البرزخ بحراً ونسيم السعد يسفن
كم حياض في ثغور تلثم الفلك وتحضن
ومنيعات بروج محكمات في التحصّن
كم طريق من حديد تسبق الطير ، فيكمن
وبريد كهربائي وحيه لمحة أعين [(١)]

كما يختم رفاعة قصيدة ( الوابور ) [(٢)] بمدح إسماعيل .

وشعره يأخذ بنصيبه في المناسبات السارة لإسماعيل ، فعندما ختن نجله إبراهيم باشا ، بعث إليه تهنئة سنية [(٣)] تحدث فيها عما صحب هذا الختان من ألوان البرّ والمعروف ، وفي تلك القصيده الطويلة يقول رفاعة :

جعل الختان طهارة طه النبيُّ الطّاهر
أكرم بها من سنة وبها الجميع يبادر
وختان أبناء الملوك يلوح فيه مفاخر
المطربات جميعها ومجامع ومحاضر
لكن خديوى مصرنا بالشرع ناهٍ آمر
بالسنّة الغرّاء قد زان الختان شعائر
آيات بر مالها بين البريّة حاصر
عتق وحسن تصدُّق وندى ، وجود وافر
إطلاق مسجون جنى ولكلّ كسر جابر
إيصال عيش ذوى العفا لاحت بذاك أمائر
قتل الأثيم بصفحه فأناب وهو يحاذر

(١) مجلة روضة المدارس — السنة الثالثة — العدد الأول .
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ١٢٧ .
(٣) مجلة روضة المدارس — السنة الثانية — العدد الأول .

وختم القصيدة بتاريخ هذا الختان ، إذ قال :

يا كوكباً فى مصره كل إليه ناظر
حاشا يوفّى حقّ مدحك ناظم أو ناثر
لكننى أرّختـه باه ختانك باهر (١٢٨٧ هـ)
٨ ١٠٧١ ٢٠٨

فلمّا زوّج إسماعيل أنجاله ، وهم ولىّ عهده الأمير محمد توفيق باشا الذى اختير له السيدة أمينة هانم كريمة المرحوم إلهامى باشا ، والأمير حسين كامل باشا الذى اختير له عين الحياة كريمة المرحوم أحمد باشا ، والأمير حسن باشا الذى تزوّج من خديجة هانم كريمة محمد على الأصغر ، وحفيدة محمد على الكبير ، والأميرة فاطمة التى تزوجت من طوسون باشا ، والأميرة زينب التى تزوّجت من ابراهيم باشا ابن المرحوم أحمد باشا — أنشأ رفاعة رسالة أدبية دعاها الكواكب النّيّرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة ، وصف فيها تلك الأفراح التى لم تعرف مصر قبلها أو بعدها مثيلا(١).

بدأ هذه الرّسالة بمقدّمة مدح بها الخديو إسماعيل ، وأثنى على مذهبه فى تزويجه أبناءه من بنات أعمامهم ، ثم أخذ يثنى على كل أمير وزوجته ، خاتماً ثناءه عليهما بأبيات تؤرّخ هذا الزواج ، فلكل زوج تهنئة باسمه ، ولكل زوجة تهنئة أخرى باسمها كذلك ، ولعلّ هذا الشعر أكثر شعر رفاعة تكلفاً ، فإنك لا تشعر فيه بروعة ، ولا يهزّك عند قراءته جمال ، فهو متكلف يراد به الوصول إلى تاريخ لهذا الحادث فحسب ، كقوله للأمير توفيق :

بأفق مصر كوكب التهانى ضياؤه فوق العلا تلالا
رقى ذرا العلا ، فأرّخوه والكل من توفيقه تعالى (١٢٨٩هـ)

وقوله للأميرة فاطمة :

فاطمة ضياؤها فى أفق مصر ساطع
عن سعدها قد أرّخت بالسعد بختى طالع (١٢٨٩هـ).

---

(١) محمد الصادق حسين .

وأنشأ رفاعة قصيدة يصف فيها تلك الليالى ويؤرخها ، فقال :

رعى الله مصراً فهى أبهى كنانة    حلاها مدى الأيام واسطة السلك
نراها بإسماعيـل أعذب مورد    به أبحر العرفان جارية الفلك
بها المشتهى الأشهى فلو قال قائل    بها جنة الفردوس ما جاء بالإفك
وما هى إلا غادة تسلب النهى    بما جمعت بين الخلاعة والنّسك
كواكب أفراح العزيز بأفقها    كصبح يقين قد جلا ظلمة الشك
ورنّات أنغام المعازف أطربت    كأن قيان الجن تعبث بالجنك[١]
وملعب (بال)[٢] بالحسان منعّم    عيون غوانية تغازل بالفتك
رياضة رقص فى كمال منزّه    عن الرّيب موزون على التم[٣] والتك[٤]
وكم من فتاة فيه سكرى بلا طلا    يراقصها (السنيور)[٥] لطفاً مع السبك
وفيـه صفىّ البال بالرقص مغرم    يقول لذات الخال : لا بدّ لى منك
تميس كغصن البان عطفاً وتنثنى    وتفترّ عن برق تألّق بالضحك
ولولا الحيا والدّين والعلم والتقى    لقال حليف الزهد : قد طاب لى هتكى
ومجلس أنس قد تعطر روضه    وأرجاؤه فاحت بها نفحة المسك
وفى الجوّ تقليد النجوم منيرة    (صواريخ) أنوار لشهب السما تحكى
تلوّن كالحرباء ، بل ربّما حكت    يواقيت قد مرّت على حجر الحك
وحلبة سبق بالجياد يزينها    (رماح أعدّت للطعان بلا شك)
بتنظيم أوربا تسامى ابتهاجه    وما فاته فى الحسن طنطنة الترك
ومذ زهت الأفراح قلت مؤرّخاً
بهيج العلا تأهيل (فاميلة[٦]) الملك (١٢٨٩هـ)
٢٠ ١٤١ ٤٤٦ ٥٦١ ١٢١

---

(١) آلة .
(٢) كلمة فرنسية Le Bal بمعنى وليمة رقص أو مرقص .
(٣) تم تما وتما وتماما كملت أجزاؤه .
(٤) تك تكا : داس .
(٥) كلمة فرنسية Seigneur .
(٦) من الكلمة الفرنسية Famille .

وربما كان آخر قصيدة لرفاعة تلك التى شكر بها على لسان المدارس ، الخديو إسماعيل ، عندما زار ديوان المعارف ، ووزعت المكافئات بين يديه ، وفيها يشير إلى ماظفر به طلبة المدارس من تشجيع وعطف ؛ ولغرامه بالتاريخ ختم القصيدة بتاريخ تلك الزيارة فقال[١] .

خصنا وده بأبهى امتياز　　فنظمنا لئالئاً ونثرنا !
وطلبنا لدولة العز حفظاً　　وبقاء وبالدّعاء جهرنا
كلنا شاكر ، فياسعد أرّخ　　بجميل كافأتنا فشكرنا (١٢٨٩هـ)
٨٥　٥٥٣　٦٥١

ومدح رفاعة من أبناء إسماعيل توفيقاً وحسيناً ، أما الأول ، فلمناسبة إسناد الوزارة إليه ، فأنشأ قصيدة بدأها بالغزل ، ومدحه بقوله[٢] :

هذا الذى جمع الفضائل يافعاً　　ونواله فى مصره مبذول
إن حل فالمجد الأثيل سميره　　أو سار فالتعظيم والتبجيل
قد حاز من شرف المكانة رفعة　　نجمت ، ففى زهر النجوم أفول
يسمو به علم الوزارة مثلما　　يعلو به مجد لمصر أثيل

وأما مدحه لحسين باشا فلمناسبة تقليده ديوان المدارس الملكية ، والأوقاف المصرية ، والأشغال العمومية ، ولا ينسى فى تلك المدحة تاريخ هذا التقليد إذ يقول[٣] :

وفّى العلا حقها زمان　　رضا حسين عليه دين
روض الأمانى به نضير　　وصفو سلساله لجين
منافع القطر منه ضاءت　　لها بنور النجاح عين
تزهو دواوينه ابتهاجا　　إذ أرخت ناظرى حسين (١٢٨٩هـ)
١١٦١　١٢٨

* * *

ولرفاعة شعر وطنى ملىء بالحماسة وتمجيد الوطن ، والاعتزاز بتاريخه ،

---

(١) مجلة روضة المدارس — السنة الثالثة — العدد ٢٢ .
(٢) المصدر السابق — السنة الأولى — العدد العاشر .
(٣) مجلة روضة المدارس — السنة الثالثة — العدد ١٢

والدعوة إلى تضحية النفس والنفيس فى سبيل رفعته ، وتشعر حين تقرأ شعر رفاعة الوطنى بالإيمان الذى كان يملأ قلبه بعظمة هـذا الوطن ، والحب الذى كان يغمر فؤاده لمصر ورفاهيتها ، حتى كان من أعظم مآثر سعيد فى نظره أنه ملأ قلب الشباب حباً للوطن وتقديساً له إذ يقول[1] :

أنعش روح الفتية المصرية    براح حبّ الوطن القسرية
حتى غدت نفوسهم سرّيّة    فصحّ فوز صحوهم بالسكر
وقابلوا إحسانه بالشكر
هاموا بحب الوطن العزيز    فصار ميلهم له غريزى
ومذ كسوه حلية التعزيز    وأنفقوا فيه نفيس العمر
لم يخش من زيد ولا من عمرو

وهو حينا يرى مصر جديرة بالفخر بها ، والاعتزاز بالانتساب إليها ، فيقول[2] :

أيا خليلىّ دعا    ذكر السوى ، واستمعا
حديث فخر طلعا    فى مصر أبهى مطلع
فخر أجاب من دعا    لكسبه ومن دعى
فى وطن من ادّعى    له لحاقا فدعى
بدر ، علاه سطعا    وفى سما المجد سعى
على البهاء خلعا    فى الكون أبهى الخلع
حادى السرور رجعا    بعزّنا مذ رجعا
وقد أبان لمعا    يا حسنها من لمع
وطننا تعززا    وبالهنا تحيزا
هل غيره تميزاً    بسهله الممتنع
أصيل فخر أسبق    على مدى الدهر بقى

(١) مواقع الأفلاك ص ١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٧ .

بطيب ذكر عبق يضوع للمستمع
حديثه عالى النسب بالعز مرفوع الحسب
وحسبه إن يحتسب ففى المحل الأرفع
ليس اللبيب ذو الفطن إلا المحب للوطن
وموضع به قطن لديه أسمى موضع
فمسقط الرأس أحب من رأس مال يكتسب
ومن لحبه انتسب فهو الذكى الألمعى
أكرم بمصر من حمى علاه قد سامى السما
مربعه لقد سما فياله من مربع
مضت عليه أعصر والمجد لا بقصر
فيه المديح يقصر أقصر أخىّ واجمع
فمصر ، ما أجلها الكل يهوى وصلها
فإن رنت عين لها نفقؤها بالإصبع
رفيعة شئونها منيعة حصونها
بديعة فنونها كم شيدت من بلقع

ويقول من وطنية أخرى[1] :

يا صاح ، حب الوطن حلية كل فطن :
محبة الأوطان من شعب الإيمان
فى أنخر الأديان آية كل مؤمن
مساقط الرءوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا وكل حزن
ومصر أبهي مولد لنا وأزهى محتد
ومربع ومعهد للروح أو للبدن
شدت بها العزائم نيطت بها التمائم

(١) مواقع الأفلاك ص ١٢ .

لطبعنـا تـلائم في السر أو في العلن
مصر لهـا أياد عليـا على البـلاد
وفخرهـا ينـادي ما المجد إلا ديدني
الـكون من مصر اقتبس نوراً وما عنه احتبس
وما فخارهـا التبس إلا على وغـد دنى
فخـر قديم يؤثر عن سـادة وينشر
زهـور مجـد تنثر منهـا العقول تجتنى
دار نعيـم زاهيـة ومعدن الرفاهيـة
آمرة وناهيـة قدما لـكل المدن
قـوة مصر القاهرة على سـواها ظـاهرة
وبالفخار زاهرة خصت بذكر حسن
أبنـاؤها رجال لم يثنهم مجـال
ولا بهم أوجال في ليـل وقع دجن

ويقول من قصـيدة[1] وطنية يفتخر بمصر ، ويرى من حقها على بنيها أن يفتدوها بالنفس والنفيس :

أبناء مصر ، نحن موطننا أصيل حسب عريق زانه مجـد أثيل
ونخارنا في الـكون جل عن المثيل لرحابنا تطوى المهامه بالطـلاح
نحن السراة وشأننا حب الوطن ولشأننا السـامى تزاحم من قطن
شانى حمانا ليس من أهل الفطن فهو الدّعىّ وعرضه شرعا مباح
وطن عزيز ، لا يهان ولا يضام وحمى تعزّز من عليـاه حام
مجـد له ، لا زال يخترق الغمام عين السها لفخاره ذات التماح
يا أهل مصر ، برّ مصر فرض عين في البرّ نبذل عن رضا نفسا وعين
وإذا الرّقيب رنا لها بلحاظ عين ما عندنا في فقئهـا إلا الرماح
في كل قطر في الممالك أو بقيع أضواء مصر سرت لتنوير الجميع

---

(١) هى القصيدة الوطنية الثانية .

تدبيرها فى بدئها سام رفيع    فليكها كأبى العيال به الصلاح

واستمع إلى تلك الصيحة القوية لفداء الوطن بكل غال ثمين ، إذ يقول :

وعزيز الوطن نخدمه    برضا ، فى النفس نحكمه
مال المصرى كذا دمه    مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها    والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها    لشرا العليا أغلى ثمن (١)

ورفاعة يفتخر بمجد مصر القديم ، وبملوك مصر الأقدمين ، وبعلوم المصريين القدماء ، وفتوحهم فى العالم المعروف يومئذ ، فتسمعه يقول (٢) :

(سيز ستريس (٣)) لقد أقام شئونها    وهو الذى أعطى لها قانونها
قوّى معارفها ، وصاغ فنونها    ورموزه للعارفين بها صحاح
فتح الممالك مشرقاً أو مغرباً    وأبان عن حب الفخار وأعربا
دفعوا الخراج مقرّراً ومرتباً    لمليك مصر على وفاق الاقتراح

ويقول (٤) :

لمصرنا سالف المزية    قد مدنت سائر البرية
منها أثينا غدت ملية    بحكمة قصرها مشيد ...
كالشمس فضل لعين شمس    وأنس منف أجل أنس
ووشى تنيس غير منسى    من حسنه الدهر يستفيد

ويتجلى حماس رفاعة فى حديثه عن جيش مصر ، فهو مفخرة الأمة التى تزهو بها ، وهو عدّة الوطن وعتاده ، والصائن مجده ، والساهر على الدفاع عن حضارته ، فتسمعه يخاطب الجند مسجلا مآثرهم فى الوغى قائلا :

يأيّها الجنود    والقادة الأسود
إن أمكم حسود    يعود هامى المدمع

(١) راجع مقدمة وطنية مصرية ص ١٥ .
(٢) من القصيدة الوطنية الثانية .
(٣) هو رمسيس الثانى .
(٤) من القصيدة الوطنية الرابعة .

فكم لكم حروب بنصركم تئوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام معمع
وكم شهدتم من وغى وكم هزمتم من بغى
فمن تعدّى وطغى على حماكم يصرع (١)

ولا ريب أن لمثل هذا التسجيل أثره فى تقوية الروح المعنوية فى نفس الجند .

وحيناً يفتخر بشجاعتهم ، وكمال نظامهم ، وباهر عددهم ، وكم داخله الفخر والتّيه ، وهو يسجل أن عدّة الجيش أنتجتها مصانع بلاده ، فقال (٢) :

ننظم جندنا نظما عجيباً يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا ؟!
رجال ما لها عدد كمال نظامها العدد
حلاها الدرع والزرد سنان الرمح عاملنا
لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللقان شان
وفى الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا
مدافعنا القضا فيها وحكم الحتف فى فيها
وأهونها وجافيها تجود به معاملنا

وحيناً يذكر الجنود بسالف مجد آبائهم ، وأن واجبهم رعاية هذا المجد والسّهر على صيانته ، فيقول :

أسلافكم حازوا الشرف سلف مضى نعم السلف
كونوا لهم أسمى خلف كلٌّ بفضلهم اعترف
من فى مكارمه اقتدى بأبيه لا شك اهتدى (٣)

فإذا نسى الجند ماضيهم ففى حاضرهم المشرق مايثير فيهم أقوى عوامل الإقدام ، وهنا يذكر محمد على وما قدمه لهذا الوطن من إحياء روح العسكرية فى نفس

(١) مواقع الأفلاك ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ .
(٣) من القصيده المصرية الوطنية الأولى .

المصريين فيقول لهم (١) :

وإذا نسيتم ما مضى أو قلتمو هذا انقضى
فتذكّروا زمن الرِّضا عزًّا جديداً مرتضى
بمحمّدٍ ربِّ النّدى وعلىٍّ شأن أمجدا
ما وقته إلاّ سعيد ما رأيه إلاّ سديد
ما عصره إلاّ جَديد هو فى مآثره فريد
لفخاركم قد مهّدا ونظامكم قد جدّدا

ثم يمضى رفاعة فى تعداد أعمال الجيش ، ومآثره ، وجهاده فى عصر محمد على . وحيناً يسجل ما للجيش من شهرة فى العالم ، فيبدأ إحدى قصائده الوطنية بقوله (٢) .

ياجند مصر ، لكم فخار بين الورى عالى المنار
كالشمس فى وسط النهار صيت لكم فى الكون سار

ورفاعة يرى المثل الأعلى لتكوين جيش ، أن نعنى بالخيالة ، وبرجال المدفعية وبالمشاة ، وبالأسطول ، حيث يقول :

ياحبذا نظم الصنوف الأربع من الصفوف فى مقام أرفع
نوع السوارى ، وضروب المدفع ومعشر المشاة أسد الكرِّ
والفلك من فوق البحار تجرى (٣)

ورفاعة فى تمجيده للجيش . متأثر بما كان لهذا الجيش فى عصره من قيمة كبرى ، فقد وقف محمد على أنفس وقته وأعظم جهده ، لتكوين جيش يذود عن مصر ، ويمدّ سلطانها فى الشرق والشمال والجنوب ، وبما أبلاه هذا الجيش فى الحروب الكثيرة التى نهض بها يومئذ ، وبتلك الانتصارات التى سجلها فى ذلك الحين ، مما جعل اسم الجندىّ المصرىّ مقترناً بالفخار فى أرجاء الدنيا ، فلا غرابة أن تمتلىء نفس رفاعة بهذا المجد العسكرى ، فينشد له تلك الأناشيد الحماسية الحية .

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) القصيدة الوطنية الأولى .
(٣) مواقع الأفلاك ص ٢١ .

كان فراق رفاعة لمصر هو الذى أوحى إليه بتلك القصيدة التى يحنُّ فيها إلى وطنه ، يوم سافر إلى باريس ، وهو يقدم لتلك القصيدة بقوله (١) : « لو تعهدت مصر ، وتوفَّرت فيها أدوات العمران ، لكانت سلطان المدن ، ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم : مصر أمُّ الدنيا » .

ورفاعة فى تلك القصيدة يتأثر مذهب الأقدمين الذين يستمعون إلى نوح الحمام ، فيثير فيهم سماعه ذكريات عزيزة لديهم ، وهذا رفاعة يفتتح قصيدته قائلاً :

ناح الحمام على غصون البان    فأباح شيمة مغرم ولهان
ما خلته مذ صاح إلا أنّه    أضحى فقيد أليفه ومعانى
وكأنّه يلقى إلىَّ إشارة    كيف اصطبارى مذ نأى خلَّانى
مع أننى والله مذ فارقتهم    ما طاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صب أصون تلهّفى    حتى كأنى لست باللهفان
وبباطن الأحشاء نارٌ لو بدت    جمراتها ما طاقها الثّقلان
أبكى دماً من مهجتى لفراقهم    وأودُّ ألاّ تشعر العينان

وهو يشيد فى هذه القصيدة بالأزهر صاحب الفضل عليه فى ثقافته ، وبأستاذه الشيخ حسن العطَّار ، صاحب الأثر الكبير فى تثقيفه وتوجيهه كما سبق أن ذكرنا ، وهاك مدحه للأزهر وشيخه ، إذ يقول فيها :

ولكم بأزهرها شموس أشرقت    وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عمَّ الورى    وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهم مصر فصارت روضة    وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبَّهوها بالعروس ، وقد بدا    منها العروسي بهجة الأكوان
قالوا تعطّر روضها فأجبتهم    عطَّارُها حسن شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره    بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت : لم يوجد بمصر نظيره    لأجبت بالتَّصديق والإذعان

كما كان إرساله إلى السودان ولبثه هناك بلا طائل مثيراً نفسه ، فنظم قصيدة

(١) تخليص الإبريز ص ٤٨ .

طويلة ، على نية إرسالها لأحد الكبراء يستشفع به « رجاء نشله من أوحال تلك الأحوال ، فلم يتيسر إرسالها ، ثم أسعد الحال بتبديل مر الماضى بالحال الذى هو حال »

بدأ هذه القصيدة بقوله[١] :

ألا فادع الذى ترجو ، وناد    يجبك وإن تكن فى أى نادى

وأخذ يحدث هذا الكبير يحببه فى الوساطة ، ولا غرو أن يستجيب له ، فقد جمعت بينهما آصرة الأدب التى تجمع بين أبنائها وإن اختلفت بلادهم ، ثم تحدث مفتخراً بثقافته التى نهضت به ، ورفعته إلى الذروة ، وأشار إلى ماقدمه لبلاده من كتب ألّفها أو ترجمها ، ومن تلاميذ نبغوا على يديه ، وقد نال جزاء ذلك تقدير محمد على الذى سماه رفاعة فى تلك القصيدة محيى مصر . قال رفاعة :

وآدابي تسامى بى الدرارى    على شعثى ، وتبلغنى مرادى
ومالى لا أتيه بها دلالا    وقد دلت على نهج الرشاد
عصامى ، طريف المجد سعيا    عظامى ، شريف بالتلاد
لسان العرب ينسب لى نجاراً    ويدنينى إلى قسّ الإيادى
وحسبى أننى أبرزت كتباً    تبيد كتائباً يوم الطراد
فمنها منبع العرفان يجرى    وكم طرس تحبّر بالمداد
على عدد التواتر معرباتى    تفى بفنون سلم أو جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل    ومنتسكيو يقرّ بلا تمادى
ومغترفو قراح فرات درسى    قد اقترحوا سقاية كل صاد
ولاح لسان باريس كشمس    بقاهرة المعزّ على عمادى
ومحيي مصر أحيا —كان— قدرى    وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله ما دمت حياً    وما شكرى لدى تلك الأيادى

وأخذ يتحدث بعدئذ عن رحلته إلى السودان ، وما دفعه إلى بغض الإقامة هناك ، ويذكر بنيه وكيف فارقهم صغاراً ، فهو يذكرهم فى سره وجهره ، ولا تطيب له الحياة بالبعد عنهم .

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص٢٦٥.

وقد فارقت أطفالا صغاراً بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهمو سراً وجهراً ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتى بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم ، والدهر يأبى مواصلتى ، ويطمع فى عنادى
وطالت مدة التغريب عنهم ولا غنم لدىَّ سوى الكساد

ويشكو فى القصيدة بعدئذ من خصومه الذين سعوا به لدى العزيز ، وسلقوه بألسنة حداد ، وهو يعلن فى صراحة أن زخرف قولهم واضح التزييف ، لا يحتاج هدمه إلا إلى نقادة بصير ، ولكن رفاعة لم يشر إلى تلك التهم ، وينقضها واحدة واحدة ، بل تبرأ منها جملة فتركنا فى جهل بتلك التهم التى ألصقت به ، اللهم إلا اتهامه بعقم ما أسند إليه من مدارس . وتحدث عن إقامته بالسودان ، وأن الجدير به وقد خدم بلاده أن يكون موضع الإكرام والتجلة ، ثم قال :

وكم حسناً دعوت لحسن حالى وكم نادى فؤادى يا فؤادى
وأرجو صدر مصر لشرح صدرى وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بشرت أن عزيز مصر تفوه بالفكاك ولم يفاد
وحاشا أن أقول مقال غيرى وذلك ضد سرى واعتقادى :
(لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى)

ومضى بعدئذ مطيلا فى مدح شفيعه إلى عباس ، وقد أضفى عليه كثيراً من صفات الكرم والنبل ، والذكاء ، والعلم ، ودماثة الإخلاق وختم قصيدته بقوله :

ومسك ختامها صلوات ربى على طه المشفع فى المعاد
وآل والصحابة كل وقت مواصلة إلى يوم التناد

* * *

وليس لرفاعة من الشعر الوصفى سوى قصيدتين ، إحداهما يصف بها أفراح بنى إسماعيل ، وقد أوردناها فيما مضى[١] ، والثانية يصف فيها القطار[٢] ( الوابور ) ،

---

(١) راجع ص ٢٢٦ .

(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦ .

وقد أطلق فيها لخياله العنان ، وتكاد تكون هذه القصيدة أبعد قصائده خيالا ، حيث يشبّه ( الوابور ) تشبيهات عدة ، فهو بركان ثائر ، أو سائح لايملّ السفر ، أو عاشق سلب القرار ، أو باز صيد ، أو ظبي قاع ، قد استعار البرق سرعته منه ، وينظر إلى الرياح محتقراً هبوبها ، ومطلع قصيدة رفاعة قوله :

العقل فى ( الوابور ) حار يبغى الجواب فلا يحير

وفيها يقول :

بركان نار حيث ثار فورا ، وصار له هدير
أو سائح يهوى السفار لمصالح الدنيا سفير
أو عاشق سلب القرار أو يحسد الطرف القرير
فى الحب قد خلع العذار ودموع مقلته غدير
صبّ وفى الأحشاء نار شوقاً إلى القمر المنير
أو شاطر طلب الفرار للأمن من أمر خطير
أو باز صيد قد أغار مغرى على الظّبى الغرير
أو ظبى قاع ذو نفار يعدو إذا عمّ النّفير
البرق سرعته استعار والورق منه تستعير
ويرى الرياح بالاحتقار فهبوبها معه حقير
طرف تسايره الدرار ليلا ، فتخجل فى المسير
الليل يطوى والنهار وبه ازدهى الزمن الأخير

* * *

ولم يثر نسب رفاعة واتصاله بفاطمة الزهراء ، فى نفسه فخراً به ، وإنما أثار معنى دينيا ، هو مدح أهل البيت ، والتوسل بهم ، وعده من الموالين المحبين لهم ، ولم يكثر رفاعة فى شعره من الحديث عن نسبه ، وقد رأيت قطعة يشيد فيها بهذا النسب إذ يقول[1] :

انتمائى لكم بصفو صفاتى يال بيت الزهراء أزهى صفاتى

---

(١) روضة المدارس — السنة الأولى — العدد ١٨ .

ومنها :

أنتم بضعة النبى نشأتم عن صفىٍّ ، من بضعة مصطفاة
حاش لله أن أضام وأنتم ملجأ اللائذين ، كهف العناة
بخلوص المديح أرجو خلاصى من مساوى أيامى السالفات
إن نظمتم رفاعة فى ولاكم حاز أمناً من سطوة المرجفات

فلا نراه — كما ذكرنا — مفتخراً ، بل متوسلا متشفعاً .

كما أن له قصيدة فى مدح جده أبى القاسم ، ذكر فيها مناقبه ، وفيها يشير إلى ما ظفر به هذا الجدّ من لبس ( طاقية ) أستاذه العريان ، وكأنه يشير بذلك إلى أنه خليفته من بعده :

( طاقية ) العريان قد ألبستها رمزاً لسر خلافة آنستها
كم صنت طهطا من أذى وحرستها كم من يد بيضاء منك غرستها
ثمراتها لبنيك أضحت مكسبا[1]

وأغلب ظنى أنه أراد صنع قصيدة يمدح بها جدّه رسول الله ، وربما دفعه إلى ذلك رغبته فى أن يتوسل به راجياً إنقاذه من السودان ، ثم بدا له أن يخمس قصيدة برعية أنشأها صاحبها[2] لمدح الرسول الكريم ، بدأها بقوله :

خل الغرام لصبّ دمعه دمه حيران توجده الذكرى وتعدمه[3]

وهى سبعة وستون بيتاً ، مبدوءة بغزل يختم بالدعاء للديار بالسقيا ، وهنا ينتقل الشاعر انتقالا طبيعياً إلى مدح الرسول إذ يقول :

لما ألثّ على البطحاء عارضه علا المدينة برق راق مبسمه
سقى الرياض التى من روضها طلعت طلائع الدّين حتى قام قيمه

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٣٨٥ .

(٢) هو عبد الرحيم بن أحمد البرعى اليمنى ، له ديوان كله قصائد صوفية ، بدأه بالقصائد الربانية ثم النبويات ، ثم الصوفيات ، ثم الوعظيات ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدى من كتب وفى فهرس دار الكتب عند ذكر ديوانه بالجزء الثالث قال إنه كان فى القرن الخامس للهجرة وكذلك سركيس ( معجم المطبوعات العربية والمعربة ج ٣ نهر ٥٥٠ ولا أدرى من أين جاءا بذلك .

(٣) ديوان البرعى ص ٣١ .

حيث النبوة مضروب سرادقها　　　والنور لا يستطيع الليل يكتمه

وقد بدأ رفاعة التخميس [١] بقوله .

تبدى الغرام ، وأهل العشق تكتمه　　　وتدعيه جدالا ؟ من يسلمه
ما هكذا الحب يا من ليس يفهمه　　　خلّ الغرام لصبّ دمعه دمه
حيران توجده الذّكرى وتعدمه

وهو فى تخميسه يكمل معنى البيت ويمهد له ، ولا يكاد ينزل عن مستواه غالبا ، كما ترى ذلك فى قوله [٢] :

من فى صباحته يحكيه مبتسما　　　من فى ملاحته حاز البها وسما
كم أقسم الحق باسم المصطفى قسما　　　نور الهدى، جوهر التوحيد ، بدرسما
ألمجد ، واصفه بالبدر يظلمه

وحيناً لا نرى ملاءمة بين ما يأتى به رفاعة وبين بيت البرعى ، كما نرى ذلك فى قوله [٣] :

لا تعز روما وتركا أو جراكسة　　　لحسنه إن فى هذا مواكسة
تقول آمنة فيه منافسة　　　أضحت لمولده الأصنام ناكسة
على الرءوس وذاق الخزى مجرمه

فأنت لا ترى مناسبة بين تفوق حسن محمد على الروم والترك والجركس ، وبين انتكاس الأصنام على رءوسها . ولعل الذى حبب رفاعة فى تخميس هذه القصيدة ، فضلا عما فيها من مدح الرسول والثناء عليه ، ما فيها من التوسل برسول الله ، وندائه أن يكشف ما أظل من الخطوب ، وهنا وجد رفاعة المجال صالحاً ليتوسل بالرسول أن يكشف ما أغمه ، فيناديه قائلا :

رفاعة يشتكى من عصبة سخرت　　　لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

---

(١) التخميس بتمامه فى كتاب مناهج الألباب المصرية ص ٢٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٧٣ .
(٣) المرجع السابق نفسه .

فارفع ظلامة نفس عدلك ادخرت وهاك جوهر أبيات بك افتخرت
جاءت إليك بخط الذنب ترقمه(١)

فاكشف بحقك عند اليوم مظلمة من الهموم غدت كالليل مظلمة
وانظر إليه بعين الفضل مكرمة واجعله منك بمرأى العين مرحمة
إذا ألم به من ليس يرحمه

ارحم غريباً بعيد الدار غائبه حبل النوى حمل الأثقال غاربه
فصل رغائبه ، وافصل غرائبه وإن دعا فأجبه ، واحم جانبه
يا خير من دفنت فى الترب أعظمه(٢)

ويختم رفاعة تخميس القصيدة بقوله(٣) ، وهو مما زاده على القصيدة(٤) :

رفاعة خمس المنظوم مرتجلا قريضه ، وهو بالخرطوم قد وجلا
قالت هواتفه : بالله كن رجلا فإن جدك طه للخطوب جلا
فأمر خطبك هذا الجد يحسمه

ماذا العناء؟! وأهل البيت قد كفلوا عوداً جميلا ، وما عن وعدهم غفلوا
لا تعن بالغير ، جدوا السير أو قفلوا هم أجمعوا أمرهم للكيد ، واحتفلوا
والأمر لله ما يرضاه يحكمه(٥)

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٤) حلية الزمن ص ٣ .
(٥) مما يصح ذكره هنا أن على بن رفاعة قلد أباه نخمس قصيدة نبويه ، قال يقدم لها : « هذا تخميس قصيدة من رقائق نبويات الشهاب محمود ناظر ديوان الإنشاء بمدينة حلب المعدود من شعراء القرن السابع نظمته عندما تبين عجزى عن مدحه صلى الله عليه وسلم استقلالا ، ولم أرد بذلك منافسة الأصل بل الاستظلال بظله والانتهال من فضالة فضله ومداراة عيوبى فى بيوت كمالاته لا مجاراة خيولى مع سوابق حلباته أسأل الله تعالى للتخميس كأصله قبولا من ممدوحها صلى الله عليه وسلم وإغضاء من الناظر عما به لسان القلم عن قصور تكلم » ، وأول التخميس :

عززنا بحبك داراً وجاراً فصرنا نصد ونهوى اختيارا
لذا وعزائمنا لا تجارى وصلنا السرى وهجرنا الديارا
وجئناك نطوى إليك القفارا

=

ومما تجدر الإشارة إليه أن رفاعة كان معجباً بالبرعى ، ويصفه بقوله عنه : سيدى[١] .

وقد بلغ الله رفاعة أمله عقب هذا التخميس فسعد وعاد إلى وطنه[٢] .

* * *

وكان لباريس أثر صغير فى شعره ، ولعله رأى فى النثر متنفسا لما يشعر به نحو هذه المدينة الكبيرة ، ولم أجد له فى الحديث عنها إلا قليلا ، فمن ذلك حديثه معجبا بما فيها من ألوان الجمال إذ يقول :

لقد ذكروا شموس الحسن طرّا ... وقالوا : إنّ مطلعها بمصر
ولكن لو رأوها وهى تبدو ... بباريس لخصوها بذكر[٣]

وتعجبه أن تجمع باريس بين نور العلم وظلام الكفر ، حين يقول :

أيوجد مثل باريس ديار ... شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح ... أما هذا وحقكم عجيب[٤]

* * *

تلك هى الأغراض التى قال فيها رفاعة شعره ، فهى المدح والحماسة الوطنية ، والوصف ، والشكوى ، والتوسل بالرسول ، وكل ذلك فى أسلوب حظه من الروعة قليل غالبا ، فليس فيه تلك القوّة الآسرة ، ولا الفخامة الرائعة ، كما أن مجال الخيال فيه ضيق محدود .

أما بناؤه للقصيدة فلم ينهج فيه نهج الأقدمين فى بدئهم إياها بالغزل ، إلاّ فى قصيدة مدح بها توفيقا ، بدأها بقوله :

---

= ومنها : على بن رفاعتكم رافع ... شكاة وغصن الرجا يانع
لدائي عز الدوا النافع ... فكن شافعى يوم لا شافع
سواك يفك العناة الأسارى
( راجع التخميس ص ٢ و ٧ )

(١) نهاية الإيجاز ص ١٢٩ .

(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ .

(٣) تخليص الإبريز ص ٣٩ . (٤) المرجع السابق ص ١٣١ .

عن حكم صدق الودّ كيف أحول     وشهود حبى فى هواك عدول [١]

فهو يبدأ قصيدته بالغرض الذى أنشأه لها .

وهو يصنع قصيدته من قافية واحدة ، إلاّ ما أنشأه من قصائد وطنية ، فإنه يقسمها أقساما ، كل قسم له قافيته الخاصة ، ثم ينتهى القسم بالقافية العامة ، كما أنه ينشىء جزءاً قد يكون بيتاً أو أكثر ، يكرَّر عقب كل جزء ، ويسميه مذهبا ، ولعل هذه القصائد أنشئت لتكون أناشيد تتلى تمجيداً للوطن ، وهذا التنوُّع مما يكسب النشيد جدَّة وجمالا .

وكان رفاعة يدرك ما لبعض بحور الشعر من خصائص ، فتراه يصوغ « وطنية بهية » من بحر المتدارك ، على أسلوب حركة السرعة ، إحدى الحركات العسكرية [٢] .

وبعد فحسب رفاعة من الشعر أنه أحد طلائع النهضة الجديدة ، وأن أسلوبه إن لم يرتفع إلى مستوى الشعر السامى فى الجزالة ، فهو لم ينحط إلى أن يكون تلاعباً باللفظ ولا يعنى شيئاً يقوله ، كما أن هذا النوع من شعر رفاعة الوطنىّ كان جديداً على الأدب العربىّ ، مما يسمح لنا بأن نقرر أن رفاعة قد أدخل تجديداً فى الشعر العربىّ الحديث .

## مقالاته

رأى رفاعة وهو فى باريس المقالات تنشر فى الصحف والمجلات ، فلما وكل إليه فى مصر أمر الوقائع المصرية حيناً ، وروضة المدارس حيناً آخر ، كتب عدة مقالات فيهما ، وإن كان مقلاً فى الوقائع المصرية ، لكثرة ما كان مرهقاً به من الأعباء ، يوم كان مشرفاً عليها ، ولكنه ساهم فى روضة المدارس بقلمه ، وصدَّر العدد الأول منها بمقال تحدَّث فيه عن أهداف المجلة ونواحى نشاطها ، وقد جمع لهذا المقال قواه الأدبية ، وادَّخر له ألوان الصناعة وأنواع الزخرف ، كما نشر مقالات أخرى فى غير هذا العدد .

---

(١) مجلة روضة المدارس — السنة الأولى — العدد العاشر .

(٢) مقدمة مصرية وطنية ص ١٤ .

ونستطيع أن نقسم مقالاته قسمين : أحدهما مقالات أدبية يرمى بها إلى الحديث عن إحساس جاش فى صدره ، أو عاطفة ملأت قلبه . وثانيهما مباحث يصور فيها رأيا ، أو يرسم تاريخاً ، أو يصف حادثا .

فمن النوع الأول مثلاً ؛ افتتاحية الروضة ، والمقالة الشُّكريَّة (١) ، ومن النوع الثانى بحثه (٢) فى اتّصافه سبحانه بالمصور حقيقة واتّصاف غيره به مجازاً ، وهو حيناً يحتفل بمقاله ، ويجمع له ما ادّخره من المقدرة على نظم الكلام ، فيلتزم السَّجع ، وما يروق له من زخارف البديع ، ولكن هذه الصنعة مع ذلك لم تكن تدفعه إلى الحشو ، أو تكسو كلامه بالغموض غالباً ، ولا عجب إذا كان رفاعة يميل لتلك المحسنات ، فإن العصر لم يخلص بعد من حب هذه الزخارف ، ولا من الولوع بتقليد المقامات ، حتى أن كثيراً مما كان ينشر فى روضة المدارس يومئذ كان يعطى له ، لتشريفه ، اسم المقامة ، حتى فى غير موضوعات الأدب ، فتجد مقالاً بها عنوانه : مقامة جليلة ، وآخر عنوانه : مقامة لغزيَّة فى مسائل شرعية (٣) .

ومن آخر مقال كتبه رفاعة : « وأما دار العلوم بمصر المحروسة ، بديوان المعارف بسراى درب الجماميز المأنوسة ، فهى من أجلّ المدارس وأحلاها ذكراً ، وأسماها وأسناها قدراً ، فضل حديثها وحديث فضلها ، سار كالمثل السائر حتى عزّ وجود مثلها ، بأهل شرفها وشرف أهلها ، أسّست على تقوى من الله ورضوان ، ونثرت فى أرجائها جواهر الكتاب والسنة غير ما فيها من جميع أنواع العرفان ، كستها العزائم الحسينية ، حلل المحاسن والحسنات ، والهمم الكاملية ، حلتها لما حلتها بكمال المحسّنات ، وأفادتها الهمة المباركة المستشارة ، أصالة التأسيس مما هو غنىّ عن الإشارة (٤) » .

ورفاعة حيناً آخر ، لا يلتزم هذه المحسّنات البديعية فى معظم مقالاته المبحثية ، فإنه فيها يميل إلى إعطاء الفكرة سافرة لا يحجبها زخرف ولا صنعة اللّهم إلا ما جاء عفواً

---

(١) روضة المدارس — السنة الثالثة — العدد ٢٢ .

(٢) المرجع السابق — السنة الأولى — العدد الثانى .

(٣) السنة الأولى — العدد التاسع .

(٤) مجلة روضة المدارس — السنة الثالثة — العدد ٢٢ .

لا تكلف فيه ، فمن مقاله : بقاء الذكر باستخدام الفكر [١] .

« قد اتصف سبحانه وتعالى بصفة البقاء ، فاتّصاف العبد بما أمكن من البقاء النسبي هو أعلى صفاته وأفضلها ، إذ ليس للعبد من نفسه إلا العدم ، وأما الوجود فقد جاءه من قِبَل الله تعالى ، وقد تقرر فى موضعه من الحكمة أن لكل شىء غاية ، فغاية المعدن أن يصير ذهباً ، وغاية النبات النخلة ، وغاية الحيوان الإنسان ، وغاية الإنسان أن يكون عالماً ، وغاية العالم أن يكون كاملا فى وقته ، باقياً بذكره . . . »

ومن مقال له عنوانه : فى اسمه تعالى المصوِّر ، واتصافه به حقيقة واتصاف غيره به مجازاً [٢] « المصوِّر بالمعنى الحقيقىّ مخصوص به تعالى ، حيث رتب صور الأشياء أحسن ترتيب وصوّرها أحسن تصوير ، وهذا من أرفع الفعل ، ولا يعلم حقيقته إلا من يعلم صورة العالم على الجملة ثم على التفصيل ، فإن العالم كله فى حكم شخص واحد ، مركب من أعضاء متفاوتة على الغرض المطلوب منه ، وإنما أعضاؤه وأجزاؤه السموات ، والكواكب ، والأرضون ، وما بينهما من الماء والهواء وغيرهما ، وقد رتّب أجزاؤه ترتيباً محكما ، لو غيّر ذلك الترتيب لبطل النظام فخصص بجهة الفوق ما ينبغى أن يعلو ، وبجهة السفل ما ينبغى أن يسفل ، وكما أن البناء وضع الحجارة أسفل الحيطان والخشب فوقها ، لا بالاتفاق بل بالحكمة والقصد لإرادة الإحكام ، فلو قلب ذلك فوضع الحجارة فوق الحيطان ، والخشب أسفلها ، لانهدم البناء ، ولم تثبت صورته أصلا ، وكذلك ينبغى أن نفهم السبب فى علوّ الكواكب وسفل الأرض والماء وسائر أنواع الترتيب فى الأجزاء العظام من أجزاء العالم . . . »

وهو بذلك قد مهد السبيل للمقالات المرسلة ، التى تعنى بالفكرة ، أكثر من عنايتها بالزخرف والصنعة .

---

(١) المصدر السابق — السنة الأولى — العدد ٣ .

(٢) المصدر السابق — السنة الأولى — العدد الثانى .

# خطبه

ليس لرفاعة من خطب سوى خطب مدرسية ، هى تلك التى كان ينشئها لمناسبة الامتحان فى آخر العام ، فقد كانت الامتحانات تعقد علانية ، ويجتمع لسماع الطلبة الممتحنين جمهور كبير من رجال الأمة وأعيان البلاد ؛ فكان رفاعة وهو ناظر لمدرسة الألسن خطب فى هذا الجمهور خطبة تدور حول تمجيد العلم ؛ والثناء على مؤسس الأسرة المالكة وذريته ؛ ويلتزم فى هذه الخطب السّجع التزاماً قد يدفعه إلى التكلف ، ويستشهد فيها ببعض الشعر ، وقد يختمها بأبيات منه . وخطبه لا تمتاز عن مقالاته الأدبية التى ينحو فيها منحي الصناعة بشئ ، فهى مقال يتلى ولعلّ من الخير إيراد نموذج لخطبه يتضح به منهجه :

خطب فى امتحان مدرسة الألسن سنة ١٢٥٢ هـ فقال بعد البسملة (١) :

« حمداً لمن علّم بالقلم ، علّم الإنسان مالم يعلم ، وصلاة وسلاماً على ترجمان العلم والحكم ، العالم بلغات العرب والعجم ، وعلى آله وأمته أفصح الأمم ، وخلفائه ذوى العلم والعلم ، وحملة شريعته الحنيفة ، وحفظة ملّته المنيفة ، ثمّ الدعاء بالنصر والتأييد ، والتخليد والتأبيد ، لدولة ولىّ النعم خير دولة ، صاحبة العز والإقبال والصولة ، جعلها الله واسطة عقد ألوية الدّول المحمدية ، وفريدة سلك نظام أمم البرية ، ولا برح سيدها يزهو بملك مصره ، على ملوك عصره ، آمين .

أما بعد فلما كانت مملكة مصر ، بمقتضى الحكمة الإلهية ، ممتازة عن سائر ممالك البرّية ، بأنها أهل لسيادتها على جميع الممالك ، وكأنها مابرأها البارى إلا لذلك وهو أعلم بما هنالك ، كما يدل عليه ماسبق لها فى الأحقاب الخالية ، والأزمان المتعاقبة المتتالية ، وكانت قد اعترتها فترة ، حتى خويت على عروشها بالمرّة ، ويأبى الله إلا نظام ملكها ، وانتظامها فى سمط الدول وسلكها ، حفّها بألطافه ، وأنقذها بإسعافه ، وسخر لها سمىّ رسوله ، وعزّزه — لا سيما — بسمى خليله ،

(١) نظم اللآلىء فى السلوك ص ٢٧١ .

أكرم به من همام جادت به بقاع الإسكندر الأكبر ، فهما وإن تشابها فى همم لا تحصى ولا تحصر ، فقد امتاز عنه ولىّ نعمتنا بالحظ الأوفر ، فأين من نحا بهمته نحو العمار ، ممن كان دأبه التخريب والدمار ، وأين من كانت حكمته من أرسطاليس ثمَّ جازاه بالعقوق ، ممن هو رب الحكمة اللّدنيّة الباعثة على القيام بالحقوق ، ومن ذا الذى يقيس من كانت خزائنه على سلب الأموال مجمولة ، بمن خزائنه لأحياء نفائس العلوم مبذولة ... فما مضى عام إلا وله فيه فتح سعيد ، ولا انقضى وقت إلا وله فيه خبر جديد ، فما أنشأه فى شهر ربيع الآخر من السنة الماضية ، مدرسة الألسن الناشئة بعزيمة ماضية ، وإشارة راضية ، وهمة قاضية ، وغرضه ( حفظه الله ) بهذا الإبداع ، اتّساع دائرة كتب العلوم والفنون مع المبادرة والإسراع ، وحيث إن التراجم الصحيحة ، والتعريبات الفصيحة ، لابد فيها من إتقان المترجم عنه وإليه ، ليصح الوثوق به والتعويل عليه ، صدرت أوامر شوراء المدارس ، الباذلة فى خدمة العلوم النفوس النفائس ، بتعليم التلامذة لغتهم الأصلية على وجه مخصوص ، بل لابد من إتقان جميع فروعها وأدبياتها على الأسلوب المنصوص ، ولا شك أن تلامذة هذه المدرسة معدّون لارتقاء أعلى المراتب ، وحيازة أسنى المناصب ، وهذا أوّل مجلس للامتحان ، واختبار صدق حد صوارم الأذهان ، وميقات تناضل الفرسان ، الذى يظهر فيه الكمىّ من الجبان ، وقد تشرف هذا المجلس بحضور شيوخ مشايخ الإسلام ، ووكلاء الدول الفخام ، ورئيس مجلس الامتحان ، ومن الأمثال التى سارت بها الركبان : عند الامتحان ، يكرم المرء أو يهان ... » .

كما كان يخطب فى حفلات افتتاح المدارس ، ومن ذلك تلك الخطبة التى ألقاها فى افتتاح مدرسة المهندسخانة ، فى يوم السبت ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ ( مايو سنة ١٨٦٦ م [١] ) .

وخطبه ( فى رأيى ) ينقصها التدفق والحرارة والانطلاق ، وتجد نماذج لها فى

---

(١) الوقائع المصرية العدد ٢٨ الصادر فى غاية المحرم سنة ١٢٨٣ هـ ( ١٤ يونية سنة ١٨٦٦ م ) .

آخر كتاب نظم اللآلئ فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك[1] ، ومجلة روضة المدارس ، ولعل أول خطبة تلك التى نقلناها هنا ، وآخر خطبه ما ألقاها فى امتحان مدرسة أسيوط فى رجب سنة ١٢٨٨ هـ[2] ، وكان هو رئيس الامتحان ، وكلها ثناء على الخديو إسماعيل الذى أنشأ المدرسة ، ووزير معارفه ، ومدير المدارس ووكيله ، وناظر المدرسة .

## لمحاته فى اللغة والأدب

— ١ —

كان رفاعة يمجد اللغة العربية ، ويراها أعظم اللغات وأبهجها[3] ، وأوسعها وأحلاها على السمع[4] ، ويؤمن بقدرتها على التعبير عن أدق المعانى فى اللغات الأجنبية وأعمقها ، وأن فى وسعها أن تستوعب آداب الأمم ومعارفها[5] .

ويرى فى هذا اللسان العربى ، الجامع الموحد « لجمعيات الممالك المتفرقة ، والدول المتباعدة المتحدة فى الدين والشريعة ، المتباينة فى اللغات العامية[6] » ؛ فضلا عن الحاجة إليه فى فهم الكتاب والسنة ، وكتب الشريعة المطهرة ومعرفة مداركها ، واستنباطاتها ، على مقتضى قواعده[7] .

فلا غرابة إذاً إن رأيناه متحمساً فى دعوته إلى دراستها ، والعناية بأمرها ، فى عصره الذى « طمست فيه معالمها ، ودرست رسومها ، وقل راغبوها ، وندر خاطبوها[8] » .

---

(١) ص ٢٦٩ ومايليها .
(٢) مجلة روضة المدارس — السنة الثانية — العدد ١٦ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٦٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٦١ .
(٥) مواقع الأفلاك ص ٦ .
(٦) أنوار توفيق الجليل ص ٥١٤ .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .

وهو معجب بجهود المستشرقين ، « فقد اختصوا الآن باستخراج جوهر لسان العرب من معادنه ، واستنبطوا منها الفوائد المهمة ، والفوائد الجمة ، واستكشفوا منها مجهول التواريخ والجغرافيا والعلوم والفنون والأخلاق والآداب والأمثال والحكم ، مما انتظم به ملكهم [١] » ، وأطرى رفاعة فى كتابه : تخليص الإبريز [٢] أحد هؤلاء المستشرقين ، وأثنى عليه وعدد جهوده ، ونقل مقدمة بعض كتبه .

أما رأيه فى الطريقة الناجحة لتدريسها ، فهو ألا يكتفى بالتوسع فى دراسة العلوم العربية الاثنى عشر [٣] ، وقراءة مطولاتها ، والاقتصار على معرفة الشواهد ، كما هو الحال فى المدارس ، بل لا بد من دراسة آداب اللغة ودواوينها ، وأشعار العرب الأقدمين ومن حذا حذوهم من المولدين ، ولا بد من الاغتراف من باقى المعارف بأوفى حظ وأوفر نصيب [٤] .

ويمتد برفاعة الأمل ، فيرى من الممكن مع الزمن أن يحصل الناطقون بالعربية على ملكة التكلم بالكلام الفصيح وعودة وحدة اللغة بين الناطقين بالعربية ، ويرى أن ذلك اليوم الذى تعود فيه تلك الوحدة هو فجر عصر ذهبى ينتعش فيه الإسلام ، ويزيد بسطة فى العلم والجسم ، ويقوى بين أمم الأنام [٥] .

وهويرد فى إيمان على دعاة العامية ، الذين يزعمون الاشتغال بالعربية ضياع زمان ، وأن المجهد فى تحصيلها لا يدرك منها جزاء ما بذله فيها من جهد ، وما نال من عناء ، مبرهناً على ذلك بأن أكثر المتقدمين من العلماء كملت لهم فيها القريحة فى سن العشرين [٦] .

على أن له رأياً لا أقره عليه فى اللغة العامية الدارجة ، فهو يرى أنه لا مانع

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) ص ٦٢ .

(٣) هى اللغة والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والعروض ، والقوافى وعلم الشعر وعلم النثر والتاريخ والخط ( راجع ص ٦١ تخليص الإبريز ) .

(٤) أنوار توفيق الجليل ص ٥١٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه .

أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم ، وتصنف فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية[١] » ، فليس من رأيي أن نعد هـذه اللغة بأي سبب من أسباب الحياة .

ولرفاعة رأى حصيف فى كيفية الحصول على ملكة البلاغة ، ذلك أن الغاية من البلاغة أن تصبح ذوقاً يعرف به صاحبه منحى الأسلوب العربى السامى ، ويمجّ ما عداه ، وهو يرى الوسيلة إلى ذلك ممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع والنطق بتراكيبه وأساليبه ، والصبى من صبيان العرب يصل إلى ذلك بنشأته وتربيته بينهم ، وتحصل هذه الملكة لمن يأتى بعد جيلهم بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم ، ودوام ذلك ، حتى يصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم ، وربى بين ظهرانيهم ويومئذ « إن رام صاحب هـذ ملكة أن يحيد عن الأساليب العربية ما وافقة لسانه على ذلك ، وإذا عرض عليه الكلام الحائد عن الأسلوب العربى ، وعن البلاغة مجّه سمعه ، لعلمه أنه ليس من كلاب العرب الذين مارس كلامهم ، وربما عجز عن الاحتجاج لذلك ، حيث إنه بالنسبة إليه أمر وجدانى » . أما دراسة هذه القوانين البلاغية فإنها تفيد علماً لا ملكة[٢] . والبلاغة الصحيحة عنده ما فهمته العامة ، ورضيت به الخاصة[٣] .

وهو يرى النثر أشرف من النظم ، وأرفع منه درجة ، واستدل على ذلك بأن الإعجاز إنما اتصل بالمنثور دون المنظوم ، وبأن أرباب النظم أكثر من كتاب النثر ، فلو شئنا أن نحصى أرباب الكتابة والإنشاء من أول الدول الإسلامية إلى الآن لما وجدنا منهم من يستحق اسم الكاتب إلا أفرادا قلائل ، بخلاف الشعراء ، فإن عددهم كثير ، حتى لقد يجتمع منهم فى العصر الواحد جماعة كثيرون كل منهم شاعر مفلق ، مما لا نجده فى كتاب الإنشاء ، فربما ندر الفرد الواحد فى الزمن

---

(١) أنوار توفيق الجليل ص ٥١٥ .
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٥٤٣ .
(٣) تخليص الإبريز ص ١٧١ .

الطويل ، وليس ذلك إلا لوعورة مسلك النثر وبعد مناله ، كما أن حاجة الدولة إلى الكاتب أشد من احتياجها إلى الشاعر[١].

أما ثقافة الأديب فيرى رفاعة واجبا عليه أن يتعلق بكل علم وكل صناعة ، ويخوض فى كل فن من الفنون ، ذلك أنه مكلف أن يخوض فى كل معنى من المعاني ، وكلامه يمر على أسماع شتى من خاصة وعامة ، ولا بد للكاتب إن لم يحسن الشعر، أن يكون له سعة اطلاع على دواوينه ، سواء أكان من شعر العرب العرباء أم من شعر المولدين أو المخضرمين[٢].

والمثل الأعلى لبلاغة الكاتب أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة ، لأنها إن لم تكن كذلك لا تكون فصيحة ، وأن تكون مركباته مما تفهمه الخاصة والعامة ، ما لم يكن مقصوداً للخاصة ، فإنه يتفاوت بتفاوت درجات من خوطب به[٣].

ويرى رفاعة الأدب ذا فضل على العلوم ، فإنه يكسوها طلاوة وحلاوة ، وقد أوضح هذه الفكرة بقوله : « العلوم الأدبية ، تكسو العلوم الحقيقية طلاوة جلية ، فإنه لو صار فى التآليف والتصانيف سرد مسائل أى علم كان، بعبارة بسيطة ، مجردة عن التحلى بحلية الإنشاء والأدب ، ولم يصر تلطيفها بما يسيغها فى ذوق القارىء ، لكانت مسائلها ركيكة غير رائقة ، فلا بد لمسائل العلوم من حسن التوقيع ، وفصاحة العبارة ، وتحسينها بما يزيل عن ذهن القارىء وعساء السآمة ، فحسن العبارة فى تقرير المسألة العقلية والنقلية ، هو ذكرها على وجه لطيف مقبول للعقل ، ليستفيدها السامع ، وتلتذ بها المسامع[٤] » ؛ وهو يرى بذلك أن يأخذ من العلم فكرته ، ومن الأدب أسلوبه ، وقد جرى على ذلك فى تآليفه ، كما سبق أن ذكرنا .

ويقف رفاعة معجباً أمام الشعر ذى الصنعة ، يعده من الأدب الرفيع ، روى قول الشاعر :

---

(١) المرشد الأمين ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩ .

إن هز أقلامه يوماً ليعملها أنساك كل كمى هز عامله
وإن أقر على رق أنامله أقر بالرق كتاب الأنام له

وقدم لهذين البيتين بقوله : « ومن أمدح ما قيل فى كاتب » ، وعلق عليهما بقوله : « والبيت الأخير من الشعر النفيس ، وفيه ضرب من التجنيس[(١)] »..

وعرض رفاعة فى بعض كتبه مسائل من تاريخ الأدب ، فوازن حيناً بين الشعراء : جاهليين وإسلاميين وعصريين ، فأشعار الإسلاميين المتقدمين أرق من أشعار أهل الجاهلية ، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين ، ثم كانت أشعار العصريين باعتبار التأخر أجمع لنوادر المحاسن وللطائف البدائع من سائر المذكورين ، ولانتهائها إلى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف، تكاد تخرج من حد الإعجاب إلى الإعجاز[(٢)] ، فهو معجب إلى آخر حدود الإعجاب بالشعر المعاصر ، ولعل سر هذا الإعجاب هو ما فيه من الصنعة والزخرف مما يتفق مع مذهبه الذى أسلفناه .

وتحدث رفاعة عن الشعر عند العرب ودلالته على أخلاقهم[(٣)] ، وعن ملكة الشعر والخطابة عند العرب[(٤)] ، وتحدث عن سوق عكاظ فى الجاهلية وأثره[(٥)] ، وعن المعلقات السبع وتواريخ أربابها[(٦)] ، وعن ظهور الكتابة عند العرب[(٧)] ، وأثر الشعر فى تهذيب العرب ، وإعدادهم لقبول رسالة محمد[(٨)] ، وتعرض لوجوه إعجاز القرآن ، وبسط الكلام فى المتشابه والمحكم ، وفيما ظاهره التناقض أو التكرار[(٩)] ، وعلل هذا البسط بما وجده فى كلام الأوربيين عند ذكر القرآن من تعداد هذه الأشياء ، وعدها من المعايب ، وشدة تعنتهم فى ذلك[(١٠)] .

---

(١) المرشد الأمين ص ١٠١ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٦ .
(٣) أنور توفيق الجليل ص ٤٨٦ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٧٨ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٩٢ .
(٦) المرجع السابق ص ٥٠١ .
(٧) المرجع السابق ص ٥٠٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٥١٦ .
(٩) المرجع السابق ص ٥٤٠ .
(١٠) المرجع السابق ص ٥٤٢ .

— ٢ —

تعمق رفاعة فى دراسة اللغة العربية ، ولا سيما أدبها ، وقد أعانته هذه الدراسة على تذليل قواعد اللغة الفرنسية[١] ؛ ولم يكتف بذلك ، بل مضى يوازن بين اللغتين ، ويجيل النظر فى أدبيهما وبلاغتيهما ، وكان من أول ما استرعى نظره ، أنه لم يجد فى اللغة الفرنسية ما ألفه فى العربية من تأليف متن صغير يجمع مسائل العلم جمعاً مركزاً مضغوطاً ، يوضع عليه شرح يوضح بعض غامضه ، ثم يوضع على الشرح حاشية تناقش المتن والشرح بعض المسائل اللفظية ، ويمضى قارىء ذلك كله مشتت الذهن ، ينسى موضوع العلم ، ويمضى فى لجج المناقشات والفروض والاعتراضات ، أما اللغة الفرنسية فلا شىء فيها من ذلك ، « فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أىّ علم كان ، تفرّغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن إنتاجه منهما ، وأما غير ذلك فهو ضياع ؛ مثلا إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب فإنه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنّف قدّم كذا ، ولو أخّره كان أولى ، وأنه عبّر بالفاء محل الواو ، والعكس أحسن ونحو ذلك[٢] » . ولهذا حكم رفاعة بسهولة اللغة الفرنسية ، وقدرة أى إنسان بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، وأن المعلّم الذى يدرّس كتاباً لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبداً ، لأن الألفاظ واضحة بنفسها ، وليس لكتب الفرنسيس شرّاح ولا حواش إلا نادراً ، ولكنهم قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة ، تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه[٣] .

ووازن رفاعة فى البلاغة بين اللغتين . فوجد أن علم تحسين العبارة وتطبيقها

---

(١) مقدمة نظم العقود .

(٢) تخليص الإبريز ص ١٣١ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

على مقتضيات الأحوال ، ليس من خواص اللغة العربية ، والإفرنج يسمونه بعلم الريتوريق ( Rhétorique ) ولكن هذا العلم فى اللغة العربية أتمّ وأكمل منه فى غيرها ، خصوصاً علم البديع ، فإنه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية ، لضعفه فى اللغات الإفرنجية[١] ، وربما عد ما يكون من المحسّنات البديعية فى العربية ركاكة عند الفرنسيين ، فالتّورية مثلا ليست من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادراً ، فإن كانت فهى من هزليات أدبائهم ، وكذلك الجناس التام والناقص فإنه لامعنى له عندهم ، وتذهب ظرافة ما يترجم لهم من العربية مما يكون مزخرفاً بهذا اللون من المحسنات[٢] .

وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل إعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية كذلك .

ولحظ رفاعة أن الشىء قد يكون بليغاً فى لغة غير بليغ فى أخرى ، أو قبيحاً فيها ، وقد تتفق بلاغة الشىء فى لغتين أو لغات ، كما إذا أردت أن تشبّه رجلا شجاعاً بالأسد ، فإنه مقبول فى العربية وغيرها ، وإذا أردت أن تشبه جميلاً بالشمس ، أو أن تقول عن حمرة خدّه إن خدوده تتلظى ، فهذا التشبيه حسن فى العربية ، غير مقبول فى الإفرنجية ، وأورد رفاعة كذلك عدّة أبيات أولها :

خليلىّ ، إن قالت بثينـــة ماله أتانا بلا وعد ، فقولا لها : « لها »

وأغلب تشبيهاتها غير مقبول عند الإفرنج[٣] .

واسترعى نظر رفاعة وهو فى باريس أن الفرنسيين مع شربهم للخمور لا يتغزلون بها كثيراً فى أشعارهم ، وليس عندهم أسماء كثيرة تدل على الخمر كما عند العرب ، ولا يتخيلون فى شربها معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات ، والكتب المتعلقة بالسكارى هزليات فى مدح الخمر ، لا تدخل فى الأدبيات الصحيحة

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ .

فى شىء ، على العكس من ذلك عند العرب ، الذين أخذت الخمر فى آدابهم مكاناً متميزاً[١] .

وعدّ رفاعة من محاسن أسعارهم وطباعهم أنها تأبى التغزُّل بالمذكّر ، فلا يحسن فى اللغة الفرنسية قول الرّجل . « عشقت غلاماً » ؛ فذلك من الكلام المنبوذ المشكل ، ولذا إذا ترجم أحدهم شعراً فيه غزل بمذكر ، قال فى ترجمة تلك الجملة : « عشقت فتاة » ، أو ذاتاً ليتخلّص من ذلك[٢] .

ومما لفت نظر رفاعة أيضاً ما رأى من توافق بين مزاجى العرب والفرنسيين من غزل فى الأشعار الحربية ، فقد رأى لهم كلاماً كثيراً يقرب من قول الشاعر العربىّ :

ولقد ذكرتك ، والرماح نواهل مـنّى ، وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف ، لأنها برقت كبارق ثغرك المتبسم[٣]

ولا ريب أن من الممكن عقد موازنات شتى بين الأدبين واللغتين والبلاغتين ، تعرض رفاعة لبعض جوانبها .

---

(١) المرجع السابق ص ٩١ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٣ .

# جهوده اللغوية

كانت سبيل الترجمة فى ذلك العصر شائكة ، مليئة بالصعاب ، فقد رقدت اللغة العربية حيناً طويلا من الدهر ، لم تساير حركة التقدم ، ولم تمرن على التعبير عما جد فى العلم والحضارة والمدنية ، فلما حاول المترجمون نقل ألوان العلوم المختلفة ، اعترضتهم صعوبة العثور على ألفاظ تطابق فى معناها معانى الألفاظ المترجمة .

وقد اعترف رفاعة بصعوبة فن الترجمة ، « خصوصاً ترجمة الكتب العلمية ، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها ، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه والفن المترجم فيه(١) » .

وكان رفاعة لا يقدم على ترجمة كتاب إلا إذا كان واثقاً من قدرته على تذليل صعوباته بنفسه ، أو بمن تحت إشرافه فى قلم الترجمة ، ولما رأى مرة أن من يشرف عليهم من المترجمين ليسوا أهلا لأن يترجموا ما عهد إليهم به ، اعتذر عن القيام بهذه الترجمة ، كما حدث عندما أحيلت إلى القلم ترجمة بعض اللوائح والإرشادات الصحية ، فإن رفاعة ردها ، محتجاً بأن بها مصطلحات طبية ، لا يمكن ترجمتها إلا بمدرسة الطب(٢) . وكثيراً ما قام رفاعة بتذليل العقبات التى تقف فى وجه تلاميذه ، كما اعترف بذلك هؤلاء التلاميذ(٣) ؛ ولكى تتبين جهوده اللغوية ، نقف عند كل لون من تلك الألوان التى نقل بها المعارف إلى اللغة العربية ، وأعنى بها : التعريب ، والترجمة ، ووضع المصطلحات ، فنخص كلا بكلمة .

---

(١) تخليص الابريز ص ١١ .

(٢) تاريخ التعليم فى مصر — عصر اسماعيل ص ١٤٧ .

(٣) راجع مقدمة إتحاف الملوك الألبا ص ٥ .

## التعريب

أقصد بالتعريب هنا نقل الاسم من اللغة الأجنبية إلى العربية ، مع تغيير يسير لا يفقد الاسم معظم حروفه وحركاته ، ورفاعة يتبع هذا المنهج فى :

١ — أسماء البلاد والمعالم الجغرافية ، فهو ينقل الأسماء إلى العربية ، كنطقها فى اللغة الفرنسية ، فتسمع منه لندره[١] ( Londre ) وإيتازونى[٢] ( Etats–Unis ) للولايات المتحدة ، وكان يترجمها بالأقاليم المجتمعة[٣] ، وباسفيك[٤] ( Pacifique )

وبهذه الطريقة أغنى اللغة العربية بأسماء أهم ممالك العالم ومدنه ، وأسماء معظم المعالم الطبيعية فيه . من جبال ، وبحار ، وأنهار ، وخلجان ، وجزر ، ومضايق ، وبحيرات وصحار ، وكان تعريبها سبباً للوك الألسنة لها ، فبقى بعضها على حاله ، وتأثر بعضها بالزمن فأحدث فيها خفة وبعض تغيير .

على أن رفاعة كان يحدث فى بعض الأحيان يسيراً من التغيير فى النطق ، فيبدأ بعض الكلمات المبدوءة بالساكن ، بهمزة الوصل ، مثل إبريطانية[٥] فى ( Brétagne ) ، أو يختم البعض بالتاء ، مثل إبريزيلة[٦] فى ( Brésil ) أو يقلب الجيم باء ويزيد على الكلمة مثل يابونيا[٧] فى ( Japon ) .

ومما يلحظ أنه عرب اسم العاصمة الأمريكية ( وسهنغتون[٨] ) متبعاً فى ذلك الحروف المكتوبة لأن ( sh ) لم ينطق بهما ( ش ) .

وكان رفاعة يعرب الأسماء محتفظاً بنطقها الفرنسى ، إلا إذا وقف على اسمها

---

(١) التعريبات الشافية ص ٣٨ .
(٢) قلائد المفاخر ص ٦٢ .
(٣) تخليص الإبريز ص ١٥ .
(٤) قلائد المفاخر ص ٢٣ .
(٥) التعريبات الشافية ص ٣٧ .
(٦) قلائد المفاخر ص ٢ .
(٧) تخليص الإبريز ص ١٦ (٨) المرجع السابق نفسه .

العربىّ ، فإنه يؤثره ، ومن ذلك مدينة ( إشبيليه ) و ( غرناطة ) ونهر ( الكنك ) فإنه آثرها على ( سيقيل Séville ) و ( أغرنادة Grenade ) ونهر ( الجانج Gange[١] ) . وأحياناً يجمع بين الاسمين ، فيقول مثلا : جزيرة سيسليا ( Sicile ) أو صقلّية ، وهو الاسم المعروفة به فى الكتب العربية .

٢ — وفى أسماء الطوائف ، فهو يؤثر أن يذكر أسماءها كما وضعتها هذه الطوائف ، فينقل إلى العربية مثلا أسماء الطوائف : أومبار[٢] ( بضم الهمزة وسكون الواو ، فميم ساكنة ، فموحّدة ، بعدها ألف فراء ) وهى طائفة من بلاد إيطاليا ، تتعلق بالتجارة والمعاملات كأمور الصيارفة والدّلالة .

وإيتروسك[٣] ( بكسر الهمزة وسكون المثنّاة التَّحتيَّة ، فمثنّاة فوقية ساكنة ، فراء مضمومة ، فواوساكنة ، فسين مهملة ساكنة ) وهم قدماء إقليم طسكانة ببلاد إيطاليا .

وإيروقائى[٣] ( بكسر الهمزة ،وسكون المثنّاة التحتية ،فراء بعدها واو، فقاف بعدها ألف ، فهمزة مكسورة ، فياء ) وهم طوائف ببلاد أمريكة الشمالية .

وباريا[٤] ( بباء موحّدة بعدها ألف ، فراء مكسورة ، فياء ، بعدها ألف ) فرقة ببلاد الهند مبغوضة عند الهنود ، كاليهود فى سائر البلاد .

وبانيانة[٤] ( بموحّدة بعدها ألف ، فنُون مكسورة ، فمثناة تحتية ، بعدها ألف ، فنون مفتوحة ، فتاء تأنيث ) فرق يهود الهند ، يشتغلون بالمعاملات مابين صيارفة ودلاّلين وتجار .

إلى عشرات أخرى من أسماء الطوائف ، وكأنه يرى بذلك أن الاحتفاظ بهذه الأسماء ، أدعى إلى إثارة معانيها فى النفس عند النطق بها ، وتميزها عن سواها ، وسوف ندرس منهجه فى التَّعريف بهذه الأسماء .

---

(١) التعريبات الشافية ص ٦ .

(٢) قلائد المفاخر ص ١٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣ .

٣ — وفى أسماء الأشخاص — وهذا أمر طبيعىّ — وربّما غيّر القليل من حروفها ، كما فى عولوس ( Ulysse ) وكالبسه فى ( Calipso ) ومنطور[١] فى ( Mintor ) ولافونتينه[٢] فى ( Lafontaine ) ، ويضع جرجس مكان جورج[٣] ( George ) .

٤ — وفى أسماء الأجناس والقبائل ، وهو بهذا يفتح الباب ، لدخول مئات الأسماء ، للتعريف بأجناس العالم وشعوبه ، فتراه يستخدم أوطاق[٤] ( بضم الهمزة ، وسكون الواو ، فطاء مهملة مضمومة مشدّدة ، فميم بعدها ألف ، فقاف ) اسم طوائف وحشية بأمريكا الجنوبية . وبسك[٥] ( بفتح الموحّدة ، وسكون السين المهملة وبكاف أو قاف ) قبائل ببلاد إسبانيا بجبال البرنات . وغير ذلك .

٥ — وفى أسماء الحيوان والنبات الذى لا اسم له فى اللغة العربية ، مما تمتلئ به بلاد أمريكا .

٦ — وفيما يضعه الفرنج من أعلام لأعيادهم وحفلاتهم ، كجول أحد أعياد الرومانيين[٦] والألعاب الأوليمبيقية[٧] .

٧ — أسماء الشهور الفرنجية .

وهاك جدول[٨] تعريبه :

| الشهور بالفرنسية | تعريبنا له | تعريب رفاعة | الشهور بالفرنسية | تعريبنا له | تعريب رفاعة |
|---|---|---|---|---|---|
| Janvier | ينار | ينويه | Juillet | يولية | يولية |
| Fevrier | فبرار | فبريه | Août | أغسطس | أغسطوس |
| Mars | مارس | مارث | Septembre | سبتمبر | سطمبر |
| Avril | أبريل | أبريل | Octobre | أكتوبر | أقطوبر |
| Mai | مايو | مايه | Novembre | نوفبر | نونبر |
| Juin | يونية | يونية | Décembre | ديسمبر | دقبر |

(١) راجع مواقع الأفلاك.
(٢) مناهج الألباب المصرية ص ١٢٢ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٢١٤ .
(٤) قلائد المفاخر ص ١٢ .
(٥) قلائد المفاخر ص ٢٧ .
(٦) المرجع السابق ص ٤٠ .
(٧) المرجع السابق ص ١٣ .
(٨) التعريبات الشافية — القسم الثاني ص ٨٨ .

والغالب أن رفاعة رأى أسماء الشهور معرَّبة كذلك فاستخدمها .

٨ — كلمة متر[1] ( Metre ) فلم يضع مكانها كلمة ( ذراع فرنسية ) ولا سواها ، بل استخدمها هى فى حديثه عن المقاييس .

وهو يحافظ فى معظم مايعربه على الحروف الفرنجية ، وإن كان يميل غالباً إلى قلب التاء طاء ، والكاف قافاً ، فيقول اللغة اللاطينية فى Langue Latine وطويلريا فى Tuileries والقاثوليقية فى Les catholiques وإسقيمو[2] فى Esquimaux .

## الترجمـــة

أما الترجمة فهى نقل المعنى إلى اللغة العربية بأسلوب عربى ، وفى لفظ عربي ، وقد بينا اعتراف رفاعة بصعوبة فن الترجمة ، ورأيناه وهو فى باريس ، يحوجه اصطلاح اللغة العربية أن يضع مجازاً بدل مجاز آخر ، وأنه برغم محافظته على روح المعنى الأصلى ، لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما ترجم الجملة بجمل والكلمة بجملة[3] ، وكان يفسر بعض الكلمات التى لايجد لها مقابلا فى العربية بقدر ما يستطيع ، قال : « وما تعاصى منها حفظت لفظه ورسمته ، كما يمكن كتابته به ، وربما أدخلته بعض تفسيرات لطيفة[4] » .

وكان رفاعة يرى أن الترجمة تذهب ببلاغة النص الأدبى المترجم وبهائه ، فقد يكون الشعر الفرنسى عالى النفس فى أصله ، ولكن لا يظهر علوّ نفس صاحبه فى الترجمة ، كالشأن فى لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الإفرنجية ، من غير أن يذهب حسنها ، بل ربما صارت باردة[4] ، ولذا كان فى بعض الأحيان ، يعترف بقصور عبارته عن أن تؤدى حرارة العبارة الفرنسية ، فقد نقل

---

(١) مبادىء الهندسة ص ٩ وتخليص الإبريز ص ٤١ .

(٢) قلائد المفاخر ص ٤ .

(٣) راجع ص ٢٧ .

(٤) تخليص الابريز ص ٧٠ .

ما ختم به الملك لويس فيليب كلمته إذ قال : « والشّرطة تصير من هذا الوقت حقاً » ، وعلّق عليها بقوله : « ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة[1] » .

وكان رفاعة عندما يترجم الأدب ، يعنى بأن ينقله فى أسلوب فخم قوىّ ، ويتصرّف — كما قلنا — بعض التصرف ، من غير أن يخلّ بأصل المعنى المراد ، وقد بيّن هذا المنهج فى مقدّمة كتابه : وقائع تلماك ، إذ قال : « وأديت التعريب بأسهل تقريب وأجزل تعبير ، وتحاشيت مما يورث المعانى أدنى تغيير ، ويؤثر فى فهم المقصود أقل تأثير ، اللهم إلا أن يكون ثمّ محل مخل بالعادة ، فأتمحّل لذكر مآل المعنى ومضمونه بعبارات تفيد لازم المعنى أكمل إفادة ، وهذه أساليب فى قالب الترجمة معتادة[2] » .

أما فى ترجمته للقانون فالدقة والبساطة رائده ، كما كان شأنه كذلك فى الترجمة العلمية ، وأسلوبه في ترجمته تلك ، مرسل فى الغالب ودقيق ، وإن كنت لا تعدم في ترجمته للجغرافية أن تجد سجعاً .

وبرغم مقدرة رفاعة على التعريب لا يخلو أن تجد الرّكاكة فى بعض عباراته ، وأن تجد فى بعض أساليبه ريح الترجمة كقوله : « نريد أن ننظم فى سلك عبارات متناسقة تاريخية ، نبذة من الجغرافيا القديمة والحديثة[3] » و « سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة[4] » و « لا يقع تصليح شىء فى آداب سياسات فرنسا.. إلاّ إذا رضى به الملك[5] » و « بشرط أن يصنع ديوان رسل جديد[6] » و « اعتناء فاسد[7] » و « عزمت على ألاّ أركب أبداً الكرسى الذى أعطته لى الملّة الفرنساوية[8] » و « الخشونه والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة[9] »

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٥ .
(٢) مواقع الأفلاك ص ٥ .
(٣) الجغرافيا العمومية ج ١ ص ٣ .
(٤) تخليص الإبريز ص ٧٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) المصدر السابق ص ١٠٦ .
(٨) المصدر السابق ص ١٨٠ .
(٩) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

و « كانت خيولها تسبق سالفاً خيـول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم والحـكمة [1] » وقد رأينا فيما مضى الميادين التى ترجم فيها رفاعة ، أو ساعد على الترجمة فيها .

## وضع المصطلحات

كان من الممكن لرفاعة أن يبحث هنا وهناك ، حتى يعثر على لفظ يؤدى به المعنى المصوغ فى عبارات فرنسية ، مادام قد سبق للغة العربية معرفة هذا المعنى وعـبّرت عنه ، ولـكن رفاعة كثيراً ما كان يقف أمام ألفاظ فرنسية يعرف معناها ، ثم يجدّ فى البحث فلا يعرف لفظاً عربياً يؤدى به هذا المعنى ، وإنما يقف هذا الموقف أمام مظهر جديد من مظاهر هذه الحضارة ، أو علم من العلوم المجهولة لدى العرب ، أو مسائل هذا العلم ، أومذهب من المذاهب السياسية أو الاجتماعية ، أو نظام من النظم الإدارية ، أو مخترع جديد ، وأمام ذلك كله يقف رفاعة منقّباً ، يفتش عن لفظ يؤدى به تلك المعانى المبتدعة ، كما وقف لأول مرة أمام Théâtre و Spectacle فتعب فى البحث عن اسم عربىّ يؤدى معناه الـكامل ، وهنا يلجأ رفاعة إلى طريقتين: إحداهما أن يضع له مصطلحاً ، والثانية أن يعبر عنه بلفظه الفرنسى ، ويشرحه .

والمصطلح كلمة أو عبارة يصطلح فرد أو جماعة على إطلاقها على شىء مادى أو معنوى ، فوضع السيارة على هذه الآلة المعروفة مصطلح ، وإطلاق الوجدان على هذا المظهر المخصـوص من مظاهر العقل مصطلح ؛ وهو أنواع شتى : منه ما هو أدبىّ ، أى أنه يوضع ليستخدم فى لغة الأدب ، فيفهمه الناس عامّة ، ومنه ما هو علمىّ يختصّ بفهمه أهل العلم الذين وضعوا هذا المصطلح ، كالزاوية الحادّة والقائمة فى علم الهندسة ، ويتنوع المصطلح العلمى بتنوع فروع العلوم ، فهناك مصطلحات جغرافية وأخرى قانونية ، وغيرها هندسية وتجارية وهكذا ، وكل علم له مصطلحاته الخاصة به ، وتبلغ اللغة أوج الـكمال إذا استطاعت أن تفى بمصطلحات العلوم

---

(١) المصدر السابق نفسه .

المختلفة ، لأن هذه المصطلحات هى التى تضبط مسائل العلم ، ولذا كان رفاعة شديد الإعجاب باللغة الفرنسية ، فإن الفنون فيها قد بلغت درجة أوجها ، لأن كل علم فيها له قاموس مرتب على حروف المعجم ، فى ألفاظ العلم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة[(١)] ، ووجد ينبوع الاصطلاحات فى اللغة الفرنسية ، هو اللغة اليونانية ، ورأى ذلك مصدر غنى للغة وينبوع ثروة ، قال رفاعة : « وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كان لسانهم من أشبع الألسنة وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة[(٢)] » .

أما اللغة العربية ففى أمس الحاجة إلى هذه المصطلحات ، حتى تستطيع أن تنهض بعبء تثقيف بنيها ، مكتفية بنفسها عما سواها ، وكان رفاعة يشعر بذلك ، ويرى أنّ تضافر جهوده وجهود الغيورين على اللغة كفيل بسد هذا النقص .

وكان منهج رفاعة فى اختيار مصطلح أن يبحث : أفى اللغة العربية اسم يمكن أن يستخدمه ولو بطريق التوسع ، للدلالة على هذا الشىء الجديد ، فيستخدمه ، قال بعد أن وصف أنواعاً من ( التياتر ) و ( السبكتاكل ) : « ولا أعرف اسماً عربياً يليق بمعناها ، غير أن لفظ ( سبكتاكل ) معناه منظر أو متنزه أو نحو ذلك ، ولفظ ( تياتر ) معناه الأصلى كذلك ، ثم سمى بها اللعب ومحله ، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللّعب المسمى خيالياً ، بل الخيالىّ نوع منها . . . ولا مانع أن تترجم لفظة تياترو أو سبكتاكل بلفظ خيالىّ ، ويتوسع فى معنى هذه الكلمة[(٣)] » .

فإن لم يجد لفظاً يستخدمه ، نظر إلى فكرة اللفظ فترجمها فى كلمة أو عدة كلمات ، كما وضع لكلمة Musée اسم خزانة المستغربات ، وهى ما اخترنا له اليوم كلمة المتحف .

الطريقة الثانية أن يستخدم الاسم الفرنسىّ ، وذلك حين يعجز عن الإتيان باسم عربى يقابله ، أو حين يؤثر الراحة وعدم العناء ، وذلك كموقفه من الآلة الموسيقية البيانو[(٤)] (Piano) ، وموقفه من أنواع دور التمثيل ، مثل بانورمه[(٥)] (Panorama)

---

(١) تخليص الإبريز ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٣) تخليص الإبريز ص ٩٧ .

(٤) و (٥) المرجع السابق نفسه .

وهو محل تنظر فيه ، فترى المدينة التى تريد تصويرها ، ففى صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلا ، والرُّميلة تحتك ، وباقى المدينة . و كسمورمه [١] (Cosmorama) وفيه صورة بلدة ثم أخرى وهكذا . وديورمه [٢] (Diorama) وفيه صورة دار . و ( أورانورمه ) [٣] وفيه صورة الفلك الأعظم وسائر ما يحتوى عليه ، مصوّراً على مذهب الإفرنج ، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك . و ( أوربرمه ) [٤] وفيه صورة بلاد الفرنج ؛ وموقفه من بعض أنواع العربات مثل رولاجه [٥] Roulge ، وهى عربة معدة لوسق الأمتعة من باريس إلى البلاد البرانية وكوكو [٦] Coucou ، وهى عربة صغيرة للسفر إلى المحال القريبة من باريس ، وفياكر [٧] Fiacre وهى عربة فيها مقعد فيه سدلتان متقابلتان تسعان ستة أنفس ، ولها حصانان ، و ( كيريوله ) [٨] ، وهى عربة فيها مقعد فيه سدلة واحدة تسع ثلاثة أنفس و (الدلجنس) [٩] وهى عربة توسق بالناس للسفر ، و(الأمنيبوسه) Omnibus [١٠] وهى عربة كبيرة عمومية ، وكاستخدامه كلمة ( وابور ) [١١] Vapeur فلم تكن كلمة قطار معروفة لديه ، وكلمة ( أوبره كوميك ) [١٢] Opera Comique ، للتمثيل الغنائى الضاحك ، وكلمة بلوار Boulevard ويجمعها على بلوارات وقد عرّفها بقوله : « إن هذه المدينة ( باريس ) مشقوقة ومحتاطة بصفوف أشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية ، لايخرج بعضها عن بعض أبدا ، وعلى منوالها طويق شبرا ، وفى أبى زعبل ، وهى مورقة فى أيام الحر ، يستظل المار بها من حر الشمس . . . فيوجد فى باريس ( بلوارات ) خارجة كالسُّور للمدينة و (بلوارات) داخل المدينة [١٣] » . وكلمة الشواليه (Chevalier) وقد فسرها بأنها تعنى الفارس فى فنه [١٤] . وكذلك لم يضع مصطلحاً بدل كلمة كوليج ( Collège ) ، وإنما

(١) و (٢) و (٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) تخليص الإبريز ص ٩٧ .
(٥) و (٦) و (٧) و (٨) و (٩) و (١٠) المرجع السابق ص ١٢٥ .
(١١) مناهج الألباب المصرية ص ١٢٦ .
(١٢) تخليص الإبريز ص ٩٦ .
(١٣) المرجع السابق ص ٥١ .
(١٤) المرجع السابق ص ٧٩ .

عرَّفها بأنها مدرسة يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة ، ويجمعها على ( كوليجات ) ويثنيها على ( كوليجان )[١] . ولا بدل كلمة الكنسرو توار Conservatoire ، وشرح معناها بأنه المخزن أو المحفظ أو نحو ذلك ، وتوضع فى هذا المحل جميع الآلات خصوصاً الهندسية[٢] ، ولا بدل كلمة بنطغرافة Pontographe وهى آلة ينقل بها كلُّ نوع من أنواع الرسم وإن لم يكن للناقل معرفة بفنِّ الرسم[٣] ، ونقل إلى العربية هاته الكلمات : أرستقراطياً[٤] Aristocratie ، وديموقراطيا[٥] Démocratie ، ومونرخى أو مونركى[٦] Monarchie ، ويعنى بها نظام الحكم الملكى ، من غير أن يضع لها مصطلحاً كذلك.

ومما يلحظ أنه قد يثنى ويجمع الكلمات الفرنسية وقد يشتق منها ، فهذه الكلمة الفرنسية quarantaine ومعناها مدّة الحجر الصحى أربعون يوماً ، أو أكثر أو أقل — عربها رفاعة واستخدمها بلفظها ( الكرنتينة[٧] ) ، واشتق منها فعلاً فقال ( يكرتن[٨] ) ، وأتى بالمصدر ، فقال ( الكرتنة[٩] ) .

ومما ينبغى أن يوجه إليه النظر أن رفاعة فى كثير من الأحيان يستخدم اللفظ الأجنبى ، حتى بعد أن يضع مصطلحاً عربياً ؛ فتراه مثلا ، وقد سمى Les Journaux و Les gazettes : الورقات[١٠] اليومية ، والتذاكر[١١] اليومية ، — لا يفتأ يستخدم كلمة جورنال ، وكازيطة ، مفردة ومجموعة جمع مؤنث سالما ، فيقول ( جرنالات ) و ( كازيطات ) ويستخدم الجمع الفرنسى للكلمة الأولى ، فيقول ( جرنو[١٢] ) . وكمحل الرقص الذى وضعه لكلمة البال[١٣] Le Bal فإنه كثيراً ما يستخدم اللفظ الفرنسى مفرداً ومجموعاً ، وأدخله فى شعره ، إذ قال :

وملعب ( بال ) بالحسان منعم     عيون غوانيه تغازل بالفتك[١٤]

---

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٣) مبادىء الهندسة ص ٢ .
(٤) التعريبات الشافية ج ٢ ص ٦٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٦) المصدر السابق ص ٩٣ .
(٧) تخليص الإبريز ص ٣٢ .
(٨) المصدر السابق نفسه .
(٩) المصدر السابق ص ٣٢ .
(١٠) المصدر السابق ص ٨١ .
(١١) المصدر السابق ص ١٤٤ .
(١٢) المصدر السابق نفسه .
(١٣) المصدر السابق ص ٩٧ .
(١٤) الكواكب النيرة ص ٢٣ .

وبعد أن يسمى La Chambre des Paires ديوان المشورة الأولى[١] يعود إلى تسمية الديوان باسمه الفرنسى فيقول ديوان البير[٢]، بل يشتق من الكلمة الفرنسية فيقول مرتبة ( البيرية[٣] ) .

وقد يؤثر فى الاستعمال اللفظ الأجنبى على العربى ، حتى لا يكاد يستعمل المصطلح العربى ، وذلك كـكلمة ( الإيلجية[٤] ) وما يشتق منها ، وقد وضع لها مصطلحاً هو علم السفارة أو رسالة البلدان ، وهى مأخوذة فى الفرنسية من مادة Elire ومنها Eligibilité ؛ وكلمة ( الـكتورة ) بمعنى الانتخاب ، ويقال للمنتخب إلـكتور ، وهى مأخوذة من المادة الفرنسية السابقة أيضاً ، فإنه لا يكاد يستخدم سوى الـكلمة الأجنبية حتى لقد عربها[٥] فى جدول ألفاظه ، مما يوحى بأنه يود إدخالها فى اللغة العربية بنصها ، ولعل هذا النظام الديمقراطى ، مع سابق عهد العرب به ، لم يستسغ رفاعة له أن يستخدم لفظه المبايعة ، لاختصاص هذه اللفظة بمبايعة الإمام ؛ وكـكلمة كراتيره[٦] Cratére التى اصطلح على أن يضع لها فوهة البركان ، وتلك اللفظة الفرنسية مما اختار تعريبه فى جدول ألفاظه[٧]، وكـكلمة بوليتيقة Politique فإنه وضع لها مصطلحاً هو فن[٨] السياسة ، ولـكنه لا يكاد يستخدم إلا كلمة بوليتيقة وما يشتق منها .

ولم يصر رفاعة على مصطلح أتى به ، فلم يستخدم سوى الاسم العربى إلا مصطلحه : ديوان رسل[٩] العمالات ، الذى وضعه مسميا به La Chambre des Deputés على ما أرجح .

كما أوجه النظر إلى أنه قد يستخدم بعض الـكلمات الفرنسية ، حيث يمكنه أن يستخدم اللفظ العربى ، مثال ذلك استخدامه كلمة سراية[١٠] ( Sérail )

---

(١) تخليص الإبريز ص ٧٥ .
(٢) المصدر السابق ص٧٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٤) المرجع السابق ص ١١ .
(٥) التعريبات الشافية قسم ٢ ص ٦٤ .
(٦) تخليص الإبريز ص ٢٩ .
(٧) التعريبات الشافية قسم ٢ ص ٨٩ .
(٨) مناهج الألباب المصرية ص ٣٥٠ .
(٩) تخليص الإبريز ص ٧٦ .
(١٠) تخليص الإبريز ص ٩٥ .

وقد دخلت العامية ، وفى اسـتطاعته أن يستخدم كلمة قصر ، واستخدامه كلمة بطرون[١] السفينة ( Patron ) وفى استطاعته أن يستخدم كلمة ربان أو رئيس . واستخدامه كلمة فاميلة ( Famille ) فى قوله :

ومذ زهت الأفراح قلت مؤرخاً بهيج العلا تأهيل ( فاميلة ) الملك[٢]

وفى استطاعته استخدام كلمة عائلة . وكلمة ( فابريقات[٣] ) Fabriques ، وفى استطاعته أن يستخدم معامل أو مصانع . وكلمة بوقسه[٤] ( Boxer ) وفى إمكانه أن يستخدم ملاكمة .

والآن أعرض بعض ما اختاره رفاعة من مصطلحات متنوعة مبديا ما قد يعن لى عليها من الملحوظات .

## مصطلحات أدبية

نضع هنا الألفاظ التى اختارها رفاعة ، وما يقابلها بالفرنسية ، وكيف نطق بها رفاعة ، وما قد يـكون لنا من ملحوظات :

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| الآثار القديمة | Antiques | الأنتيقات[٥]<br>أنتيـكة | |

(١) تعريب قانون التجارة ص ٧٣ .
(٢) الـكواكب النيرة ص ٢٣ .
(٣) تخليص الإبريز ص ١٧١ .
(٤) قلائد المفاخر ص ٥٣ .
(٥) أنوار توفيق الجليل ص ٢٢٧ و ٤٩ .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| آلة تعديل الرياح | | إيتمومتر . | به تقاس قوة الرياح (١) |
| إشارة الأخبار (٢) أو السلوك البرقية (٣) | La Télégraphe | التلغراف . | المصطلح الثانى جاء به بعد الأول بوقت طويل |
| الأقاليم المجتمعة أو الإيالات المجتمعة أو الأقاليم المتحدة | Etats - Unis | إيتازونى . أو إيتازونيا . (٤) | أكثر استخدامه للاسم الفرنسى |
| أيام الرّقاع (٥) | Carnaval. | كرنوال . (٦) | |
| بريد | Poste | البوسطة (٧) | |
| التذاكر اليومية | Journeaux | جرنالات | أحياناً يجمع الجرنال على جورنو كالفرنسية (٩) |
| | Gazettes | كازيطات (٨) . | |
| جاهلية اليونان وخرافاتهم | Mythologie | الميثولوجيا (١٠) . | |
| جبل النار | Volcan | بركان (١١) | قال رفاعة إن أصل بركان بلكان أو ولكان (١٢) . |
| جرائحى (١٣) | Chirurgien | لم ينطق رفاعة بالاسم الفرنسى | نؤثر ما نستخدمه اليوم من كلمة جراح |

(١) تخليص الإبريز ص ١٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٢٢ .
(٣) مناهج الألباب ص ٣٢٧ .
(٤) التعريبات الشافية ص ٥ .
(٥) تخليص الإبريز ص ٩٥ .
(٦) مناهج الألباب ص ٣٥٠ .
(٧) تخليص الإبريز ص ١٢٥ .
(٨) تخليص الإبريز ص ١٥٦ .
(٩) تخليص الإبريز ص ١٤٤ .
(١٠) المصدر السابق ص ١٦٤ .
(١١) المصدر السابق ص ٨٨ .
(١٢) المصدر السابق ص ٢٩ .
(١٣) المصدر السابق ص ١٢٢ .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| جمعية محبّى العلوم | Philomatique | الجمعية الفيلوماتية | الغرض من هذه الجمعية الإعانة على تقدم علوم الحيوان والنبات والمعادن (١) |
| خزانة المستغربات (٢) | La musée | لم ينطق بالاسم الفرنسي | |
| خلوة المذاكرة أو أوضة المذاكرة أو حجرة المداولة (٣) | | | يطلقها رفاعة على مانسمّيه اليوم فى المحكمة : حجرة المداولة . |
| خيالى | Théâtre<br>Spectacle | تياترو<br>سبكتاكل (٤) | كان يستخدم الكلمة الأولى بمعنى المفرد والجمع ، وأحياناً يجمعها على التياترات (٥)<br>وكان يجمع الثانية على سبكتاكلات . (٦) |
| دنّ العيار | | لم ينطق بالاسم الفرنسى | يعدّل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة (٧) . |
| ديوان رسل العمالات (٨) أو ديوان وكلاء الرعية . (٩) أو مجلس النواب (١٠) | Chambre des Députés | لم ينطق رفاعة بالاسم الفرنسى . | |

(١) مناهج الألباب ص ٣٥٠ .
(٢) تخليص الإبريز ص ١٣٥ .
(٣) تعريب القانون المدنى الفرنسى ج ١ ص ٨١ .
(٤) تخليص الإبريز ص ٩٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٩٥ .
(٦) المرجع السابق ص ٩٦ .
(٧) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٨) المرجع السابق ص ٧١ .
(٩) المرجع السابق ص ١٦٨ .
(١٠) مقدمة وطنية ص ٦ .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| ديوان العلوم | L'Academie Française | أكدمة الفرنسيس (١) . | وسماها مرة المدرسة العظمى، (٢) واستخدم رفاعة كثيراً الكلمة بنصها الفرنسي مفردة ومثناة ومجموعة على الأكدمات (٣) |
| رسول البلد . | | إيلجى (٤) . | يعربه رفاعة مفرداً بالحركات (٥) ويثنيه ويجمعه على إيلجية . |
| رقم | Numéro | نمرة (٦) | استخدم رفاعة أيضاً كلمة منّمرة (٧) |
| ساعة كبيرة | Pendule | بندول (٨) | |
| سلطان سلاطين (٩) . | Empereur | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |
| السيال الكهربائى | Electricité | الاكتريسته (١٠) | يسميها فى الصفحة نفسها الجاذبية المغناطيسية . |
| الشّرطة | Constitution | لم ينطق بالاسم الفرنسى | يريد رفاعة بالشرطة الدستور ويقول رفاعة إن معنى الكلمة فى اللغة اللاطينية : ورقة . ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة (١١) |
| صبيان القهوة (١٢) | Les garçons | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |

(١) تخليص الإبريز ص ١٣٨ . (٢) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٨ . (٤) قلائد المفاخر ص ٧٨ .
(٥) تخليص الإبريز ص ١٦٩ وقلائد المفاخر ص ٧٨ .
(٦) تخليص الإبريز ص ١٢٥ .
(٧) قانون التجارة ص ٧٤ . (٨) تخليص الإبريز ص ٨٨ .
(٩) المصدر السابق ص ١٦٨ . (١٠) التعريبات الشافية ص ٤٣ .
(١١) تخليص الإبريز ص ٧٣ . (١٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| علم الحيل | Mécanique | الميكانيقا | آلات الهندسة وجر الأثقال (١) . |
| علم السّفارة | Elire | إيلجية | فسرها رفاعة برسالة البلدان (٢) . |
| فنّ الأزمان | Chronologie | علم الخورنولوجيا (٣) | |
| فنّ السّياسة | Politique | بولتيقة (٤) . | |
| فنّ النّحو | Grammaire | إغرمير . | عرفه رفاعة بأنه فن تركيب الكلام (٥) . |
| الفنون الظريفة أو مستطرفات الفنون (٦) | Les Beaux - arts | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |
| لاعب (٧) | Acteur | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |
| مجلس المشورة الأولى | Chambre des Pairs | ديوان البير (٨) أو شمبردى بير (٩) | شرح رفاعة اختصاص هذا المجلس بأنه تجديد قانون مفقود أو إبقاء قانون موجود ، ومن وظيفته تعضيد حقوق التاج (١٠) . |
| محاكم ممتزجة (١١) | Tribunaux mixtes | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |

(١) تخليص الإبريز ص ١١ و ١٣٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١١ .
(٣) التعريبات الشافية ص ٥ .
(٤) مناهج الألباب ص ٣٥٠ .
(٥) تخليص الإبريز ص ٦ .
(٦) المصدر السابق ص ١٣٧ .
(٧) المصدر السابق ص ٩٥ .
(٨) المصدر السابق ص ٧٥ .
(٩) المصدر السابق ص ٧١ .
(١٠) المرجع السابق نفسه .
(١١) مجلة روضة المعارف — السنة الأولى — العدد الخامس .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
|---|---|---|---|
| محلّ الأكل | Restaurant | رسطراطوراى | يجمعها على رسطراطورات [١] |
| محل الرقص | Le Bal | البال | لو استخدم هنا وفيما قبله اسم المكان كان أولى من كلمتين وهو ما فعلناه اليوم إذ قلنا: المطعم والمرقص . |
| محلّ الصّيرفة | Banque | | يجمعها على بنوكه [٢] ولو استخدم اسم المكان وهو ( مصرف ) لكان سابقا بوضع هذا المصطلح الذى نستخدمه اليوم . |
| محل المكاتيب | Boîte aux Lettres. | لم ينطق بالاسم الفرنسى | ترجمتنا اليوم أدق وهى : صندوق الرسائل . |
| مدرسة كليات العلوم | École Poly-technique. | مدرسة بوليتقنيقا | يدرس فيها الرياضيات والطبيعيات [٣] . |
| مشورة العلوم [٤] | Institut | أنسطيطوت [٥] | سمّاها رفاعة مرّة أخرى : دار العلوم . |
| مكحلاتى [٨] | Oculiste | لم ينطق بالاسم الفرنسى | يلحظ أنه استخدم الكلمة العامية بدل العربية وهى الكحّال . |
| ميدان [٧] | Place | لم ينطق بالاسم الفرنسى | ترجمه بالموضع ثم قال : يعنى الميدان |

(١) تخليص الإبريز ص ١١٠ .
(٢) قانون التجارة ص ٢٠١ .
(٣) مناهج الألباب ص ١٤٢ .
(٤) تخليص الإبريز ص ٢١ .
(٥) المرجع السابق نفسه .
(٦) و (٧) المرجع السابق ص ١٣٤ .
(٨) المرجع السابق ص ١٠٣ .

| الاصطلاح | الاسم الفرنسى | نطق رفاعة به | ملحوظات |
| --- | --- | --- | --- |
| ميزان تكاثف الهواء | Baromètre | باروMترا | لعلّ رفاعة كان يريد إدخال الكلمة الفرنسية فى اللغة العربية كما يبدو من وضعها فى قاموس كلماته [١] وسمي هـذه الآلة فى كتاب المعادن [٢] : ميزان الهواء |
| ميزان الحرارة | Thermomètre | ترمومترا [٣] | |
| ميزان الرطوبة [٤] | | لم ينطق بالاسم الفرنسى | |
| النظارة المكبرة [٥] | Microscope | ميكرسكوب | |
| وزير الأمور الخارجية [٦] | Ministre des Affaires - Etrangères. | لم ينطق رفاعة به | وضعه فى مقابل رئيس أفندى بالدولة العثمانية . |
| وزير الأمور الداخلية [٧] | Ministre de L'Interieur | » » » » | وضعه رفاعة فى مقابلة ( الكتخدا ) الذى كان مستعملا بمصر . |
| وزير الحرب [٨] | Minis. de La Guerre. | » » » » | وضعه فى مقابلة ( ناظرعموم الجهادية) الذى كان مستعملا بمصر . |
| وزير الخزانة [٩] | mi - des - Finances | » » » » | وضعه فى مقابلة ( الخازندار) الذى كان مستعملا بمصر . |

(١) قلائد المفاخر ص ١٦ .
(٢) ص ٢٩ .
(٣) قلائد المفاخر ص ١٦ والمعادن النافعة ص٢٩ .
(٤) تخليص الإبريز ص ٢٢٠ .
(٥) قلائد المفاخر ص ١٨
(٦ و ٧ و ٨ و ٩) تخليص الإبريز ص ٧٢ .

ومما يسترعى النظر أن أكثر مصطلحاته الأدبية ، وكثيراً من الألفاظ الفرنسية التى عربها ، كانت فى كتابه تخليص الإبريز ، وذلك طبيعى ، لأنه قد واجه بهذا الكتاب الحياة الغربية الجديدة ، بكل ما فيها من علم وحضارة فاضطر إلى الاستعانة بجميع الوسائل للتعبير عما رأى .

## مصطلحات جغرافية

أغرم رفاعة بالجغرافيا ، وقام بتدريسها ، وترجم فيها ، وأشرف على كثير مما ترجم فيها ، وكان من بين ما ارتضاه من مصطلحاتها ما يلى :

| المصطلح | التعريف به |
| --- | --- |
| اعتدال | زمن تساوى الليل والنهار [١] . |
| أفق | دائرة عظمى ، تقسم الكرة نصفين متساويين ، أحدهما شمالى ، والآخر جنوبى [٢] . |
| اقتران | نقطة ظاهرية ، عليها يتلاقى نجمان ثابتان ، أو كوكبان سياران [٣] . |
| إقليم | يطلق : ١ — على اختلاف مزاج الهواء ، أى على اختلاف الحر والبرد. و ٢ — على القسم من الكرة الداخل فى منطقة من المناطق الخمس. و ٣ — على قطعة من الولاية أو المملكة [٤] . |
| أنف | لسان من الأرض داخل فى البحر ، وأقل ارتفاعاً من الرأس [٥] . |

(١) التعريبات الشافية ج ٢ ص ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر السابق ص ٦٤ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) المصدر نفسه .

| المصطلح | التعريف به |
| --- | --- |
| انقلاب | وجود الشمس فى أعلى بعدها من خط الاستواء[١] . |
| أوج | النقطة التى يكون بها الكوكب فى أقصى بعده من الأرض[٢] . |
| بحر محيط | أو أوقيانوس ، وهو المحتاط بالكرة الأرضية[٣] . |
| بحيث جزيرة | مركبة من كلمتين : إحداهما بحيث ، بمعنى القرب ، والأخرى جزيرة ، أى تكاد أن تكون جزيرة[٤] ، وهى ما نسميه اليوم شبه جزيرة ، والمصطلح ترجمة للاسم الفرنسى Bresqu' ile ، ويسميه رفاعة باسم آخر ، هو جزيرة متصلة[٥] . |
| بحيرة | متّسع عظيم من الماء الرّاكد ، أو القاصر الجريان[٦] . |
| برزخ | لسان من الأرض بين بحرين ، ويوصل بين أرضين[٧] . |
| بركان | جبل النار[٨] ، وارتضى رفاعة هنا تعريب الاسم الإفرنجىّ . |
| بعد أبعد | أقصى بعد الكواكب وذوات الأذناب عن الشمس[٩] . |
| بعد قرب | أقصى قرب الكواكب وذوات الأذناب من الشمس[١٠] . |
| بوغاز | ويسمى حلقاً ومعبراً ، وزقاقاً ومضيقاً[١١] . |
| تابع | يطلق على النجوم التابعة للسيارة ، وتسمى سيارة السيارة ، أو الأقمار[١٢] . |
| تمام القمر | إحدى صور القمر ، وهى إذا وجّه القمر للأرض سطحه بتمامه مستنيراً[١٣] . |
| تيّار | حركة المياه التى تظهر للانسان أنها تهرب أمامه[١٤] . |

(١) التعريبات الشافية ج ٢ ص ٦٥ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٦) المرجع السابق ص ٦٦ .
(٧) المرجع السابق ص ٦٧ .
(٨) المرجع السابق نفسه .
(٩) المرجع السابق ص ٦٨ .
(١٠) المصدر السابق نفسه .
(١١) المرجع السابق ص ٦٩ .
(١٢) المرجع السابق نفسه .
(١٣) التعريبات الشافية ص ٦٩ .
(١٤) المصدر السابق ص ٧٠ .

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| جزر | حركة المياه للانحسار عن الأرض بعد المدّ[١] . |
| جزيرة | قطعة من الأرض يكتنفها الماء من جميع النواحى[٢] . |
| جنوب | أحد الجهات الأربع الأصلية[٣] . |
| جون | قطعة من البحر داخلة في الأرض[٤] . |
| حضيض | نقطة قرب الكوكب السّيّار من الأرض[٥] . |
| حلق | معبر ضيق بين جبلين[٦] . |
| خط الاستواء | إحدى الدوائر العظمى من الكرة ، وينصّف الكرة نصفين : شمالياً وجنوبياً[٧] . |
| خط نصف النهار | دائرة عظمى مقاطعة لخطّ الاستواء[٨] . |
| خليج | مجرى عظيم عميق من الماء ، محفور بالصناعة ، للجمع بين بحرين ، وقد يراد به الجون[٩] . |
| ذوات الأذناب | أجرام سماوية مظلمة بنفسها ، مستضيئة بغيرها[١٠] . |
| الرأس | جرف من الأرض ، يدخل فى البحر[١١] . |
| الرُّجوم | النجوم السَّواقط[١٢] . |
| ريح | تموُّج الهواء على وجه محسوس[١٣] . |
| زقاق | يطلق على البوغاز[١٤] . |

(١) المرجع السابق ص ٧١ . (٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ . (٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) و (٦) و (٧) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٨) و (٩) المرجع السابق ص ٧٥ .

(١٠)المرجع السابق ص ٧٦ . (١١) التعريبات الشافية ص ١١ .

(١٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

(١٣) المرجع السابق ص ٧٧ . (١٤) المرجع السابق نفسه .

| المصطلح | التعريف به |
| --- | --- |
| سلسلة جبال | جبال متواصلة متماسّة القواعد [١] . |
| سمت الرأس | هو النقطة القائمة المحازية لرءوسنا [٢] . |
| سنّ | جبل شامخ قاعدته غير متسعة ، وينتهي رأسه بطرف كالمسلة [٣] . |
| سهل | أرض متّسعة خالية من الهضبات والوهدات [٤] . |
| سيارة | أجرام سماوية ، تدور حول الشمس [٥] . |
| شمال | إحدى النقط الأربع الأصلية [٦] . |
| صحراء | أرض يابسة لا زرع بها ولا أنيس [٧] . |
| صورة الكواكب | عدّة كواكب مستحضرة فى صورة آدمىّ ، أو حيوان ، أو غير ذلك [٨] . |
| صور القمر | أحوال القمر الظاهرية المترتبة على استضاءته بالشمس فى أوضاعه المختلفة ، بالنسبة له مع الأرض ، وهى أربع : صورة المحاق ، والربع الأول ، والكمال ، والربع الأخير [٩] . |
| طول المكان | هو المسافة بينه وبين خط نصف النهار [١٠] . |
| عرض | هو بعد المكان من خط الاستواء [١١] . |
| فصل | هو جزء من السنة ، ممتاز بالحر أو البرد [١٢] . |
| فم | هو المحل الذى يصبّ منه النهر فى البحر ، ويسمى فوهة [١٣] . |
| قطب | كل من طرفى المحور الذى تدور عليه الكرة [١٤] . |
| كرة الهواء | الهواء الذى يكون كالغلاف للأرض [١٥] ، وبهذا المصطلح ترجم |

(١) المرجع السابق ص ٧٨ .
(٢) المرجع السابق نفسه . (٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) و (٥) و (٦) المرجع السابق ص ٨٠ .
(٧) و (٨) المرجع السابق ص ٨١ .
(٩) التعريبات الشافية ص ٨٢ .
(١٠) و (١١) المرجع السابق ص ٨٢ . (١٢) المرجع السابق ص ٨٤ .
(١٣) و (١٤) المرجع السابق ص ٨٥ . (١٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

| المصطلح | التعريف به |
| --- | --- |
| | رفاعة الكلمة الفرنسية أطموسفير[1] Atmosphère . |
| مجمع جزائر | اصطلاح فى مقابلة الكلمة الإفرنجية Archipel ولكنه يقبل تعريب الكلمة الإفرنجية ، ويدخلها فى قاموسه الجغرافي ، فيقول : أرخبيل أو أرشبيل[2] . |
| محور | قطر الكرة الذى تدور عليه ، وطرفاه يسميان القطبين[3] . |
| مد | ارتفاح مياه البحر وفيضانه[4] . |
| مدار | دائرة متوازية بعيدة عن خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف[5] . |
| مقاطر | هو المكان الذى يكون مقابلا على الاستقامة لمكان آخر ، بحيث لو فرض خط مستقيم بينهما يكون قطراً[6] . |
| مسيل | هو جانب الجبل ومنحدره ، ويطلق على الوادى الذى ينزل به السيل[7] . |
| منطقة | جزء من الكرة ، داخل بين دائرتين متوازيتين ، أو بين دائرة متوازية ودائرة الاستواء أو القطب[8] . |
| منطقة فلك البروج | جزء من الكرة مشتمل على الاثنى عشر برجا التى تقطعها الشمس فى كل سنة[9] . |
| الوادى | هو الشعب بين جبلين ويطلق على المسيل[10] . |
| واحة | أرض خصبة مسكونة فى صحراء مجدبة[11] . |
| ولاية | قطعة عظيمة من الأرض ، محكومة فى العادة بحاكم واحد ، وتسمى إيالة[12] . |

(١) المرجع السابق ص ٤٠ .
(٢) المرجع السابق قسم ١ ص ١٠ وقسم ٢ ص ٦٣ .
(٣) و (٤) و (٥) المرجع السابق ص ٩٠ .
(٦) و (٧) المرجع السابق ص ٩١ .
(٨) و (٩) المرجع السابق ص ٩٢ .
(١٠) و (١١) و (١٢) المرجع السابق ص٩٥ .

وقبل رفاعة بعض الألفاظ الأجنبية فى المصطلحات الجغرافية ، فما قبله كلمة (إدرغرافيا)[١] Hydrographie ، يدلّ بها على الفنّ الذى يبحث فيه عن جريان البحار والأنهار ، صغيرة أو كبيرة .

وقبل كلمة (قسمغرافيا)[٢] Cosmographie ويعنى بها الجغرافيا الرّياضية ، وهى معرفة الكرة الأرضية والسماوية والنسبة بينهما [٣] . وقبل الكلمة ( أونغرافيا ) [٤] بمعنى الفنّ الذى يبحث السماء والحوادث السماوية . وكلمة (طوبوغرافية) [٥] Topographie وهو أخصّ من الجغرافية ، فهو اسم للتخطيط الصحيح الذى يبين بلدة مخصوصة ، أو خطاً مخصوصاً أو نحو ذلك .

ولعله وجد فى هاته الكلمات شبها من كلمة الجغرافية Géographie التى استساغتها اللغة العربية ، وجرت على قبولها .

وارتضى كذلك كلمة أطلس Atlas وهو مجموع خرطات جغرافية ، أو رسالة جغرافية منضم إليها عدة خرطات[٦] .

وكلمة پاس [٧] Pas بمعنى مضيق ، مع وجود عدة ألفاظ عربية تدل على معناه ، سبق أن ذكرناها .

وقد سبق أن رأينا رفاعة يقبل بين الاصطلاحات الجغرافية اسمين فرنسيين ، هما أرشبيل وكراتيره لفوهة البركان[٨] .

هذا ، وأكثر ما ارتضاه رفاعة من المصطلحات العربية الجغرافية ، لا يزال مستعملا عندنا إلى اليوم ، وإذا كان بعضها قد عرف قبل رفاعة ، فله فضل إحيائه ، وتحديده ، وتمهيد السبيل إلى استخدامه .

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٥ .
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٨٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٥) مبادىء الهندسه ص ٨ .
(٦) التعريبات الشافية ج ٢ ص ٨٥ .
(٧) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٨) راجع ص ٢٧٧ و ص ٢٦٥ .

# مصطلحات قانونية

وجد رفاعة فى معارفه الفقهية القديمة، معيناً، يستق منه، للتعبير عن مواد القانون المدني والتجارى، اللذين قام بترجمتهما، فكثيراً ما تسمع فى هذه الترجمة كلمات: العقد، والإيجاب، والقبول، والوصاية، والحسبة، والكفالة، والقاصر، وأهلية التصرف، وبلوغ الرّشد، وأصول الميت وحواشيه، والعصبة، والأرحام، والحجب، وغير ذلك من ألفاظ أمدّه بها الفقه الإسلامى"[1].

وهناك بعض مصطلحات ارتضاها رفاعة، وقد اجتهد فى أن يلتمس فى اللغة العربية، ما يفى بجميع ما يحتاج إليه القانون من مصطلحات:

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| السفتجة[2] | (الكمبيالة). |
| سند الرجوع[3] | (كمبيو). |
| شركة المحاصة المتجرية | تنعقد بالاتفاق على المحاصة فى الأرباح، بحسب الشروط التى وقع عليها التراضى بين الشركاء[4]. |
| شركة المسئولية المحدودة | وفيها لا يكون كل شريك ضامناً لأزيد من القدر الذى دفعه من المال فى الشركة[5]. |
| شركة المضاربة | ( Société Commandite ) وهى المنعقدة من شريك واحد، أو عدة شركاء مسئولين ومتضامنين، وهو الجانب الأول، مع شريك واحد أو عدة شركاء دافعين للمال، وهو الجانب الثانى[6]. |

(١) راجع القانون المدنى الفرنسى.
(٢) قانون التجارة ص ٤٠.
(٣) المرجع السابق ص ٥٦.
(٤) المرجع السابق ص ١٣.
(٥) المرجع السابق ص ٢٠.
(٦) المرجع السابق ص ٧ و ٨.

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| شركة المفاوضة | ( Société Collective ) وهى المنعقدة بين اثنين فأكثر بقصد التجارة على وجه الشركة بينهم ، لغرض الربح[١] . |
| شركة الوجوه | ( Société Anonyme ) وهى غير المنتسبة لأسماء الشركاء ، وإنما تسمى بموضوع غرضها[٢] . |
| الكفالة البحرية | ( السكورتاه[٣] ) Sécurité . |
| مجمع التجار[٤] | ( بورصه التجارة ) La Bourse . |
| مزاد خسران المشترى | أن يجبر المشترى الأول على دفع ما ترتب على مطله فى فرق الثمن ، من الخسارة والأرباح والنفقات ، ويسميه رفاعة : صفقة المغبون[٥] . |
| الموت الحكمى | لما يسميه الفرنسيون الموت المدنى ، وهو أن يكون حكم الحى عندهم كحكم الميت ، فى كثير من الأحوال[٦] . |
| التكرة ( كنفقة ) | هى المعارضة الاستحفاظية ، المعبر عنها بالبروتستة[٧] Protet . |
| وكلاء الصيرفة[٨] | ( سماسرة النقود ) . |
| وكلاء العمولة[٩] | ( قومسيونير ) Commissionnaire . |

وقد سبق أن بينا ما كان لرفاعة من فضل فى مقدرته على التعبير فى وضوح ودقة ، عن مواد القانون وأحكامه .

(١) قانون التجاره ص ٧ و ٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٧ و ٩ و ١٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٠ .
(٦) تخليص الإبريز ص ١٨٣ .
(٧) قانون التجارة ص ٥٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٣١ .
(٩) المرجع السابق ص ٣١ .

# مصطلحات هندسية

دفعت الظروف رفاعة إلى أن يكون مترجماً بمدرسة المدفعية ، فترجم فى علم الهندسة كتاباً ، استعان فى وضع مصطلحاته ، ببعض من كان بتلك المدرسة ، ممن له اليد الطولى فى الرياضيات ، وقدَّم رفاعة بين يدى كتابه ، معجما يتضمن تفسير بعض ألفاظ اصطلاحية ، منها :

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| أسطوانة | جسم قاعدتاه دائرتان متوازيتان ، وسطحه الظاهر منحن . وقسمها إلى قائمة ومائلة . |
| امتداد | هو الفراغ المشغول بأجسام محسوسة بالفعل أو بالوهم ، كبيرة كانت أو صغيرة . |
| جسم | هو ما احتوى على الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق . |
| خط | ماليس له إلا بعد واحد هوالطول ، وهو أنواع : مستقيم ، ومنكسر ، ومنحن ، ومركَّب ، وأفقىّ ، ورأسىّ ، وشعاعىّ ، ومائل ، ومستدير ، ومستقيم ، ومماس . |
| خطوطمتوازية | خطوط مرسومة فى مستوى واحد ، لا يمكن تلاقيها أبداً . |
| دائرة | هى سطح مستو منته بخط منحن ، جميع نقطه على بعد واحد من نقطة الوسط المسماة مركزاً ، وهى صغرى و كبرى . |
| زاوية | هى انفراج خطَّين متلاقيين فى نقطة ، تسمى رأس الزاوية وهى : حادة ، وقائمة ، ومنفرجة . |
| سطح | هو الذى لا يحتوى إلا على بعدين فقط ، وهما الطول والعرض ، وهو أنواع كثيرة عدَّدها . |
| شبيه المنحرف | هو ما كان فيه ضلعان متوازيان . |

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| شقة كروية | جزء من سطح الكرة ، واقع بين نصفى دائرتين كبيرتين متقاطعتين . |
| العمود | هو الخط المستقيم ، الذى إذا تلاقى مع مثله ، لايميل عليه من جهة أكثر من الأخرى . |
| قطر الدائرة | هو المستقيم الذى يقطع الدائرة ، مارّا بمركزها . |
| قطر الكرة | هو الخط المستقيم الذى يمرّ بمركز الكرة ، وينتهى من طرفيه بمحيطها . |
| قطعة كروية | هى جزء حجم الكرة الواقع بين مستويين متوازيين هما قاعدتاها . |
| قوس | هو قطعة من المحيط منحصرة بين طرفى الوتر . |
| كثير الأضلاع المنتظم | هو ما كانت أضلاعه وزواياه متساوية . |
| الكرة | هى جسم منته بسطح منحن ، جميع نقطه على بعد واحد من نقطة الوسط المسماة مركزاً . |
| متساوى الأضلاع | هو كل شكل استقامت أضلاعه وتساوت . |
| متوازى الأضلاع | هو ما كانت أضلاعه المتقابلة متوازية ومتساوية . |
| متساوى الزوايا | هو كلّ شىء استقامت أضلاعه وتساوت زواياه . |
| مثلث | هو ما ركب من ثلاث زوايا وثلاثة أضلاع . |
| مخروط | هو هرم قاعدته دائرة ، وسطحه الجنبىّ منحن ، ومنه قائم ومائل . |
| مربع | هو متوازى الأضلاع الذى زواياه قائمة وأضلاعه متساوية . |
| مستطيل | هو ما كانت أضلاعه المتجاورة مختلفة ، وكانت جميع زواياه قائمة . |
| مضلع غير منتظم | هو الذى لم تتساو أضلاعه وزواياه . |
| معيّن | هو ما كانت أضلاعه متساوية ، ولم تكن إحدى زواياه قائمة . |

| المصطلح | التعريف به |
|---|---|
| منشور | هو ما أحيط بسطوح متوازية الأضلاع ، وكان طرفاه محدودين بشكلين مستقيمي الأضلاع متساويين ومتوازيين ، ومنه قائم ومائل . |
| نقطة | هى التى ليس لها شىء من الأبعاد الثلاثة . |
| نقطة التماس | هى ما اشترك فيها المحيط والخط المستقيم المماس له . |
| هرم | هو جسم ذو قاعدة واحدة ، محاط بمثلثات ، رءوسها مجتمعة فى نقطة الرأس . |
| وتر | خط مرسوم فى الدائرة ، ومنته إلى المحيط من غير مرور بالمركز . |

ولا ريب أن كثيراً من هذه المصطلحات كان معروفا قبل رفاعة ، ولـكن كان له فضل البحث عنه والاهتداء إليه ، ولا يزال جلّ هذه المصطلحات مستعملا إلى اليوم .

وقبل رفاعة بعض الـكلمات الغربية ، ولم يضع لها مصطلحاً عربياً ؛ منها ( بوليبدرة ) [١] Polyédre ، وعرّفها بأنها تطلق على كل جسم ، له عدة سطوح مستوية ، وعندما أعيد طبع كتاب مبادىء الهندسة منقحاً لم تدخل فيه هذه الـكلمة ، وقد وضع المجمع اللغوى لها مصطلحاً ، هو : كثير السطوح [٢] .

ومنها كلمة ( تترابيده ) [٣] Tetraédre وعرّفها بأنها جسم منتظم ، سطحه مركب من أربعة مثلثات متساوية ، ذات أضلاع متساوية أيضاً .

* * *

هذا ولا بد أن يـكون رفاعة قد جاهد وهو يترجم فى الطب والحرب ، أن يجد مصطلحات طبية وحربية ، ولـكنى لم أعثر على مترجماته فى هذين الفنين .

* * *

(١) مبادىء الهندسة ص ٢ .
(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الملـكى ج ٣ ص ٨٧ .
(٣) مبادىء الهندسة ص ٣ .

ومن كل ما سبق يبدو فضل رفاعة فى وضع المصطلحات ، فبرغم أن كثيراً من مصطلحاته الأدبية لم يعش — فتق الأذهان إلى ضرورة العمل الجدى ، وتضافر الجهود ، لمواجهة هذا السيل الجارف ، من ألفاظ الحضارة والعمران ، وقام هو على قدر طاقته ، بسدّ جزء من هذا الفقر الذى تشعر به اللغة ، ودعا غيره إلى أن ينهض بمثل ما نهض هو به ، حتى يجتمع من هذه الجهود بناء مشيد للغة العربية الفصيحة ، التى دافع عنها ، ورآها العروة التى لا انفصام لها ، بين الشعوب العربية .

ويبدو فضله كذلك فى شرحه كثيراً من الألفاظ الغربية ، شرحاً يمهد السبيل إلى وضع مصطلح لها ؛ وبإقدامه على وضع بعض هذه المصطلحات خلق فى تلاميذه ، ومن جاء بعده ، الثقة بأنفسهم ، فى اختيار اللفظ المناسب للتعبير عن الفكرة الجديدة ، كما أنه أحيا ،باستعماله ، كثيراً من المصطلحات العلمية ، فوصل بذلك ماضى اللغة المجيد ، بمستقبلها الباهر المأمول .

## استعماله للعامية

مع تعصب رفاعة للعربية الفصحى ، لم تخل كتبه ، ولا سيما تخليص الإبريز من الألفاظ العامية ، وقد لحظ ذلك من قرأ هذا الكتاب من الإفرنج[١] ، فأبدى عليه ملحوظة بعد ألفاظه أحياناً عن ألفاظ الفصحى ، كما سبق أن نقلنا ذلك ، ولعل رفاعة أراد أن يوصل معلوماته إلى قارئيه بأسهل طريق ، ودليلنا على ذلك أنّ ما أتى به من مصطلحات أدبية ، كان يذكرها غالباً مقترنة بالعبارة الفرنسية ، حتى لا يتعب قارئه فى البحث عن معنى هذا الاصلاح .

واللغة العامية لغة لا تبالى من أين استقت مفرداتها ؛ فهى تأخذها من العربية حيناً ، كما ترى ذلك فى كلمة ( الأود[٢] ) بالدال مكان الضاد ، فالمفرد فى العربية أوضة[٣] . وقد تأخذها من التركية كرزنامه[٤] بمعنى تقويم ، أو الفرنسية

(١) راجع تخليص الإبريز ص ١٥٤ (٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) هى بيت صغير يأوى إليه الإنسان . شرح القاموس ج ٥ ص ٦ .
(٤) تخليص الإبريز ص ٢١ .

كالقمبانية [١] من الكلمة الفرنسية Compagnie ، وقد تأخذها من غير ذلك من اللغات .

وربما كان من الخير أن نذكر بعض ما استخدمه رفاعة من الألفاظ العامية ، لنرى مقدار ما أفدناه من تقدم فى معرفة مفردات الفصحى ، ومقدار تشبثنا بهذه الكلمات العامية .

فمما استخدمه رفاعة : الاسبتاليات العسكرية [٢] — الألاتية [٣] : الموسيقيون ، ألاى [٤] — الأود [٥] — أوجاق عسكرى [٦] — أورط بياده [٧] — باشكاتب [٨] باش وكيل [٩] — بخشيش [١٠] — برانخ [١١] — برطيل [١٢] — برنيطة [١٣] — بفتة [١٤] — بوليسة التأمين [١٥] — بياده [١٦] — ترسانات [١٧] — التياترو [١٨] — جامكية [١٩] — جبخانات البارود [٢٠] — الجرودات السنوية [٢١] — الحرافيش [٢٢] — حربجية [٢٣] — الخواجة [٢٤] — خوجة السفينة [٢٥] — دكة [٢٦] — الراقة [٢٧] — رزنامات [٢٨] — رزنامة [٢٩] — الزغاريد [٣٠] — السرايات [٣١]

---

(١) مناهج الألباب ص ٢١٩ .
(٢) القانون المدني ج ١ ص ٢٣ .
(٣) تخليص الإبريز ص ١٤٣ .
(٤) القانون المدني ج ١ ص ٢٦ .
(٥) تخليص الإبريز ص ٤٥ .
(٦) القانون المدنى ج ١ ص ٨ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٩) المرجع السابق ص ٨٦ .
(١٠) تخليص الإبريز ص ٦٩ .
(١١) القانون المدني ج ١ ص ١١٧ .
(١٢) أنوار توفيق الجليل ص ١٣٣ .
(١٣) تخليص الإبريز ص ٩٣ .
(١٤) المصدر السابق ص ٩٣ .
(١٥) القانون التجارى ص ١٠١ .
(١٦) القانون المدنى ج ١ ص ٢٦ .
(١٧) مناهج الألباب ص ٢٢٠ .
(١٨) الكواكب النيرة ص ٢٢ .
(١٩) مناهج الألباب ص ١٣٧ .
(٢٠) تخليص الإبريز ص ١٧٢ .
(٢١) القانون التجارى ص ٥ .
(٢٢) تخليص الإبريز ص ٣٤ .
(٢٣) قلائد المفاخر ص ٧ .
(٢٤) تخليص الإبريز ص ٩٩ .
(٢٥) القانون المدنى ج ١ ص ١٧ .
(٢٦) تخليص الإبريز ص ١٧٩ .
(٢٧) المرجع السابق ص ٥١ .
(٢٨) المرجع السابق ص ١٤٥ .
(٢٩) المرجع السابق ص ٢١ .
(٣٠) مقدمة وطنية ص ١١ .
(٣١) مناهج الألباب ص ٢٥١ .

— سوارى[١] — الشلبنة[٢] بمعنى التّظرّف — شوربة[٣] — شيت[٤] — الصرماتيـة[٥] — الطوبجية[٦] — ظرفات الشبابيك[٧] — العربجى[٨] — العياقة[٩] — الفابريقات[١٠] — الفاملية[١١] — قبطان السفينة[١٢] — قبودان[١٣] ويشتق منها وظيفة قبودانية السفن[١٤] — قرقولات[١٥] — القزاز[١٦] — قزازة[١٧] — قشلة[١٨] — قمبانيات[١٩] — القهوجية[٢٠] — كتبخانات[٢١] — الكراخانات[٢٢] — الكرتنة[٢٣] — الكرنتينة[٢٤] — لوقندات[٢٥] — الليمان[٢٦] — الماسورات[٢٧] — مجمّكة[٢٨] — محاسبجى[٢٩] — مخدّات[٣٠] — مخزنجى[٣١] — معدنجى[٣٢] — مغلوقة[٣٣] — ملاية الفرش[٣٤] — المونة[٣٥] — الميرى[٣٦] — مينة[٣٧] — استئذان نامة[٣٨] — نياشين[٣٩] — عساكر ورديان[٤٠] — ورشة[٤١] — يكرتن[٤٢] — اليوزباشى[٤٣] .

(١) القانون المدنى ج ١ ص ٢٦ .
(٢) تخليص الإبريز ص ٩٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٩٣ .
(٥) المرجع السابق ص ١٣٤ .
(٦) المرجع السابق ص ١٧٣.
(٧) المرجع السابق ص ٩٠ .
(٨) المرجع السابق ص٥٩ .
(٩) المرجع السابق ص ٩٨ .
(١٠) مناهج الألباب ص ٢٨٨ .
(١١) الكواكب النيرة ص ٥ .
(١٢) قانون التجارة ص ٧٤ .
(١٣) القانون المدنى ج ١ ص ١٧ .
(١٤) مناهج الألباب ص ٢٤٧ .
(١٥) تخليص الإبريز ص ١٧٢ .
(١٦) المرجع السابق ص ٩٠ .
(١٧) المرجع السابق ص ٩١.
(١٨) المرجع السابق ص ١٢٢ .
(١٩) مناهج الألباب ص ٢١٩ .
(٢٠) تخليص الإبريز ص ٣٥ .
(٢١) مناهج الألباب ص ١٢٦ .
(٢٢) المرجع السابق ص ٢١٩ .
(٢٣) تخليص الإبريز ص ٣٠ .
(٢٤) المرجع السابق ص ٣٢ .
(٢٥) مناهج الألباب ص ١٢٦ .
(٢٦) المرجع السابق ص ٣٥٩ .
(٢٧) القانون المدني ج ١ ص ١١٧ .
(٢٨) مناهج الألباب ص ١٢٧ .
(٢٩) تخليص الإبريز ص ١٥٦ .
(٣٠) المرجع السابق ص ١١٥ .
(٣١) قانون التجارة ص ٨٧ .
(٣٢) مناهج الألباب ص ٢٥٥ .
(٣٣) تخليص الإبريز ص ١١٨ .
(٣٤) المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣٥) مناهج الألباب ص ١٢٦ .
(٣٦) أنوار توفيق الجليل ص ١٣٣ .
(٣٧) القانون المدنى ج ١ ١٧ .
(٣٨) المرجع السابق ص ٢٩ .
(٣٩) الكواكب النيرة ص ٢٣ .
(٤٠) تخليص الإبريز ص ١٧٣
(٤١) المرجع السابق ص ١٤٣ .
(٤٢) المرجع السابق ص ٣٢ .
(٤٣) القانون المدني ج ١ ص ٢٦ .

ونستطيع أن نتبين ما تغلبت عليه اللغة الفصحى من الألفاظ العامية فى لغتنا الدارجة ، إذا نحن وازنا هذا المعجم العامىّ ، بما أصبحنا نتحدث به بدل هذه الألفاظ ، وهذا إن دلّ فإنما يدل على مقدار البطء فى تقدمنا اللغوى ، فلا يزال كثير من هذه الألفاظ يجرى على ألسنتنا .

ومع أنّ رفاعة رأى أن يؤلف باللغة العامية كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية ، كما سبق أن ذكرنا ، لم يدع إلى أن نستعين بها عندما نكوّن قاموساً لغويا .

## وضع معجم

رأى ولاة الأمر أن تذليل صعوبة نقل المعارف الفرنسية إلى العربية تم ، إذا وضع قاموس عربى فرنسى ، وكان رفاعة نفسه يشعر بهذه الحاجة الماسة ، فكان يعتذر حيناً إذا زلت ترجمته فى بعض التفاسير ، « بأن اللغة الفرنساوية لم يفض ختامها إلى الآن بقاموس شاف مترجم (١) » .

وقد رُئى أن ينهض رفاعة بهذا العبء ، بعد عودته من فرنسا ، متخصصاً فى الترجمة ، فأمره إبراهيم باشا بترجمة قاموس ، وعيّن له أحد القواميس لترجمته ، ولكن رفاعة لم تسمح له ظروفه ، بالقيام بأداء هذا العمل الضخم ، وعاقته عنه عوائق ، منها ما كلِّف به من أشغال فى أبى زعبل ، بعد مجيئه إلى مصر ، ومن الواجب فيمن أُعِدّ لهذا العمل أن يتفرغ له ، وأن تهيأ له دار كتب يقيم بها ، وأن تمدّ تلك الدار بما هو ضرورىّ من كتب اللغة وقواميسها ، كما أنه يحتاج إلى مساعد فرنسىّ يستشيره كلما غمّ عليه الأمر ، واستبهم ، كما حال بينه وبين ذلك اعتقاده بأن وضع الألفاظ الاصطلاحية ، يحتاج إلى أن يضم إليه خبراء يعاونونه ، فى وضع هذه المصطلحات ، ولذلك قال رفاعة معتذراً من عدم قيامه بهذا العبء : « بل هذا الشغل هو شغل نحو عشرة أنفار ، حتى يكون مستوفياً ، ومستوعباً للألفاظ

---

(١) المعادن النافعة ص ٣ .

الاصطلاحية [١] » . ولو أن عملا كهذا تم منذ فجر النهضة ، لحفظ كثيراً من جهود المترجمين ، ودفع عنهم كثيراً من العناء .

وإذا كان رفاعة لم يوفق إلى وضع قاموس فرنسى عربى ، فإنه قد وضع معاجم صغيرة فى مفتتح أو ختام بعض كتبه التى ترجمها : ككتاب التعريبات الشافية ، وقلائد المفاخر ، ومبادىء الهندسة ، والمعادن النافعة ، ففى كل واحد منها معجم ، يجمع ما ورد فى الكتاب من ألفاظ غريبة ، لم تعرفها العربية من قبل ، ومن هذه المعاجم الصغيرة وكتبه ، تتبيَّن جهوده اللغوية التى بذلها بين تعريب ، أو وضع اصطلاح ، وتتبيَّن كذلك المنهج الذى كان يراه ، لنماء اللغة العربية . ويمكن أن نلخّص هذا المنهج فيما يلى :

١ — ما عربه من الأبواب التى عددناها فيما مضى ، تدخل اللغة العربية على مدى الأيام ، وبضمّ جهوده إلى جهود غيره ، يمكن وضع قاموس يشتمل على غريب الألفاظ المستخدمة ، قال فى سابقة قلائد المفاخر : « لما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية ، فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية ... عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب ، حتى إنه يمكن أن تصير على مدى الأيام دخيلة فى لغتنا ، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية ، ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب ترجم ... لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ، ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثه التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب ... فإن هذا مما يفيد التسهيل على الطلاب ، وبه تحصل الإعانة على فهم كل علم أو كتاب » ، ومتى صارت دخيلة فى لغتنا ضمت إلى قاموس اللغة العربية ، وأصبح من حقنا استخدامها ، كما استخدمنا ما دخل اللغة العربيه من الألفاظ التى دخلت العربية فى القديم .

٢ — وضع المصطلحات وكان رفاعة كثيراً ما يردّد حاجة اللغة العربية إلى وضع هذه المصطلحات ، وساهم هو — كما رأينا — فى ابتكار بعضها ، وإحياء البعض الآخر ، واستخدام رفاعة للألفاظ الأجنبية ، إلى جانب الكلمات العربية

---

(١) المرجع السابق بالهامش .

لا يعنى أنه يسيغ استعمال الكلمتين ، ولكنه يجمع بينهما ، ليثبت معنى الكلمة العربية ، حتى يستغنى مع الزمن بالعربية .

٣ — ويرى أن نأتى بكلمات على مثال ما أتى العرب منها ، فقد رأيناه يأتى بكلمة مفرنس [1] أى مقول بالفرنسية ، على مثال معرب أى مقول بالعربية .

٤ — ومن وسائل تنمية اللغة عنده أنه يستخدم المصدر الصناعى ، كالساذجية [2] والمغدورية [3] والقيمية [4] ، ويستخدم الفعل المطاوع كثيراً ، مثل ينهضم [5] ، وينفسد [6] ، وتحجب [7] ، وانعدم [8] ، وينعقد [9] ، وينصنع [10] ، وانحبس [11] ، ومصدر الفعل المطاوع ، والمشتقات منه ، مثل : منفسدة [12] ، وانفساخ [13] ، وانعجان [14] ، وانفحام [15] ( بمعنى صار فحماً ) . وإذا كنت أوافقه على استخدام الفعل المطاوع بشروطه ، وعلى الإكثار من استخدامه ، وأراه أجمل فى أحوال كثيرة من استخدام المبنى للمجهول ، فإنى لا أستسيغ استعمال المصادر الصناعية ، مادامت المصادر الأصلية وفيرة ، فلا نلجأ إلى المصادر الصناعية إلا إذا اضطررنا إليها .

وتبلغ اللغة العربية أوج نضجها ، يوم تهضم الألفاظ الغربية المستحدثة ، ويصبح لها قاموس يضمها ، ويوم يصبح لكل علم معجمه الذى يجمع مصلحاته ، فيكون هناك معجم جغرافى ، وآخر فلسفى ، وغيرهما هندسى ، إلى ماسوى ذلك من بقية العلوم ، ومن يدرى فلعله كان يريد معجماً للأعلام أيضاً — ويوم توضع المصطلحات الأدبية ، لأدوات الحضارة ومظاهر العمران .

ومنهج رفاعة فى عرض الكلمة فى معاجمه ، أنه يضبطها ضبطاً دقيقاً ، ثم يعرّف

---

(١) قلائد المفاخر ص ٥٥ .
(٢) سياحة أمريكا ص ١٥ .
(٣) القانون المدنى الفرنسى ج ١ ص ١١٤ .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) تخليص الإبريز ص ١٠٩ .
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) المرجع السابق ص ١١٢ .
(٨) القانون التجارى ص ١٠٥ .
(٩) القانون المدني الفرنسى ج ١ ص ٧٧ .
(١٠) المعادن النافعة ص ٦ .
(١١) تخليص الإبريز ص ١١١ .
(١٢) المصدر السابق نفسه .
(١٣) القانون الفرنسي المدني ج ١ ص ٥٣ .
(١٤) المعادن النافعة ص ١٠
(١٥) المصدر السابق ص ١١ .

بها تعريفاً واضحاً موجزاً ، وهاك مثالا ما كتبه عن منتسكيو ، قال : « هو بضم الميم ، وسكون النون ، وكسر التاء ، وضم الياء ، بعدها واو ، اسم مؤلف عظيم فى السياسات والفلسفة ، من مشاهير الفرنساوية ، ألّف كتابا ، وسمّاه روح الشرائع ، وألّف أيضاً كتابا آخر ، وسمّاه المراسلات الفارسية ، فروح الشرائع مشتمل على أحكام جميع الأمم ، وأصول آدابهم ، وقوانينهم ، وأسبابها ، ومسبباتها ، وأما المراسلات الفارسية ، فإنها أشبه بميزان ، يشنع فيه على عوائد المشارقة والمغاربة ، ليظهر مذام كلٍّ ومحامده ، وله كتاب آخر يسمي سبب عظم : دولة الرومانيين وانقراضها ، يذكر فيه دولة الرومانيين من منشئها إلى آخرها ، بمقتضى قوانين السياسات ، فوجود مثل هذا الحبر فى الملّة الفرنساوية ، تمدح به بين أقرانها من الأمم الإفرنجية (١) » .

وهو يؤثر فى قاموسه الترتيب الهجائى ، الذى ينظر إلى أوّل حروف الكلمة وما يليه ، وقد اتبع هذا الترتيب فى جميع ما أتى به من معاجم .

وتبع نهج رفاعة فى وضع هذه المعاجم بعض تلاميذه ، كما نرى ذلك مثلا فى كتاب : بداية القدماء وهداية الحكماء ، وكتاب تاريخ ملوك فرنسا ، وكتاب إتحاف الملوك الألبّاء ، ففى كل منها معجم يعرّف بما فى الكتاب ، من أسماء أشخاص وأماكن وغيرها ، كما فعل أستاذهم ، فقادهم وسدد خطاهم .

(١) قلائد المفاخر ص ٩١ .

# عقيدته الدينية

## — ١ —

ينحدر رفاعة ، كما يقول ، وكما يقول مؤرخوه ، من الحسين بن عليّ بن أبى طالب ، ومع ذلك لم يكن شيعياً ، يؤمن بما كان الشيعة يؤمنون به ، من أحقية عليّ فى الخلافة بعد رسول الله ، قبل أبى بكر وصاحبيه ، بل كان بعضهم يرى فى عليّ أكثر من بشر ، وأكثر من خليفة [(١)] . أما رفاعة فكان سنّيّ المذهب ، يرى أبا بكر أفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين [(٢)] ، وأحقهم بالخلافة من بعد رسول الله ، وأما قول الرافضة : «إن أبا بكر غصب عليّاً فباطل ؛ لأن فى ذلك قولا بإجماع الصحابة على الظلم ، حيث مكّنوا أبا بكر من الخلافة ، وحاشاهم من ذلك فإنهم حماة الدين ( رضى الله عنهم ) ومن زعم منهم أن عليّاً رضى الله عنه لم يبايعه ، أو بايع على كره منه فباطل أيضاً ؛ لأنه إن كان امتنع من مبايعته مع العلم أنه على الحق فحرام ، ولا يظنّ ذلك بعلى رضى الله عنه ، وإن كان مع العلم أنه على باطل ، فذلك محال ؛ لأنه لم يكن فى زعمه أنه على الباطل ، بدليل أنه لم يشهر سيفه ، ولم يمنعه ، بل كان مؤدبا بين يديه ، ومؤتمراً بأوامره ، وقد كانوا ( رضى الله عنهم ) لا تأخذهم فى الله لومة لائم [(٣)] »

ويرى عمر أفضل الخلق بعد أبى بكر والأنبياء والمرسلين ، ومن بعده عثمان فعلى [(٤)] ، وقد نظم عقيدة السنيين هذه الشيخ الدّردير ، فى منظومته فى التوحيد ، حيث قال :

وخيرهم من ولى الخـلافة　　وأمرهم فى الفضل كالخلافة

---

(١) راجع نهاية الإيجاز ص ٣٦٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦١ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه .

ويرى رفاعة أن هذه العقيدة، لايضرها زيادة حب على، المغروس فى قلب كلّ علوى سنى، لما بينه وبينهم من صلة الدّم، ما دام ذلك الحبّ، لا يؤدى إلى انتقاص من قبله من الخلفاء.

وبمناسبة الحديث عن الخلفاء الراشدين، يعتقد رفاعة أن نصب الإمام واجب على الأمة بالشرع، فمن الواجب على أهل الحل والعقد، وهم العلماء ووجوه الناس، أن يختاروا إماماً يقوم بمصالحهم، وينفذ أحكامهم، ويقيم حدودهم، ويجهز جيوشهم، فإن اختاروا هذا الإمام، سقط الأثم عن باقى الأمة، وإلا أثم المسلمون جميعاً [1]. فهو يرى منصب الخلافة من المناصب الدينية، ومما ذكره له من الحقوق والواجبات، لا يفصل رفاعة بين السلطة الدينية، والسلطة الزمنية، لأنه يعتقد أن السلطة الزمنية، يجب أن تنبثق من السلطة الدينية، وتشتق منها، فالدين كان إلى عهده مصدر التشريع.

— ٢ —

ومما كان يعتقــــده رفاعة القضاء والقدر، ومن أجل ذلك نعى على الغربيين إنكار بعضهم للقضاء والقدر، وعدّ هذا الإنكار من العقائد الشنيعة [٢]؛ وجره إيمانه بذلك إلى إيمانه بالحظ، فقد كان يرى « الحظ أجدى لصاحبه من الحجا، وأهدى فى طرق مأربه من نجوم الدّجى [٣] » — وإلى وجوب تسليم الأمر كله لله، « فيجب على العاقل التسليم فى جميع الأمور، وتلقى المقادير بالرضا والقبول... فإذا علمت أن قسمة الحظوظ فى سابق الأزل لحكمة يعلمها، لاتبديل ولا تغيير فى ذلك، وسلمت الأمر لمولاك الفاعل المختار، المتصرف فى ملكه كيف يشاء بالاختيار، فلا عتاب ولا ملامة [٤] »، وليس معنى ذلك أن رفاعة يعتقد أن السماء تمطر ذهباً أو فضة، بل لا بد من تعاطى الأسباب، وذلك لا ينافى التوكل، ولا ينافر القضاء

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٩ .

(٢) تخليص الإبريز ص ٥٨ .

(٣) مناهج الألباب ص ١٩٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١٩١ .

والقدر[١]؛ فلا بد من الأخذ بالحزم فى سائر الأشياء ، ولا ينبغى للانسان أن يحيل الأشياء على المقادير ، أو يحتج بها قبل الوقوع ، فمن دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير[٢]. ويبدو لى أن القضاء والقدر الذى يؤمن به رفاعة ، هو علم الله بما يجرى فى هذا العالم ، هذا العلم الكامل الذى لا تفوته صغيرة ولا كبيرة ، من غير أن يكون له تأثير فى أفعال العباد ، ومن أجل هذا كان المرء مطالباً بتلمس الأسباب التى تصل به إلى مأربه .

— ٣ —

وكان موقفه موقف المسلّم بمعجزات الرسول الكريم الخارقة للعادة : فيؤمن بشق صدره الكريم حقيقة[٣] ، وبأن الشمس تأخرت حين دعا النبى ربّه أن يؤخرها ، وبأن القمر قد انشقّ فلقتين : فلقة دون الجبل ، وفلقة خلفه[٤] ، وأن الجذع قد حنّ إليه عندما فارقه إلى المنبر ، حتى سمع منه صوت كصوت الإبل[٥] ، وأن الحصى قد سبّح فى كفّه[٦] ( صلوات الله عليه ) ، وغير ذلك من معجزاته ، فيؤمن رفاعة بأن هذه الخوارق قد تمت حقيقة ، لا أنها ترمز إلى شىء .

وكما كان يؤمن بمعجزات الرسل ، يؤمن بكرامات الأولياء ، فكل ما كان معجزة لنبىّ كان كرامة لولىّ ، لا فرق بينهما إلا التحدى بالنبوة ، وعقد رفاعة مطلباً[٧] ، برهن فيه على أن كرامة الأولياء من الممكنات ، وقال : « ولم يزل فى كل عصر وأوان أولياء وعلماء[٨] » .

وهذه العقلية المصدّقة بالخوارق ، هى التى اصطدمت فى أوربا بالعقلية التى لا تصدّق بها ، ولا تؤمن بما لا يوافق العادة[٩] ، وتعتقد أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا[١٠] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٥ . (٢) تخليص الإبريز ص ٥٨ .
(٣) نهاية الإيجاز ص ٩١ . (٤) المصدر السابق ص ٣١٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٣١٣ . (٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) المرشد الأمين ص ٣١٠ . (٨) المرجع السابق ص ١٣٢ و ١٣٣ .
(٩) تخليص الإبريز ص ١٩ و ٢٤ . (١٠) المرجع السابق ص ٥٧ .

— ٤ —

كما أنه رأى الفرنسيين من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين[١] ، فعندهم كل عمل يأذن فيه العقل صواب[٢] ، وكل ما لا يقره خطأ وقبيح . أما رفاعة فيعتقد أنه لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع ، ولا مدخل للعقل تحسيناً وتقبيحاً[٣] ؛ ولهذا لا يسوغ للأمير « أن يحكم فى التحريم والتحليل بما يلائم مزاجه ، مما يخالف الأوضاع الشرعية المنقولة عن الأئمة المجتهدين ، ولا عبرة بالاستكراه النفسانى ، والاستحسان الطبيعى ، والأخذ بالرأى من غير دليل شرعى ، بل يعتمد متولى الأحكام على فتاوى العلماء ، وأقوال المجتهدين فى الدين ، فإن الإمارة إنما تخلف النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به ، فتقف عند حدود الله تعالى ، المعضدة بقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم[٤] » .

ولكنه مع ذلك يعتقد من ناحية أخرى « أن الشرع لم يرد فيه ما يخالف العقل البتة[٥] » ، إذن « فالمنكر لما وردت به الشرائع هو الذى كلّ ذهنه ، ووقف فهمه ، بسبب طربه من النظر فى علم المعقولات ، ثم لا يتقنه ولا يحققه ، فتختبط عليه الأمور ، وتلتبس ، ولا يهتدى بشىء[٦] » .

ومن أجل ذلك يرى أن كتب الفلسفة — وهى محشوّة بكثير من الضلالات المخالفة لسائر الكتب السماوية ، والتى يقيم أصحابها عليها أدلّة يعسر على الإنسان ردّها — مما لا تجوز دراسته ولا الخوض فيه ، إلا بعد التمكن من الكتاب والسنّة ، حتى لا يغترّ بذلك ولا يفتر اعتقاده ، وإلا ضاع يقينه[٧] .

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المصدر السابق ص ١٩ .
(٣) المرشد الأمين ص ١٢٣ .
(٤) المرشد الأمين ص ١٢٣ .
(٥) نهاية الإيجاز ص ٣٩٧ .
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) تخليص الإبريز ص ١٣١ .

a pre-disposition to reject S.S.

# آراؤه الاجتماعية

قسم رفاعة الفضيلة ثلاثة أقسام : شخصية ، ومنزلية ، وأهلية ، فالأولى هى ما ينبغي أن يتصف بها كل إنسان ، لتكون وسيلة لحفظه ومادة لصونه ، والثانية « هى سلوك الطريقة النافعة ، فى العمل لجمعية العائلة ، التى تقيم فى منزل واحد ، كالاقتصاد فى النفقات ، وبر الوالدين ، وحسن العشرة مع الأزواج ، وحسن تربية الأولاد ، ومحبة الإخوة بعضهم لبعض ، وأداء حقوق السيد لخادمه ، والخادم لسيده ، أما الفضائل الأهلية أو الاجتماعية فكثيرة ، ولكنها ترجع إلى أصل واحد ، هو العدل والإنصاف المستلزم جميع فضائل الجمعية[١] » .

ونجاح الجمعية التأنسية وتقدم أعمالها ، مداره الخلق الكريم « ولا أضر على الجمعية من فساد الأخلاق ، فإنه ينشأ عنه الكبر ، وعدم الاستقامة ، لأن الغنى المتكبر مثلا ، يذهل فى نشوة لذته عن أن المال خيال زائل ، فيجسر ، ويجرؤ بالتكبر على غيره ، ويظن أنه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها[٢] » ؛ ويبعد عن الاستقامة التى هى قوام جميع الفضائل المدنية ، لأنها حسن السلوك فى التعامل ، وأداء حقوق العباد ، والمرء المتهاون فى حقوق الجمعية المدنية ، يعد عديم الاستقامة ، لا يعرف مايجب له وما يجب عليه ، فى حق الجمعية التى يعيش فيها ، فاستقامة الإنسان احترام حقوقه ، باحترام حقوق غيره ، والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره[٣] .

ورأى رفاعة أن جماع مكارم الأخلاق الاجتماعية منحصر فى قوله ﷺ : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، لأن الرجل الصالح المستقيم لايقتصر على الكف عن فعل الشر ، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف ، فالاستقامة تنهى عن الشر ، والصلاح يأمر بالخير[٤] ، ومن ذلك

---

(١) مناهج الألباب ص ١٣١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق ص ١٣٣ .

يتبين أن الرجل الاجتماعى عند رفاعة ، هو العادل ،المنصف ، المستقيم ، الصالح .

أما العلاقات التى يجب أن تسود المجتمع ، وتتوطد بين أفراد الشعب ، فقد وجد فى قوله صلوات الله عليه : « لا تحاسـدوا ، ولا تناجشوا [١] ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يـكذبه ، ولا يحقده ، التقوى ههنا ( ويشير إلى صدره ثلاث مرّات ) ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه [٢] » . وجد فى هذا القول مثلا من الأمثلة العليا ، للعلاقات التى يجب أن تسود بين الناس ، ولذلك مضى يشرح الحديث شرحاً تفصـيلياً .

ولما كان من أعضاء المجتمع ، من لايستطيع الـكسب ، لمرضه ، أو شيخوخته ، كان من الواجب إنشاء مؤسسات ، تنهض بسد حاجة هؤلاء ، والقيام بشئونهم ، وهنا يرى رفاعة أن الدولة وحدها ، لا تستطيع القيام بذلك العبء ، ولهذا ينبغى أن يعينها على أداء هذا الواجب ، جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة ، وقد شاهد رفاعة فى أوربا جماعات البر ، تقـوم بحاجات البائسين والمعوزين ، ورآها أقدر على الدوام ، وأنهض بما عليها من الأعباء ، فنادى بإنشـاء هذه الجماعات ، بدلا مما كان معروفا بمصر يومئذ من الصدقات الشخصية ، التى لا ثبات لها ولا دوام ، قال رفاعة فى هذا الصدد : « ومما ينبغى ، إعانة ولى الأمر على مضاعفة المحال الخيرية ، من أرباب جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة ، لتكثير وسائل البر والتقوى : كتكثير المارستانات التى ترصد على المرضى والزمنى العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم ، وكتركيب مارستانات ترصد على الأطفال ، الذين يلتقطونهم من الطرق والأيتام ، وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن والعميان ، والبله والمجانين ، وأرباب العاهات العاجزين ، وكالمحال الخيرية ، والشركات السلمية ، أى المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السَّلَم ، لتسهيل الأخذ والعطاء ، وقطع دابر الربا ، ولإغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل ، ولإغاثة المعسرين

Why not / of Islam?

---

(١) أى لا ينجش بعضكم على بعض بأن يزيد فى المبيع ليخدع غيره وهو محرم إجماعاً لأنه غش وخداع .

(٢) مناهج الألباب ص ٩٦ .

والمفلسين ، من التجار المتعطلين عن الأشغال ، لحصول حادثة جبرية ، أوجبت الكساد وسوء الحال ، وبالجملة فإرصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا ، وكل ما فيه مصلحة — مشروعات خيرية ، لا تستطيع أن تقوم بها الدولة وحدها ، أو إنسان مخصوص وحده ، ويد الله مع الجماعة ، فلا بد فى إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ، ترصد عليها الإرصادات ، وترتّب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال ، فهذه صدقات جارية ، من جهة شركات تعاونية ، يقتسمون أجرها ، ويحرزون شكرها ، فجمعيات فعل الخير بالاشتراك قليلة فى بلادنا ، بخلاف الصدقات الشخصية ، والإرصادات الأهلية يرصدها الواحد فى الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب ، فإن هذا يتجدد بمصر كثيراً ، ولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار [١] » .

ورفع رفاعة صوته ، منادياً بحق العامل فى أن ينال أجراً ، يناسب ما بذله من الجهد والعناء ، ودحض حجة هؤلاء الذين يزعمون أن من حق المالك أن يستحوذ على محصولات أرضه ، وألا يكافىء العامل ما يستحقه من المكافأة ، فقد بين رفاعة فى كتابه . أثر العمل فى جلب الثروة ، وأنه أقوى من خصوبة الأرض [٢] ، وإذا صح ذلك فمن الظلم غبن الأجير ، ولا يدل حديث : الزرع للزارع على جواز هذا الغبن ؛ كما لا يجيزه ظن أن المالك قد دفع رأس ماله فى الزراعة وأنفق عليها ، فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة ، والأولى بربح أمواله العظيمة ، وأن عملية الفلاح فرعية ، تعتمد على رأس المال وتستند إليه ، وذلك كله محض مغالطة ، فعمل الأجير هو المنتج ، ولولاه ما ربحت الأرض هذا الربح العظيم ، فمحاولة المالك تقليل أجرته مستغلا ازدحام أهل الفلاحة على العمل ، إجحاف به وإيذاء له ، لا يثمر محبة الأجير للمالك ، والإيذاء ممنوع شرعاً [٣] . ويخيل إلىّ أن رفاعة بدفاعه هذا ، يريد أن يشرك العامل مع صاحب الأرض فى غلتها ، ولكنه لم يبين ما يخص العامل من هذا الإنتاج .

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٤٤ .

(٢) مناهج الألباب ص ٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٥ و ٩٦ .

وعقد رفاعة فصلا[1] مطولا ، مدح فيه السعى والعمل ، وذم البطالة والكسل ، ولا غرابة أن يعقد هذا الفصل ، بعد أن بين قيمة العمل فى جلب الثراء ، الذى هو أساس سعادة الأمة ، ولذا كان يؤذيه رؤية هؤلاء الكسالى ، القادرين على السعى ، ولكنهم يؤثرون السؤال على الأعمال ، ويلحون فى الطلب ، ولعل فى نشره قانون الشحاذة ، الذى سنه الفرنسيون ، ما يوحى برضاه عن سن مثله ، لمكافحة هذا الداء الوبيل .

وكان رفاعة متفائلا بمستقبل الوطن ، ويرى الزمن القادم أفضل من الماضى حضارة ومدنية ، « فلا ينبغى لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف ، تجرد عن فضائل السلف ، وأنه لا ينصلح الزمان إذ صار عرضة للتلف ، فهذا من قبيل البهتان ، فالفساد لاعتقاد ذلك ، لا فساد الزمان[1] » .

وتلك العقيدة المتفائلة هى التى دفعت رفاعة إلى تأليف كتبه فى الاجتماع ، يبصر أمته فيها بوسائل النهضة وأسباب الرقى ، وفى التربية يريد أن يأخذ بيدها إلى تبوؤ مكانها الذى كان لها فى القديم ، والذى طالما أشاد به رفاعة ، وحث بنى وطنه على إعادته ، وكان رفاعة يرجو أن سيأتى يوم يحقق فيه المجتمع المصرى ما يصبو إليه من آمال فى المجد والارتقاء .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤١ .

# مبادئه فى التربية والتعليم

عرّف رفاعة التربية بأنها فن تنمية الأعضاء الحسية والعقلية ، وطريقة تهذيب النوع البشرى ، ذكراً كان أو أنثى ، على طبق أصول معلومة ، يستفيد منها الصبى هيئة ثابتة يتبعها ، ويتخذها عادة ، وتصير له دأباً وشأناً وملكة[١] .

ويرى أن تغذية الطفل على ثلاثة أضرب : الأول تغذيته بالطعام ، لينمو جسمه ، والثانى تغذية خلقه ، بتعويده التطبع بالطباع الحميدة ، والآداب والأخلاق ، والثالثة تغذية عقله بتعليم المعارف وألوان العلوم[٢] . فالتربية ألون ثلاثة : تربية جسمية ، وتربية خلقية ، وتربية عقلية .

ومهمة التربية عند رفاعة تهذيب الخلق ، وتنمية العقول ، وتحسين الإدراك ، وليس من مهمتها خلق الذكاء ولا الألمعية ، لأن ذلك من الصفات الغريزية الطبيعية ، فإذا وكل إلى المربى عدة أطفال مختلفين ذكاء ، لا تستطيع التربية الموحدة أن تسوى بينهم فى الذكاء ، بل يختلف ذكاؤهم باختلاف استعدادهم الغريزى ، والذكاء الكامل إذا صحبته التربية الرشيدة ، كان عظيم النجاح ، فإن صحبته التربية المتوسطة ، كان يسير النتيجة ، لا يبلغ صاحبه الدرجة المنشودة[٣] .

وإن أثر تربية الأفراد تربية حسنة هو النهوض بالهيئة الاجتماعية ، لأنها مكونة من هؤلاء الأفراد ، فالأمة التى حسنت تربية بنيها ، هى الأمة السعيدة التى يرقى بها الوطن ، ويتبوأ مكانته السامية ؛ أما سوء التربية ، فإنه إذا انتشر فى أمة أفضى بها إلى العدم[٤] .

وأول ما يجب أن يعنى به مربى الطفل أن يمحو الأثرة من نفسه ، « لأنها خصلة جامعة لجميع العيوب دالّة على دناءة النفس ؛ لأن صاحبها مقصور الهمة على

---

(١) المرشد الأمين ص ٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٦ .

منفعة نفسه ، لايعود نفعه فى شىء على إخوانه وأبناء جنسه ، وهى منبع الحرص والطمع[1] » ، وأن يحفّظه منـذ صغره العقائد الدينية ، ويغذيه بلبان الأحكام الشرعية ، فينبغى أن يعلّم الصغير ، ذكراً أو أنثى ، من مبدأ أمره إقامة الدليل على وجود الله ، ووحدانيته ، وباق صفاته الواجب معرفتها[2] ، وهكذا يجب أن تسير التربية الدينية جنباً إلى جنب مع تربيته المعاشية ، ليجمع بين معرفتيهما[3] .

وينبغى لمن يربى البنت ويتعهد شئونها ، ألا يمس بمحو ولا تخفيف ، تلك الصفة التى اختصت بها دون الرجل ، والتى تتزين بها ، وهى صفة الحياء والخوف والوجل ، فإن المرأة لم تخلق لتحوز شجاعة الرجل ، ولكن لتحمل الرّجال على الشجاعة[4] .

***

يقسّم رفاعة التعليم ثلاث مراحل : التعليم الأولى الابتـدائى ، والتعليم الثانوى التجهيزى ، والتعليم الكامل الانتهائى .

فالتعليم الأوّلى ما يكون فيـه أهل المملكة على حد سواء ، فهو عام لجميع الناس ، يشترك فيه أبناء الأغنياء والفقراء : ذكورهم وإناثهم . ومنهج هذا النوع من التعليم دراسة القراءة والكتابة ، ضمن تعليم القرآن الشريف ، وأصول الحساب ومبادئ الهندسة والنحو .

وهذا التعليم الأولى ضرورى لسائر الناس ، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء ؛ ومتى تلقاه أفراد الأمة حسن حال الهيئة الاجتماعية ، وارتق به أرباب الحرف الصناعية ، فإن الصانع مثلا ، إذا تعلم هذه المبادئ ، سهل عليه بقراءة كتب مهنته أن يجيد صنعته ، ويدخل فيها تحسينات جديدة ، وأن يقيد جميع ما يراه ويسمعه ، فيرقى ويسير فى عمله إلى درجة الكمال .

وواجب المعلم فى هذه المرحلة ، أن ينهج أقصر الطرق فى تعليم الغلمان ، حتى

---

(١) ص ٧ و ٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ و ١٣ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

In centras to S.J
S.S an imp.

لا يضيع عليهم وقت طويل ، هم أحوج الناس إليه فى تعلم مهنة يكتسبون منها .

هذا التعليم الأولى ، هو الذى وضع خططه رفاعة وصديقه أدهم ، فى عهد سعيد باشا ، ولكن لم يقدر لهما تنفيذ برنامجهما ، كما سبق أن ذكرنا[1] .

وأما التعليم الثانوى ، فدرجته أعلى مما قبله ، وهو الذى يكون به تمدين جمهور الأمة ، وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران ، وعلومه كثيرة ، منها العلوم الرياضية بأنواعها ، والجغرافية ، والتاريخ ، والمنطق ، وعلم المواليد الثلاثة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والإدارة الملكية ، وفنون الزراعة ، والإنشاء والمحاضرات ، وبعض الألسنة الأجنبية ، التى يعود نفعها على الوطن ، ولأهمية هذا النوع من التعليم ينبغى للحكومة أن ترغب الأهالى فيه ، وتشوقهم إليه . والأفضل أن يكون تعليم المهن على اختلاف ألوانها ، بعد الانتهاء من هذه المرحلة من التعليم .

والتعليم العالى هو الذى يشتغل الإنسان فيه بعلم مخصوص ، يتبحر فيه ، بعد تحصيله علوم المبادىء ، كعلم الفقيه ، والطبيب ، والفلكى ، والجغرافى ، والمؤرخ ، من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية ، ويريد صاحبه أن يجول فى أصوله وفروعه ، حتى يكون كالمجتهد فيه .

وإذا كان رفاعة يرى من الواجب تعميم التعليم الأولى ، بين أبناء الشعب جميعاً ، وترغيب الشعب فى التعليم الثانوى ، فرأيه فى التعليم العالى وجوب الاقتصاد فيه ، لأنه معد لتكوين أرباب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد فى الممالك والحكومات ؛ فيجب أن يكون عدد تلامذته محصوراً ، وألاّ يباح الانتساب إليه إلا لصاحب الثروة واليسار ، بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة[2] .

***

وينبغى لولىّ الأمر أن يتأمل حال الصبى ، ليرى ما هو مستعد له من الأعمال ، فيعلم أنه مخلوق له ، فيوجهه التوجيه الصالح ، ولا يحمله على غير ما هو مستعد له ، فإنه إن حمله على ذلك لم يفلح فيه ، وفاته ما كان متهيئاً له[3] ؛ فالتربية الصحيحة

---

(١) راجع ص ٥٥ .

(٢) المرشد الأمين ص ٦٢ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٩٨ .

هى تلك التى تلائم استعداد الطفل ، فتنميه ، وتأخذ بيده ، حتى ينضج ويصل إلى الأوج ، ولكل فرد استعداد خاص به ، تظهر آثاره عليه (١) . ولا زلنا نحن إلى اليوم ننادى بهذا المبدأ الذى يهيىء لكل امرىء وسيلة النبوغ ، ولا يكلفه من العمل ما لا يتفق مع مواهبه وميوله .

وكأنى برفاعة يريد أن يوجه التلاميذ على حسب استعدادهم وجهتين : وجهة علمية نظرية ، والأخرى عملية صناعية ، وبهذين الاتجاهين تنهض الأمة ، قال رفاعة : « يجب على مدبِّر المدن ، أن يسوق كل إنسان نحو سعادته التى تخصه ، ثم يقسم عنايته بالناس ونظره إليهم إلى قسمين : أحدهما فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية ، والآخر فى تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية ، فكل من هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل (٢) » .

وعنى رفاعة بالحديث عن تربية أبناء الملوك ، وإعدادهم لما ينتظرهم من القيام بأعباء الدولة ، فرأى أنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا جميع ما يتعلمه أبناء الوطن ، من العلوم الأولية ، ولا سيما علم اللسان ، كما يجب على مربيهم أن يعنوا بتعليمهم ما يلزم فى تمكينهم من العلوم الإدارية ، وأصول السياسة والرئاسة ، ليحسنوا التدبير ، عندما توكل إليهم مقاليد الأمور ، ويجب أن يوكل أمر تربيتهم إلى أرباب الفضائل المجربين ، المتصفين بالأخلاق الحميدة ، والآراء السديدة ، والحائزين لأصول العلوم السياسية وفروعها ، ولا يليق أن تفوَّض تربية أبناء الملوك لأرباب الدَّناءة ، ولا لأرباب البدع والأوهام ، ولا لأصحاب الأطماع ، لأن العدوى منهم تسرى ، فتفسد طباعهم ؛ ونقل رفاعة ما اعتاده الأوربيون فى تربية أبناء الأسرة المالكة ، من اختيار المعلم الماهر ، والرحلة إلى الممالك الأجنبية لمشاهدة أحوالها ، والاطلاع على سياستها وأحوالها ، لاقتباس الصالح من نظمها ، واجتناب الضار الفاسد ، هذا إلى وجوب ممارسة السياسة عملياً (٣) .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٧ .
(٢) مناهج الألباب ص ٧٨ .
(٣) المرشد الأمين ص ٩٦ وما يليها .

وأطال رفاعة فى بيان أثر التنافس فى نهضة الفرد والجماعة ، ومدحه ، وأطال فى مدحه ، « فهو صفة نفسانية ، تبعث طالب العلم على أن يجتهد كل الاجتهاد ليفوق الأقران ، أو يساويهم ، وأن يستقرئ ، ويبحث عما يفعلونه من الحسن والطيِّب ، والملائم ، ليشارك الأقران فيه ، ويبرع فيه بجودة فهمه ، ودقة نظره ، فالتنافس غيرة محمودة ، وغبطة معهودة ، مركوزة فى جميع النفوس الزكية . . . فيتحرى صاحبها استسهال المصاعب ، وركوب متون الأخطار والمتاعب ، وأن تنتقل همته من الثرى إلى الثريا ، ليصعد بالمعارف مكاناً قصياً (١) » ، « فالمنافس يجتهد بغاية الحماسة والشدَّة ، ويحتد فى اجتهاده غاية الحدَّة ، ويسلك فى بلوغ أمله المناهج الشريفة ، والمباهج المنيفة (٢) » ؛ « فالتنافس من حسن شمائل أعضاء الجمعية ، ومن أكمل فضائلها النفعية ... وربما ظهر ببادىء الرأى أن التنافس رفيق الطمع ، وشقيق الحسد ، وأن المتمسك به غير سالك فى السبيل الأسدّ ، مع أنه ليس فيه شىء من هاتين المثلبتين ، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين ؛ إذ ليس الغرض من التنافس حصر الفضل فى صاحبه ، ولا الاختصاص بمكاسبه ومواهبه ، بل مجرد التقدُّم فى المعارف ، والدخول مع الأقران فى ميدان السباق ، ليبادر كل منهم ، بالسعى واللحاق ، فبهذا يحسن حال المعارف البشرية ، وتبلغ درجة الكمال (٣) »

ولم ينس رفاعة أثر الرحلة فى كسب العلوم ونمو المعارف ؛ فالمرتحل يلقى علماء مختلفين ، يستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة ، وقد يظن أنه بلغ درجة كبيرة من العلم ، فإذا قابل نفسه بهؤلاء الأجلاء احتقر نفسه ، ومضى يستزيد من العلم ، وقد يصل إلى المدارس الكبيرة ، فينتفع بها ، وهو يرى فى رحلته اختلاف أحوال الناس ، فتقوى معرفته بالرؤية أكثر من السماع (٤) .

***

أما صلة المعلم بتلميذه ، وصلة هذا بمعلمه ، وما ينبغى أن يكون عليه كلاهما

---

(١) المرشد الأمين ص ٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المرجع السابق ص ٨٩ .

فقد حدثنا عنها رفاعة حديثاً مستفيضاً ، فبين أنه من الواجب أن تكون صلة حب وإخلاص ، فالتلميذ يدعو لأستاذه ، كلما شرع فى قراءة درس، وتكراره ، أو مطالعته، فى حضور أستاذه أو فى غيبته ، وإذا فرغ من الدرس دعا لأستاذه أيضاً ، ويدعو الأستاذ للتلميذ كما دعا له [١] .

وحق المعلم أن يجرى متعلميه مجرى بنيه ، فإنه لهم فى الحقيقة أشرف الأبوين ، فيوقرهم كما يوقر أولاده ، ويوقرونه كما يوقرون آباءهم [٢] .

وعلى المربى أن يختار من العبارات التى يؤدى بها المعنى ما هو واضح مفصل ، فى مستوى تلاميذه ، وأن يعاملهم بالرفق والشفقة ، وأن يعنى بإرشادهم ، ويهتم بمصالحهم ، ويصبر على جفائهم وسوء أدبهم ، ويعذرهم فى قلة أدبهم فى بعض الأحيان ، فإن الإنسان معرض للنقصان ، ولا سيما إذا كان حديث السن ، وعليه أن يصرفهم عن الرذائل إلى الفضائل بلطف فى المقال ، وتعريض فى الخطاب ، والتعريض أبلغ من التصريح [٣] .

وأمّا ما يفعله معلمو القرآن الكريم وشدة عنفهم ، وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين فى التعليم ، فهو خروج عن حد الشرع ، ويترتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون عن الكتابة والقراءة ، لما يرونه من ذلك ، فلو عاملوهم بالرفق والحيلة فى التعليم لما امتنعوا عن ذلك . ومع هذا أجاز رفاعة للأب أن يضرب ابنه لتدريبه وتأديبه [٤] .

كما ينبغى للمعلمين أن يأذنوا لتلاميذهم باللعب فى بعض الأوقات ويكون لعباً جميلا غير متعب لهم ، ليستريحوا من عناء الدرس ، وأن يتألفوا قلوب طلبتهم ويتلطفوا بهم ، ويحرضوهم على التعليم ، ويحثوهم عليه ، وينبهوهم على فضيلة ذلك ، ليكون سبباً لنشاطهم ، وأن يحبوا لهم ما يحبون لأنفسهم ، ويكرهوا لهم ما يكرهون لأنفسهم [٥] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٢٩ .
(٤) المرجع السابق ص ٣١٨ .
(٥) المرشد الأمين ص ٢٣٢ .

وأما مايطلب من المتعلم فأمور كثيرة : منها أن يكون متأدباً مع الله ، ومع مرّبيه ، متواضعاً لأستاذه ، محباً له ، معتقداً فيه ، سامعاً لقوله ، بل أن يكون معه بمنزلة العبد من مولاه ، وأن يكون متأمّلا فى جميع الأوقات ، فى دقائق العلوم ، وأن يعتاد ذلك ، وأن يكون مستفيداً فى جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص ، وأن يبعد الفتور عن نفسه فإنه آفة العلم(١) ؛ وفصّل رفاعة أخلاق العلماء ، فعد منها التواضع ، والزهد فى طلب الرياسة ، والاعتراف بعلم الممتازين ، وعدم الحقد عليهم ، والتماس عثراتهم ، وانتقادهم ، وينبغى له ألا يمدح نفسه ، ولا يفرح بمدح الناس له وثنائهم عليه ، وأن يكون مثلا من الأمثلة الكريمة فى الأخلاق الحميدة من الزهد فى الدنيا ، والسخاء ، وطلاقة الوجه ، فى غير خروج إلى حد الخلاعة ، والصبر والتقوى ، وأن يكون مكثراً من الخشوع والوقار ، متجنّباً للضحك ، والإكثار من المزاح ، لا يلبس الملابس الرثة المكروهة المبتذلة ، وأن يكون تاركا للشهرة ، وليحذر كل الحذر من الحسد ، والكبر ، والرياء ، والعجب(٢) .

* * *

وأوصى رفاعة فى طلب العلم بما نقله عن الإمام الشافعىّ وهو ألا يخرج الطالب من علم إلى غيره حتى يحكمه ، فإن ازدحام الكلام فى السمع ، مضلة فى الفهم ، ولكن يبدأ منه بالأهم(٣) ، ويأخذ العلوم عن أساتذتها ، ويحذر من الاستفادة من الكتب إلا فى علم الحديث ، لئلا يكون هناك قول ضعيف ، ولئلا يقع فى التَّصحيف والتحريف(٤) .

ويرى فائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار(٥) ، ويرى تقسيم الدرس أقساماً أسهل لحفظه ، وأرسخ فى الذهن من حفظه جملة ، قال فى منظومة تأديب الأطفال :

(١) المرجع السابق ص ٣٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٢٩ . وما بعدها
(٣) المرجع السابق ص ٣٣٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٣٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٣٨ .

يحسن حفظ اللوح للصغير على مرار ، بل وللكبير !.
يرسخ فى الذهن ، وليس يمحى جربه بالتقسيم ، واقبل نصحا[١]

ونقل رفاعة فى كتابه : مناهج الألباب المصرية[٢] رأياً فى تأديب الصغار ، كان نقله له إقراراً له ، فروى عن صاحب الأخلاق ، أن أول ماينبغى أن يتفرس فى الصبي ويستدل به على عقله الحيـاء ، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه ، ويخاف أن يظهر منه ، ويدل على أن نفسه مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، والأولى بمثل هذه النفس أن تنبه دائماً على حب الكرامة ، ويمدح الأخيار عنده ، ويزيّن عنده شرف النفس والإيثار ، ويطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار ، ويحذّر من النظر فى الأشعار السخيفة ، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدّا ، وإن خالف الطفـل أصول الأدب فى بعض الأوقات ، فالأولى ألا يوبخ ، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه ، بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثـله ، ولا همّ به ، ولا سيما إن ستره الصبى ، واجتهد فى أن يخفى ما فعله على الناس ، فإن عاد فليوبّخ عليه سراً ، فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة ، حملته على الوقاحة ، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه ، وهان عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح . ويستمر رفاعة فى نقل رأى صاحب الأخلاق الذى يدعو فيه إلى تعويد الطفل الخشونة والتقشف .

* * *

كان رفاعة يعترف بفضل الأزهر عليه فى ثقافته ، ويراه جنة علم دانية الثمار ، وروضة فهم يانعة الأزهار[٣] ، ولا عجب أن يكنّ له فى صدره هذا الإجلال ، فهو الذى مهد أمامه الطريق إلى الاغتراف من الثقافة الغربية ، وهو لذلك حريص كل الحرص ، على أن يصل هذا المعهد العتيد ، إلى الدرجة التى يستطيع أن يؤدى فيها رسالته على أكمل الوجوه ، وهو من أجل ذلك يرى من الضرورى أن يعنى الأزهر بالعلوم الحكمية ، وسائر المعارف البشرية المدنية ، وهذا إلى جانب عنايته

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٧٧ .
(٢) ص ٦٩ .
(٣) تخليص الإبريز ص ٣ .

بالعلوم الشرعية والعربيـة ، ويقول رفاعة فى ذلك : « غير أنه ( أى إسماعيل ) حفظه الله وأبقاه ، ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه ، لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه إلى تـكميل عقولهم بالعلوم الحـكمية ، التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر ، نعم إن لهم اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية العلمية والاعتقادية ، ومايجب من العلوم الآلية ، كعلوم العربية الاثنى عشر ، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر ، ولمثل هـذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر ، والـكامل يقبـل الـكمال كما هو متعارف عند أهل النظر » .

« ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط بعد ولىّ الأمر بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف إلى مايجب عليهـا من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنيـة ، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام ، يكون من الأعمال الباقية على الدوام ، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام ، حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله ؛ فإن سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ، ومنهجه الأبهج هو القويم ، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم ، وتلـقّيه من أفواههم أتم وأنظم ، لاسيما وأن هذه العلوم الحـكمية العملية ، التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الـكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة[1] » . « فلو تشبث من الآن فصاعداً نجباء أهل العـلم الأزهريين بالعلوم العصرية التى جددها الخديو الأكرم بمصر ، بإنفاقه عليها أوفر أموال مملـكته لفازوا بدرجة الـكمال ، وانتظموا فى سلك الأقدمين من فحول الرجال ، وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحـكومة ، والحال أن

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٣٧٢ .

الحكومة إنما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة ، والغيرة ، والاجتهاد ... وكل من سار على الدرب وصل ، وإنما تكون المكافأة على تمام العمل[١] » .
ولكن دعوة رفاعة إلى إدخال العلوم العصرية فى الأزهر لم تصادف قبولاً فى عصره .

ومع دعوته إلى إدخال العلوم العصرية فى الأزهر ، كان يرى أن تقتبس مدارسنا الجديدة من المدارس الأجنبية المنشأة فى مصر ، ولهذا كانت روضة المدارس ، وناظرها رفاعة ، تنشر أخبار المدارس الأجنبيه[٢] ، وتنوه بجهودها فى التعليم ، ويزور رفاعة بعض هذه المدارس ، ويكتب فى الروضة تقريراً عنها ، وعن نظمها ويقف فى حفلتها خطيباً[٣] .

***

ونقل رفاعة فى كتابه تخليص الإبريز[٤] طريقة أهل باريس فى تعليم أطفالهم القراءة والكتابة ، وكيف يبدءونها بكتب عظيمة الحروف ، لتثبت صورها فى أذهان أطفالهم ، ثم يأتون بعدها بعدة ألفاظ لغوية ، من الأسماء والأفعال يحفظونها ، وينطقون بها كما ينبغى ، حتى تخرج لغتهم من الصغر صادقة الجودة ، ثم يذكرون عدة جمل سهلة التعقل ، تناسب الصغار ، ثم يتدرجون إلى أوصاف الحيوانات المعروفة ، ولا سيما تلك التى يتعلق الصغار باللعب بها ، ثم ينتقلون إلى نبذ صغيرة فى سلوك الأطفال وطاعة الوالدين ، ثم إلى نبذ فى علم الحساب ، حتى إذا انتهوا من ذلك بدءوا فى قراءة كتاب أهم منه . ويتعلم التلميذ فى النهار عدة دروس ، بين تاريخ ورسم ونحو وجغرافية وخط وغيرها . وأغلب الظن أن رفاعة كان يريد أن تقتبس من هذا النهج ، فى التأليف وتنوع البرنامج .

هذا ومما هو جدير بالذكر هنا أن رفاعة كان يقدر مهنة التعليم حق قدرها ، ويجل القائمين بأمرها حتى لقد كتب فى كتاب المرشد الأمين[٥] : « إن خير الناس وخير من يمشى على الأرض المعلمون » .

---

(١) المرجع السابق . (٢) راجع العدد السادس والعاشر من السنة الأولى .
(٣) راجع العدد العاشر للسنة الأولى من روضة المدارس .
(٤) ص ٣٦٦ . (٥) ص ١٤٦ .

# رأيه فى المرأة

نظر رفاعة ، فرأى المرأة « من أجمل صنع الله القدير ، قرينة الرجل فى الخلقة ، والمعينة له فى تدبير أمره ، والحافظة لأطفاله ، والساهرة على العناية بتدبير أمورهم ، والماسحة بيدها همومهم وآلامهم [١] ، ولكنها تمتاز عنه بجسم ألين وألطف شكلا ، لا يؤهلها لأن تشاركه الأشغال الشاقة ، كالحرث والحرب والركض [٢] ، وبنية جسمها على الرقة واللين ، توجب كونها ألطف من الرجل طبعاً وأرق حاشية ؛ فإذا انحرفت عن ذلك ، كان انحرافها ناشئاً من ظروف التربية والبيئة [٣] ، ولهذه البنية الرقيقة أيضاً ، كان من صفاتها الشفقة والرحمة والعطف والحنان والرفق واللين ، وكان عندها استعداد لأن تتنزه عن عوائد الرجال الخشنة كالغضب والحقد والبغضاء ، والشقاق ، وإنما أعظم ما فيهن الغيرة ، التى لا تكاد تخلو منها واحدة [٤] .

ذكر جميع ما يتعلق بالغيرة

واعتاضت المرأة عن بنيتها الضعيفة بقوة عقلها ، وحدة إحساسها وإدراكها ، وذلك مما يسد فى بعض الأحيان مسد المعارف التى تجهلها ، وتجعل حياة الأسرة مقبولة محتملة [٥] ، قال رفاعة : « فإذا كانت الأنثى مع عقلها الغريزىّ ذات معارف كافية ، وظرائف شافية ، زادها عقلها كمالا على ما تعرفه ، وبما فيها من الذكاء تدرك حقائق الإشارات ودقائق الكنايات ، ورقائق التوجيهات والتلميحات ، وتؤوّل المعنى الذى تسمعه بأحسن التأويلات والتوريات ، وتقتدر على التلميح والتعريض والتورية ، فى الخطابات والمحاورات [٦] » ، ولهذا رأى رفاعة أن تعلم الأدب حسن فى الرجال والنساء جميعاً ، ولكنه فى النساء أحسن ، لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية [٧] .

---

(١) المرشد الأمين ص ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٨ .
(٥) المرشد الأمين ص ٤٠ و ٤١ .
(٦) المرجع السابق ص ٤١ .
(٧) المصدر السابق ص ٤٨ .

وقرر رفاعة فى كتابه المرشد الأمين (١) ما للمرأة من الأثر فى دفع الرجل إلى العلا، وتطلعه إلى المجد، وتمسكه بمكارم الأخلاق، «فإن الرجل يتمنى دائماً نجاح أفعاله، وصلاح أشغاله، وثمرة مشروعه، ليعجب زوجته أو غيرها، لتشهد له بالفتوة والشجاعة والبراعة، فتطمح أنظار الرجل فى نجاحه وفلاحه وكسبه واغتنامه، إرضاء زوجته المحبوبة، وذوات قرابته من النساء، فهل من ميدان يسلكه الفتى من ميادين الفخار، وحلبة يسابق فيها الشهم أقرانه من حلبات الاعتبار، إلا ويلاحظ فيها الفرح ممن يهواها، فنجاحه دائماً مقرون باستحسان النساء، وربما كن معضدات لحماسته، ومهيجات لتنشيط جوده وسماحته، فإن الشهم يفرح كل الفرح، ويسر كل السرور، وتقر عينه متى بلغه استحسان ربات الحجال، لما صدر عنه من منتجات الأعمال، فهو يحب دائماً أن تكون له منزلة فى قلب من يهواها من النساء، فيتشبث دائماً بتجشم الأخطار، لبلوغ الأوطار، فتجده إذا تحرى الصدق والأمانة، أو حصل على كمال المعرفة لما فيه من ملكة الذكاء والفطنة أو نظم القصائد الطنانة الرنانة، أو اكتسب النصرة فى الحروب، أو اخترع شيئاً فى الصنائع والفنون طبق المرغوب، أو برع فى الأحكام الشرعية، والصناعة القضائية، أو أحسن الفتيا، فى الدرجة العليا، أو أتقن علم السلوك والأخلاق، أو سار حسن سيرته بممدوح صيته فى الآفاق، فلا تصدق لهجته، ولا تلوح بهجته، إلا إذا كان عند النساء بمكانة علية، وعقيدة قوية، فشهادتهن له شهادة عادلة، واعتقادهن فيه بحسن العمل تزكية فاضلة، وهذا ما يحمله على كمال الاجتهاد، وأن يزاول تحصيل المناقب الحميدة ليدرك مرامه، ويسكن من قلوب النساء فى صميم الفؤاد».

ويقرر كذلك ما منحته المرأة، من قوة تأثرها بما يحصل للرجل من فرح ونجاح، أو ألم ونكبة، وتلك القوة غريزية فيها، وهى من أجل ذلك تقتسم مع الرجل السعادة والشقاء، واليسر والعسر، ويشعر الرجل عند الضيق بعطف المرأة

---

(١) ص ٥٠.

وحبها ، فكأنها بهذا الخلق الحميد نفس ملكية ، ملهمة بالألطاف الخفية [١] ، كما خصها الله سبحانه بمتاعب المعاش ، ومباشرة فراش المرضى ، من الأزواج والأولاد وغيرهم ، وتخفيف الآلام والأسقام ، وجعل لها مقدرة على إخفاء التأثرات الوجدانية ، وهى تقدر فى ذلك على ما يعجز صناديد الرجال عن الصبر عليه [٢] .

ولما كانت المرأة مخلوقة للرجل ، وجب عليها منذ الصغر أن تتمرن على تحمل أعبائه وأثقاله ، وأن تكون مستعدة للصفح عن خلله ، فتسلك معه مسلك الحلم واللين والرفق ، فذلك أعود عليها بالمنفعة من سوء الخلق والعناد [٣] .

وربما كان رفاعة أول من نادى بتحرير المرأة من ربقة الجهل فى العصر الحديث ، ففى كتابه المرشد الأمين ، يدعو إلى أن تنال الفتاة حظها من العلم ، كما ينال الفتى ، مدعماً رأيه بأمور شتى :

أولها : ما للتعليم من أثر قوى فى إسعاد بيت الزوجية ، وحسن معاشرة الأزواج ، فالتعلم يخلق التناسب والتجانس بين الزوجين ، ويجعل المرأة أهلا لمشاركة الرجل فى الكلام ، وتبادل الرأى ، ويبعدها عن سخف العقل والطيش ، الذى ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لامرأة مثلها ، وإن حصول المرأة على العلوم والمعارف وثقافتها الممتازة أجمل صفات الكمال ، وأرفع قدراً عند الرجل من الجمال .

ثانيها : أن آداب الفتاة ومعارفها تؤثر كثيراً فى أخلاق أولادها ، فابنتها الصغيرة إذا رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب ، وضبط أمور البيت ، والاشتغال بتربية أولادها ، أحبت أن تقلدها فى ذلك على عكس ما إذا رأتها مقبلة على زينتها وتبرجها ، وإضاعة وقتها فى هذر الكلام ، والزيارات التى لا فائدة منها ، فإن البنت تشب مضياعة لوقتها ، منصرفة عن النهوض ببيتها .

ثالثها : أن العلم يهيىء للمرأة سبيل العمل ، فتتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، إذا دفعتها الحال إلى ذلك ، وهذا من شأنه أن يشغلها

(١) المرشد الأمين ص ٩٣ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ٥٥ .

التعليم
العلم

عن البطالة ، فإن فراغ يدها من العمل ، يشغل لسانها بالأباطيل وقلبها بالأهواء ، « فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال ، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ، ويشربون ، ويلبسون ، ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها ، وهكذا [1] » .

رابعها : أن التجربة قد قضت فى كثير من البلاد ، أن نفع تعليم البنت أكثر من ضرره ، بل إنه لا ضرر فيه أصلا .

خامسها : أنه قد روى فى كتب الأحاديث روايات كثيرة عن النساء ، وقد كان فى زمن رسول الله من يعلّم القراءة والكتابة من النساء للنساء .

وتعرض رفاعة لمن ينكر على المرأة حقها فى تعلم القراءة والكتابة ، فأبان أنه قد كان من أزواجه ، صلوات الله عليه من يقرأ ويكتب ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر ، ولم يعهد أن كثيراً من النساء قد ابتذل بسبب آدابه ومعارفه ، مع أن كثيراً من الرجال أضلهم التوغل فى المعارف ، وترتب على علومهم ما لا يحصى من الضلال [2] .

ودعوة رفاعة إلى تحرير المرأة من الجهل ، ترجع إلى ما قبل تأليف كتابه ، فإنه كان عضواً فى مجلس ديوان المدارس سنة ١٨٣٧م ، وهذا المجلس قد قدّر ما لتعليم المرأة من الفضل فى النهوض بالمجتمع المصرى ، فاقترح إدخال تعليم البنات فى مصر ، ولكنه لم يخرج الاقتراح إلى حيّز العمل فى عهد محمد على ، لأن المجتمع المصرى لم يكن يألف يومئذ تعليم البنات في المدارس ، فاكتفى محمد على بمدرسة الولادة ، لتخريج طائفة من القابلات المتعلمات [3] .

وقبل أن يفكر إسماعيل باشا فى إنشاء مدارس للبنات دعا ، رفاعة أولياء أمور الفتيات إلى تعليم بناتهم ما يليق بهنّ من القراءة وأمور الدين ، وكل ما ينفعهن

(١) المرشد الأمين ص ٦٦ .
(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها وما بعدها .
(٣) عصر محمد على ص ٤٩٤ .

من خياطة وتطريز (١) ، فإن سمحت الظروف للمرأة أن تتعلم ، كما فكر إسماعيل ، فلتنل حظها من العلم كالفتى ، وهو ما جاهر به فى كتاب المرشد الأمين .

* * *

هذه الدعوة التى جاهر بها رفاعة حمل لواءها من بعده قاسم أمين ، وقد تربى الرجلان تربيتهما النهائية فى فرنسا ، ورأيا المرأة الفرنسية وتقدمها ، ويكاد الرجلان يتفقان فى أن التربية العلمية للفتاة ، يجب أن تشبه التربية العلمية للفتى ، فقد كتب رفاعة موضوعاً فى كتابه المرشد الأمين ، عنونه بقوله : « مطلب أنه يحسن عدم الفرق فى تعليم البنين والبنات أصول المعارف الحسنة للتربية على حد سواء » (٢) ؛ وفصَّل قاسم أمين فى كتابه : المرأة الجديدة (٣) مذهبه فى أن الصَّواب ألا تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل .

ويتفقان فى أن للمرأة أن تتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال ، عند مساس الحاجة إليه ، ولذا كان من الواجب أن تتهيأ للنهوض بمثل هذا العبء (٤) ، ويعتقدان أن بعض المهن تصلح للمرأة وتجيدها ، كالخياطة والتطريز . يقول قاسم أمين : « يوجد حرفتان أودُّ أن تتوجه نحوهما تربية البنات عندنا ، الأولى صناعة تربية الأطفال وتعليمهم (٥) ... والحرفة الثانية هى صناعة الطب (٦) ... وكذلك يمكن للمرأة أن تشتغل بجميع الأعمال التى قوامها الترتيب والتنظيم ، ولا تحتاج إلى قوة العضل والأعصاب كالتجارة (٧) » .

وقف رفاعة فى دعوته إلى النهوض بالمرأة عند حد تعليمها ، أما قاسم أمين فلم يقف عند هذا الحد ، بل نادى بأن يكون للمرأة من الحرية ما للرجل ، فلها كما له ، أن تختلط بمن تشاء ، وضرب مثلا لفوائد هذه الحرية بالمرأة الغربية فقال : « كان

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٦٦ .
(٢) المرشد الأمين ص ٦٦ .
(٣) ص ١٥٦ وما يليها .
(٤) المرشد الأمين ص ٦٦ والمرأة الجديدة ص ١٠٩ .
(٥) المرأة الجديدة ص ١٠٥ .
(٦) المصدر السابق ص ١٠٦ .
(٧) المصدر السابق نفسه .

من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج ، ورأى غير رأى الزوج ، وأن تنتمى لحزب غير الحزب الذى ينتمى إليه الزوج ، والرجل فى كل ذلك ، يرى أن زوجته لها الحق فى أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها ، وأن تعيش بالطريقة التى تراها مستحسنة فى نظرها ، ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة ، ونرى هؤلاء الأمم فى نمو مستمر ، ولم يحل بهم شىء من المصائب التى يهددنا بها أولئك الكتاب والفقهاء من قومنا ، الذين أطالوا الكلام فى شرح المضار التى تنتج عن إطلاق الحرية للنساء ، فكثيراً ما سمعنا منهم أن اختلاط الرجال بالنساء ، يؤدى إلى اختلاط الأنساب ، وأنه متى اختلطت الأنساب ، وقعت الأمة فى الهلاك [١] » .

أما موقف رفاعة من الاختلاط ، فإنه لم يتحدث عنه فى كتابه ، وإن كان يفهم ضمناً أنه يبيحه للضرورة ، عندما تضطر المرأة إلى النزول فى ميدان العمل كالرجل ، وهو ما أباحه لها رفاعة ، كما أنه أبدى إعجابه بالمنزل الفرنسى المنسق ، تزينه المرأة المثقفة ، ويكمل بحضورها الأنس [٢] ؛ فلعل رفاعة كان يبيح الاختلاط فى دائرة محدودة ، وعند الضرورة ، أما فى غير ذلك « فالطريق المغنية عن الغيرة ألا يدخل عليها الرجال ، وهى لا تخرج إلى السوق [٣] » والمفهوم من مجموع كلامه أنه لا يريد الاختلاط [٤] .

ولم يدع قاسم أمين إلى تعليم المرأة وحريتها فحسب ، ولكنه دعا إلى تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية [٥] ، التى أباحت للمرأة كشف وجهها وكفيها [٦] ، وقد رأى « أن الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء ، إلى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد غالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال ،

(١) المصدر السابق ص ٦٨ .
(٢) تخليص الإبريز ص ٨٧ .
(٣) المرشد الأمين ص ١٤٩ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٥) تحرير المرأة ص ٨٣ .
(٦) المصدر السابق ص ٧٥ .

حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات ، أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية . . . وبين هذين الطرفين وسط هو الحجاب الشرعى الذى أدعو إليه»[(١)] .

لم يتعرض رفاعة لحجاب المرأة ، ولم يدع إلى إزالته ، وإن كان يرى أن عفة النساء لا تأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعوُّد على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة ، والالتئام بين الزوجين[(٢)] .

وشنَّ قاسم أمين حربا شعواء ضدَّ تعدُّد الزَّوجات ، فلم يجزه إلاّ فى حالة الضرورة المطلقة ، أما فى غيرها فهو حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية ، وهو علامة تدل على فساد الأخلاق ، واختلال الحواس ، وشره فى طلب اللذائذ[(٣)] .

أما موقف رفاعة من ذلك فموقف المجيز ، بشرط العدل بين الزوجات ، وإن كان الأفضل الاقتصار على واحدة ، إذا لم تدع الحاجة إلى غيرها ، وما أورده من بعض القصص يوحى بشقاء من يؤثر تعدد الزوجات[(٤)] .

وتعرّض قاسم أمين للطلاق ، واقترح له نظاماً يحدُّ من سوء استخدامه ، حتى لا تتعرّض الأسرة وأفرادها للانهيار والتشرد ، ولم يتعرض لذلك رفاعة .

ومن تلك الموازنة يبدو أن دعوة رفاعة ، كانت دعوة محدودة إلى تعليم المرأة تعليما يراد به أوّلا وبالذات إسعاد الأسرة ، أما دعوة قاسم أمين فدعوة شاملة يراد بها إنهاض المرأة ورفع مستواها الاجتماعى ، تمهيداً للمساواة التامة بين الرجل والمرأة حتى فى الحقوق السياسية ، عندما تتهيأ المرأة لاستعمال هذه الحقوق[(٥)] ، فلا عجب إذا لم تثر دعوة رفاعة تلك الضجة ، التى أثارتها دعوة قاسم أمين ، فإنه مهما يكن من أمر المخالفين له فى شأن تعليم المرأة ، فإن صوتهم لابد أن يخفت أمام ضوء العلم ، وما

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥ .
(٢) تخليص الإبريز ص ٢١٣ .
(٣) تحرير المرأة ص ١٥٧ .
(٤) المرشد الأمين ص ١٤٩ .
(٥) المرأة الجديدة ص ٧٩ .

يسلّم به الناس من فضله وفوائده فى المجتمع ، ولهذا وجدت فكرة تعليم المرأة من ذلك الحين ، ترحيباً من الطبقات العالية ، فأخذت الأسر الكبيرة تعلّم بناتها فى المنازل ، على يد معلمين ومعلمات ، فظهرت طبقة من سلالة البيوت الكبيرة ، نالت حظاً وافراً من العلم والثقافة ، ومن هذه الطبقة ، نبغت الكاتبة الشاعرة عائشة هانم تيمور ، كريمة إسماعيل تيمور باشا ، من كبار الحكام فى عصر عباس وسعيد وإسماعيل[1] .

كانت دعوة قاسم أمين تجديدية شاملة ، يراد بها نقل المرأة من حياة راكدة ألفتها ، وألفها الشعب ، إلى حياة عاملة مشاركة مجدّدة ، وكان فى دعوته إلى التحرر من الحجاب ، وإلى حرية المرأة ، وإلى تعديل نظم الزواج والطلاق ما أثار عليه كثيراً من نفوس المحافظين ، مما دعا إلى مقابلة دعوته بما قوبلت به من اصطدام وضجة .

***

ولكى نكمل رأى رفاعة فى المرأة ، نراه يوافق الجمهور ، الذى لايرى السلطنة والملك والخلافة ، مما يجوز أن يكون لامرأة ، واختلفت تعليلاته لذلك ، فمرّة يقول : « النساء فى الغالب لايستطعن أن يتعلمن هذه المعارف الحكمية المهمة فى المملكة والسلطنة والخلافة ، حيث إن الخلافة التى هى الإمامة العظمى ، خلافة النبى ﷺ كانت من خصائص الرجال ، وكذا نياباتها فى الخطط الجسيمة[2] » ، ومرة يقول : « ولعل وجه عدم تولية النساء القضاء والإمامة والمناصب العامة كونهن عورة ، لايقدرن على مخالطة الرجال فى الوفاء بفروض المناصب العمومية[3] » .

***

---

(١) عصر محمد على ص ٤٩٤ .
(٢) المرشد الأمين ص ١٠٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٥ .

1. educati
2. pol. thought
3. women

## نظراته السياسية

نثر رفاعة نظراته السياسية فى كتب له عدَّة ، فتراها فى كتاب تخليص الإبريز ، والمرشد الأمين ، ومناهج الألباب المصرية ، وأنوار توفيق الجليـل ، يقصد فى بعضها إلى عرض نظراته قصداً للحديث عن السياسة ، وحيناً يأتى بتعليقات على مايرويه من سياسة الدول ، ومن ذلك كله نستطيع أن نتبين آراءه السياسية .

كان رفاعة ذا ميل فطرىّ إلى النظم الحرة ، والحياة السياسية المقيدة بالقوانين ، ويدلّنا على ذلك أمران : أولهما أنه ترجم دستور فرنسا الذى كان معمولاً به ، عند ما كان فى باريس ، وما أدخل عليه من تعديلات ، وكأنه بترجمته لهذا الدستور ، يرفع أمام بنى وطنه مثلا يقتدى به ، فى الحياة السياسية المثالية ، ولا سيما أنه ترجم هذا الدستور ، مبدياً رأيه فيه ، إذ قال : « ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد ، بحيث إن الحاكم هو الملك ، بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين[(1)] » ، ويبدو هذا الإعجاب من تعليقه على مواد هذا الدستور ، فعلّق على المادة الأولى منه ، وهى التى تنص على أن سائر الفرنسيس مستوون قدّام الشريعة بقوله : « معناه : سائر من يوجد فى بلاد فرنسا ، من رفيع ووضيع ، لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون ، حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادّة الأولى ، فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل ، وإسعاف المظلوم ، وإرضاء خاطر الفقير ، بأنه كالعظيم ، نظراً إلى إجراء الأحكام ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم فى

(١) تخليص الإبريز ص ٧٢ .

الآداب الحضرية[١] » ؛ وعلّق على المادة الثانية الخاصة بالمساواة فى الضرائب بقوله : « وأمّا المادة الثانية فإنها محض سياسة ، ويمكن أن يقال : إن الفِرَد[٢] ونحوها لو كانت مرتّبة فى بلاد الإسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس . . . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : الخراج عمود الملك[٣] » ؛ وعلى المادة الثالثة التى تنص على أن كل واحد من الفرنسيين متأهل لأخذ أى منصب كان ، وأى رتبة كانت ، فقال : « وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبداً ، بل من مزاياها أنها تحمل كل إنسان على تعهد تعلمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة[٤] » . وعلق على المادة الثامنة الخاصة بحرية الرّأى والنشر ، فقال : « وأما المادة الثامنة فإنها تقوّى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه ، وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره ، فيعلم الإنسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصاً الورقات المسماة بالجرنالات والكازيطات[٥] » . وعلق على المادة التاسعة التى تعد سائر الأملاك والأراضى حرما ، فلا يعتدى أحد على ملك آخر بقوله : « وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف ، وهى واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف[٦] » . وقال تعليقاً على المادة الخامسة عشرة ، وهى التى تنص على أن السلطة يتولاها الملك ومجلس النواب ومجلس النبلاء : « وفى المادة الخامسة عشرة نكتة لطيفة ، وهى أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الأولى الملك مع وزرائه ، والثانية مرتبة البيريّة المحامية للملك ، والثالثة مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية ، والمحامون عنهم حتى لا تظلم من أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة على لسانها ، كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها ، وعلى كل حال فهى

(١) تخليص الإبريز ص ٨٠ .

(٢) الضرائب — عصر محمد على ص ٤٨٠ .

(٣) تخليص الإبريز ص ٨٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٨١ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق ص ٨٢ .

مانعة للظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة منه بالكلية[١] .

وثانيهما ، تاريخه لتلك الثورة التى شبت فى فرنسا سنة ١٨٣٠ م ، عقب انتهاك هذا الدستور ، وقد أطال الحديث عن تلك الثورة ، التى شهدها فى باريس ، فإنك تلمس فى هذا التاريخ ، والتعليق على الثورة ، مبلغ عطفه عليها ، وإيمانه بعدالتها ؛ وقد قرر رفاعة أن أسباب هذه الثورة ترجع إلى رغبة الملك شارل العاشر فى مخالفة الدستور ، والعودة إلى التصرف المطلق ، والتعرض لحرية الرأى ، قال رفاعة يصف بعض مقدمات هذه الثورة : « من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة ، أنه لا يمنع إنسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ، ويكتبه ، ويطبعه ، بشرط ألا يضر ما فى القوانين ، فإن أضر به أزيل ، فلما كانت سنة ١٨٣٠ م ، وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها النهى عن أن يظهر الإنسان ، رأيه وأن يكتبه ، أو يطبعه إلا بشروط معينة ، خصوصاً ( للكازيطات ) اليومية ، فإنه لا بد في طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة ، فلا يظهر منها إلا ما يريد إظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون ، والقانون لا يصنع إلا باجتماع آراء ثلاثة : رأى الملك ورأى أهل ديوانى المشورة ، يعنى ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده ما لا ينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره ، وغير أيضاً فى هذه الاوامر شيئاً فى مجمع اختيار رسل العمالات ، يعنى في الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى باريس ، وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع ، مع أنه كان حقه ألا يفتحه إلا بعد اجتماعهم ، كما فعله فى المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين[٢] » .

وأدلى رفاعة برأيه فى موقف الملك من الثورة ، وأنه لم يقابلها بما يتفق مع الكياسة والسياسة والرياسة ، مما يدل على أن رفاعة كان يفضل أن ينهج الملك نهجاً دستوريا ، وأن يرد إلى الشعب حقوقه التى اغتصبها ، قال : « فلما اشتد الأمر ، وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة بحكما ، وجعل قائد

(١) تخليص الإبريز ص ٨٢ .

(٢) تخليص الإبريز ص ١٧٠ .

العسكر أميراً من أعداء الفرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة ، والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فإنه لو كان كذلك ، لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عسكره إلا جماعة عقلاء أحبابا له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه حيث أنزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم ، وبالحياء  والرّفق بالمذنب والإغضاء
إن لم تقل عثرة من يقال  يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى إعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حرّية ، لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لاسيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها ، وصارت عندهم من الصفات النفسية ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات ، وقد ألفوا بها  لها سنن يرعونها ، وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف عندهم  فذاك ثقيل عندهم وبغيض[1]

وعلق الرافعى على رأى رفاعة بقوله : « فتأمل فى هذا الكلام ، وتدبر معانيه ، واذكر أنه كتب سنة ١٨٣٠ م ،... تجد أنه كلام عليه طابع المبادىء الدستورية العصرية ، تتمشى فيه روح الحرية والديمقراطية ، ولا يصدر إلا عن نفس أشربت روح الأنفة والشعور بالحقوق القومية ، ولولم يكن رفاعة بك بمثل هذه الصفات ، لما صدر منه هذا القول ، بل أغلب الظن أنه كان يضرب صفحاً عما شاهده فى باريس من ثورة الشعب على الحكم الاستبدادى ، وما كانت هذه الثورة تترك فى نفسه من أثر ، سوى استنكار قيام الرعية على ولى الأمر[2] » .

وتأمل تعظيم رفاعة للافاييت أحد المدافعين عن الحرية ، فقد وصفه بقوله : « هذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويحامى عنها ، ويعظّم مثل الملوك ، بسبب

---

(١) تخليص الأبريز ص ١٧٢ .
(٢) عصر محمد على ص ٤٨٣ .

اتصافه بهذا الوصف ، وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى البوليتيقة[(١)] » مما يدل على تعظيم رفاعة للحرية وأبطالها .

والآن نعرض بعض ما عرضه رفاعة من الآراء :

## النظام العمرانى :

يحتاج العمران فى انتظامه إلى قوتين عظيمتين : إحداهما القوة الحاكمة التى عليها قوام الدين والدنيا ، فهى قطب مدار الأعمال ، وبدونها يختل نظام العالم ، فلولا هذه القوة ما قدر العالم على نشر علمه ، ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ، ولا الصانع على صناعته ، ولا التاجر على تجارته ، ولولاها لانقطعت السبل ، وتعطلت الثغور ، وتغالب الناس ، وطمع بعضهم فى بعض ، واستولى الأقوياء على الضعفاء ، وتمكن الأشرار من الأخيار ؛ والثانية هى القوة المحكومة ، وهى القوة الأهلية ، المحرزة لكمال الحرية ، والمتمتعة بالمنافع العمومية[(٢)] .

## السلطات الثلاث :

والقوة الحاكمة العمومية أمر مركزى ، تنبعث منه ثلاثة أشعة ، تسمى أركان الحكومة :

فالقوة الأولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها . والثانية قوة القضاء . والثالثة قوة التنفيذ للأحكام بعد حكم القضاة بها .

فهذه القوى الثلاث ترجع إلى قوة واحدة ، هى القوة الملوكية المشروطة بالقوانين ، لأن القوة القضائية إنما هى فى نفس الأمر راجعة للملك ؛ لأن القضاة نواب ولى الأمر ، كما أنه هو الذى ينسب إليه تقنين القوانين ، حيث يتوقف على أوامره تنظيمها وترتيبها ، وإجراء العمل بموجبها[(٣)] .

---

(١) تخليص الإبريز ص ١٧٤ .

(٢) مناهج الألباب المصرية ص ٣٤٨ و ٣٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٩ .

## الملك :

ولى الأمر ، وهو رئيس أمته ، وصاحب النفوذ الأول فى دولته ، ولكن رفاعة لا يميل إلى النظام الملكى الاستبدادى ، بل يرى أن يتصرف على موجب أحكام شرعية ، وأصول مضبوطة مرعية ، فهو يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب قوانين (١) .

وللملك حقوق وعليه واجبات : فمن حقوقه أنه خليفة الله فى أرضه ، وأن حسابه على ربه ، فليس مسئولا أمام أحد من رعاياه ، وإنما ينبه برفق ولين إلى ما عسى أن يكون قد غفل عنه ، من رجال الشرع والسياسة ، وأكبر رقيب عليه ضميره ، فهو قاض لا يقبل الرشوة ، فإذا فعل الملك ما لا يوافق أمته ، عاقبته نفسه ، لأن نور الحق يسطع فى القلب (٢) ؛ فالذمة حكم عدل ، ينفر من الظلم والجور ، وهى عنوان الخوف من الله ، فى كونها تحمل الملوك على العدل (٣) .

ومما يحملهم على العدل أيضاً ، ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العام ، أى رأى عموم أهل مملكتهم وغيرها ؛ فإن الملوك يستحون من اللوم العمومى ؛ وأنت ترى من هذا كيف عرف رفاعة للرأى العام قوته ، « فالرأى العمومى سلطان قاهر ، على قلوب الملوك والأكابر ، لا يتساهل فى حكمه ، ولا يهزل فى قضائه ، فويل لمن نفرت منه القلوب ، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب (٤) » .

وعرف رفاعة للتاريخ قوته فى حمل الملوك على العدل ، فإن المؤرخ يذكر للأمة أخبار ملوكها ، فيثبت محاسنهم ومثالبهم لأعقابهم ، ولذا يخاف الملك حكم هذا التاريخ ، فيؤدى واجبه أحسن أداء (٥) .

أما ذلك الواجب فأن يذكر فى كل وقت وحركة وسكنة أنه سبحانه وتعالى قد اختاره لرعاية الرعية ، وجعله ملكا عليهم ، لا مالكا لهم ، وراعياً لهم ، أى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٥٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٥٥ .
(٤) المرجع السابق نفسه .
(٥) المرجع السابق نفسه .

ضامناً لحسن غذائهم حسّا ومعنى لا آكلا لهم . وأن أول واجب عليه وضع الأشياء فى مواضعها ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والمساواة فى الإنصاف بميزان القوانين (١) ، كما أن من واجبه أن يحسن اختيار كبار معاونيه (٢) ، وأن يجتهد حتى ترضى عنه جميع رعيته (٣) .

والرعية طبقات متكاثرة ، وينبغى للملك أن يحسن تربيتهم على اختلاف طبقاتهم ، ويهذب أخلاقهم بالآداب الحسنة ، وأن يحمل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حرفهم جميع حقوقها ، وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يحل ، كالأوانى والأطواق واللجم والمناطق ، لئلا يضيق عليهم أمر المعاش (٤) .

وللملك على رعيته الطاعة الكاملة ، وإذا ظهر له عدو لزمهم معاونته ، « وإذا استقرضهم أقرضوه ، وإذا استعان بهم أعانوه ، وإن عدل فيهم مدحوه ، وإن ثقل عليهم شىء من أحكامه صبروا ، إلى أن يفتح الله لهم باب هدايته للخير ، وإرشاد دولته للعدل وزوال الضير ، ويسألون الله تعالى أن يرزقه بطانة ، أهل حكمة وشجاعة وعفة وعدالة (٥) .

ومن المزايا ( الملوكية ) ما يسمي حق الصفح عن الجانين ، أى أن له الحق فى الصفح عن العقوبة المترتبة على الجانى (٦) ، واللائق فى حقه ألا يتجاوز الحد فى حالتى العفو والعقاب ، « حفظاً لناموس الشريعة ، وصوناً لحدود الله من التعطيل ، ومحافظة على إبقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للأمن العام ، ومنعاً للتجرّى ، وتعدّى الناس بعضهم على بعض (٧) » . وصفح الملك عن الجانى لا يكون غالباً إلا فى ذنب الخوض فى الناموس الملوكى لا فى حق من حقوق العباد (٨) ، وصفح

(١) مناهج الألباب ص ٣٥٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٨ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٦٠ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٦٨ .
(٦) المرجع السابق نفسه .
(٧) المرجع السابق ص ٣٥٨ .
(٨) المرجع السابق ص ٣٥٩ .

الملك عن الجانى يمحو العقوبة ، ولا يمحو الذنب [1] .

## الحقوق المدنية :

وضحها رفاعة بأنها حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض ، وهى الأحكام التى تدور عليها المعاملات فى الحكومة ، وهذه الحقوق فى كتب الفقة ، هى : المعاملات ، والأنكحة ، والفرائض ، والوصايا والحدود والجنايات ، والدعاوى ، والبينات ، والأقضية .

فالحقوق المدنية هى حقوق أهل العمران بعضهم على بعض لحفظ أملاكهم وأموالهم ، ومنافعهم ، ونفوسهم ، وأعراضهم ، وما لهم ، وما عليهم .

## الحرية :

هى رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور ، ويتصف كل فرد بأنه حر ، إذا كان يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ، ومن جهة إلى جهة ، بدون مضايقة مضايق ، ولا إكراه مكره ، وأن يتصرف كما يشاء فى نفسه ، ووقته ، وشغله ، فلا يمنعه من ذلك إلا المانع المحدد بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة . ومن حقوق الحرية الأهلية ألا يجبر الإنسان على أن ينفى من بلده ، أو يعاقب فيها ، إلا بحكم شرعى أو سياسى مطابق لأصول مملكته ، وألا يضيق عليه فى التصرف فى ماله كما يشاء ، ولا يحجر عليه إلا بأحكام بلده ، وألا يكتم رأيه فى شىء ، بشرط ألا يخل ما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده [2] .

وقسم رفاعة الحرية خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية .

فالأولى ماخلقت مع الإنسان ، وطبع عليها ، فلا طاقة لقوته البشرية على دفعها ، من غير أن يعدَّ دافعها ظالماً : كالأكل ، والشرب ، والمشى ، مما يشترك فيه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٨ .

(٢) المرشد الأمين ص ١٢٧ .

جميع الأفراد ، ولا يستغنون عنه مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ، ولا على إخوانه ، فلا يجوز مثلا التخمة ولا أكل السموم .

والثانية هى حسن السلوك ، ومكارم الأخلاق ، والسير بما تقتضيه ذمة الإنسان ، وتطمئن إليه نفسه .

والحرية الدينية هى حرية العقيدة والرأى والمذهب ، ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية .

والحرية المدنية هى حقوق العباد والأهالى بعضهم على بعض ، فكأن الهيئة الاجتماعية تضامنت وتواطأت على أداء حقوق بعضهم لبعض ، وأن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين أن يساعدهم على فعلهم كل شىء لا يخالف شريعة البلاد ، وألا يعارضوه ، وأن ينكروا جميعاً على من يعارضه فى إجراء حريته ، بشرط ألا يتعدى حدود الأحكام .

والحرية السياسية هى تأمين الدولة لكل أحدمن أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية ، وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شىء منها ، فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية ، فكأن الحكومة بهذا ضمنت للانسان أن يسعد فيها ما دام متجنباً لإضرار إخوانه (١) .

والحرية هى الوسيلة العظمى لإسعاد أهل المملكة ، فكل عضو منهم يرخص له أن يتمتع بجميع مباحات المملكة ، فالتضييق عليه فيما يجوز له فعله بدون وجه مرعى ، يعد حرماناً له من حقه ، فمن منعه من ذلك بدون وجه ، سلب منه حق تمتعه المباح ، وبهذا كان معتديا على حقوقه ، ومخالفاً لأحكام وطنه (٢) .

وينبغى للحر أن يصرف حريته فى إكرام وطنه ، وإخوانه ، ورئيس دولته ، فلا يعد تكليف الحكومة له بجهاد الأعداء ، أو إعانة الحكومة على مصارفها ، من التعدى على حقوقه ، بل هذا من واجباته لوطنه ، وهو فى الحقيقة حماية للحرية (٣) .

ولا يتصف الوطنى بوصف الحرية ، إلا إذا كان منقاداً لقانون الوطن ، ومعيناً

---

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٨ .
(٣) المصدر نفسه .

على إجرائه ، فانقياده لأصول بلده ، يستلزم ضمناً ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية (١) .

وأعظم حرية فى المملكة المتمدنة حرية الفلاحة والتجارة والصناعة ، وقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية ، ولا يباح التضييق إلا إذا وجد ملوك المملكة أن رعاياهم ليسوا أهلا لها ، لعدم استكمال التربية الأهلية عندهم (٢) .

المساواه :

صفة طبيعية فى الإنسان ، تجعله فى جميع الحقوق البلدية كإخوانه ، لا فرق بين الشريف والمشروف ، والرئيس والمرءوس ، وحيث اشترك بنو الوطن فى الصفات الطبيعية ، لا يمكن أن ترفع هذه التسوية من بينهم فى الأحكام الوضعية ؛ ومن حيث إنهم يستوون فى الحقوق ، نتج من ذلك أنهم إذا وقعوا جميعاً فى خطر عام، وجب عليهم أن يتعاونوا فى إزالة هذا الخطر، لما فى إزالته من منفعتهم العمومية، وإذا وقع لوطنهم حادث ، وجب عليهم أن ينسوا امتيازاتهم المعنوية ، ويرجعوا إلى صفة التسوية ، وكل ملة تتخذ أصل قانونها التسوية فى الحقوق ، ويدومون على مراعاة هذه التسوية ، فإن حريتها توضع على أساس متين ، وتكون راسخة القواعد ، وتقوى على المدافعة عن بلادها ، وتحمى حقيقة وطنها ، وتدفع جور من جاوره من الممالك ، وهذه هى الأمة القوية الشوكة ، فى الداخل والخارج ، والمهابة عند الجميع .

والتسوية فى الحقوق تمكن الإنسان شرعاً من فعل ، أو نيل ، أو منع جميع ما يمكن سواه من إخوانه أن يفعله ، أو يناله ، أو يمنع منه شرعاً ، فكل إنسان يتصرف فى أملاكه وحقوقه تصرفا كتصرف الآخرين ، أيا ما كانت فى المملكة صفته : شرفاً أو ضعة ، ومن البديهى أن استواءه فى حقوقه مع غيره ، يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات ، لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى

(١) المرشد الأمين ص ٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٩ .

الواجبات ، فكما أن الإنسان يطلب أن يستوفى ماهوله ، فعليه أن يؤدى ما عليه . ومن أدى واجباته ، واستوفى حقه من غيره ، وكان دأبه ذلك اتصف بصفة العدل ، وهى صفة تبعث الإنسان على الاستقامة فى أقواله وأفعاله ، وأن ينتصف لنفسه ولغيره ، حتى جعله بعض الحكماء قاعدة لجميع الفضائل ، وأنه أساس التمدّن وأصل عمران الممالك التى لا يتم حسن تدبيرها إلا به [(١)] .

وقد أثنى رفاعة أعظم الثناء على الأمة الفرنسية لالتزامها قانون العدل ، حتى فى موقفها من محاكمة خصوم حريتها ودستورها [(٢)] .

## النظام النيابى :

وكان رفاعة معجباً بالنظام النيابى ، رآه فى فرنسا ، وعرف وظيفة النواب هناك ، وأنها « امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير ، والبحث عن إيراد الدولة ، ومدخولها ، ومصرفها ، والمنازعة فى ذلك والممانعة عن الرعية فى المكوس والفرد ( الضرائب ) وغيرها إبعاداً للظلم والجور [(٣)] » وعادة هذا المجلس أن يعمل كل شئ فيه برأى أكثريته [(٤)] .

ولشدة إعجابه بهذا النظام الدستورى عد أكبر عمل للخديو إسماعيل ، إنشاءه مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ م ، فقد قال ، يثنى عليه : « ليس من ملوك مصر من تفتخر به الأهالى مثل افتخارهم بالخديو الأكرم ، حيث إنه تأسس فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى ... ولو لم يكن له من المآثر إلا كونه حمل الأهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعية ، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية ، لكفاه ذلك شرفاً ومجدا ، وعزاً وسعدا ، حيث صار مستولياً على أمة حرة الرأى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لأجلهم ، كما أن له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم ، حيث جعله الله أميناً عليها ، فبهذه الوسيلة القوية

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٠ .
(٢) تخليص الإبريز ص ١٨٢ وما بعدها .
(٣) المرجع السابق ص ٧٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١٦٩ .

يتمكن من أداء ما وجب عليه فى حق الرعايا ، مع كونه يتمدح بالحكم على رعايا أحرار ، يتمتعون بحقوقهم ، ويحظون بمزاياهم ، وبهذا يكون على يقين من التسلطن المعنوى على النفوس والأرواح ، وأن يدرك بمساعدتهم إياه ، فى إسعاده لوطنهم تمام النجاح [١] » .

ومن النظم النيابية ، المجالس البلدية ، وبها تستطيع كل ناحية أن تستقل بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية ، وحال أهليها ، واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها ، تحت ظل الحكومة ، وحمد رفاعة لإسماعيل كذلك تأسيسه نظام هذه الدوائر البلدية ، فقال مرة أخرى : « فالحمد لله الذى وفق خديو مصر الأكرم ... بتأسيس نظامات الدوائر البلدية ، المبنى على تحرير رقاب أهالى النواحى من شبه الاستعباد ، فإن هذا لا محالة قوام الإنصاف والعدالة ، فإن من ملك أحراراً طائعين ، كان خيراً ممن ملك عبيداً مروعين ، ولا شك أن قلوب الرعية هي خزائن ملكها ، فما أودعه فيها فهو مستودع فى أنحاء مسالكها ، ولا يكون الملك العظيم القدر إلا بأهال دونه عظموه ، ولا تقوى قوته إلا برجال أطاعوه [٢] » .

## السياسة :

فنّ السياسة هى الأصول والأحكام التى بها إدارة المملكة ، قال رفاعة : « وتسمى فن الإدارة ، وتسمى أيضاً علم تدبير المملكة ، والبحث فى هذا العلم ، ودوران الألسن فيه ، والتحدث به ، والمنادمة عليه فى المجالس والمحافل ، والخوض فيه فى الغازيتّات ، كل ذلك يسمى ( بوليتيقة ) أى سياسة ، وينسب إليه ، فيقال بوليتيق أى سياسى ، فالبوليتيقة هى كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها [٣] » .

---

(١) مناهج الألباب المصرية ص ٣٢٣ .

(٢) مناهج الالباب المصرية ص ٤٣٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٠ وما يليها .

**الاشتغال بالسياسة :**

ينعى رفاعة على مناهج التعليم فى مصر قصورها من ناحية تعليم مبادىء الأمور السياسية والإدارية ، ومعرفة نتيجتها ، فهو يرى أن مبادئ العلوم الملكية السياسية مهملة بالنسبة لأبناء الأهالى ، مع أن تعليمها أيضاً لهم مما يناسب المصلحة العمومية ، فدراستها تطلع أبناء الشعب على أسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية ، من حسن الإدارة والسياسة ، فى مقابلة ما تدفعه الرعية من الأموال والرجال للحكومة ، وتطلعهم على أسباب إيجاب الحكومة على الأهالى أن تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى الجندية ، وأسباب إلزام الأهالى بدفع حصة من أموالهم للدولة ، أو أن يتنازلوا عن شىء من أملاكهم للمصلحة العمومية ، كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك ، فإذا ارتكز فى أذهان الصبيان من صغرهم أصول هذه السياسات وفروعها ، وفهموا الأسباب والمسببات سهل عليهم عند الكبر تنفيذها .

وهل هذا التعليم إلا إيقاف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم ، ليحافظوا على تلك الحقوق ، ويدفعوا من يعتدى عليها ، ولهذا يرى رفاعة أن يكون بكل ناحية معلم لفن السياسة ؛ لأن لهذا التعليم تأثيراً معنوياً فى تهذيب الأخلاق ، وبه يفهم بنو الوطن أن مصالحهم الخصوصية الشخصية لاتتم إلا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الوطن ، فتؤمن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست مضمونة الحصول إلا فى ضمن الفوائد العمومية .

وإذا كان تعلم السياسة ضروريا لكل فرد فى الأمة ، فهو أشد ضرورية لمن يستخدم فى عمل حكومى ، ولا سيما هؤلاء الذين يتولون مناصب المشيخة البلدية ، فهذا يستدعي سبق معرفة بأصولها ، وإلا ترتب على استخدام الجاهل بها من الأضرار مالا يخفى .

وختم رفاعة حديثه عن ضرورة دراسة السياسة والعناية بها بقوله : « من البديهى أن للانسان حقوقاً ، وعليه واجبات ، فطلبه لحقوقه ، وتأديته لواجباته على الوجه الأكمل ، يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات ، ومعرفتهما متوقفة على

فهمهما ، وفهمهما عبارة عن... السياسة[١] » ؛ ولعل رغبة رفاعة قد حققتها وزارة المعارف فى عصرنا هذا ، بتدريسها مبادىء التربية الوطنية فى مدارسها ، ليعرف أبناء الوطن حقوق وطنهم عليهم وواجباتهم نحوه ، وإن كنا لا زلنا نطمع فى المزيد .

politics is now taught in school

## بعض الأقوال فيه

ترجم لرفاعة ترجمة مطولة السيد صالح مجدى بك ، أحد تلامذته ، وكان معجباً به أيما إعجاب ، ومما كتبه عنه فى هـذه الترجمة قوله : « الأديب الأريب العلامة الثبت الثقة الحجة فى كل علم وفن . . . تفرّد بما حازه من المعارف ، حتى استظلّ منها وطنه تحت ظليل ظلّها الوارف ، وذلك بما حازه من رسوخ قدمه فى العلوم العربية ، وفى محاسن المعارف الأوربية الأجنبية ، فقد ترجم هذا الأستاذ الشهير إلى اللغة العربية من الفرنساوية ما انتفعت به سائر الأمصار ، وشهدت بأهميته لنفع محبّى العرفان من الكتب النافعة الجليلة التى كان صارفا فيها نقد عمره النفيس ، فى كل لحظة من لحظات حياته ، وله من المعرّبات فى علوم الطب والهندسة والحساب ما يعجز عنه سواه ، وتواليفه وتراجمه فى التوحيـد والنحو والمقالات والخطب والرسائل البـديعة من المنظوم والمنثور والآداب والسياسـة والأخلاق والتاريخ والجغرافية وفن العسكرية وغير ذلك من العلوم والفنون — كثيرة[٢] » .

وترجم له على مبارك فى كتابه الخطط الجديدة[٣] ، ودعاه الأمير الجليل ، وقال عنه . « إنه ما كان يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلا به » .

ومن ترجمة لويس شيخو اليسوعى فى كتابه[٤] له : « وكان رفاعة بك لا ينقطع يوما عن التأليف أو الترجمة ، وقد رأيناه كثير التصرف فى ترجمة كتبه ، إلا أنه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠ وما يليها .
(٢) حلية الزمن ص ٢ .
(٣) ج ١٣ س ٥٣ .
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ٨ و ٩ .

سبق أهل وطنه بتعريب التآليف الغربية فنال فضلا بتقدمه » .

وقال عنه السكندرى وزميله فى كتاب الوسيط[١] : « هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم ، شيخ الترجمة ، وإمام النهضة » .

وقال عنه الأمير عمر طوسون فى ترجمته[٢] تلك الجملة التى جعلناها فى صدر كتابنا : « هو أحد أركان النهضة العلمية العربية ، بل إمامها فى مصر » .

وقال الأستاذ حسن السندبى عنه فى ترجمته[٣] : « منحة من منح صاحب مصر محمد على باشا الكبير — على مصر ، ويد من أياديه الغر على لغة العرب ، وحياة الأدب ، فلولا محمد على ما عرف الناس من أمر رفاعة بك إلا أنه ذلك المجاور المنزوى بين أساطين الأزهر ، ولولا رفاعة بك ما عادت مصر إلى سالف عهدها وسابق مجدها ، وصارت كعبة العلماء ، ومهبط الكتاب والشعراء ، وما فاءت اللغة العربية إلى عصرها الأول عصر رفولها فى حلل العلوم والآداب ، فهو بما نقله إليها من نفائس الكتب وأعلاق الأسفار ، قد شيد بنيانها ، ودعم أركانها ، وهو وإن كان قد ضرب فى فنون العلوم والآداب بكل سهم نافذ ، إلا أنه اختصّ من ذلك بفن التاريخ وتحقيقاته ، وتمييز صحاحه من معتلاّته ، بحيث كان فيه الحجة التى لا تدفع ، والدليل الذى لا يرد ، أما الإنشاء فقد كان فيه بحيث لا ينظر فى أى قالب من التعبير جاء معناه ، وفى النّظم ظاهر الإجهاد بيّن المعاناة ، ومع هذا فقد خرّج رجالا اقتسموا جزور البيان ، واقتحموا ميادين البلاغة والتبيان ، فكانوا كالأنجم الزّهر ، فى سماء ذلك العصر » .

وقال عنه محمد الصادق حسين بك[٤] : « أبو نهضتنا الحديثة غير مدافع ، ولا منازع ، فلعله شيخ علمائها وأستاذ مترجميها ، وزعيم معلّميها ، وقدوة مؤلفيها ، وأغزر كتّابها مادة ، وأثبتهم إيمانا ، وأحبهم لوطنه ، وأسبقهم تنبهاً إلى نواحى نقصه ، ووصفاً لوسائل الرفع من شأنه . رفاعة من أولئكم الأفذاذ ، ذوى العقول

---

(١) ص ٣٢٧ .
(٢) البعثات العلمية ص ٤٧ .
(٣) أعلام البيان ص ٩٠ .
(٤) السياسة الأسبوعية — السبت ٢٨ مايو سنة ١٩٢٧ ص ٢٠ .

المنتجة الذين يوجدون وحاجة بلادهم إليهم جد ماسة ، يوجدون ليسدوا فراغا ليس من السهل تصور سدّه لولاهم » .

ووصفه خير الدين الزركلى بأنه من أركان نهضة مصر فى العصر الحديث[١] .

وقال عنه الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك[٢] : كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية وروحاً متوثبة ، وعزيمة ماضية ، وذكاء حاداً ، وشغفاً بالعلم ، وإخلاصاً للوطن وبنيه . . . استروح نسيم الثقافة الأوربية ، فزادت معارفه ، واتسعت مداركه ، ونفذت بصيرته ، لكنه احتفظ بشخصيته ، واستمسك بدينه وقوميته ، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها ، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة مهذب الفؤاد ، ماضى العزيمة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان . . . ملأ البلاد بمؤلفاته ومعرباته ، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر ، وحمل مصباح العلم والعرفان ، يضىء به أرجاء البلاد ، وينير به البصائر والأذهان ، وظل يحمله نيّفاً وأربعين سنة ، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية فى عصر محمد على ، وامتدت زعامته إلى عصر إسماعيل » .

وقال عنه الأستاذ أحمد عزت عبد الكريم[٣] : « درس فى الأزهر صدر شبابه ، وقرأ كتبه ، وعالج قضايا العلم والفقه والكلام ، وفكر بعقول شيوخه ، وأحس إحساسهم ، ونظر إلى الحياة نظرتهم ، ثم رحل إلى باريس شيخاً معمماً ، فاتسعت أمامه آفاق من التفكير جديدة ، ولاك لسانه لغة أجنبية ، وقرأ كتباً جديدة أظهرته على علوم جديدة ، ورأى نظماً فى الحكم جديدة ، وطرائق في السلوك الاجتماعى جديدة ، وعلى الجملة رأى عالما جديداً ، ولكنه لم ينس عاله الذى نشأ فيه ، وتربّى فى حجره ، ورضع من لبانه صبياً وفتى وشاباً ، وهنا تظهر قيمة رفاعة بك وخطره ، كإمام من أئمة النهضة العلمية فى مصر : فقد مزج بين هاتين الثقافتين مزجاً بديعاً ، وأخذ بالجميل والمفيد منهما ، وأصبح بذلك علماً على نضوج

---

(١) الأعلام ص ٣٢٣ .

(٢) عصر محمد على ص ٤٧٠ .

(٣) التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٨ .

الفكر ونفاذ البصيرة ، وقوة التجديد فى إيمان ورفق » .

وقال عنه الدكتور إبراهيم عبده[١] : « لم يكن لعلمنا الكبير نظير في آثاره ، فهو مربّى جيل المعلمين ، والمترجمين ، والصحفيين ، وهو صاحب النهضة فى الإنشاء والترجمة ، وهو أول من فكر فى المرأة وأنشأ عنها الفصول فى الصحف والكتب ، وله مؤلفات ضخمة فى عدة علوم ، بعضها تأليف وبعضها ترجمة ، وقد استحق الطهطاوى أن يوضع فى مقدمة رجال الفكر فى الشرق ، وأن يذكر كعلم من أعلامه الصحفية القمينين بالذكر والإعجاب » .

ومما قاله عنه كارادى ڤو[٢] Carra De Vaux « من أشهر شباب البعثات ، مؤرخ ومؤلف عدة كتب عربية ، وقد خلف لنا بوجه خاص عن المدة التى قضاها بباريس طالباً — ذكريات ساحرة ، جديرة أن توضع في موازنة ، مع رحلة السفير التركى محمد أفندى ، لفائدتها وجمال تفصيلاتها ؛ وقد تحدث فى هذه الذكريات بصدق ، وبسذاجة أحيانا ، خالطا نظراته الفلسفية والدينية بالشعر ؛ وإن الطريقة التى تحدث بها عن المسرح تدعنا نبتسم لأول وهلة ، فقد كان المسرح بالنسبة اليه وإلى بنى وطنه مجهولا تمام الجهل ، وبرغم ذلك فالوصف الذى جاء به مع سذاجته وصف رجل دقيق الملاحظة ، لايخلو من فلسفة . . . وبرغم تدين هذا الكاتب العبقرى وعقيدته ، فهم فلسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وتأثر بآراء العقليين تأثراً ربما كان أكثر مما ينبغى » .

وقال كلمنت إيوارت[٣] Clement Huart عنه : « أما مؤلفاته الابتكارية فكتاب رحلته وإقامته فى فرنسا ، ومنظوماته الحماسية الوطنية المصرية » .

ومما قاله عنه موريس شيمول Maurice Chemoul فى دائرة المعارف الإسلامية[٤] : « كان رفاعة أحد كبار كتاب العربية فى القرن التاسع عشر ، وقد ارتبط اسمه بالنهضة القيمة ، فى الحركة الأدبية والعلمية للشرق الحديث ، وبنفسيته

---

(١) أعلام الصحافة العربية ص ٤٩ .

(٢) Les Penseurs de L'Isiam. V. P. 236

(٣) Littérature Arabe P. 407

(٤) Jome 3. P. 1235

البحاثة ، وذكائه النادر ، خلف لنا عملا جديراً بالتقدير ، يعالج مختلف النواحى ، من تاريخ وجغرافيا ، وقواعد نحو ، وحقوق ، وأدب ، وطب ، وغير ذلك . ولكى نقدر الدور العظيم الذى قام به ، يجب أن نذكر أنه فى فجر هذا القرن الأخير ، كان العالم العربى يغط فى شبه نوم ، منفصلا من أوربا المثقفة بحجاب سميك ؛ ولم يكن فى هذه الظلمة التى تلف هذا العصر سوى ضوء خافت يشعه الأزهر ، فبفضل أعماله ونشاطه ، وبجحفل الفنيين والمترجمين الذين زين بهم البلاد ، تمت هذه المعجزة ، بإذاعة العلوم الأوربية ، وفتح أبواب الشرق للأفكار الحديثة ، وتهذيب عقول معاصريه ، وإيقاظ حماستهم الراقدة ، وتهيئة المستقبل ، ومن المستطاع تقدير ماتم من جهد ، إذا تذكرنا أنه قام هو وتلاميذه بترجمة مايقرب من ألفى كتاب إلى العربية والتركية ، ومن ناحية أخرى ، بتوسيع المحيط الضيق للغة القديمة الموروثة بالإحياء ، وبإمدادها بفيض من الألفاظ الجديدة ، فسمح للعقلية العربية بالتجديد ، وأن يعم نوره الإسلام فى الوقت الحاضر » .

## تخليد ذكراه

إن رجلا كرفاعة ، خدم بلاده فى حب وإخلاص ، وكرس جهوده على أن يجلب لها النور ، ويضع بين يديها وسائل المجد ، ويمدها بأسباب النهوض ، جدير بأن نعمل على تخليد ذكراه اعترافا منا بفضل المجاهدين ، حتى نحفز بهذا التخليد همم العاملين ، ونجعلهم يؤمنون بأنهم خالدون فى قلوب بنى وطنهم .

وإننى أتقدم باقتراحات عدة تفى بهذا التخليد :

أولها ،وضع جائزة باسمه ، يظفر بها من ينال أكبر درجة فى الترجمة بكلية الآداب ، تذكاراً للمترجم الأول فى عصر النهضة الحديثة .

وثانيها ، أن يطلق اسمه على إحدى قاعات كلية الآداب ، وإحدى قاعات كلية الحقوق وريثة مدرسة الألسن ، ولتكن قاعة كلية الآداب تلك التى يدرس فيها فن الترجمة ، وقاعة كلية الحقوق تلك التى تدرس فيها الشريعة الإسلامية ، فقد كان

فى مدرسة الألسن — كما ذكرنا — قسم تدرس فيه الشريعة ، ويتخرج فيه القضاة ، ويدرس فيه رفاعة ، ولطلبته أنّف بعض كتبه .

ثالثها ، لوحة رخامية تنقش عليها صورته الكريمة ، وتوضع بدار الكتب المصرية ، اعترافاً بالجميل لمن أمدّها هو وتلاميذه بمئات المؤلفات والمترجمات .

رابعها ، وضع صورة زيتية كبيرة فى قاعة المجمع اللغوى ، فقد قام الرجل بقدر مايستطع — بجهد مشكور ، بتطويع اللغة ، بعد أن أخلدت حقبة طويلة إلى النوم للعلوم الحديثة ، والمصطلحات الجديدة .

خامسها ، أن يسمى باسمه شارع فى طهطا مسقط رأسه ، وشارع فى العاصمة .

سادسها أن تقوم الوزارة بطبع بعض كتبه طبعاً متقنا على أحدث طرق النشر ، وأقترح أن يكون ذلك الكتاب رحلته إلى فرنسا ، لأن شخصية رفاعة تتجلى فى هذا الكتاب أعظم الجلاء .

---

# الخلاصـــة

بدأ رفاعة حياته طالباً أزهرياً ، وكان من الممكن أن تنتهى هذه الحياة ، كما تنتهى حياة الطالب الأزهرى ، مدرساً بالأزهر أو إماما . أما بذرة النبوغ فى التأليف — وقد ولدت معه — فكان من المحتمل إما أن تموت تحت وطأة تكاليف الحياة ، أو أن تتجه اتجاهاً أزهرياً خالصاً ؛ فتؤلف متناً ، أو تضع شرحاً ، أو تضيف حاشية ، من غير أن يكون لذلك كله إلا أضأل الأثر ، ولكن هذه النفسية الطموح ، لم تكد تجد أبواب العلم قد انفتحت أمامها ، حتى أقبلت على ينابيعه العذبة تنهل منها وتعل ، وصمم ، وهو فى مغتربه ، أن يعيد عهد الحضارة العباسية ، بنقل علوم الغرب إلى اللغة العربية ، وقد نجح إلى حد كبير فى نقل بعض كتب تلك العلوم ، وأشرف على نقل الكثير منها ، وكان من أوائل الرواد الذين نبهوا الأذهان إلى وجوب تنمية اللغة وإثرائها ، أما أهم ما عمله بعد عودته فالترجمة ، وانتقل من ذلك انتقالاً طبيعياً إلى التأليف . وكان من أهم خصائصه أنه يهب نفسه للعمل الذى تُلقى عليه أعباؤه ، تدريساً أو تأليفاً أو ترجمة ، وإذا كان ثمت أخطاء فى منهجه فى التأليف ، فالعيب فى ذلك عيب العصر ، الذى لم يجد أمامه من النماذج ما يمحو تلك العيوب . وخرج رفاعة جيلاً عمل أفراده بقدر ما أهلتهم ظروفهم واستعداداتهم ، ولاريب أن تلك الكتب التى ألفها أو ترجمها هو وتلاميذه ، هى التى مهدت الطريق ، وعلمت من جاء بعد رفاعة ، فاستمد من بحره ، ورفع البناء الذى وضع رفاعة أساسه .

وبعد فإنى أرجو أن أكون قد ألقيت بعض الضوء على هذه الشخصية ، التى عاشت للعمل ، ووهبت حياتها للوطن ، ورأت جهادها فى سبيل مجده واجباً ، ودعت بنى مصر إلى أن يبذلوا فى سبيلها كل جهد يرفعها إلى مكانها القديم . جزاه الله عما قدم أفضل الجزاء .

٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩ — أحمد أحمد بدوى

# مراجع البحث


إبراهيم عبده ( الدكتور ) :

١ — أعلام الصحافة العربية — مطبعة التوكل بالقاهرة سنة ١٩٤٤م .

٢ — تاريخ الوقائع المصرية — المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٤٢م .

٣ — تطور الصحافة المصرية — مطبعة التوكل بالقاهرة سنة ١٩٤٤م .

إبراهيم مصطفى المشهور بالبياع الصغير :

٤ — سياحة الهند ( مترجم ) — مطبعة بولاق سنة ١٢٩٥ هـ .

أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى :

٥ — الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه — الطبعة الثانية .

مطبعة المعارف بمصر سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١م) .

أحمد أمين بك ( الدكتور ) :

٦ — زعماء الإصلاح فى العصر الحديث — القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

أحمد حسن الرشيدى :

٧ — الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية — مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠١هـ.

أحمد حسن الزيات :

٨ — تاريخ الأدب العربى — القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ( ١٩٣٥ م ) .

أحمد عبيد الطهطاوى :

٩ — الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر (مترجم) بولاق سنة ١٢٦١هـ

أحمد عزت عبد الكريم :

١٠ — تاريخ التعليم فى عصر محمد على — نشر بمكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٣٨م.

١١ تاريخ التعليم فى مصر : فى عصر عباس وسعيد وإسماعيل ،

مطبعة النصر بمصر سنة ١٩٤٥م

إدورد فنديك :

١٢ — اكتفاء القنوع بما هو مطبوع — مطبعة التأليف بمصر سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٦م) .

أمين سامى باشا :

١٣ — التعليم فى مصر — مطبعة المعارف بمصر — سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م)

١٤ — تقويم النيل — المجلد الأول من الجزء الثالث — مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) .

بطرس البستانى :

١٥ — دائرة المعارف — الجزء الثامن — مطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٨٤م

جاك تاجر :

١٦ — حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر . طبع دار المعارف بمصر

جورجى زيدان :

١٧ — تاريخ آداب اللغة العربية — الجزء الرابع — الطبعة الثانية — مطبعة الهلال سنة ١٩٣٧ م .

١٨ — مجلة الهلال — السنة الثالثة ص ٤٤١ .

١٩ — مشاهير الشرق — الجزء الثانى .

مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م .

حسن الجبيلى :

٢٠ — برهان البيان وبيان البرهان ، فى استكمال واختلال دولة الرومان — مطبعة المدارس الملكية بالقاهرة .

حسن السندوبى :

٢١ — أعيان البيان — مطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ .

حسن قاسم :

٢٢ — تاريخ ملوك فرنسا — بولاق سنة ١٢٦٤ هـ .

خليفة محمود :

٢٣ — إتحاف الملوك الألبّا بتقدم الجمعيات فى أوربّا — بولاق سنة ١٢٥٨هـ

٢٤ — إتحاف ملوك الزمان بتاريخ إمبراطورية شارلكان — بولاق ١٢٦٦هـ

٢٥ — تنوير المشرق بعلم المنطق — بولاق سنة ١٢٥٤ هـ .

خليل محمود :

٢٦ — كنز البراعة فى مبادئ فن الزراعة .

خير الدين الزركلى :

٢٧ — الأعلام — المطبعة العربية بمصر سنة ١٣٤٥هـ ( ١٩٢٧م ) .

رفاعة الطهطاوى بك :

٢٨ — أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل — بولاق سنة ١٢٨٥هـ .

٢٩ — التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية — مطبعة المدارس سنة ١٢٨٦هـ.

٣٠ — تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز — بولاق سنة ١٢٦٥ هـ .

٣١ — تعريب قانون التجارة — بولاق سنة ١٢٨٥ هـ .

٣٢ — تعريب القانون الفرنساوى المدنى — بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

٣٣ — التعريبات الشافية لمريد الجغرافية — بولاق سنة ١٢٥٤ هـ .

٣٤ — الجغرافيا العمومية — الجزء الأول والثالث — بولاق .

٣٥ — جمال الأجرومية — بولاق سنة ١٢٨٠ هـ .

٣٦ — رسالة البدع المتقررة فى الشيع المتبربرة — نشرت بروضة المدارس مسلسلة ابتداء من العدد ١٣ ، الصادر فى ١٥ رجب سنة ١٢٨٧ هـ .

٣٧ — قصيدة وطنية فى مدح إسماعيل باشا : المطبعة الكاستلية سنة ١٢٨١هـ ( ١٨٦٥ م ) .

٣٨ — قصيدة مصرية وطنية أولها : يا جند مصر لكم فخار . . . بولاق سنة ١٢٧٢ هـ .

٣٩ — قصيدة مصرية وطنية أولها : ياسعد أتحف مسمعى بصبا الصباح . . بولاق سنة ١٢٧٢ هـ

٤٠ — قصيدة مصرية وطنية أولها : هيا نتحالف يا إخوان . . . بولاق سنة ١٢٧٢ هـ .

٤١ — قصيدة وطنية مصرية أولها : يا حزبنا قم بنا نسود . . . بولاق سنة ١٢٧٢هـ .

٤٢ — قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر ـ بولاق ١٢٤٩ هـ .

٤٣ — القول السديد فى الاجتهاد والتقليد ـ مطبعة وادى النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هـ .

٤٤ — الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة ـ بولاق ١٢٨٩ هـ .

٤٥ — مبادىء الهندسة ـ بولاق سنة ١٢٥٨ هـ .

٤٦ — مبادىء الهندسة ـ مراجعة برعى أفندى ـ بولاق سنة ١٢٧٠هـ .

٤٧ — مجلة روضة المدارس : السنوات ١٢٨٧ و١٢٨٨ و١٢٨٩ و ١٢٩٠ هـ.

٤٨ — المرشد الأمين للبنات والبنين ـ مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٨٩هـ.

٤٩ — المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق ـ بولاق سنة ١٢٤٨ هـ .

٥٠ — مقدمة وطنية مصرية ـ بولاق سنة ١٢٨٣ هـ .

٥١ — مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية . مطبعة شركة الرغائب بمصر سنة ١٣٣٠ هـ ( ١٩١٢ م )

٥٢ — مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك — المطبعة السورية ببيروت ١٨٦٧ م

٥٣ — نظم العقود فى كسر العود — مطبعة دونده دوبرى — باريس سنة ١٢٤٣ هـ .

٥٤ — نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز — مطبعة المدارس الملكية سنة ١٢٩١ هـ .

٥٥ — الوقائع المصرية .

سعد نعام :

٥٦ — سياحة فى أمريكا ـ بولاق سنة ١٢٦٢ هـ .

سليمان رصد الحنفى الزياتى :

٥٧ — كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ـ القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ .

صالح مجدى بك :

٥٨ — حلية الزمن بمناقب خادم الوطن ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٠٢٦ تاريخ .

٥٩ — ديوانه ـ بولاق سنة ١٣١١ هـ .

عبد الرحمن الجبرتى :

٦٠ — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .

عبد الرحمن الرافعى بك :

٦١ — عصر إسماعيل ـ جزءان ـ مطبعة النهضة بمصر سنة ١٣٥١ هـ . (١٩٣٢ م) .

٦٢ — عصر محمد على — الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ ( ١٩٣٠ م ) .

عبد الرحيم البرعى :

٦٣ — ديوانه — مطبعة البابى الحلبى بمصر سنة ١٢٣٨ هـ .

عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسى :

٦٤ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — بولاق سنة ١٢٧٤ هـ .

عبد الله حسين :

٦٥ — الصحافة والصحف — مطبعة النصر بمصر سنة ١٩٤٨ م .

عبد الله حسين المصرى :

٦٦ — تاريخ الفلاسفة — مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ

عبد الله أبو السعود :

٦٧ — الدرس المختصر المفيد فى علم الجغرافيا الجديد — مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٦ هـ .

٦٨ — نظم اللآلئ فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك — بولاق سنة ١٢٥٧ هـ .

على عبد الواحد وافى ( الدكتور ) :

٦٩ — لمحة فى تاريخ الأزهر — الطبعة الثانية سنة ١٣٥٥ هـ ( ١٩٣٦ م ) .

على فهمى رفاعة باشا :

٧٠ — تخميس قصيدة الشهاب محمود — مطبعة مصر سنة ١٣٠٩ هـ .

على مبارك باشا :

٧١ — الخطط الجديدة لمصر القاهرة — الجزء الثالث عشر — الطبعة الأولى بولاق سنة ١٣٠٥ هـ .

عمر الدسوقى :

٧٢ — فى الأدب الحديث — الجزء الأول — مطبعة الرسالة بالقاهرة ، سنة ١٣٦٧ هـ ( ١٩٤٨ م )

الأمير عمر طوسون :

٧٣ — البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد . مطبعة صلاح الدين بالإسكندرية سنة ١٩٣٤ م.

ابن فرح :

٧٤ — متن غرامى صحيح — مجموع المتــون — مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

فنلون Fénelon :

٧٥ — Les Aventures de Télémaque.

Paris : Librairie Hachette

فيلب دى طرازى :

٧٦ — تاريخ الصحافة العربية — المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩١٣ م .

قاسم أمين :

٧٧ — تحرير المرأة — طبعة ثانية على نفقة إبراهيم فاس صاحب المكتبة الشرقية .

٧٨ — المرأة الجديدة — مطبعة الشعب بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ( ١٩١١ م )

قسطاكى إلياس عطارة :

٧٩ — تاريخ تكوين الصحف المصرية — مطبعة التقدم بالإسكندرية سنة ١٩٢٨ م .

كارا دى ڤو Carra De Vaux :

٨٠ — Les Penseurs de L'Islam - Tom 5. Paris 1926.

كلمنت إيوارت Clément Huart :

٨١ — Littérature Arabe .

Paris : Librairie Armand Colin .

لاروس Larousse :

٨٢ — Nouveau Petit Larousse Illustré.

Paris. Librairie Larosse.

القسم التاريخى الجغرافى .

لانسون وتيفرو G. Lanson et P. Tuffrau :

٨٣ — Manuel Illustré d'Histoire de la Littérature Française. Librairie Hachette.

لويس شيخو اليسوعى :

٨٤ — الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٦ م .

محمد حسين هيكل باشا ( الدكتور ) :

٨٥ — تراجم مصرية وغربية — مطبعة السياسة — ديسمبر سنة ١٩٢٩م.

محمد بن داود الصنهاجى ( ابن آجروم ) :

٨٦ — متن الأجرومية -- مجموع المتون — مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

محمد شفيق غربال بك :

٨٧ — تقديم كتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

الناشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٣٨ م .

محمد الصادق حسين بك :

٨٨ — السياسة الأسبوعية — السنة الثانية — العدد ٦٤ ص ٢٠ .

محمد الصبان :

٨٩ — منظومة فى مصطلح الحديث — مجموع المتون — مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣١٩ هـ .

محمد عبد الفتاح :

٩٠ — تحفة القلم فى أمراض القدم — بولاق سنة ١٢٠٨ هـ .

محمد فؤاد شكرى ، وعبد المقصود العنانى ، وسيد محمد خليل :

٩١ — بناء دولة — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٦٧ هـ ( ١٩٤٨ م ) .

محمد فريد شكرى ( الدكتور ) :

٩٢ — تاريخ البعثات العلمية — مطبوع على الآلة الكاتبة سنة ١٩٣٨ م . بمكتبة وزارة المعارف رقم ١٢٠٧ — ١٢٠٨ تاريخ .

محمد مصطفى البياع :

٩٣ — مطالع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر — بولاق سنة ١٢٥٧ هـ محمود سمهان .

٩٤ — الصحافة — الطبعة الأولى — مصر سنة ١٣٥٨ هـ ( ١٩٣٩ م ) .

محمود بن عمر الزمخشرى .

٩٥ — أعجب العجب فى شرح لامية العرب — الطبعة الثانية — مصر سنة ١٣٢٤ هـ .

مصطفى سيد أحمد الزرابى :

٩٦ — قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون -- بولاق سنة ١٢٦٢ هـ .

مصطفى سيد أحمد الزرابى ، ومحمد عبد الرازق ، وعبد الله أبو السعود .

٩٧ -- بداية القدماء وهداية الحكماء — بولاق سنة ١٢٥٢ هـ .

موريس شيمول . Maurice Chemoul :

٩٨ — Encyclopedie De L'Islàm - Tome 3 - P. 1235.

Paris. Picard Editeur.

نجيب العقيق :

٩٩ — المستشرقون — دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٧ م .

يوسف إلياس سركيس :

١٠٠ — معجم المطبوعات العربية والمعربة — مطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٦ هـ . ( ١٩٢٨ م ) .

يوسف فرعون :

١٠١ — الكنز المختار فى كشف الأراضى والبحار — مطبعة الطوبجية بطرة سنة ١٢٥٠ هـ .

١٠٢ — التوضيح لألفاظ التشريح البيطرى — بولاق سنة ١٢٤٩ هـ .

يوسف محمد دسوق ، ومحمد كامل دسوق :

١٠٣ — الصحافة — مطبعة جريدة الصباح بمصر .

١٠٤ — مجلة مجمع اللغة العربية الملكى — الجزء الثالث — المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٧ م .



# فهرس الكتاب

# كتب المؤلف

## المطبوع :

١ — شاعر بنى حمدان .
٢ — رفاعة الطهطاوى بك .
٣ — من بلاغة القرآن .
٤ — ديوان المعتمد بن عبَّاد . ( جمع وتحقيق ، مع الأستاذ حامد عبدالمجيد )

## تحت الطبع :

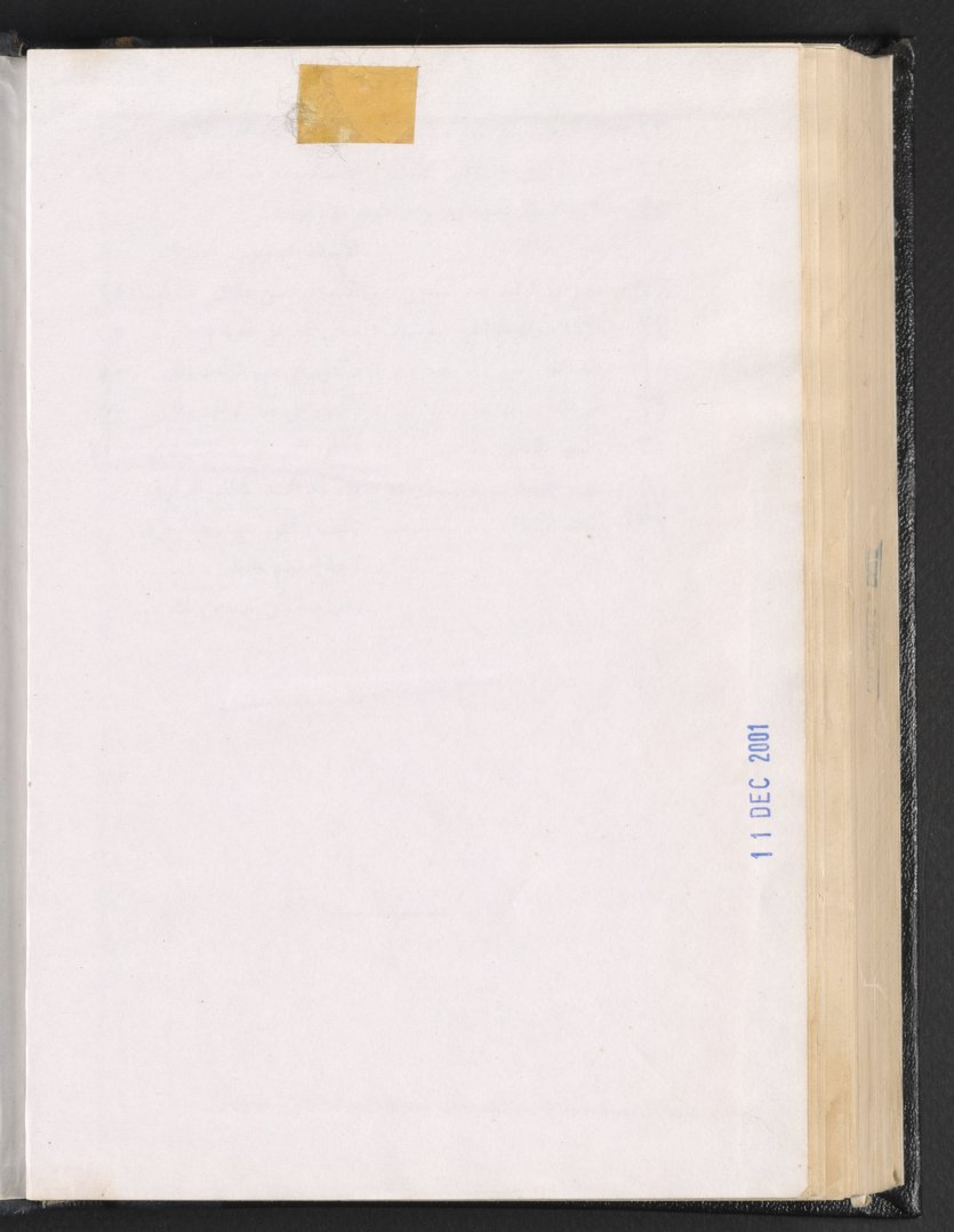
٥ — الحياة العقلية ، فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام .
٦ — ديوان المتنبي فى العالم العربى وعند المستشرقين .
( مترجم عن الفرنسية ، لمؤلفه المستشرق الدكتور بلاشير )
٧ — ديوان أسامة بن منقذ . ( تحقيق ، مع الأستاذ حامد عبد المجيد )
٨ — المطرب من أشعار أهل المغرب .
( تحقيق ، مع الأستاذين : إبراهيم الأبيارى ، وحامد عبد المجيد )

[ تم طبع كتاب « رفاعة الطهطاوى بك » فى مطبعة لجنة البيـــان العربى بالقاهرة فى يوم الأحد ١٧ رمضان سنة ١٣٦٩ الموافق ( ٢ يولية سنة ١٩٥٠ ) . والحمد لله أولاً وآخراً ]

رشيد محفوظ كامل
المدير الفنى للمطبعة

# قائمة مطبوعات اللجنة

٢٣ – أكسير الحياة ... ... ... : الدكتور محمود محمد سلامة ... ٢٠
٢٤ – دراسات فى علم النفس الأدبى : الأستاذ حامد عبد القادر ... ٣٠
٢٥ – التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض :
الأستاذ محمد رفعت أحمد بك ٥٠
٢٦ – مسلم بن الوليد ... ... ... : الأستاذ حسن علوان ... ... ٢٥
٢٧ – الإسلام والديمقراطية ... ... : معالى محمد على علوبة باشا ... ٥
٢٨ – فقه اللغة ... ... ... ... : دكتور على عبد الواحد وافى ٥٠
٢٩ – علم اللغة ... ... ... ... : دكتور على عبد الواحد وافى ٥٠
٣٠ – كيمياء المعادن ... ... ... : دكتور محمود يوسف الشواربي ١٠٠
٣١ – طب الطبيعة ... ... ... : الأستاذ محمد عاطف البرقوق
٣٢ – أحلام اليقظة ... ... ... : تأليف دكتور ج . هـ . جرين
ترجمة إبراهيم حافظ... ... ...
ومراجعة زكى المهندس بك ...


11 DEC 2001

